

أنوار البحتري

محاكمة فكر طه حسين

مراجعة كاملة لمؤلفات وكتابات طه حسين خلال
خمسين عاماً في مواجهة ردود أكثر من أربعين عالماً

دار الإحياء

**محاكمة
فكر طه حسين**



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي مَوَاطِنَ الدِّينِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَيُغَيِّرَ عِلْمَهُ وَتُحْذَرَهُمْ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ
وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن
فِتْنَةً أَذْنِيهِ وَقُرْءَانًا

(سورة لقمان آية ٦ ، ٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

مدخل إلى البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله
ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، وتستفتح بالذي هو خير :
أعتقد أنه ليس من الممكن أن نفهم الفكر الإسلامى المعاصر والتحديات
التي تواجهه وما يمر بالمجتمع الإسلامى من أحداث وأخطار وتحديات دون
أن نفهم هذه المرحلة الأساسية من الغزو الثقافى والتغريب ، والدور الذى قام
به هذا الجيل الذى احتضنته المعاهد الغربية التى أنشئت خاصة فى أوروبا
لإعداد دعاة من العرب يتولون عنها احتواء الشباب المسلم والعربى المثقف
وإخراجه من دينه وقيمه ومفاهيمه وإدخاله فى هذه البوتقة الغربية الخطيرة
التي يسمونها الفكر العالمى ، الفكر الحر ، الحضارة العالمية ، وقد كان الدكتور
طه حسين فى مقدمة هذا الفريق الذى التقطته هذه القوى فى هذه المرحلة
المبكرة قبل الحرب العالمية الأولى وفى الوقت الذى كان الغزو الثقافى الفرنسى
الذى تشكل منذ الحملة الفرنسية وإبان حكم محمد على وأولاده ما زال قائماً
والذى تولته الجامعة المصرية القديمة بأساتذتها المستشرقين الذين كانوا حريصين
على إغراء أمثال هؤلاء الذين عجزوا عن إتمام تعليمهم فى الأزهر فكانوا
— بالاتفاق مع صحافة حزب الأمة وجريدة (الجريدة) وعلى رأسها لطفى
السيد — حرياً على الأزهر والأزهريين فى منطلق جامع بين التعليم وعلى رأسه
سعد زغلول والصحافة وفى قيادتها لطفى السيد لفتح باب التغريب واسعاً .
وكان طه حسين من أعظم ثمار هذه المرحلة الخطيرة فكان أن عاد من أوروبا
عام ١٩١٩ فأنقضى حتى عام ١٩٧٢ أكثر من خمسين عاماً وهو يعمل فى الحقول
الثلاثة (الصحافة — التعليم — الثقافة) فأنحأ تلك الأبواب الواسعة فى مجال
الشعر والنثر والقصة والترجمة ومناهج المدارس وعلوم الجامعات ، والاتصال

بالأحزاب السياسية ، وكتابة السيرة ، وتاريخ الإسلام وتراجم الأعلام ، وطرح عشرات القضايا والشبهات والشكوك أمام دراسات الإسلام وتاريخه ، القرآن وقضاياها واللغة العربية ومهمتها ، والأدب العربي وعلاقته بالأدب الأجنبية من منطلق خطير هو منطلق التبعية الواضحة للفكر اليوناني في القديم والفكر الغربي في الحديث والمعاصر .

ومن خلال مدارس العلوم الاجتماعية التي يقودها اليهود في فرنسا ، إلى مدارس الاشتراكية والديمقراطية والفن للفن والوجودية والتبيل والرقص والحوار بين الإسلام والمسيحية .

هذه المرحلة التي سيطر فيها طه حسين على الأدب العربي والفكر والثقافة في مصر خلال أكثر من خمسين عاماً ، لا نستطيع أن ندرس واقعنا المعاصر اليوم ، في مجال الفكر والسياسة والاجتماع والتربية دون أن نتعرف إلى أبعاد الدور الذي قام به من خلال كتاباته وآثاره ومؤلفاته .

ونحن نتصور الدكتور طه حسين واقفاً أمام قصص الاتهام يواجه قوائم الاتهام تهمة بعد تهمة ، مستنداً على أساليبه الموسيقى الخادع ، وعلى منهجه الساخر الملى بالشك والارتياب ، وعلى طريقته الفاتمة على (التوجيه) و (المزاوغة) وقد اعتمد في كل ما قدمه على سرقات مفصولة من كتب المستشرقين وعلى دعوات كاذبة من كتب المبشرين ، وعلى آراء فجوة من كتب الشعوبية في سبيل إغراء ذلك الشباب المسلم الذي وقع فريسته سواء في الجامعة أم في الصحافة فإذا بالسهام تنال عليه تفضح خطته وتكشف زيفه وتلخص حجته .

ها هي عشرات الاتهامات وهولاً - هم القائلون عليها ، قضية بعد قضية وموقفاً بعد موقف وكتاباً بعد كتاب وقد تبدي للناس من وراء القضبان وقد غابت عنه القطنة لأن القطنة مع الحق وغاب عنه الذكاء لأن الذكاء مع الصدق وغاب عنه الإيمان ، وقد بدا وقد التمس به شيطان مرید يضل به الناس إلى حين .

وقد كان كثير من هؤلاء الذين يتهمونه اليوم تلاميذ له وسامعين ومدعين في أول الأمر ، ولكن الباطل قصير الأمد ، ضيق الطريق ، مغلق الوجهة ، وكان لا بد أن يتكشف الأمر عن الحق الذي لا يحصى عنه .

وما أردنا بهذا العمل إلا ما طلبه منا ربنا تبارك وتعالى ودعانا إليه ديننا الإسلامي ووجهنا إليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم في خالفهم حتى تقوم الساعة، وإن الأمر للجليل والأشد خطورة هو أمر هذه الأجيال التي ما زالت تقرأ كتب طه حسين وأمر الأمانة التي تحملها جميعاً أمام هذه الأجيال لأن نقول لها كلمة الحق، ولطالما سأل الباحثون في قضية من القضايا التي أثارها طه حسين: هل كتب في الرد عليها كاتب، وكان أغلب ذلك منشوراً في بطون الصحف والمجلات إلا قليلاً ممن جمعه أصحابه أمثال: فريد وجدي ولطفي جمعة والرافعي ومحمد عرفة والغمراوي، ولكن جاء من بعد ذلك جيل جديد فيه رصانة وقوة وإيمان فحمل اللواء وناضل وكانت مجلة الفتح ميداناً واسعاً لهذه المعارك، وكانت أقلام محب الدين الخطيب بعد رشيد رضا في المنار - ومحمد محمد حسين وشاكر الغمراوي سيوفاً باثرة من سيوف الحق تدحر الباطل وفي هذه المرحلة ظهرت أسماء عديدة .

* * *

ثم جاءت هذه المرحلة التي بدأت بظهور كتابنا (طه حسين: حياته وفكره في ميدان الإسلام) سنة ١٩٧٥ وهذه فترة لن نوزعها اليوم ولكننا نشير لإشارات يسيرة إلى ما ظهر فيها :

- ١ - ظهر كتاب (طه حسين مفكراً) للدكتور :
 - ٢ - ظهر كتاب (المتنبي) للأستاذ محمد دهمود محمد شاكر مجدداً وبمقدمة وافية :
 - ٣ - ظهر كتاب (مدخل إلى الأدب والتاريخ العربي) للدكتور محمد نجيب البهيتي .
 - ٤ - ظهر كتابات طه حسين في رأى المفكرين والأدباء للأستاذ محمد مهدي الأستاذبولي .
- كما كتبت عشرات المقالات والفصول التي كشفت جوانب حققة من هذه الشخصية المثيرة .
- ولكننا نعرف أنه لا يزال علينا مسئولية كبرى في تقديم طه حسين إلى محكمة

الرأى العام لتواجهه فى مختلف قضاياها ومؤلغاته قضية قضية وكتاباً كتاباً ونكشف هذه السموم ونجمع هذه الردود المتعددة وندل على مصادرها حتى يكون فكر طه حسين والرد عليه متكاملًا ، فى قدر واضح من العرض والإجابة ، وعلى من يطلب التفاصيل الراسعة فعليه بأن يعود إلى المصادر التى نشر فيها وبذلك يتحقق الهدف وهو تقديم القضايا الهامة التى حرد منها طه حسين على حقائق الإسلام والتاريخ والأدب العربى وحقيقة الأمر فيها والله الحمد والمنة على فضله فى حصر هذا العمل وإنجازه :

• • •

(٢)

عمل طه حسين فى ثلاث مجالات واسعة

عمل طه حسين فى ثلاثة مجالات واسعة :

١ - الأدب العربى واللغة .

٢ - تاريخ الإسلام والسيرة .

٣ - الفكر الإسلامى .

وفى المجالات الثلاثة أثار سموم الاستشراق وأفسد مفاهيم الأصالة وأحيا روح الشك الفلسفى ، وهدم جميع القيم الأخلاقية والاجتماعية التى أقامها الفكر الإسلامى .

وقد أطلق لنفسه سبيل الاندفاع لتشويه وجه الفكر الإسلامى بإثارة الشبهات وإذاعة أدب الختان والفساق والجنس ، وتزييف اللغة الفصحى ، وإعلاء شأن الفكر اليونانى القديم والغربى الحديث فى جوانبه المادية والثنية والإباحية وترجم القصص القرنسى الداعر .

وهو فى كل هذا كان عميلاً للتغريب خاضعاً للغرب تابعاً للنظريات الغربية وولياً من أولياء الاستشراق ، كان أول من نقل سموم مرجليوث فى الشعر الجاهلى وجولد سهر فى العقيدة والشرعة وبلاشير فى تدمير المتنبي ، ودور كايم فى تفريغ ابن خلدون .

وقد كان منهجه في عمله كله ، أن لا منهج : الفوضى والاستعلاء وإثارة الشكوك نحو الحقائق الأصلية والسخرية من كل القيم الأساسية .

وما ظنك برجل يدعى : أن الإسلام قد بقى على هامش حياة المسلمين .

وما ظنك برجل يدعى : أن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة ولم ينزل من السماء ، .

وما ظنك برجل يدعو طلبته إلى أن يتقنوا « القرآن » في جرأة بوصفه كتاباً أدبياً ، ويبيّنون ما يأخذونه عليه .

وما رأيك في رجل أعاد الأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها منها علماء المسلمين .

وما رأيك في رجل أولع بتعقب الزناة والفساق والقجرة كما وصفه الأستاذ المازني في كتاب حديث الأربعاء .

وما رأيك في رجل يقول : إن العصر الثاني للهجرة عصر شك وفسوق اعتماداً على وجود أمثال : (أبو نواس وبشار) فيه مع أن فيه عشرات من أعلام الفقه والعقيدة والعلم الإسلامى ، .

وما رأيك في رجل يدعونا أن نأخذ الحضارة الغربية خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب .

وما رأيك في رجل ينكر وجود (عبد الله بن سبأ) اليهودى في الفتنة التي انتهت بقتل سيدنا عثمان لإرضاء للصهيونية .

وما رأيك في رجل ينكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من أن القرآن قد ذكرهما .

وما رأيك في رجل يعتبر الفتح الإسلامى لمصر استعماراً كاستعمار الرومان والفرس والإنجليز .

• • •

مجموعة حقائق تقدمها سيرة طه حسين تكشف وجهته

أولاً : ازدواجية الشيء وضده في أعماقه :

يقول : إن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً في وقت واحد ، مؤمناً بضميره كافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن إلى الشيء ويطمئن إليه فيؤمن به ، أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبني .

هذا المفهوم أورده الدكتور طه حسين نقلاً عن كتاب اللاهوت الذين قالت لهم المسيحية : (آمن ثم ابحث) وليس من مفهوم الإسلام في شيء .

وقد طبق هذا المفهوم حين سئل عن قصة إبراهيم وإسماعيل وورودهما في القرآن الكريم فقالت : إنه كسلم لا يرتاب في وجودهما ولكنه كعالم لا يسلم بوجودهما .

وفي تصريح آخر قال أن هناك أربع مسائل يؤمن بها بصفته مسلماً ولا يقرها بصفته عالماً : وجود إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما ، والقراءات السبع للقرآن ، إن للإسلام سابقة وجود في البلاد العربية ، نسب النبي إلى أشراف قريش (في إجاباته في التحقيق مع النائب العام) .

ثانياً : القدرة على الجمع بين ظاهر معلن وباطن ومختف ، قال زكي مبارك : إن طه حسين اعترف أمامي في جلسة خاصة بأنه يعتقد أن أحمد شوقي هو أعظم شعراء العربية بعد المتنبي ولكنه في جميع كتاباته لا يقر هذا الرأي بل يعلن عكسه تماماً .

قال الدكتور محمد غلاب : ألا ترى أنه من الظلم حقاً أن تكون للنقاد عندنا في مصر عقيدتان مختلفتان وإيمانان متباينان ، واحد للكتابة في الصحف والثاني : للجلسات الخاصة ، وأن بواعث النقد عندنا ليست إلا أغراضاً شخصية ومآرب نفسية .

هذا التوزيع يجعل من طه حسين إنساناً مزدوج الشخصية مريضاً بما يشبه الانقسام يتعاش في شخصه عالمان منفصلان انفصال الزيت عن الماء .

الثالث : ظاهرة التزوي والمراوغة بين قول الشيء وضده :

وهي ظاهرة تجدها عند كل المشككين ودعاة الإلحاد أمثال : ابن عربي والمعري وطه حسين ، وهي محاولة قول أشياء معينة واضحة قويمية لتكون دعماً للدفاع عن النفس بإزاء الآراء المسمومة والأفكار المنحرفة ، ومن هذه الكلمات المصنوعة بعناية يجد الكاتب من يدافع عنه أو به يتخذه الذين يريدون أن يكشفوا زيفه فبالرغم من كل ما حمل لواءه ابن عربي من فساد في نظرية وحدة الوجود والحلول والاتحاد أو المعري في شكوكه وشبهاته وترديه في مفاهيم علم الأصنام اليوناني وطه حسين في دعاواه الباطلة فإنك تجد عند كل منهم عبارات رائعة تحاول أن تساير مفهوم الإيمان والأصالة .

• • •

(٤)

لقد حاولنا في هذا الكتاب تحقيق تلك الغاية التي تفوق كل الغايات وهي ما تناديها به (تبعة الأجيال) ومسئولية أمتنا إزاء ذلك الركام الضخم الذي ما زال بين أيدي الناس مطبوعاً ومنشوراً ، كان علينا أن نواجه المسئولية إزاء ما يحمله فكر طه حسين إزاء الأجيال المتعاقبة بعد أن مضى صاحبه وفكره ما زال مطروحاً بين أيدي الشباب بكل ما فيه من تناقض ومعموم وشكوك وشبهات ، لقد كان على الدكتور طه حسين أن يقف من هذا التراث موقفاً يسأل فيه من محكمة الرأي العام الإسلامي عن كل ما قدم وأن يعرف مسئولية الكلمة وأثر الكلمة في الأجيال ، كان عليه أن يعلن آراءه التي أسرى إلى بعض الناس أنه تجاوزها وهي ما تزال باقية في طبعتها تثير الشكوك والريب في صدور الشباب المسلم فكان علينا أن نوضح ذلك ونكشفه .

• • •

قرارات الاتهام المقدمة أمام محكمة رأى العام الإسلامى

- أولاً : القول ببشرية القرآن وإنكار القراءات .
- ثانياً : التناقض بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم وقوله :
إن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة
نفسها :
- ثالثاً : إثارة الشبهات حول ما أحماء القرآن الحكى والقرآن المدنى وهى
نظرية أعلنها اليهودى : جولد زيهير .
- رابعاً : تأييد القائلين بتحريق العرب الفاتحين لمكتبة الإسكندرية .
- خامساً : انتقاص صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفهم بأنهم
من الباسة المحترفين .
- سادساً : هدم الفصحى من ناحية الإملاء ومن ناحية النحو ومن ناحية
هدم البلاغة العربية .
- سابعاً : الحملة على الإسلام من خلال الأزهر وإهانتته والدعوة إلى إلغائه .
- ثامناً : الترويج للفكر الوثنى اليونانى والادعاء كذباً بأن المسلمين قبلوه
وشككوا عليه فكرهم .
- تاسعاً : إشاعة الأسطورة فى سيرة الرسول بعد أن نقاها المفكرون
المسلمون منها والتزيد فى هذه الإسرائيليات فى كتابه (على هامش السيرة) .
- عاشراً : تدمير بطولات العرب والإسلام وإعلاء بطولات اليونان والرومان
- حادى عشر : اعتماد المصادر المشبوهة : كالأغاني ورسائل الإخوان الصفا .
- ثانى عشر : إقرار مفاهيم كنسية حول الإسلام ووصفه بأنه دين
التراتبيل الوجدانية .
- ثالث عشر : إحياء التراث الزائف : تراث الباطنية والشك الفلسفى .
- رابع عشر : معارضة مادة الإسلام دين الدولة فى الدستور المصرى .

خامس عشر : الدعوة إلى الأدب المكشوف والإيجابي بإحياء شعراء الغلطة وترجمة القصص المكشوف .

سادس عشر : الدعوة إلى القرعونية والتركيز على إقليمية مصر .

سابع عشر : الدعوة إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط لحساب بعض القرى الأجنبية والادعاء بأن المصريين غريبو العقل والثقافة .

ثامن عشر : دعوى فصل الأدب عن الفكر الإسلامى واللغة عن الفكر الإسلامى والأدب العربى .

تاسع عشر : الدعوة إلى فصل الدين عن المجتمع والتربية .

عشرون : انتقاص الحكومة الإسلامية الأولى وخلافة الراشدين .

واحد وعشرون : اتهام القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون فى كتاب حديث الأربعاء .

ثانى وعشرون : كسر قاعدة ترابط الأدب العربى والفكر الإسلامى كقاعدة لدفع الأدب العربى إلى ساحة الإباحيات والشك وغيرها باسم تحريره من التأثير الدينى .

ثالث وعشرون : الدعوة إلى اقتباس الحضارة الغربية (حلوها ومرها وما محمد منها وما يعاب) فى كتابه (مستقبل الثقافة) .

رابع وعشرون : الولاء للفكر الفرنسى ثم الفكر الأمريكى .

خامس وعشرون : محاولة إعطاء اليهود فى الأدب العربى مكانة وهمية وغير حقيقية .

سادس وعشرون : إنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى وتبرئته مما أورده الطبرى ومؤرخو الإسلام من دور ضخم فى فتنه مقتل عثمان (الفتنة الكبرى) .

سابع وعشرون : إذاعة مذهب الشك الفلسفى والادعاء على ديكرارت .

ثامن وعشرون : إفساد مناهج التربية والتعليم فى وزارة التعليم والجامعات

تاسع وعشرون : الادعاء بأن الشاعر العربى المتنبي (لقيط) هادماً بطولته ومكانته .

ثلاثون : اتهامه الخطير لابن خلدون بالسذاجة والقصور وفساد المنهج وهو ما نقله عن أستاذه اليهودى (دوركايم) .

إحدى وثلاثون : إنكار وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وإنكار رحلتهم إلى الجزيرة العربية وإعادة بناء الكعبة على نفس مفاهيم الصهيونية .
هذه أبرز الشبهات التي أوردتها كتب الدكتور طه حسين وكتابات وقد واجهتها أقلام الكتاب في عصره مواجهة حاسمة وكشفت زيف هذه الادعاءات .
ولم يرجع الدكتور طه حسين عن رأى واحد منها ولا تزال هذه السموم باقية ومؤلفاته وكتبه متداولة ، ولقد هزم هذا الفكر الاستشراقى التيشيرى هزيمة منكروه وطه حسين ما يزال على قيد الحياة ، لقد ووجه طه حسين بالرفض والخاصة والانتقاص في فكره ، وحرقت كتبه في بعض العواصم العربية وأرسل إليه كثير من المفكرين بما يكشف عن زيفه وجاءت مؤتمرات تكريم ابن خلدون وكتابات تكريم المتنبي لتكشف فساد رأيه فيها وزيفه وضلاله .

الباب الأول

الأدب العربي واللغة العربية

- | | |
|------------------|--|
| الفصل الأول | : منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين . |
| الفصل الثاني | : الأدب العربي : تاريخه ونقده . |
| الفصل الثالث | : أدب المحان والجنس والإباحة (حديث الأربعاء) . |
| الفصل الرابع | : أخلاقية الأدب . |
| الفصل الخامس | : الترجمة . |
| الفصل السادس | : نقد الشعر . |
| الفصل السابع | : القصة . |
| الفصل الثامن | : اللغة العربية . |
| الفصل التاسع | : النحو . |
| الفصل العاشر | : الأثر الإغريقي اليوناني في الأدب العربي . |
| الفصل الحادي عشر | : كتابا (الشعر الجاهلي) و (الأدب الجاهلي) . |

الفصل الأول

منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين

يمكن تشكيل منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين في جملة عناصر أساسية أهمها :

أولاً : اعتماد المنهج التجريبي على الإنسانيات ودراسة الإنسان كما يدرس النبات وترتيب الشخصيات الإنسانية فيما بينها على نحو ما يصنع علماء النبات في ترتيب الفصائل النباتية المختلفة. (على النحو الذي سلكه الناقد الفرنسي سانت بيوف) ،
ثانياً : لا اعتبار للفرد أساساً : وإنما الفرد أثر من آثار الأمة التي نشأ فيها أو من آثار الجنس الذي نشأ فيه وأن أخلاقه وعاداته وملكاته هي نتيجة للمؤثرين الذين تخضع لها : المكان وما يتصل به من حالة الإقليم والجغرافيا ، الزمان وما يستتبع من الأحداث المختلفة سياسية أو اقتصادية ، فالكاتب أو الشاعر أثر من آثار الجنس أو البيئة والزمان وعن المؤثرات التي أحدثتها هذه العوامل يصدر الكاتب فيما كتب أو نظم (مفهوم الناقد الفرنسي تين) .
ثالثاً : إخضاع فنون الأدب لنظريات التشوؤ والارتقاء والتطور خضوع الكائن الحي ، (نظرية الناقد برونيتير) .

يقول الدكتور سامي الدروبي : إن منهج الدكتور طه حسين في النقد الأدبي هو المنهج الاجتماعي : منهج مدرسة الاجتماع الفرنسية وأعلامها من أمثال : دوركيم ولبني برييل وغيرهما ودوركيم ولبني برييل لا يغنون بالأدب إلا كرامة تلمع .

وهذه الأسس التي اعتمدها طه حسين منهجاً لمدحوضه فاسدة لعدة أمور :
الأول : إخضاع الإنسان والعلوم الإنسانية للعلم الطبيعي .

الثاني : تجاهل العناصر التي يتكون منها الكيان الإنساني وقصرها على الجوانب المادية وحدها وحجب عناصر المرواطف والمعنويات والروحانيات

وأثرها البالغ على تصرفات الإنسان .

الثالث : إنكار إرادة الإنسان ومسؤوليته الفردية وإخضاعه لجبرية جماعية لا تعفيه من المسؤولية والالتزام الأخلاقي .

الرابع : إدخال الآداب والعلوم الإنسانية في دائرة الفلسفة المادية الخاضعة لمفهوم الطبيعة التي لا تعترف بالخالق ولا تخضع له .

الخامس : فصل الأدب عن الفكر ومنتحه حرية مرفوضة للاندفاع نحو تصوير الغايات الشاذة والجنسية والإباحية وإنكار أخلاقيات الأدب والحياة والارتباط بالمفهوم العام الأصل الجامع .

السادس : فتح الطريق إلى الأهواء التي يخضع لها الكاتب والناقد والتي من شأنها أن تصدر أحكاماً جائرة وفاسدة .

ولقد رأى طه حسين أن مذهبه هذا الذي نقله من الأدب الفرنسي مع استمرار الزمن لم يعد صالحاً لعدة أسباب :

أولها : تغير النظريات العلمية مع الزمن .

ثانياً : إن التطبيق جرى في بيئة مختلفة تمام الاختلاف مع أدب له ذاته الخاصة التي شكلتها عقيدته وقيمه التي تختلف عن الأدب الفرنسي .

ولذلك فإنه كان دائماً يحاول الإضافة إليه والحذف منه في سبيل المواءمة مع النظريات المختلفة التي يطرحها العلم والفلسفة والتي يتكشف تغيرها واضطرابها لأنها ليست حقائق علمية بقدر ما هي فرضيات قابلة للصحة والخطأ .

هذا فضلاً عن الاختلاف العميق الواسع بين مفاهيم الأدب العربي الذي صنعه الإسلام الذي يتميز :

١ - بالربط بين القيم ويجعل الأدب جزء من الفكر الإسلامي .

٢ - يتميز بالتكافل الجامع بين قيم الروح والمادة والنفس والجسم والدنيا والآخرة .

وطه حسين في كل ما كتب لم يستطع أن يتخلص من الهوى ولم يستطع أن يقدم نقداً علمياً خالصاً ، ومواقفه من المعري والمنتبي في القديم وأحمد أمين ومصطفى الرافعي في الحديث تؤكد ذلك .

والأخطر من هذا كله أن طه حسين لم يكن تخصصه في الأدب وإنما هو

قد درس التاريخ الروماني في باريس، ولكنه حين كلف بتدريس الأدب العربي في الجامعة تكشف أمره عن عجز كبير، لم يستره إلا السطو على مؤلفات المستشرقين ولعل أقرب الناس إليه فهماً هو تلميذه زكي مبارك الذي صحبه سنوات طويلة حين يقول :

إنني أراه قليل الصلاحية للأستاذية في الأدب العربي لأن اطلاعه على الأدب ضئيل جداً ويعرف أنني أشهد له بالبراعة في تأليف الحكايات، إن من المعجب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام. إن كلية الآداب ستؤدى حسابها أمام التاريخ يوم يقول الناس إن أستاذية الأدب العربي كانت هيئة إلى هذا الحد، وطه حسين نفسه يشهد بصدق ما أقول. إن الأستاذية في الأدب العربي عبء ثقيل لا ينهض به إلا الأقليون، وهي تفرض الاطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب في خمسة عشر قرناً وهي تفرض البصر الناقد بأصول الأساليب وهي تفرض الفناء المطلق في التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء، وطه حسين ليس من كل أولئك في قليل أو كثير.

هذا رأى زكي مبارك في طه حسين وهو رأى قائم على معرفة واسعة عميقة مهما صحب إعلان هذا الرأى من تفجر الخلاف بينهما - يقول زكي مبارك في بحث آخر (١٧ مارس سنة ١٩٣٣ البلاغ - :

لقد صحبت هذا الباحث عشر سنين كانت خير ما مر بي من طيبات الحياة وعشنا معاً أياماً فيها الحلو والمر والشهد والصاب وجمعت بيننا ذكريات لا يمحدها إلا لثيم، لقد كتبت للبلاغ كلمة مسمومة عن الأغلاط الثلاثة التي وقعت في محاضراته عن شعر البحترى، وأرائى مع الأسف الموجه عائد إليه اليوم، ولقد لاحظنا أن الدكتور لم يدرس ديوان البحترى حق الدرس، هذا الكسل خطر جداً على مركز رجل كالدكتور طه حسين، فإن ديوان البحترى يقع في نحو ثمانمائة صفحة ولم يخرج القصائد التي عرض لنقدها عن الصفحات الأولى من ذلك الديوان، هذه الطريقة السطحية في وزن أقدار الشعراء لا تليق برجل كان رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب، ولو

تصفح الدكتور ديوان البحرى كله لكان له رأى فى شعره غير رأى الذى انتهى إليه من الوقوف عند المعانى والألفاظ .

وعن الدكتور أنه لم يقصد من تلك المحاضرات إلى الاستقصاء وإنما هى ساعة يتحدث فيها عن شاعر فيلهى سامعيه بحولات سريعة . ولقد ظلم الدكتور شعر البحرى ظالماً شديداً ومصدر هذا الظلم أنه وقف فى نقده عند الطريقة العتيقة فى النقد فأخذ يمتحن شعره بيتاً بيتاً .

وكان يجب أن يذهب فى نقد الشعر مذهب تلميذه صاحب نظرية الصور الشعرية فإن ذلك المذهب أصلح المذاهب لوزن قصائد الشعراء وهو مذهب يعتمد على نقد الغرض لا نقد المعنى ، وأهم الجوانب فى شعر البحرى هو الوصف ، وقد أغفل الدكتور هذا الجانب إغفالاً تاماً ولم يشر إليه بكلمة واحدة ، ولا أدرى كيف يتحدث الباحث عن شعر البحرى ويقلل أهم ميزة من ميزات ذلك الشاعر : فليت الدكتور طه حسين يعود إلى البحرى فينصفه ولا ريب أن هذه الشهادة تكشف بوضوح عن أن هوى طه حسين هو المتحكم وليس المذهب النقدى .

وقد أوغل طه حسين فى هذا الهوى أكثر وأكثر ، ذلك أنه ما إن كتب زكى مبارك يقول : « الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة ، حتى يعمد طه حسين إلى هذه الأغلاط ، فيشكلها فى كتابه الذى نشرت فيه المحاضرة ، ويقول زكى مبارك له : كأنك لا تعباً بأى نقد يوجه إليك فما الذى كان يمنع من تدارك هذه الأغلاط .

ويروى حادثاً آخر يؤكد هذه الوجهة الخاطئة :

حدث فى صيف عام ١٩٢٩ أن أنكرت على أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفنى من رسائل عبد الحميد بن يحيى وقلت لى : إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس ، وكانت حججتك أن عبد الحميد ابن يحيى لم يرد اسمه فى مؤلفات الجاحظ فرجعت إليك بعد أيام وأخبرتك أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة فلم تجب بحرف واحد ثم ألقيت - وأنا فى باريس - محاضرة قلت فيها : (إن عبد الحميد بن

بحي أخذ أشياء من أدب اليونان وفانك أن ينص على اسم الرجل الذي أقتنك بأنه لم يكن شخصية خرافية) .

وهذا مغمز آخر في افتراق طه حسين عن المنهج .

وبعضى زكى مبارك في كشف هذا الجانب الخطير في شخصية طه حسين :

قال :

الرجل يعيش في أبعائه عيش الحيران يتقضى اليوم ما أبرم بالأمس ، لأنه لا يصدر في أبعائه إلا عن المصادفات ولم يتفق له أن يشغل نفسه شغلا جدياً بعمل مفيد ، وهو يختطف كل ما يراه في طريقه من الآراء ، ولا سيما الآراء التي تصله من بلد بعيد ويستطيع أن يجزم بأنه لا يتشبع لأى فكرة إلا وهو فيها تبع لشخصية يتوهم أنها مستورة عن الناس ، ولكنه في هذا سئ الخط ففى مصر رجل يعرفه كما يعرف نفسه ، وهذا الرجل صاحب المستشرقين أكبر مما صاحب وهو يعرف من أقوالهم أكثر مما يعرف فليس بغريب أن ترى الدكتور طه مطوقاً بتهمة السرقة الأدبية في أغلب ما ينشر من آراء .

منذ سنين حاول أن يثبت أن العرب لم يكن لهم نثر فنى وأنهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل ، نشر هذا الكلام في مجلة المقتطف وسرقه من المسيو مرسيه فكشفت هذه السرقة في ترفق فغضب الرجل وأسرها في نفسه ، والحق أن الدكتور طه كان يأمن عواقب هذه السرقة الأدبية لأن كلام مسيو مرسيه كان قد نشر من زمان في مجلة مجهولة ينشر أن يهتم بها المصريون ، وهي المجلة الإفريقية التي تصدر بالفرنسية في مدينة الجزائر ولكن الله هداني إلى تلك المجلة فكشفت بها سرقة ذلك الأستاذ الأمين .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ أخذ الدكتور يراجع ويتقهرق في انتظام بديع وقد تنبه الدكتور طه إلى أن الشعوبية كان لهم دخل في تقديم الفرس على العرب ، ولو أنه شاء أن يفهم لعرف أن الشعوبية لا يزالون أحياء وأن لهم بقية تعيش في القرن العشرين ، ومن بقايا الشعوبية في القرن العشرين مسيو مرسيه الذى يقسول : بأن العرب لم يكونوا يعرفون النثر في الجاهلية ولا في صدر الإسلام وأن التفكير المنظم لم يجيئهم إلا عن طريق الفرس وأن

أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل ، وأنت يا دكتور طه شعوبي مقلد . . .) .

نقول : وهكذا نجد أن الدكتور طه لا يثبت أساساً على رأى ، فهو في موضع معين لإرضاء قوم معينين يثبت أن الفرس هم أصحاب الفضل على العرب ، وفي موضع ثان يدعى أن اليونان هم أصحاب الفضل ، المهم أن العرب عنده مدانون ، مقهورون ، ولو شاء أن يبتغي طريق الحق لعرف أولية العرب في هذه الفنون وفضلهم الذي استمدوه أساساً من القرآن الكريم .

ويقول زكي مبارك : (إن ما ذهب إليه مرسية وتبعه طه حسين من جهل العرب للنثر الفني حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، هو خطأ ، فليس صحيحاً أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأصباح الكهان والأمثال . ولقد كان العرب كلهم بروعة التعبير ولتعرّفهم في لحن القول) ولهذا كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم من جنس ما تميزوا به وهو بلاغة المنطق وروعة التعبير وساحر البيان ، نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة العظمى ، هو البيان هو الذي شد العرب فتطامنوا لبلاغته ، فالقرآن هو ذروة البيان العربي وقد نزل بلسان عربي مبين كما يصفه الله تعالى) .

ولأن طه حسين لم يتشكل في ضوء بلاغة القرآن الكريم ولم يعرف أبعادها وآثارها في الأدب العربي والفكر الإسلامي أساساً ، وإنما عرف منهج الغرب في نقد الأدب العربي والفكر الإسلامي ، وهو المنهج القائم على أساس الإنبيات بكل الوسائل إنهما متأثران بالفكر اليوناني والفارسي ، فإنه لم يستطع أن يعرف كيف يواجه التراث الإسلامي مواجهة حقيقية أصيلة ، فقد خدع بنظرية المستشرقين التي يقول : إن الفكر الإسلامي تأثر بالأدب اليوناني القديم فلا بأس في أن يتأثر الفكر الإسلامي في الحديث بالفكر الغربي وهي مسألة خاطئة الأساس لأن المسلمين لم يقبلوا الفكر اليوناني والفارسي وكل ما يتصل بالباطنية والمجوسية والفلسفة الغنوصية والتصوف الفلسفي ، كل هذا رفضه الفكر الإسلامي وقاومه وحلله ودحضه وكشف زيفه .

ولقد جاءت الدراسات في مواجهة التحدي الذي قام به طه حسين من غير تعرف على أبعاد الدعوى التي حملها بغير دليل ، لتكشف هذا الزيف

وفي مقدمتها دراسة الشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمود الخضرى وعلى أوسع نطاق الدكتور على سائى التشار .

وللذكور طه مقولة لم تلق قبولا وتلك هى قولة إن الشعر ظهر قبل النثر ، وكيف يقال هذا والنثر سجية والشعر صناعة ، وكذلك قوله : إن أول عهد العرب بالبيان هو زمن الجاحظ ، وهى مقولة من ينكر على العرب بلاغتهم وبيانهم .

لقد انطلق الدكتور طه حسين فى مصر قبل أن يذهب إلى الغرب من نظرية الجبرية التاريخية فى رسالة عن آنى العلاء ، وبما جمعه من نلينو ، فلماذا ذهب إلى الغرب درس نظريات سانت نيف وأبيوليت سكين وحول يجتر وهم قادة النقد فى المدرسة الفرنسية وإلى جوارهم مدرسة العلوم الاجتماعية وقائدها دور كايم وزملاؤه ، ولا شك أن عرض نلينو لتاريخ الآداب العربية فيه كثير من القمط والظلم وفيه تعصب وحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام والقرآن فقد أغفل شعراء المدينة الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكذلك شعر المهاجرين والنساء الشواعر المسلمات وأهل كثرة الشعراء فى مكة والطائف .

وكل هذا يوحى بأمر واحد هو أنهم حاولوا إخضاع الأدب العربى والقرآن لمناهج الأدب الغربى وروحه الأساسية القائمة على المادية أساساً وعلى المسيحية ثانياً وعلى استعلاء الغرب المستعمر على العرب والمسلمين ، ومن هنا لا بد أن يوضع أديهم فى موضع الانتقاص .

وهذا منهج سار فيه طه حسين وزكى مبارك وغيرهم بلا استثناء مع اختلاف قليل فى هذه النظرية أو تلك ، ومن ذلك نظرية زكى مبارك بأن القرآن أثر جاهلى وأن العرب فى الجاهلية كانت لهم نهضة علمية وأدبية وسياسية كان الإسلام تاجاً لها وهو ما دحضه فريد وجدى وغيره (اقرأ المعارك الأدبية والمساجلات والمعارك الأدبية) .

ولقد حرص الدكتور طه حسين لضعف مراجعه وعدم صبره على البحث وعجزه عن فهم النصوص ، ولظروفه الخاصة أن يعتصم بمذهب قوامه الذوق بدعوى أن الذوق أصبح فى العصر الحديث علماً وقد لى هذا المذهب انتقاداً

شديداً وكشفت عن قصور بالغ في مجال الدراسة ووصفه العقاد بأنه مذهب لا صلاحية له ، يقول :

(إن النقد الذي لا مقياس له غير ذوق صاحبه ولا غاية له إلا أن يخرج بك من الكتاب بأثر يدعيه ولا يقبل المحاسبة فيه إنما هو ثرثرة لا خير فيها وكثيراً ما ذكرتني طريقة هذه الطائفة الناقدة بخطابة جنحاً حين قيل له : كم عدد نجوم السماء ؟ فقال لهم : عدد شعر رأسى ، فقالوا له : هذا غير صحيح عليك البرهان ، قال : لا ، بل صحيح وعليكم أنتم البرهان ، عدوا النجوم وعدوا شعر رأسى وبينوا لى الفرق بين العددين إن كنتم صادقين (ساعات بين الكتب) .

ولقد حاول طه حسين بادعاء عريض أن يدعى أن ما قدمه هو المنهج العلمى وكلمة المنهج العلمى كلمة فضفاضة مضللة لأنها لا تقوم على أساس صحيح فعلى أساسها أنكر طه حسين وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من ذكرهما فى القرآن والتوراة .

وفى مجال دعوى العلم أنكر نزول الأدبان حين قال : إنها خرجت من الأرض كما خرجت الحياة نفسها ، والحقيقة أن هذا ليس هو العلم وإنما هذه هى الفلسفة المادية التى ادعى أصحابها أنهم أقاموها على أساس العلم ، بينما تغيرت المفاهيم بعد ذلك ولم تعد تطلق كلمة العلم إلا على العلم التجريبي وحده .

وقد ادعى طه حسين المنهج العلمى فى رسالة أبى العلاء التى أقامها على مفهوم مادى فلسفى يرى أن الإنسان أثر من آثار البيئة لا يكاد يفرق عن الحيوان والنبات فى انتفاء الحول وانعدام الإرادة .

فهو يقر الفكر الإسلامى بتلك الجبرية الضالة وكيف يمكن أن يكون الإنسان وهو صاحب الإرادة الحرة التى يتصرف بها ويمتلكها ويسأل عنها أن يوضع فى صف الحيوان والنبات ، الحقيقة أن هذا المذهب كان أثراً من آثار نظرية النشوء والارتقاء التى حاولت النزول بالإنسان عن مكانته الحقيقية وشبهته بالحيوان ، ثم جاءت الفلسفات المادية لتجعله غير مسئول عن شيء ، وإنما هو تابع للمجتمعات وواقع تحت رحمة القوى المحيطية به وأنه نتاج الوراثة والبيئة وهذا ما يرفضه الإسلام رفضاً تاماً ، وقد انحوت

المذاهب المادية عن ذلك من بعد وأعلنت أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تدرس بأسلوب العلوم التجريبية ، ومعنى هذا أن نظرية طه حسين سقطت سقوطاً ذريعاً وأن كل ما كتب في ضوءها من رسائل : فقد طبقه على :

ابن خلدون والمعري : طه حسين .
الأخلاق عند الغزالي : زكي مبارك .
عصر المسامون : أحمد فريد رفاعي .

كانت قائمة على أساس باطل زائف .

والحقيقة الأخرى أن الأستاذ صادق الراقعي قد كشف في كتابه عن الأدب العربي عن علم الرواية عند العرب وأوضح حدوده ، بحيث لا يخرج المنهج الحديث في دراسة النص عنه .

وقد حمل عليهم الراقعي حملة شعواء ، ورماهم بالقصور والتقصير وقال أنهم تنكبوا طريق العرب في الرواية والحفظ .

وأن ما قيل من أن ديكرارت قد أعلنه عن منهج الشك في طريق الإيمان — وليس الشك الفلسفي الزائف — قد تبين أنه مأخوذ من رسالة (المنقذ من الضلال) .

للإمام الغزالي ، وأن الأستاذ محمد فريد وجدي كشف عن زيف مذهب النشوء والارتقاء قبل أن يجيء الحفريات الأخيرة التي زيفت ما خاض فيه الماديون خلال مائة عام ، وقد تأثر بمذهب النشوء والارتقاء جرجي زيدان وشبلي سميل والزهاوي والعقاد وأحمد أمين وسلامة موسى وكثيرون .

ومن ثم فقد كان واضحاً أن ما قدمه طه حسين تحت اسم العلم والمنهج العلمي ليس إلا الفلسفة المادية الوضعية ، ومفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية التي قام عليها أصدقاؤه البورد (دور كايم وليني بريل) وأنها كانت محاولة لإخضاع الأدب العربي والفكر الإسلامي للتفسير المادي والوثني للتاريخ .

ومن ناحية أخرى فإن الدكتور طه حسين حريص على أن يقعد كل أنحائه في مجال الأدب العربي أو الفكر الإسلامي على مجموعة من الأباطيل والأضاليل يرددونها دائماً ويلوكها حتى تثبت في أذهان تلاميذه ومستمعيه :

أولاً : أن البيان العربي مكون من ثلاثة عناصر أحدها الفارسي (وهو

الذى يمثل البلاغة والظرف في القول والهيئة (والعنصر اليوناني المؤهل بالمعاني الخاصة من حيث دقتها والعلاقة بينها وبين الألفاظ ، والعنصر العربي (أى أن البيان العربي ليس بياناً عربياً خالصاً مستمداً من القرآن) .

ثانياً : الادعاء بأثر هليئي واضح في الأدب والكلام . وإن عبد القاهر الجرجاني هو تلميذ أرسطو .

ثالثاً : إن أرسطو هو المعلم الأول للمسلمين ليس في الفلسفة وحدها ولكنه إلى جانب ذلك معلماً في علم البيان .

وهذه الادعاءات الثلاث باطلة بطلاناً تاماً .

رابعاً : الإشادة بفضل المستشرقين على الأدب والفكر وعلى أمثاله حتى أنه ليرى أنه لم يفهم القرآن إلا من كازنوفا ، ولم يفهم الأدب إلا من نلينو .

• • •

الفصل الثاني

الأدب العربي . تأريخه ونقده

تولى الدكتور طه حسين تدريس الأدب العربي في كلية الآداب بالجامعة المصرية في أول إنشائها عام ١٩٢٥ وكان من قبل - في الجامعة القديمة - بعد عودته من أوروبا عام ١٩١٩ يدرس تاريخ اليونان والرومان وهي المادة التي درسها في فرنسا - ولذلك فقد كان العمل في ميدان الأدب جديداً عليه ولم تكن لديه الأدوات الحقيقية لهذه المادة . ومن هنا كانت كيواته وأخطاؤه ومناقضه . وهذا القول وإن بدا متجهماً فلأنها هي الحقيقة التي شهد بها كثير من تلاميذه وزملائه والدارسين في مجال الأدب العربي في الجامعة ودار العلوم والأزهر ، ومن أجل أن يفرض آراءه فإنه خاصم جماعة الأساتذة الذين كانوا قد سبقوه في هذا المجال وتمكن من إخراجهم من كلية الآداب ومنهم من ذهب إلى دار العلوم أمثال أحمد ضيف ، والدكتور العناني ، ومن ثم فقد خللا له الجور ففضى يقوم برسائله الحقيقية التي كان مكلفاً بالعمل بها ، وهي تزييف مفهوم النقد الأدبي وخلق روح السطو وإفساد منهج الكتابة الأدبية وخلق روح من التحلل والإباحة في مدرجات كلية الآداب (وهذا هو ما شهد به تلميذان من أقرب تلاميذه إليه وهما محمود شاكر) اقرأ مقدمة كتابه (المتنبي) ونجيب البهيبي في عدد من كتاباته وخاصة مقدمة كتابه عن الشعر العربي في العصر العباسي ومقدمة كتابه مدخل إلى التاريخ والأدب العربيين .

ونحن حين نستعرض آراءه هنا في الأدب العربي نجد ظاهرتين واضحتين : الأولى : هي التخطي والانتقال من رأى إلى رأى آخر حسبما تفرض الأهواء والظروف كالقول بأن الأدب العربي أخذ من الأدب الفارسي مرة ومن الأدب اليوناني مرة أخرى .

الثانية : روح التبعية والاعتماد على المناهج الغربية في تأريخ الأدب ونقده ، دون النظر إلى مدى الفوارق الواضحة بين الأدبين العربي والفرنسي . فضلاً عن اعتماد الأدب الفرنسي على نظرية الجبرية التاريخية ونظرية دارون التي تعتبر الإنسان حيواناً ، أو نظرية فرويد في الجنس ، ونظرية ماركس في التفسير المادى للتاريخ .

أولاً : تبين أن الآراء التي قدمها طه حسين في تأريخ الأدب ونقده لم تكن جديدة تماماً وإنما دعا إليها قبله بسنوات طويلة الدكتور أحمد ضيف وكل ما زاده الدكتور طه حسين عليها : ذلك الأسلوب من الاندفاع والعنف ، الذي يريد به إحداث الدوى .

ثانياً : الآراء المعروضة كلها مقتبسة من المستشرقين ، ومتقولة عن أدب آخر له ظروفه وأوضاعه ، وهو الأدب الفرنسي . وهى نظريات سانت ميث وأبيوليت تين وجول ليمتر ، وهى نظريات تحاكم الإنسان إلى مفهوم مادى ، ولا تؤمن باستقلالية العلوم الإنسانية فهي ترى أن الإنسان خاضع للجنس ولقمة العيش ، ولا ترى له تأثيراً بأى قيم معنوية أو روحية كما أنه يصدر في تصوره الإنسانى كله في عالم الأدب عن الجبرية المادية التي خضع لها منذ أول رسالة له عن أبي العلاء فقد اعتمد المذهب المادى في تفسير حياة الرجل .

ومرجع هذا إلى دروس جويدي ونلينو وملبوى وكازانوفا وماسينون ، سواء فيما تلقاه عن بعضهم في الجامعة المصرية القديمة أم في باريس .

ثالثاً : أعطى أهمية كبرى لما أسماه تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي (وهو ما ركز عليه طويلاً خدمة للصهيونية العالمية) وانتهى به إلى نتائج مضللة وهو أن للوثنية واليهودية والنصرانية تأثيراً على الشعر العربي وحاول في هذا أن يوجد فضلاً (مصطنعاً) لليهود على شعراء العرب .

رابعاً : عمد إلى إصدار الحكم على العصر العباسى من قراءة كتاب كالأغاني الذي لم يكن في نظر الباحثين مرجعاً أصيلاً لدراسة العصور الإسلامية ، وإنما هو كتاب ألفه شعوبى معروف جمع فيه أخبار المجان والشعراء العشاق وادعى في هذا الحكم على أن هذا العصر عصر فسق وفجور . اعتماداً على وجود أمثال

أى نواس وبشار والضحاك ناسيا ومتجاهلا عشرات من العلماء والحكماء وأهل الفضل .

خامساً : يرى فصل الأدب عن الإسلام (بوصفه حلاً جامعاً للقيم) باسم حرية الأدب ودعوته إلى إطلاق الأدب والشعر والفن من قيود التقديس وقيم الإسلام ، فلا يكون على الكاتب أو الشاعر أو الفنان من حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء ، وهو مذهب إباحي كان جزءاً من رسالته الإباحية والشعبوية عمد إلى إدخاله إلى الأدب العربي ، ومن خلاله أعلى شأن شعراء المخور والغلبة ، وقد عمل في هذا المجال عمليين :

١ - ابتعات الشعر الإباحي .

٢ - ترجم القصص الجنسي الغربي .

سادساً : نزعتة الشعبوية التي جعلته يعلى من شأن أمثال إخنران الصفا والملاحدة والشعوبيين ونشر أفكارهم .

سابعاً : دعوته إلى فصل اللغة العربية عن الإسلام بهدف تدمير رابطتها بالقرآن الكريم وإحياء العامية وتطوير النحر . . إلخ .

ثامناً : دعواه بأن البيان العربي نسجت خيوطه من البلاغة العربية في المسادة واللغة ومن البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة ومن البلاغة اليونانية في وجوب الملازمة في أجزاء العبارة .

تاسعاً : دعواه إلى دراسة تاريخ الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات .

ومن ثم فإن « المنهج الذي رجمه طه حسين لدراسة الأدب العربي » يقوم على :
أولاً : على خليط من آراء انتقائية متباينة أراد بها إخراج الأدب العربي من أصالته فهو لم ينشئ في دراسة الأدب العربي ونقده ولا في دراسة تاريخه مذهباً عربياً أصيلاً ، وإنما كان تابعاً للمذاهب الغربية فأخذ من دور كاسم منهجه في البحث التاريخي وطبقة على ابن خلدون ومن سانت بيغ اتجاهه وأبرزه في حديث الأربعاء وأخذ من بلاشير رأيه في المتنبي .

ثانياً : أعلى من شأن الأدب اليوناني القديم والفرنسي الحديث وأذاع جوانب معينة منهما تتعلق بالأدب المكشوف والإباحية .

ثالثاً : استعمل أسلوب الشك والسخرية والتهكم والتشكيك القائم على الظن والذي لم يعتمد على سند علمي صحيح ، وجعل النظرة الذاتية غالبية على النظرة العلمية .

رابعاً : هاجم صلة الأدب بالأخلاق ، وهي صلة أساسية عميقة وجذرية في الأدب العربي وفتح باب الحرية الجنسية في الأدب العربي الحديث على نحو لم يكن متقبلاً منه فترجم القصص الفرنسي المكشوف وأشعار بودلير وأولى اهتمامه لشخصيات أبي نواس وبشار وغيرهما من شعراء المجون .

• • •

(٢)

الأدب العربي وموقعه من الآداب العالمية

تناول الأدب العربي في موقعه من الآداب العالمية ، في عديد من دراسته ومحاضراته ، فلم يثبت فيها على رأى واحد ، وإنما تحول في اتجاه الريح .

كان الدكتور طه حسين يقول مرة : إن مناقب الأدب العربي ترجع إلى أصول فارسية ، ومرة يقول إنها ترجع إلى أصول يونانية ، ومرة يقول إن الأدب العربي كان قوة خطيرة بين الآداب القديمة وأنه استطاع بقرته أن يطارد أدب الفرس واليونان والرومان وقضى مرة بأن الأدب الذي يمثل المركز الأول بين الآداب القديمة هو الأدب اليوناني ثم يحىء الأدب العربي فيمثل المنزلة الثانية ، وأن الأدب العربي أقوى من الأدب الفارسي واللاتيني .

ومعنى هذا أن الدكتور طه لم يكن له رأى محدد ، وإنما كان يقول الشيء في مناسبه التي يبتغى بها إرضاء جهة ما من الجهات ، وعلى كل حال فإن الدكتور طه يرمى إلى أمرين أساسيين من كل كتاباته :

أولاً : يحاول أن يثبت تأثير الأدب العربي بالأدب اليوناني :

ثانياً : يحاول أن يعلى من شأن الأدب الفرنسي المعاصر على الأدب العربي الحديث ، ومن ذلك قوله في الحلال (نوفمبر سنة ١٩٢٧) .

الأدب العربي سطحي يقنع بالظواهر ، والأدب الفرنسي عميق دائم التغلغل وفيه وضوح وتحديد لا وجود لها في الأدب العربي ، والأدب الفرنسي إذا عالج موضوعاً ألم بالتفصيلات وهو مع ذلك لا ينسى الكل والمجموع ، أما الأدب العربي فيجتزى بأخذ وردة من البستان أو لون من الورد ولا يفكر في البستان .

والهدف معروف ، فهو يريد أن يرضى ساداته الفرنسيين بهذا الثناء ، ويريد أن يرضى الغربيين بتقديم الأدب اليوناني على الأدب العربي ، ومحاولة القول بالتأثير اليوناني في الأدب العربي ، وهي محاولة طويلة المدى حرص عليها حين وجه أمين الخولي إلى ما كتبه عن البلاغة العربية وفن القول الوافد ، وحين كتب أحمد الشايب في كتابه الأسلوب ، وهي قضية ضخمة من قضايا طه حسين ومحاولته فرض العقل اليوناني عن العقل العربي بدعوى عريضة باطلة قوامها أن العرب تأثروا باليونان وأرسطو في القديم ، مما يدعو إلى تأثرهم في الحديث بالأدب الغربي وتبعيتهم له ويتمثل هذا في أوسع صوره في مقاله (في العقل العربي الحديث)

يقول الدكتور زكي مبارك : لعل القراء يذكرون أن الدكتور طه أخذ يبدى ويعيد منذ سنين ليثبت أن العرب لم يكن عندهم (نثر فني) وأنهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل ، قال الدكتور طه حسين هذا الكلام ونشره في مجلة المقتطف وكننت أعرف أنه سرقة من المسيو مرسيه فكشفت تلك السرقة في ترفق فغضب الرجل وأسرها في نفسه ، وألحق أن الدكتور طه حسين كان يأمن عواقب تلك السرقة الأدبية لأن كلام المسيو مرسيه كان نشر من زمان في مجلة مجهولة ينذر أن يهتّم بها المصريون ، وهي المجلة الأفريقية التي تصدر بالفرنسية في مدينة الجزائر ، ولكن الله هداني إلى تلك المجلة فكشفت سرقة ذلك الأستاذ الأمين .

أوتعرفون ما الذي وقع بعد ذلك ؟ أخذ الدكتور طه حسين يتراجع ويتقهقر في انتظام بديع حتى ظهر كتاب ابن المعتز فيكتب كلاماً ينقض فيه ما بناه في سبع سنين .

(البلاغ في ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٥)

وهذا الكلام يعني تناقض طه حسين وعدم ثبوته على رأى واحد وإن كان الهدف الأساسي ما زال قائماً في نفسه يتحين الفرصة .

(١) فصلنا الرد عليها في الفصل الأخير من هذا البحث .

والهدف الأساسى هو : إخضاع الأدب العربى والبلاغة العربية للأدب اليونانى ، وهو هدف يحرص عليه الاستشراق ويحاول تأكيده بتصوير كل ما فى الأدب العربى والفكر الإسلامى من عناصر القوة وكأنها مستمدة من الفكر اليونانى ومن ذلك دعوته إلى بعث البلاغة العربية بحثاً يقوم على تفهم مرائى القدماء وعلى الموازنة والمقارنة ببلاغة اليونان ، وذلك فى بحثه (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر) الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين فى لندن عام ١٩٣١ ونشر مترجماً فى مقدمة كتاب نقد النثر بقلم عبد الحميد العبادى .

يقول الدكتور زكى مبارك متابعاً هذه القضية :

قرر طه حسين أن البيان العربى فى أول نشأته وفى عهد الجاحظ يبين منه ثلاثة عناصر مختلفة : وهى العنصر العربى والعنصر الفارسى والعنصر اليونانى . وقد بلغ ذروته على يد الشيخ عبد القادر الجرجاني ، ولم يتقدم بعده بل أخذ على العكس من ذلك فى التأخر والانحطاط .

والجديد فى هذا البحث أن الدكتور طه حسين أول من نبه إلى الأثر الهلنسى فى البلاغة وإلى أثر أرسطو فيها خاصة ، وبذلك قرر أن البيان العربى كان فى جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولاً وبالبيان اليونانى أخيراً ولم يكن أرسطو المعلم الأول للمسلمين والعرب فى الفلسفة وحدها ولكن إلى ذلك معلمهم الأول فى علم البيان ، وبالرغم من بطلان هذه الدعوى وفسادها فإن الدكتور طه استطاع أن يوجه بعض طلبته إلى هذه الوجهة .

ألف إبراهيم سلامة بحثاً فى (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) أثبت فيه ما ذكره الدكتور طه حسين وتلعب البلاغة العربية منذ الجاحظ متلمساً أثر أرسطو موضحاً فهم العرب لكتابى الخطابة والشعر وخرج بنتائج تحقق هذه الغاية المرجوة .

* * *

ويرد زكى مبارك على رأى الدكتور طه حسين فى مقدمة الأدب اليونانى على العربى فيقول أنه لا يتميز عنه إلا من الناحية القصصية ، أما الأدب العربى فإنه يأخذ المكان الأول فى الناحية الدينية ، وليس فى هذا غرابة فإن البلاغة الدينية باب مهم فى أبواب البلاغات فى الأدب القديم والحديث ، والمطلع

على الأدب العربي يراه يذخر ويفيض بأنواع البلاغة الدينية وقد شغل ملايين المسلمين شغلا موصولاً بأروع أثر من البلاغة الدينية ممثلاً في القرآن ، والسنة والأدب الصوفي ، أفيسطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا الصفاء في الجوانب الروحية .

ويشير إلى أن الأدب اليوناني كان أشد تأثيراً في الآداب الأوروبية الحديثة على نحو لم يكن للأدب العربي مثله ويرجع ذلك إلى طابعه الرصين :

ويقول : سكت الأوروبيون عن الأدب العربي عامدين لأنه يمثل الحضارة الإسلامية ، هي حضارة كانت أوروبا تبغى هدمها منذ أزمان ولأنه من وجهة ثانية مصبوغ في أكثر موضوعاته بصيغة الجد الرصين ، وأوروبا فتنت بما جاء في الأدب اليوناني من نزع وطيش وخلاعة ومجون ، ولا يخفى على الباحث المئز من الغرض الديني والقوي ، أن أول ما بلغت الناس إلى الأدب اليوناني هو ما فيه من الثورة أحياناً على التقاليد الدينية والأخلاقية والاجتماعية ، يضاف إلى هذا أن نقطة أوروبا الحديثة اتفق وجودها في أزمان كانت فيها الأمم العربية منحدرة إلى مهاوى الضعف والخور فلم تستطع أن تقدم أدبها إلى العالم تقدماً حسناً بصور ما كان له من روعة وجمال وبأق بعد ذلك سبب آخر له أهميته : ذلك أن العقل العربي يميل إلى الإيجاز في أكثر ضروب البيان ، فالأدب العربي في جوهه أدب صادق من حيث دلالاته على المعاني الإنسانية ولكنه لا يصلح لجميع الناس لما فيه من الميل الغالب إلى إيجاز الإيجاز .

على أن هناك ميزاناً أدق في تقديم الأدب ، فليس الأدب الأفضل هو ما يصلح لجميع الأمم في جميع العصور ، ولكن الأدب الأفضل هو الذي يغني أهله ، كما أن المنزل الأفضل هو الذي يسع ساكنيه ، ولو نظرنا إلى الأدب العربي هذه النظرة لوجدناه أغنى أهله كل الإغناء ، والجاحظ الذي رماه طه حسين بالإسراف مظلوم أشد الظلم ، فهو لم يكن مسرفاً لأنه فيما أعتقد لم يعتمد الغرض من الآداب الأجنبية ولكنه جرى في الطريق الذي جرى فيه أسلافه وكانوا يعتقدون أن أدبهم أصدق الآداب وأغناها وأجملها وأشرفها ، لأنه شغلهم بأنفسهم ، ومحاسنهم ومعانيهم . وحديثهم عن كل ما يحبون أن يتحدثوا عنه ، في جميع ضروب الحديث . فأغناهم في الجد والمأهم في المنزل وأمتهم في التشريع .

وحسب الأدب العربي قوة أنه فن أهله وفرض عليهم أن يظنوا مخطئين أن الشعر لا يوجد إلا في لغتهم وأن الحكمة لا توجد إلا عندهم ، وأن القول الفصل لا يتيسر إلا لخطابهم وحكايتهم وهذا النوع من الغرور هو دليل القوة عند جميع الناس في جميع الأجيال » .

فالدكتور طه حسين ليس مردداً لأقوال المستشرقين ولكنه داعية أصيل للفكر الغربي (قديمه اليوناني وحديثه الفرنسي) ، وليس الفكر العربي الإسلامي في تقديره سواء في ماضيه أو حاضره إلا تابعاً للفكر اليوناني ولا بد أن يكون تابعاً للفكر الغربي . هذه هي الرسالة التي يحمل لواءها ويعتقها ، وهو من أجل هذا يدعو إلى منهج في النقد الأدبي غريب ، هو أن ينسى الباحث قوميته وكل مشخصاته وينسى دينه . وكل ما يتصل به حين يعرض للبحث في الأدب وتاريخه .

وهو يدعي أن هذا المذهب هو مذهب العلم ومذهب الغرب ولكن الدلائل كلها تدل على أنه مبطل فيما يقول ، ولكن المرمى من هذا واضح ، هو أنه حين ينسى الأديب أو الباحث قوميته ودينه فإنه لن يكون له أي قدر من كيان الالتزام أو الانتهاء لا للوطن ولا للعقيدة ، وإذن فهو يمكن أن يكون علمانياً وعالمياً وداعية إلى كل ما يعارض دينه وقوميته ، وهو حينئذ لا يجد مجداً ينسب إليه أو ديناً يلتزم به وهذا ما عبر عنه طه حسين بعد ذلك حين قال سأجتهد في درس الأدب غير حافل بشمجيد العرب ولا مكترث بنصر الإسلام غير حافل بالغض من العرب ولا مكترث بالثني عن الإسلام .

وهكذا يكون طه حسين قد جرد الأديب العربي المسلم من كل قيمه والتزامه ، وبذلك يمكن أن يذوب سريعاً في العالمية الغربية أو الأهمية الماركسية وانسأل هل أمكن أن يكون هناك أديب غربي (فرنسياً أو إنجليزياً) تجرد من لغته وأمته وقوميته ودينه على هذا النحو !

إن الهدف هو التجرد من الإسلام ، ومن اللغة العربية ، وهذا ما يسميه طه حسين بالتقديم لأنه لم يستطع أن يواجهه صراحة ، فتخفى وراء هذا المصطلح .

وفيما يتصل بالتبعية للأدب الفرنسي فتلك كانت مدرسة تحاول أن تعلى

من شأن الفرنسيين ، في مواجهة مدرسة أخرى كانت تعلّم من شأن الأدب الإنجليزي ، ومن ذلك ما كتبه إبراهيم عبد القادر المازني في المصور يقول :
ورأي في الأدب الفرنسي أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقاً كالآداب الأخرى ، وقد استغز هذا (توفيق الحكيم) ليكتب مدافعاً عن الأدب الفرنسي وقد ظهرت توفيق الحكيم مدرسة بروت فكتب (المكشوف) ، (آزار سنة ١٩٤٤) يقول إن الأدب الفرنسي هو دائماً الأساس الذي قامت عليه الآداب الأوروبية كلها . وأن كل قسّات النهضة الفكرية في كل أدب من آداب أوروبا قد هبت من فرنسا ، إلخ .

ومما يذكر أن مصر شهدت صراعاً واسعاً بين الأدبين الفرنسي والإنجليزي وبين الثقافتين وبين التعليمين نتيجة لسيطرة البريطانيين على مصر .

والواقع أن طه حسين حين هاجم قيم الأدب العربي وشكك فيها إنما كان يريد أن يفسح المجال للوثنيات والأساطير اليونانية التي لم يقل هو مرة أنه يعرضها على مذهب الشك ، بل راح يزخرقها بأسلوبه ويدخلها في كتاباته حتى في كتابه (على هامش السيرة) حشاه بها ولم يدع كاتباً إباحياً في القديم أو الغرب أو اليونان إلا حدثنا عنه وترجم له ونقل لنا مفاهيم وسفاسفه (يودلير ، انجليوس ، أبو نواس) إلخ . .

• عقدنا فصلاً خاصاً عن الأدب اليوناني وعلاقته بالأدب العربي .

• • •

(٣)

إخضاع الأدب العربي لمناهج النقد الغربية

حاول طه حسين إخضاع منهج تاريخ الأدب ونقده إلى أساليب الغرب وأعلى من شأن نظريات (تين و بروننير وسانت نيف) التي سادت في فرنسا في القرن التاسع عشر وهي مذاهب كانت خاضعة للنظرية المادية التي انطلقت من نظرية دارون . وهي في مجموعها ترى أن الإنسان ما هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعي الواسع ولا يكاد فيها أن يفرق عن الحيوان والنبات في انتقاء الحلول وانعدام الإرادة .

ويرى تين : أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحاسيس والقلوبيات .

وهكذا نجد أن مذهب النقد الذي أذاعه طه حسين مناقض تماماً لمفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي والأدب العربي من حيث إلغاء الإرادة الفردية والالتزام الأخلاقي والتعرف من الإنسان من خلال جوانبه المادية وحدها وإنكار جوانبه الروحية المعنوية وعقائده وإيمانه وقدرته على التضحية في سبيلها .

ولقد أنزلت هذه المفاهيم الإنسان من مكانته التي قدرها له الإسلام والدين الحق ، وألغت مكانته الفردية وبطولاته ودفعته إلى حضيض يكون فيه أشبه بالحيوان الذي لا حول له ولا إرادة ومن ثم نظروا إليه على أنه شيء تافه جداً . وأنه عبد شهواته وأهوائه ، وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به .

وهذا المذهب الذي يقوم على الجبرية الذي اعتنقه طه حسين وأقام عليه أبحاثه كلها منذ كتابه عن أبي العلاء . . .

وهو المذهب الذي ينكر على الإنسان قدرته على تغيير الواقع وتحريك التاريخ وهو الذي يحاول أن يجعله ضحية البيئة والمجتمع وبذلك ينفي عنه المسئولية الفردية التي هي عماد الدين ، وكان ذلك كله متابعة لمدرسة العلوم الاجتماعية التي أقامها دور كايم وسيطرت على الآداب الأوروبية في هذه الفترة

والتي تفرع منها مذهب التحليل النفسي لفرويد ومذهب التفسير المادى (الاقتصادى) لماركس . . وكلها تلتقى عند هدف واحد هو إلغاء شخصية الإنسان وإرادته والزامه الأخلاقى ، وقد ردد طه حسين هذه المعانى كثيراً حين قال إن الإنسان ابن بيئته وأنه خاضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء وهى نظرية جامعة بين الحتمية التاريخية والجبر التاريخى الذى تلقاه من أساتذته اليهود فى السربون ، وقد خضعت كتاباته لهذا المذهب : وخاصة كتابه فى الأدب الجاهلى .

وقد تغيرت أفكار الغرب من بعد ، وظهر المذهب الذى يفصل بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ويقرر أن الإنسان بأهوائه ومطامحه لا يمكن أن يخضع للمذهب التجريب المادى وأن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تخضع للحتمية التاريخية أو الجبر التاريخى .

ومع ذلك فقد نشأت أجيال فى كلية الآداب على مفاهيم طه حسين هذه التى بشأ فى كتبه وما يزال كتابيه فى الأدب الجاهلى وعن أبى العلاء و هما يحملين بهذه السموم منشورة مذاعة .

وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور محمد أحمد الغمراوى حين قال :

يوسفى أن صاحب كتاب الأدب الجاهلى ومن لف لقه يسوقون الأدب العربى على غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسجه وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ويسوقونه فى نفس الطريق الذى ضل فيه الأدب الألمانى قرناً وبعض قرن . وما هى تلك الطريق التى يسوقون فيها الأدب العربى إلى طريق الافتتان بالأدب الفرنسى خاصة والغربى عامة ، لقد كان الدكتور طه حسين ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان هؤلاء الألمان فيقنوها فى غيرها ويضلواها عن نفسها ، فإذا أنت قرأت لهم رأيت تقليداً محتاً يعرض عليك باسم التجديد . والواقع أن الأدب العربى بأصالة وتاريخه المتصل بفجر الإسلام والمرتبط بمفاهيم القرآن ومنهجه الواسع الجامع المتكامل ، ليسوا فى حاجة إلى أن يخضع أديهم لمتهج غربى مادى انشطارى ، عرف الغرب فيما بعد أنه فاسد ومتهار .

إن مقولة طه حسين أنه يريد أن يدرس تاريخ الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعى ، علم الحيوان والنبات هى مقولة باطلة فاسدة ، لأنه لم يثبت

أبدأ في أى عصر أن الأدب يخضع لمنهج العلم الطبيعي وأن الغربيين أنفسهم هم الذين قالوا إن العلوم الإنسانية لا تخضع لمنهج العلوم الطبيعية فضلاً عن أن مفهومنا الإسلامى لا يقبل هذه المقولة الميظلة .

ويقول أحد الباحثين : إن طه حسين يقصد بالمنهج العلمى : المنهج الاجتماعى (الذى روج له البوردي دور كايم خدمة للصيرورية) والذى ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان اجتماعى ، ومن هنا يقول طه حسين على دراسة البيئة والعصر ، ولا يدرس البواعث النفسية للأديب التى تخفّره إلى نوع من السلوك دون نوع آخر ، وقد تبين خطأ استخدام المنهج العلمى التجريبي في مجال الدراسات الإنسانية ، فضلاً عما تبين من فساد منهج دور كايم الاجتماعى . فالإنسان ليس حيواناً اجتماعياً كما يقول أرسطو في السياسة ولا حيواناً مفكراً كما يقول أرسطو في المنطق .

• • •

ولقد كان السؤال المثار دائماً : هل طه حسين مدرس جامعى حقيقى وهل يملك الاداة الصحيحة للتربية والتعليم وقد أجاب عن هذا السؤال الأستاذ حسن البنا رحمه الله في مقال مطول نشرته (الفتح م ٥ سنة ١٣٤٩ هـ) حين قال :

إن المدرس ينظر إليه من جهات ثلاثة : من مواهبه الخاصة في المادة التى يدرسها ومن مادته التى يقدمها لتلاميذه وفي طريقته في التفكير وما يشته في نفوس طلبته من أخلاقه وطبائعه . والدكتور طه حسين منهم في ذلك جميعاً فهو لا يحسن الشعر ، وإن حاول ذلك أتى بالغث المتكلف الذى يمجج الطبع ويستثقله السمع على نمط لاميته التى يقول فيها :

مأى وما للبدن أطلب رده بسل ما لأفلاك السماء ومأى إلى آخر ما قال من هذا النظم المهلهل والتسيج المتنافر واللفظ الضئيل الغاية . وهو لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وقسته بما وضعه الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه ، أما في حشو القول والاتساع به وإطالته بالشدق والتهيق فالرجل في ذلك لا يشق له شغل وأعتبر في ذلك بما كان في قضية المعلمين وقصصهم التى كتب عنها في السياسة

فأعيدت القصة وذكرت القصة بضع مرات فيما لا يزيد على عشرة أسطر من أسطر الجريدة ، وما هو الناقد الذي يحسن النقد الصحيح . في الشعر والنثر ، وإن أحسن التهجين والتجريح والذم على غيره من الأدباء والكتاب وأن الذي يقرأ بيت شوقي في ميمته التي يقرظ فيها كتاب الأخلاق :

يا لطف أنت هوى الصدى من ذلك الصوت الرخيم

فنفهم أن الشاعر يقول أن أرسطو كان ذا صوت رخيم ويورد على ذلك أنه لا هو ولا شوقي سمع هذا الصوت ، ثم لا يترك في هذه الإشارة البليغة من عبوبة وجمال وتناسب لخرى به أن يدع الثقة لأهله وأن يعلم أن دعواه فيه كدعوى الحرب في زياد ، وبعد فليس الدكتور طه حسين متخصصاً بدراسة تاريخ العرب لم يتلقه عن أستاذ ولم يلم به في مدرسة ، وإنما علم من ذلك ما يعلّق بذمته من مطالعة كتب الأدب لا لتدرس ولكن ليراها وما نبّل الدكتور طه حسين إجازته في تاريخ اليونان أو تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده أقوى الدعاائم التي يستند إليها الكاتب إذا أراد أن يكتب في الأدب العربي فمن فائته روايته ودرأيته فقد فاته أسس البحث وبرايمه وسار على غير هدى .

ذلك من ناحية مواهب أستاذ الجامعة في الأدب العربي وتاريخه . أما من ناحية ما يقدمه لتلاميذه فمن أفكاره ، فقد كانت باكورة ذلك كتابه (في الشعر الجاهلي) وقد حكم عليه عقلاء الأمة وأدباؤها بالخطأ والخطأ وكشف المحققون من الأدباء الغطاء عن مغامز ومعايب فيه برأ منها العلم وأيد ذلك حكم القضاء .

أما طريقته في التفكير وما يثبته في نفوس طلبته من طبائعه وأخلاقه فما علم الناس من ذلك إلا الشك والخبرة والانسلاخ عن العقيدة والدين وتسمية ذلك منهجاً علمياً . وقد برهن العالم الضاليع مؤلف (النقد التحليلي) أن هذا الأسلوب ليس من المنهج العلمي في شيء .

فأى شيء بعد ذلك كله يسوغ بقاء أمثال هذا المدرس في منصب كبير كنصبه الحالي .

وإن تعجب فعجب دفاع الأستاذ عباس العقاد عنه وزعمه أن الدكتور نابغة الدهر ونادرة العصر ، وأنه لا يمكن أحد أن يسد فراغه أو يحلّ مكانه

أو يدرس الأدب كما يدرسه، وأنه قرأ كتابه فلم يجد فيه ما يحس الدين والأخلاق.
حنانيك يا أستاذ عباس فإن الأمر هام لا يقضى فيه بالرأى ولا يؤخذ
بالظن، المسألة مسألة دليل وبرهان وحق يتبعه الجميع. إنك بقولك هذا
تتحدى الأمة جمعاء وتسىء إلى رجال وزارة المعارف الذين تخصصوا بدراسة
هذه المادة وفيهم أساتذة الدكتور وأولياء نعمته وتطعن في تقارير تلك اللجان
فحكمت عليه بالخطأ والتجهيل وأظهرت معاييه في عشرات المواضع وتحكم
على الأمة بالجذب الأدبي حين تزعم أنه لا يستطيع أن يدرس الأدب فيها
إلا واحد. ولعل حكلك هذا على رجال الأدب في مصر من نوع حكلك
السابق على شوقي وحافظ وهما مقفخة أدب العرب وحاملا لواء الشعر العصري
ولو كان لك وجه من الحق فما تقوله عن رجل الأدب من كفاءة لمان الأمر
ولكن الذى تدعيه غير مسلم وليس من الحقيقة في شيء. فإن كنت لا تعتد
إلا بنفسك وبالدكتور وتدعان الحق والدليل فلنكا شأنكما وإن كنت تطلب
الحقيقة فهي ما أسلفناه بالدليل من أن الرجل منهم في مواهبه ومادته وطريقة
تفكيره وغايته جميعاً «ولا يجادل عن الدين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب
من كان خواناً أليماً».

أما قولك أن الكتاب ليس فيه ما يحس الدين والأخلاق فاسمع لي أن
أصارك بأنك لست من أهل الدين المتخصصين به، ولقد أقر هؤلاء بخلاف
رأيتك فإذا لم يعجبك هذا وأبيت إلا الدليل فاذكر قصة إبراهيم وإسماعيل
وتكذيب المؤلف للقرآن والتوراة والإنجيل وتحويل شأن النبي صلى الله عليه
وسلم ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهكم بالأجلاء من الصحابة ورميهم
بالخاتلة وعدم التأثير بتعاليم الدين إلا ظاهراً (كذا يزعم صاحبك) وتكذيب
صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط في الأغراض والأنساب
والنتائج والأسباب، أذكر كل ذلك وغيره مما يحس الدين والأخلاق ثم قل
لنا هل اقتنعت بما تذهب إليه أم لا تزال تقدم الدكتور على الحق الصريح.

إن الأمر واضح لا يحتاج إلى بحث أو نقاش، فالكتاب مبتذل، ممقوت،
والمؤلف منهم في عقيدته ومادته والأدباء غيره كثير، فاعدموا الكتاب
واقصوا المؤلف عن بث بغضه على الإسلام في أبنائنا وشبابنا وأبدوا الحق
وأريحوا الطلبة والأمة من هذا العبء الثقيل. (م ٥ - ١٣٤٩ هـ)

الأدب : هل يدرس لذاته أم لغيره :

حاول الدكتور طه حسين أن يثير نظرية خبيثة بادعائه أن الأدب العربي يجب أن يدرس لذاته لا أن يدرس لغيره من فقه أو شرع وأن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة ميتدلة في آن واحد . مقدسة لأنها لغة القرآن والدين ، وميتدلة لأنها لا تدرس في نفسها ولأن درسها إضافي .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : أنه في هذا عظمي عيب ، وأن الفريق الذي يصفه أنه يقدسها هو نفس الفريق الذي يدرسها كوسيلة للدين والتفقه فيه : وتقديسه إياها ، يصونها من الابتذال عنده ويعلم أن الذين يدرسونها من لا يشتغلون بالدين هي عندهم غاية لا وسيلة كجمهور الأدباء ، فليس هناك من هؤلاء أيضاً من يبتذلها إذن .

وكيف يتصور أن التوصل بشيء إلى غرض ما هو من دواعي ابتذال ذلك الشيء ، فريق يدرسها لذاتها وهو فريق المشتغلين بالأدب (وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها) وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر يرضاه ويكره واتصالها بذلك الشيء الآخر يفيض عليها من الإكبار الذي يحيط به ويحول بينه وبين الابتذال كما هو مقتضى القانون النفسى : قانون الاهتمام in terest الذى غفل عنه صاحب الكتاب ، فليس هناك إذن خطر يهدد الأدب من هذه الناحية : ناحية الابتذال . أما ناحية الإكبار والتقديس كما يسميه فقد زعم أنها تحول بين اللغة وبين البحث العلمى الصحيح وتقديسها بهذا المعنى لم يقل به أحد غيره ، لأن الذين يفيضون عليها من التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرض على فريق منهم . والإسلام نفسه يفسح للبحث الصحيح كل طريق فليس على صاحب الكتاب من حرج في أن يسلك في تحليل اللغة مناهج البحث العلمى أو الأدبى الصحيح ، ولكن عليه أن يحسنها قبل أن يسلكها ، أما أن يدعى أنه يحسن إياها وهو غير محسن أو أن يأتي إلى أقدس ما يقدس الناس من دين أو قرآن أو توراها فيعرض لذلك كله بالوهم والفرض ، فسيجد دائماً من يؤاخذه على ذلك في العلم وفي الدين .

والقيود التي في القانون لم يرد بها تضييق حرية البحث . وإنما أريد بها
صيانة الدين أن يجترأ عليه مجترئ أو يفسده على الناس مفسد ، وليس هناك
غير صاحب الكتاب وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافي حرية الأدب
أو حرية العلم ، وما نظن صاحب الكتاب يتألم للأدب والعلم ولكن لنفسه .
وإلا فقد اعترف نفسه أن العلم ذاته قد يكون من أبغض الأشياء إذا أكره عليه
وذلك قوله :

(من ذا الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشراً
بالإسلام أو هادماً للإلحاد) .

هل إذا كانت دراسة الأدب لخدم الإلحاد تقييد للأدب فهل دراسته
لخدم الإسلام تحرير للأدب . ليدع صاحب الكتاب نصرة الإسلام إذا شاء
ولكن ليدع معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده في تحريض الأدب العربي من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات
العصر العلمية والفنية ، فهو نوع من الكلام المبهم ، وفي رأي أن حاجة العصر
هي أشد ما تكون إلى أدب شرقي نقي من أقدار ومموم الإبادة إلى أدب يكون
عونا للشرق عامة ولمصر خاصة على نهضة خلقية قوية تأخذ بنا من هذه النهضة
هذه اللغة التي أنهبها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن
أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو يقتلها أهلها
وتصبح مكتوباً عليها الرق والذل لكل ما لا يمت إليها بمودة أو رحم وما حاجة
الشرق بل ما حاجة أي شعب إلى لغة يصبح أديها باباً يدخل على الشعب منه
العدو ، وكأماً يتجرع الناس بها السموم .

يقول الدكتور طه حسين :

فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم
القرآن والحديث فقط ، وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء
إلى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام .

ونقول : لو كان يريد بهذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد
من رجال العربية خلاف ولكن علمنا بالنزعة التي ينزع إليها صاحب الكتاب
فما كتب وفيما يكتب ، نجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره .

وأنه قد رى إلى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق فلا يكون هناك تخرج خالق من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل فنى يتذوقه ويلذه ، نتيجة لضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه ولكنه الأدب ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالى أو وافق رذائلها أو يخالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة مناسكة لا أوصالا مفصولة ، وإذا كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضرورياً للإنسان فلن يكون لمن يهجم رقى الإنسان بد من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه ، فثأ كان أو غير فن ، أدباً كان أو تمثيلاً أو تصويراً أو ما تشاء أن تسمى من الفنون .

وليس يخالفنا شك بعد ما قرأنا لصاحب الكتاب في حديث الأربعاء وغيره أنه ليس بالرجل الذى يهذى هذه الأمة إلى أدب خاص بها يحتفظ بجميع عناصر القوة فيها ويتخلص من جميع عناصر الضعف فإن هذا التخلف بعد ذلك الاحتفاظ هو ميدان يقدم ذلك الأدب الخاص الذى نريده لهذه الأمة وهو معراج ترقية ، وهكذا نجد أن فى كل كتاب من كتبه غاية مبيتة لخدم قيم هذه الأمة .

• • •

الفصل الثالث

أدب المجان والجنس والإباحة

كان من أكبر أهداف الدكتور طه حسين إشاعة أدب المجان والجنس والإباحة وقد قصد إلى ذلك من ناحيتين .

الأولى : إحياء ما وجدته في الأدب القديم من فنون الجنس عند بعض الشعراء المنبوذين من أهلهم وأمتهم ومما جمعه الشعري الخاطي الأصفهاني في كتابه الأغاني .

الثانية : مما عمد إلى ترجمته من القصص الجنسي القرنى الداعر .

ومن الطبيعي أنه حين دعا إلى تحرير الأدب العربي من الارتباط بالفكر الإسلامى كان يهدف إلى دفعه في أحوال الشهوات والجنس والإباحة، وهو هدف خطير قام عليه كتابه (الشعر الجاهلى) ونظريته كلها وليس أدل على خطورته مما أشار إليه المستشرق كامفراير حين قال : « إن المحاولة الجريئة التى قام بها طه حسين ومن يشايهه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية هي حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا في التقدير في فكرة لا نجد كلمة عنها » .

هذا هو الهدف الذى يسعى إليه التغريب : وهو فصل الأدب العربى عن مفهوم الإسلام الجامع الذى هو جزء منه لا ينفصل، وهى الدعوى التى ظل طه حسين يرددّها دون أن يتبين البعض مدى خطرها، وهذا هو الهدف من عبارة « الحرية » التى كان يرددّها دائماً، الحرية عنده بمفهوم الماسونية وهو من أهلها وهى الانطلاق وراء الأهواء والشهوات ، وقد عمد إلى شعر المخون فأذاع به ، كما أهتم بشعر الغلظة وحاول أن يضع لأبي نواس وبشار صورة بطولة ليست لها في الحقيقة ، فقد كان مع المجموعة من شعراء المجان الذى عنى بهم طه حسين في كتابه (حديث الأربعاء) مجموعة من الشعوبين الإباحين الذين هم

موضع إحتقار المجتمع وامتهان المثقفين والعلماء ، ولكن طه حسين في جرائه على الله والحق والتاريخ لا يلبث أن يقول كلمته المسمومة : إن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون وزندقة وفجور ، وأنه يتخذ كنموذج لهذا العصر : أبا نواس وواليه ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو . ويعتمد على كتاب (الأغاني) في كثير من الأحكام التي أصدرها من غير تخرج ولا احتياط على هذا العصر .

بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا حيث دعا شباب كلية الآداب إلى اعتبار كتاب الأغاني مرجعاً في دراسة العصر ومصدر لرسم صورة المجتمع الإسلامي وهذا زيف بالغ الخطر ، وجراً على الحق .

ولقد ووجهت أفكار طه حسين المسمومة هذه بالنقض ، ووقف له العلماء بالمرصاد ينتقصون آراءه القبيحة ، ومن ذلك ما قاله الأستاذ محمد عرفة : في الرد على فرية اتهام القرن الثاني الهجري بأنه عصر شك واستهتار : « ليس معنى الحكم على عصر بأنه عصر شك واستهتار أنه قد وجد فيه الشك والاستهتار إذ لا يخلو من ذلك عصر من العصور ، وإنما المعنى أن الروح العامة فيه هي الشك والاستهتار . ولقد توصلت إلى حكمك العام على العصر الثاني باستقراء طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين فرأيت فيهم الشاك والماسجن فأخذت العصر بمجريرة هؤلاء وحكمت على العصر بأنه عصر شك ومجون ، وأن تصفح طائفة - ووجدتها على صفة - لا تعطي منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه هذه الصفة . في العصر الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين والشعبي وعمرو ابن عبيد ومالك ابن أنس ومحمد ابن إدريس الشافعي وأبو حنيفة النعمان وأحمد ابن حنبل ، ومالك بن دينار ، وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأي وعمر بن عبد العزيز وطائفة الفقهاء والزهاد المحدثين هم الذين يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أم طائفة الشعراء والمغنين مع تقدير أثر الدين في النفوس ودور هؤلاء العلماء في تخريج الأحكام . لقد كان هؤلاء الشعراء يرون أنفسهم غرباء بخلقهم في ذلك العصر وأنهم شذاذ منه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة في دفع القالة عنهم .

العصر الثاني : عصر يقين واحتشام . لا عصر شك واستهتار . وأن السبب

في الحكم بغير هذا وعلى ما أظن أن القارئ (للأغاني) يحيل إليه من كثرة ما يذكر من مجون هؤلاء أنهم في جو يسيل فسقا ، ومجوناً ، وإلحاداً . ولكن إذا تذكرنا أن صاحبه إنما عني بتاريخ طائفة فقط من الشعراء والمغنيين ، وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر ، حمينا أنفسنا من التورط في هذا الحكم .

ويقول الدكتور غلاب : لقد ذهب طه حسين في هذا الكتاب بجرأة غريبة إلى أن العصر العباسي كله عصر شك ومجون وزندقة وفجور واتخذ نموذجاً لهذا العصر أبا نواس ووالبة ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو والعبث . واعتمد في كتاب الأغاني على كثير من الأحكام التي أصدرها من غير تخرج ولا احتياط ، على هذا العصر .

ويقول الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني : والدكتور طه حسين وجرجي زيدان قد أساءا فهم العصر العباسي ، وأنهما قد تورطا في الخطأ حين وصفاه بأنه عصر إلحاد ومجون وقد رماهما من طرف واحد حتى بأن حكاهما هذا إنما قلدا الأصبهاني الذي لم يرسم العصر العباسي إلا على لوحة خلق معدنها من الكذب والتقويه وصيغت مادتها من الضلال والبهتان .

وقال الأستاذ إسماعيل حسين (الكوكب ١ يونيه سنة ١٩٢٦) أن كل ما ذكرته في حديث الأربعاء يرغب في معاداة القضية ويفرى بارتكاب الرذيلة والاثم وينشر الإباحية ، فإنك لم تذكر للعرب سوى الزندقة والمروق والإلحاد والنساء والغزل المذكر ، ولقد كنت هداماً شنيعاً للعرب الذين لم يخلق الله نفسية أعز من نفوسهم وعزمة أشد من عزماهم الصادقة . وأشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى خطورة حديث الأربعاء في حديثه في مجلس النواب المصري عام ١٩٣٣ .

• • •

حقيقة أساسية

ليس معنى الحديث عن الزندقة والمجون في المجتمع العباسي أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً متحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس ، كان جمهورها من الفرس وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع . بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين ، أما عموم الشعب فإنه لم يكن يعرف زندقة ولا مجوناً بل كان مسلماً حسن الإسلام يهتدى بأصواته ويجرى على سنته . .

٢- ويقول أنطون كرم في كتاب (الأدب العربي) في آثار الباحثين : عن كتاب (حديث الأربعماء) : إن أبرز ما عني به طه حسين هو ميله إلى جعل أي نواس في شعر ذوه وعبته ونخمرة ، ابن عصره وجعله في شعره الجلدى ابن الأعصر الخوالى .

ويقول : إن المؤلف اختلط لنفسه أن يجمع بين الأنماط الثلاثة . التاريخي والدائي والفني . وأن يحاول أن يجمع بين أسلوب سانت بوف وجول لميتر . وتين ، فيجرب فيها جميعاً على غير ما استيفاء للملامح ولا يتسلل إلى الدقائق فإذا به يخطئ طريق المؤرخ الحق في جلاء الشك وتحري الحق الأخير ويخطئ طريقة الدائين في تفكيك الذات المبدعة حتى تقتصر فيها على بعض جوانب ويستند إلى الرواية بدل أن يكتشفها في الشعر ويحيى الرواية في الشعر ولا يجعل الشعر شاهداً على الرواية فتراه متحاملاً على بشار يقتكر للالتواء في نفسيته ويرد المتناقضات التي تقوم عليها الذات البشرية متجهة في منحنى واحد هو منحنى الشر والإثم ، ثم إنه أخطأ المنحنى الفني إذ ألمع على مواطن الجمال لمأ عاجله يتسع مداها حتى ينطبق على غير شاعر من الشعراء يقول هذا جميل . يسير المتناول ، شديد التعقيد ، ولا يدبر القول على سبيل التخصيص فيقع

الحكم هاشياً عاماً خلوّاً من الدلالة . وبصدد عن التحليل الفني الخاص ويشير من بعيد إلى الألفاظ الحلوة الجرس التي تملأ السمع على استساغة ولا يجاوز تلمس الخصائص ولا يتقصى التحليل .

ونحن نرى أن طه حسين ليس ناقداً له باع في فهم النصوص . وكل ما وجهه إليه الكتاب على مدار أبحاثه يدل على قصور واضح . فهو ليس بصاحب صناعة في النقد ولا في الأدب على وجه التحقيق ولكنه مراسل من مراسل المعاهد التبشيرية العالمية لإثارة الشبهات ووضع السموم في قلب النصوص وهو في هذه البابة داعية الأدب المكشوف الذي يحاول أن يهيم القرن الثاني الهجري بأنه عصر شك ومجون اعتياداً على صورة مسمومة رسمها الأصفهاني لبعض الشعراء المساجين المتبوزين من المجتمع الإسلامي العريق الخافل في هذه الفترة بطائفة من ألمع رجاله .

وهو في هذا ليس باحثاً متمكناً يستطيع أن يحكم عراطفه . أو يدير أسلوب التخریب باقتدار ولكنه يكشف نفسه منذ اللحظة الأولى بأنه صاحب هوى وهو يدفع شبهاته بغير تحفظ ولا تخرج ولا احتياط فإذا ردت إليه واحدة بعد أخرى على أنها باطلة لم يسود وجهه ، ولكنه ذهب للبحث عن سموم أخرى ، هكذا عاش حياته كلها ، فهو قد ذهب في الشعر الجاهلي مذهبه في تزيف الحقائق ، ثم حين ينتقل منها إلى حديث الأربعاء . يعلن في صراحة أن شعراء المخون يمثلون عصرهم أكثر من الشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة ومن يصدق في ذلك ، ويعتمد على الأغاني (وصاحبه منهم في عقيدته وخلقه . فهو من الشعبوية المارقين) ، وقد أجمعت المصادر التي أرخت له ولكتابه أنه مثل طه حسين صاحب هوى لا يوثق بروايته وأنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهوى شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر . وكان في خلقه الشخصي مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشموات ، وما رواه ابن شاعر في كتابه (عيون الأخبار) إن الشيخ شمس الدين الذهبي قال : رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستهل ما يأتي به ، وما ذكره تحت شيء من أوصافه : كان أبو الفرج الأصفهاني وصفاً قذراً (راجع أيضاً خبر اتصاله بالوزير المهلب)

ص ٢٠ وما بعدها في مقدمة الأغاني) وما قاله أبو الفرج في مقدمة كتابه عند قوله : إذ ليس لكل الأغاني خبر يعرفه ، ولا في كل ما قاله خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة وإنما هو رونق يروق النظر ويلهى السامع .

وقد أنكر الباحثون على مدى التاريخ استنادهم على الأغاني إذ ليس لروايات الأغاني قيمة تاريخية ، ذلك لأنه لم ينتق أوثق الأخبار من مظاهرها ، ولم ينقلها عن أهل الخبرة مهما ذكر ذلك في مقدمته ، وقد زيف صورة الحياة العربية والمجتمع الإسلامى فكانت مصدراً مسموماً للمستشرقين ودعاة التغريب يدلون عليها تلاميذهم وتابعيهم ولم يهتم باحث عربى بالأغاني على النحو الذى اهتم به طه حسين ووجه إليه تلاميذه ومريديه ومن قبل اعتمد عليه جرجى زيدان في رواياته وحين كتب عن الحياة الاجتماعية في عصر الدولة العباسية كما اعتمد عليه الأب لامانس في كتابه تاريخ بنى أمية والمستشرق فلهووزن في كتابه المسمى (الدولة العربية وسقوطها) وقد جاء الاحتراس عند الباحثين في رفض كل ما يذكره عندما لمسوا في شخصيته ذلك الضعف من ناحية خلقه .

ولا ريب أن الدكتور زكى مبارك هو من أوائل من نبه في العصر الحديث إلى هذه الحقيقة حول الأصفهاني وكتابه الأغاني (المقتطف م ٧٧ - يوليو سنة ١٩٣٠) وقد ضم هذا البحث لكتابه (النثر الفنى) وكان ذلك من أسباب حملة طه حسين عليه لأنه حين كان يكشف زيف الأصفهاني أمام الباحثين إنما كان يوجه خنجراً إلى قلب طه حسين الذى كان أول من أعلن في كلية الآداب اعتبار كتاب الأغاني مرجعاً في دراسات الأدب بالرغم من كل ما عرف عن شعوبيته وزندقته وفساد وجهته ، قال زكى مبارك إن « أبو الفرج » قد طعن في بعض الروايات التى أوردها ، بل أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأزعم للدكتور طه حسين أن في الأغاني كثيراً من الأخبار الملفقة التى ربما تكون قد جازت على أبى الفرج فأوردها ، ويتساءل زكى مبارك هل يصلح الأغاني مصدراً للتاريخ ، ويجب أنه لا يصلح أن يكون المصدر الوحيد ولا أفضل المصادر ولا الجامع المسامح .

ويدافع التغريبيون أمثال جبور عبد النور (جامعة بيروت الأمريكية)

عن الأغاني ويتساءل : أمن الضروري إن كان المؤرخ فاسقاً أو مسرفاً شنيع الإسراف في اللذات والشهوات أن لا يكون مؤرخاً وألا يكون صادقاً فيها روى أو يقول أو يكتب !

ونقول له نعم ، فهو قد شهد بفسق صاحبه وفي منهج الفكر الإسلامي أنه زنديق ، لا يؤخذ منه وأن هذه النفس المتردية إلى كل هذا الفساد هل بقي فيها شيء يمكن أن يصل منه الصدق أو الحق أو الخير . لقد كانت هناك محاولة مستميتة للدفاع عن الكتاب من دوائر الاستشراق والتغريب ، تحاول أن تعطى الأغاني القوة للصمود في دائرة المراجع ، ولكن كل ذلك قد سقط ، وليس هناك اليوم من يقول إنه يصلح مصدراً لفهم الحياة الاجتماعية في عصره ، ولا أنه كتاب أدب أو كتاب تاريخ .

• • •

ولكن هل توقف طه حسين في دعوته إلى الزندقة والإباحية والجنس ! لقد ذهب إلى أبعد من ذلك فكتب حياة أبي نواس في أواخر حياته ليصلها بما كتبه عنه في أوائل الشباب (سنة ١٩٢٦) وبينهما أربعة عقود . وكان ذلك في إطار حملة تغريبية واسعة لتأكيد أبي نواس ونشره بين شباب الإسلام (حيث كتب عنه العقاد وعبد الرحمن صدقي والدكتور النوبختي وطه حسين) ونشر ديوانه محققاً ، وإحياء أبي نواس إحياء لدعوة إلى الخمر وإلى الجنس وإلى الإباحية تذكر بعصبة المخان : بشار ومطيع وحجاد عجرد والخليع ، كل هؤلاء وصفوا الخمر وغلوا في وصفها وقالوا عنها ما لم يسبقوا إليه ، وكان أبو نواس إلى إسرافته في الخمر والعبث شعوبياً حاقداً على الإسلام ويبطن حقه عليه بحقد ظاهر على العرب فهو مقرر في التفكير لهم والسخط عليهم ، وقد اتخذ أبا نواس رمزاً للاستهتار والازدراء بكل شيء وإهدار كل قيمة .

كل هذا أذاعه طه حسين وتوسع فيه ، وقال إنه لا يخاف من أثره على الشباب وإن أذاعه هذا كله لا تفسد أخلاقهم ولا ميولهم

ونحن نتساءل : إذن فلم اهتمام طه حسين وإصراره على دراسة هذه الأشعار الخبيثة والنفس المريضة التي قالتها ، إلا أن يكون ذلك هدفاً مبيتاً

يراد به إذا عثها من جديد ووضعها في يد الشباب المسلم لتحطم معنوياته ولتصرفه عن الطريق إلى الأصالة وإلى فهم التحديات التي تحيط بأمته ، لقد كان ذلك خطوة في طريق هدفه المبيت إلى الأدب المتحل التي سار فيها إلى النهاية وتبعها بعد ذلك بخطوتين :

الأولى : ترجم شعر بودلير الماخن .

الثاني : ترجم القصص الفرنسي الداعر .

(٣)

كتب الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني في كتابه قبض الريح ص ٦٣ وما بعدها ما يلي :

ولقد لفتني من الدكتور طه حسين في كتابه (حديث الأربعاء) وهو مما وضع وقصص تمثيلية - وهي ملخصه ، أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة ، وقد يفكر القارئ أنه أدخل القصص التمثيلية في هذا الحساب ويقول إنها ليست له وأن كل ما له فيها أنه ساق خلاصة وجيزة لها ، وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشي بهواه كالإنكار سواء بسواء ، وأن يختار المرء ما يوافق ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه ، ولست بمازح حين أنيه إلى ذلك وما هو حديث الأربعاء : ماذا فيه ، فيه كلام طويل عن العصر العباسي ، وللعصر العباسي وجوه شتى وفي وسعك أن تكتب عنه من عدة وجهات ولكن الدكتور طه حسين يدع كل جانب سوى المزل والمجون ويرون يزعم لك أنه عصر مجنون ودعارة وإباحية متغلغلة إلى كل فرع من فروع الحياة فلماذا ؟ لأية علة يقضى على الجوانب الأخرى لذلك العهد ، بل قل لماذا لا يرى في غير الماخنين والخليعيين صورة منه ، ولست أقترى عليه فإن القائل في الصفحة السابعة والعشرين (١) من كتابه : ادرس هذا العصر درساً جيداً ، وقرأ بنوع

(١) غير طه حسين بعد المحلات القائلة عليه ترتيب كتابه فجعل هذه الفصول في الجزء الثاني وقدم في الجزء الأول مقالات كتبها بعد ذلك بعشر سنوات .

نحاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حيث تدهشك ظاهرة غريبة ، هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء كان هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدباً ، فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطرت الخلفاء من بني العباس إلى أن يبطلوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء الأدب العربي القديم والاعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر لزدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله ، وليس يعني أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذي يعني أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً .

ولم يكتف الدكتور طه حسين أن يعتمد إلى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سربهم صورة يزعمها ، صورة العصر بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العصر العباسي وقرأ قوله في (صفحة ٥٠) من هذا الكتاب .

(فقد بينا في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً وكانوا أشد تمثيلاً وأصدق لحياته تصرياً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة في عصره ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم) .

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر ، كلا يا سيدي . بل يجري إلى آخر الشوط ، ويقول في الصفحة التاسعة والثلاثين من كتابه :

(عسرت الأخلاق من هذا التطور وريح الأدب) فلم يعرف العصر عصراً أكثر فيه المحون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر ، ثم كان من كثرة المحون أو بعبارة أصبح ، كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التي وابتته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً

في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما انتقل العرب إليها فاستقر سلطانهم في بغداد ، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذي سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل .

إذا سمعت رجلاً يقول إن الأخلاق فسدت وخسرت وأن الأدب ربيع من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر إذا قلت أنه ينعم عن هذا الفساد ويسرع هذه الخسارة ، نعم بلا ريب ، وأنت تحس من كلامه الرضى والابتهاج . ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله في عقب ما سقناه لك :

وإنما الذى يعيننا الآن أن نلاحظه أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء وعيب بكل شيء وإسراف في المحزون واللهو كانوا يجتمعون ويجتمعون كثيراً ، أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو لثم يقترف . وكانت اللذة والإثم حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً . وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلوا دائماً من النساء ، فقد كان الإماء النظريقات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديرة وفي بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة فيلذون ويتحدثون . . .

ثم مضى يورد سير أبي نواس ومن إليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن إياس وحجاج عمجدا والحسين بن الضحاك ووالبة بن الحباب وإيان ومروان بن أبي حفصة ويقول في بيان الحكمة في ذلك أنه لا يريد أن يكتفى بالقول (بأن القرن الثاني للهجرة على كثرة ما عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشتغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون وعصر إفتتان وإلحاد عن الأخلاق والعادات الموروثة والدين أيضاً وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المحزون تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلاً ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين في المحزون ، إن مضط عليهم تفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون إليهم . . . وإذا كان الناس بهم معجبين وعندهم راضين ،

أقول : إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندي شك في أن العصر الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته ، وإنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجون واستهتار بالذات (ا. هـ) ص ١٨٤ ، وحسبنا هذه المقتطفات التي تعمدنا الاستكثار منها لينتق كل شيء في أن الدكتور يلج في إثبات ما يذهب إليه وأن هذا الرأي الذي عن له وعالج إثباته مستغرق لذهنه وأنه يصرفه عن أصالة الفكر في كل جانب آخر من جوانب الحياة في ذلك العصر .

ولا يسمح لنا ما نقصد إلى تبيينه حتى لا يختلط الأمر ، ونكتفي بملاحظة واحدة هي أنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنا العصر العباسي ، وأنه لم يخل زمن قديم أو حديث من مثل ما يصفه الدكتور طه حسين .

وننتقل إلى قصص الدكتور ولنبداً بقوله : فأنا أعترف بأن لا أتغير هذه القصص عفواً ، وإنما أتغير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ويولد العقل أو يدعو إلى العناية والتفكير ، فليس في الأمر مجال للتأول والتحجج والاحالة على الاتفاق والمصادفات فإن العمد هنا معترف به ومن العسير أن تلخص هذه القصص الكثيرة في أسطر قليلة ، هذا مطلب لا سبيل إليه ، وعلى أنها قصص متداولة ، فحسبنا أن نقول دون أن نخشى اعتراضاً أنه ما من قصة منها إلا وهي تنطوي على نوع أو أنواع (الحياتيات) أو مما يسميه الدكتور طه حسين (الشر والنكر) ويقول الدكتور طه حسين أنه إنما كتبها وجمعها ونشرها لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية على نحو من أنحاء الأدب العربي ولأنه يرغب (أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر في نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربي خاصة يحملهم على أن يعتزوا بهذا الفن الناشئ في أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً .

وللقارئ أن يسأل : لماذا يؤثر الدكتور طه حسين (تحوراً) آخر من (أنحاء) الأدب العربي وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيره ، لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزواني ومخكبات الجهاد - كما يقول

هو بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من جهة أخرى ، بين العواطف والشعور الفردية من ناحية وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى ، بين العواطف وبين الواجب وبين العقل وبين الدين ثم بين القانون وبين الدين أيضاً .

ألا يرى أن صنيعة هذا في اختبار هذه القصص كصنيعة في اختبار من كتب عنهم من العباسيين ، فكما أنه ترك أبا تمام والبحتري والشريف ومهيار والمتنبي والمعري من فحول شعراء العرب وفضلاتهم ووقع على أهل الخون والخلاعة والاستهبال . كذلك لم ينتق من كنوز الأدب العربي إلا هذه القصص الخافلة بضروب (الآثام والمنكرات) حتى حين يلخص قصة داتمركية لا تكون هذه القصة إلا من هذا النوع .

(٤)

كذلك فقد تناول الدكتور حلمي على مرزوق في كتابه تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في قضية حرية الأديب ومشكلة الفن والأخلاق في كتابات طه حسين فأخذ على طه حسين تبعيته للمذهب الحتمية التاريخية أو الجبر التاريخي الذي أدار عليه بحثه عن (أبي العلاء) مستمداً مفاهيمه من كتاب الغرب الذين يرون أن الكاتب وما يكتب نسيج من العليل الاجتماعية وأن الرذيلة والفضيلة متزوجات من مثل الزاج والسكر ، وقد أثبت المذهب الطبيعي الذي اعتنقه (تين) والدكتور طه حسين أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية من الأحاسيس والقلوب ، وأن التاريخ مثل علم الحيوان قد اهتدى إلى قواعده التشريعية ، وقال أن الدكتور طه حسين غير منبجج بين كتاب أبي العلاء وبين كتاب (الشعر الجاهلي) وأشار إلى دعوة الدكتور طه حسين إلى حرية الأديب والصدق في الأدب ويستشهد فيها بأبي نواس وأحزابه الذين اقتحموا قيم الخلق والدين واندفعوا بصورون الغزل وغزل الغلظة والخمر ومجالس اللهو وهم جماعة الجاهل وأن هذا في نظر الدكتور طه حسين مجازاة الأديب للعصر ، وهو ما أمل عليه كلمة المشهورة (خسرت الأخلاق من هذا التطور وريج الأدب) .

وقال إن قوله هذه المشهورة أثارت عليه الناس فأخذ عليه رفيق
العظم شططه في الحكم والتقدير ورماه المازني بالانحراف الخلق الذي يسوغ
الرضى بالانحلال والمنافحة دون الفساد .

ولا شك كان الدكتور طه حسين يريد أن يضع مذهبه هذا المنحرف
في أسلوب علمي خادع حين دعا إلى مجازاة العصر والذوق ، وعبر عن ذلك
بقوله إن الصدق الفني هو أن تكشف عن مشاعرك بلا مواربة ولا انتقاص
ولا شك أن الدكتور طه حسين كان مبالغاً ومشتطاً حتى وصف أي نواس
بأنه يدعو إلى الصدق . هذه الدعوة التي لا تمثل إلا الاستخفاف بالدين
والاستهتار بالفضيلة .

ويرى الدكتور حلمي مرزوق : أن حرية الأديب لا جدال في إطلاقها
ولكن الخطر هو في قصرها على عاطفة دون عاطفة ، أو وجدان دون وجدان
فضلاً عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون .

« وأخطأ الخطأ أن يوحى إلينا الدكتور طه حسين أن الأخلاق من مواضع
الحياة الجامدة كأنها وليدة الإرادة العمياء فهي فرض مكروه وإلزام أعمى
يقتضي الحرب والإنكار ، والقاعدة الأخلاقية ليست على هذا الجمود المزعوم
وإنما تكن وراءها آفاق من الشعور لا حصر لها ، فهي خلاصة موقف
إنساني متشابك الأطراف أو هي أبعاد تجربة لا يمتنع أن تكون تجربة فنية
خالصة .

وسبطل الناس كذلك يعتزون بالفن الأصيل ويمثلون بشعر الشعراء
في مختلف الشئون ومواقف التصرف والسلوك وذلك أفعلى في خلق العرف
وتصحيح الأخلاق .

« فالقاعدة الأخلاقية إذن ليست من قبيل المواصفات العمياء ، ولا الضوابط
الجامدة وإنما شأوها شأن الفن وليدة التجربة العميقة التي يقع بها صاحبها على
الصلات الحقيقية بين الأشياء وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة
معلومة ، في تواريخ الآداب والفنون ، ونراها ماثلة للعيان فيما يجري بيننا
من شعراء المتنبي وأمثال شكسبير ، (على أن طه حسين حينما يصرف الأدباء
عن الأخلاق إنما يقع في العيب الذي يأخذ بهم ، فهو يشتط في نفس الحجر

على المشاعر ويقع هو فيه . وأى حجر أشد من الوقوف بالفضائل والأخلاق بعيداً عن الفن ، فلا ينبغي للأديب أن يقر بها وإلا كان أدبه (قديماً من قوارير) تصطلح عليه علل الكذب وأدواء التصنع . وينشئ عنه سمات العصرية أو الأدب الحديث والوجدان الديني بعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاديث ومشاعره النفسية لا يتقده ناقد ويكون له في قضية الحرية نصيب . على أنه سيظل ماثلاً في الأذهان أن الحرية قد تقضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج من الاعتراف والمواصفات وينتهي إلى التعبير الحر عن الأهواء والندوات وتلك جهة ستثير عندنا مشكلة الفن والأخلاق .

٢ - مشكلة الفن والأخلاق :

يقول الدكتور حلمى مرزوق : إن دعوى الاختلاف بين الفن والدين أو الأخلاق نشأت بين أتباع نظرية الفن للفن ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل فلا عبرة بالموضوع في ذاته وإنما العبرة بمقتضيات التعبير ، فالفنان لا حجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس ، اتفقت مواصفات الجماعة وإعراف الناس أم خرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغیر قانون التعبير ومن ثم جاء تعريفهم للفن بأنه تعبير .

ومن هنا أيضاً نشأ التضارب وما سار عليه طه حسين فيما أسلفنا من قوله (خسرت الأخلاق وربح الأدب) وهو موقف يوحى به ظاهر المذهب وعنه شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبذل مقصود ، وحجة يسوقها (أنصاف) الفنانين بين يدي الانحلال ، يريدون أن يضغوا عليه ثوباً من المشروعية الراقية ، يتفقونه بها في سوق الغياب الفني ، فغاية المذاهب الحققة تخليص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم يكن قصاره أن يقف من الأخلاق أو الأديان موقف التناقض ، والتدابير الذى وقفه طه حسين ، ولقد أدرك الدكتور مندور هذا الخطأ الشائع بين أتباع هذا المذهب فثار به وصادره .

يقول : وشاع اسم هذا المذهب في فرنسا وغير فرنسا وجرّد من ملائمه التاريخية حتى انصرف إلى معان لم يقصد إليها من قالوا به في أول الأمر ، فن الناس من يظن أن الفن للفن (هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى فيما يسمونه الأدب المكتشف وهذا فهم خاطئ ، ومن الواجب

أن نفهم من مدلول هذا المذهب فهماً تاريخياً حتى يتبين حدوده ، والحكمة التي دعت إليه) .

وتحرير هذا المذهب أن التجربة الشعرية غاية في ذاتها وقيمها مستمدة من وجودها بعيداً عما تشتمل عليه من أفكار أو معان ، ولا أظن هذا الموقف يوحى اليته بالخروج على الأخلاق وإنما هو موقف فني سلمي خالص يريد أن يقيم للأدب دولة داخل دولة الحياة ، وليس أدل على انعدام قصد الخروج من اشتقاق مصطلح بخصوصه أرادوا به جلاء اللبس وإزاحة الشبهة ، وذلك المصطلح هو (اللاأخلاقي) ويريدون به البعد عن الأخلاق أو الذي لا شأن له بها ، وعندى أنه لا تضارب على الإطلاق بين الفن والأخلاق ، طالما أن أن الفن بالغ غايته وخلصت له فنيته من عوارض الضعف والزغل التي تعرض لأنصاف الفنانين وأجدر هذه العوارض هو عجز الفنان من هؤلاء عن أن يقع على الروابط الصحيحة والعلاقات الحقيقية بين الأشياء) .

وهكذا انكشفت أهداف الدكتور طه حسين من وراء عباراته الماكرة المموهة ، إنها ترمى إلى هدم القيم الأخلاقية وإعطاء الأديب والفن حق الاندفاع وراء مفاهيم الشهوات بغير حد محدود .

ومن هنا نعرف دعوته إلى تحرير الأدب من الارتباط بالإسلام ودعوته إلى تحرير اللغة من الارتباط بالإسلام .

أما هو فيقول (الدين) ونحن نقول (الإسلام) لأننا نفهم الإسلام فهماً جامعاً (منهج حياة ونظام مجتمع) أما هو فيحاول أن يحيلنا على مفهوم اللاهوت المسيحي الذي انفصل عنه الأدباء ليدخلوا في الغرب تجربة الإباحة والجنس ونحن في مفهوم الإسلام نفهم الأدب وهو متصل شديد الاتصال بأصله ومصدره الفكر الإسلامي ، فلا نستطيع أن ننفصل عنه ليجري بعيداً عن ضوابط القيم والأخلاق .

• • •

(حديث الأربعاء)

يمثل كتاب حديث الأربعاء مجموعة مقالات نشرها (١) الدكتور طه حسين في جريدة (السياسة) عام ١٩٢٤ تناول فيها عدداً من الشعراء الإباحيين الغزليين أمثال « أبو نواس » و « بشار وواليه والخليع ومن إليهم » .

وقد حاول الدكتور طه حسين في جماع هذه المقالات أن يفرض فرضاً باطلاً زائفاً قوامه أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك واستنار ومجون اعتياداً على وجود هؤلاء الشعراء فيه ، وأن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم بأقوى وأعمق مما يمثلته الفقهاء والعلماء والزهاد وقد اعتمد في ذلك على كتاب الأغاني الذي ليس مرجعاً صحيحاً يمثل العصر لأن صاحبه حدد هدفه وهو الحديث عن الأغاني ولا يجوز أن يحكم على المجتمع الإسلامي في العصر العباسي من قراءة كتاب الأغاني الذي ألفه صاحبه لأخبار المجان والشعراء .

وقد عمد طه حسين في هذا الكتاب إلى إشاعة الفاحشة إذ تتمثل فيه الرزيلة بأشجع مظاهرها — على حد تعبير الدكتور عبد الحميد سعيد — وتظهر فيه نفسية الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطناب من قصص المحبون والفجور بأسلوب جذاب وبطريقة خلابة تؤثر في الناشئ المسكين وتزين له سبيل الفساد وتحجب له الانقاس في الشهوات بعد أن شوه له الدين وتعاليمه ومثله أمامه تمثيلاً لا يرغب فيه وأعطاه صورة مشوهة منفردة عن قاموا بالدعوة

(١) أعاد الدكتور طه ترتيب هذه المقالات فقدم في الجزء الأول في الطبعة الأخيرة مقالات أخرى نشرها عن الأدب الجاهل في جريدة الجهاد (يناير عام ١٩٣٥) وما بعدها ، وأخر مقالاته الخاصة بشعراء الغزل إلى الجزء الثاني وأبقى على المقدمة التي كتبها عام ١٩٢٤ لفصول التي أعدها إلى الجزء الثاني . وقد استهدف من ذلك إزالة بعض آثار الطبعة الأولى من النفوس ، وقد كانت هذه الفصول هي الأساس فيها وجه إليه من نقود ومعارضة آرائه الإباحية .

إليه ولم يترك مسبة إلا نسبها إليهم فقد طعن في الخلفاء والعلماء من عظماء الأمة الإسلامية ، وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينج من مطاعنه إنسان ولم يحظى باهتمامه في عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشذاذ من أهل الجور والفحش حيث جعلهم مرآة ذلك العصر ، أما أولئك المصلحون من أهل الفضل والرأى الذين أقاموا صروح المدنية في العالم ورفعوا أعلام الفضيلة وأقاموا معالمها في سائر الأنحاء فلم يذكرهم بخبر بل خلع عليهم من المساوئ والشتائم والسياب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون منه ، وما لا يصدق فيه إنسان حتى لو كان من أعداء الدين الألداء .

إن عظمة التاريخ الإسلامي في عصوره الزاهرة لا ينكرها إلا جاحد في قلبه غل على الإسلام ، فطه حسين آلى على أن يشكك فيها يكاد يبصره من عظماء التاريخ الإسلامي المكذوب ، وما الموضوع من أخباره الشاذة المطلاعون فيه فإنه يبحث عنه في كل بؤرة ويلتقطه .

هذا هو رأيه في العصور الزاهرة للإسلام التي تفخر بها كل الفخار إن هذا الكتاب - حديث الأربعاء - يهوج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والفجور والتهتك والاستهتار ويدعو إليها ويحض عليها ، وأن ما ذكره من قصص أبي نواس وجماعته لينفر من ذلك الأدب الذي يدعى أنه يحترمه ويحميه ، فقد جاء في ذلك الكتاب من مخالفة الآداب والخص على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ويقوض أركان الفضيلة ويهدم صرح الأدب . ومن أمثلة ذلك قوله :

(كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويطيعون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعيشون في هذا كما يعيشون في غيره ، وربما قصروا الوقت الطويل عاكفين على الفجر (بضم الفاء) ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها ولعلهم أقاموا الصلاة في مثل هذا الحال يوماً وأمرهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ (قل هو الله أحد) فاستحالت الصلاة من خشوع الله إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل . إلى أن قال : وإذا أردنا مثالا مختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذي نتخذ من درسه سبيلا إلى درس العصر كله) .

وقد عد مجاهرة أبي نواس بالمعصية ضرباً من الصدق وعدم الجهر بالمعاصي نوعاً من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

مفهوم التجديد عنه طه حسين :

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إن طه حسين لم يجد في الأدب القديم ما يستحق أن يبعث وينشر إلا أخبار المؤننين الذين ابتلى بهم الأدب العربي كما ابتلى الأدب الفرنسي بأمثال أوسكار وايلد ، نعتي أبا نواس ووالية والخليع ومن إليهم ، ممن نشر طه حسين أخبارهم في (حديث الأربعاء) ومن الغريب أن تلك الأخبار الآتية والأشعار المسجونة قد عرضها صاحب الكتاب في ثوب البحث الأدبي باسم التجديد كأن البحث والتجديد في الأدب ستاران تحارب الفضيلة من ورائه ، ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن أولاً تلك الوسيلة تداخلها عليها .

وصاحب الكتاب قد دل بكتاباته على أنه ممن يرى إخلاء الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو قلمه ما دام يصور ما كما هي . وهو مذهب تثره عنه من أهل كل فن عظمائهم ، وحاربه من أهل كل زعماء الإصلاح فيه : أمثال كارليل ورسكين وماثيو آرنولد .

وأن العربية وآدابها إنما قاما حول جماع المكارم ومنبع الحياة والنور : القرآن والحديث وكنا نحس دائماً أن ما في كتب (المحاضرات) كالأغاني والعقد التي استغل صاحبها الكتاب والأدباء جانبها المؤنني (كنا دائماً نحس أن ما فيها من التطرف بهجر القول غريب عن روح هذه اللغة بعد الإسلام حقق ألا يلحق بأدبها ، ولعلنا لو تتبعنا تاريخها من هذه الوجهة نجد روح الطهارة يغلب عليها في كل عصر يكون أهله أقرب منه إلى القرآن وروح التجديد والتأثر تغلب من كل عصر على أكثرهم مجانبة للدين وأبعدهم عن القرآن وهذا شيء لا غرابة فيه في لغة مدينة للقرآن بما لها من وجود وبما كان لها من قوة وبيان وإعجاز .

كتاب الأغاني :

وقال الدكتور زكي مبارك إن الدكتور طه حسين وجرجي زيدان قد أساء فهم العصر العباسي ، وأنهما زلا وتورطا في الخطأ حين وصفاه بأنه عصر إلحاد ومجون ، وأنهما في حكمهما قد قلدا الأصفهاني الذي لم يرسم

للعصر العباسي إلا لوجه خلق معدتها من الكذب والقويه ، وصيغت مبادئها من الضلال والبهتان .

وقال : إن شهوة الاطلاع كانت في نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة في حياة الشعراء والكتاب خلقت في كتابه جواً من المحزون وقال إن الدكتور طه حسين يستتي آراءه في العصر العباسي من شيئين :

الأول : كتاب الأغاني .

الثاني : شعراء الماسجين من الشعراء .

أما شعر الأغاني فصاحبه محدثنا في المقدمة بأنه قصد في كتابه اللهو والتسلية قبل أن يقصد العلم والتاريخ . أما شعر الماسجين وحياتهم فلا ينهضان دليلاً على فساد عقيدة العصر العباسي وأخلاقه .

والدكتور طه حسين يناقض نفسه حين يقول : وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون بخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتههم وإن كانت الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة) .

عصر الفقهاء لا عصر الماسجين :

وقال الشيخ محمد عرفة : لقد توصلت إلى حكك العام على العصر الثاني باستقراء حال طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين فرأيت فيهم الشاك والماسجين فأخذت العصر بجريرة هؤلاء وحككت بأن العصر : عصر شك ومجون وأن تصبح طائفة وجدانها على صفة لا يعطى منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه تلك الصفة ، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجاً لذلك الحكم العام تخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور . فإننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد في هذا العصر وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والاحتشام ففيهم الحسن البصري وعمر بن عبد محمد بن إدريس الشافعي ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله ابن المبارك وربيعة الرأي ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبي .

وما فيهم إلا من ملك نفسه ، وكان أنفع الناس للناس ، وسيرتهم في العلم والزهد والتقوى يعرفها من عني بدرس حياتهم ، فطائفة الفقهاء والمحدثين

مؤمنون متحشمون وطائفة الشعراء والأدباء فيهم شك واستهتار فإذا أردنا أن نحكم على العصر فسيبنا أن نتعرف أطيافة الفقهاء والزهاد والمحدثين وهم يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أم طائفة الشعراء ، إن القارئ للأغاني يتخيل إليه من كثرة ما يذكره من مجون هؤلاء أنهم في جو يسبيل فسقا ومجوناً وإلحاداً ، ولكن لو تذكر أن صاحبه إنما عني بتاريخ طائفة فقط : هم الشعراء والمغنون وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر لحى نفسه من التورط في الحكم وأن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء المهتدين ماجنين ، ونقرأ فيما تقرأ أن هؤلاء الشعراء كانوا يرون أنفسهم غرباء يتخلفهم عن ذلك العصر وأنهم شذوذ فيه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة لمحو الفاقة عنهم .

مذهب فاسد :

وقد واجه العلامة المؤرخ رفيق العظم هذا الاتجاه الذي ابتدعه طه حسين وكشف عن زيفه وأبان أن مثل كتاب الأغاني لا يصلح كمرجع من مراجع التاريخ وأن ما ينسب إلى الرشيد والمأمون من الاستمتاع واللذائذ أو المتاع يجب أن يحتاط في تقديره ، وعنده (أن الحقائق التاريخية لاسياً في تاريخ الإسلام تشبه الدر بين أشواك تحتاج لمن يريد استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الشوك . ويرى أن كتب القصاصين (التي اعتمد عليها طه حسين في كتابه حديث الأربعاء) قد حفلت بأخبار كاذبة نسبتها شيخ العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبتها شيعة آل علي إلى خلفاء بني العباس ، وهي من أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الحياة والملك وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة إلى المنزلة التي أنزلهم إليها الوضعون ويدوم لهم طويلاً ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ .

وعنده (أننا لو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التي تعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

وأشار رفيق العظم إلى ظاهرة القصص والقصص الذي استشرى في المجتمعات الإسلامية والتي كانت تشغل الناس في العصور المختلفة وكيف أن واضعها وضمورها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية ، أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ . ومن هنا أخذ الأذكىاء في وضع قصص تحكي في المجتمعات فيلها العامة فكان فيها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء واليخلاء والكرماء وغير ذلك ، فكان منها الغث والسمين ، ومنها المنفق والقريب من العمة ، وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المخون والبهتك والانتفاص في الشهورات مغالاة تكاد تشبه على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذي أخذ به الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير يناق ما ينسب إليهم من إطراح رداء الحشمة والمروعة .

هذا هو الحصاد الضخم الزائف الذي اعتمد عليه أمثال طه حسين وغيره في محاولة رسم صورة للعصر الأموي ووصفه بأنه عصر الشك والمخون وهو في تقدير رفيق العظم إنما هو تلفيق قصص يراد بها به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد تهمة العامة إلى أمثال هذه القصص المخزية والروايات الملققة .

وهكذا نجد أن طه حسين تمجيز بدعوته إلى أمرين :

الشك والإباحية :

وأنه يعتمد في ذلك على مصادر تافهة لا قيمة علمية لها أساساً في إذاعة مذهبه وترويج بدعوته التغريبية الضالة .

• • •

الفصل الرابع أخلاقية الأدب

هذه قضية من أكبر القضايا : قضية مفهوم طه حسن للأدب في ضوء مفهوم الإسلام ، فإلى أي حد يمكن للأديب أن يكون حراً وإلى أي حد يصل (الصدق الفني) ، وهل نحن كمرب ومسلمين يمكن أن نقبل بالنظرية الإباحية الغربية التي روج لها طه حسن وتوفيق الحكيم وغيرهما ، وهي نظرية إطلاق الكلمة دون أن تكون لها ضوابط من الأخلاق الإسلامية ، وفي هذا المجال نعود فتحدث عن مفهومه في الفكر الإسلامي في الرابطة بين وبين روافده وفي مقدمتها الأدب حيث لا يمكن أن يتفصل الأدب بنفسه ويستعلى على الضوابط والقيم التي رسمها الإسلام وفي مقدمتها أخلاقية الأدب والزامه بالأداء في حدود الوجهة الصحيحة ، مدافعاً عن الخير والحق والجمال والفضيلة ، ومعلماً الأخلاق عن الجمال ، ومن أجل أن لنبيع طه حسن نظريته في إباحية الأدب اختار لها ما يسمى (الصدق الفني) وهو تعبير زائف يراد به أن يكتب الشاعر والأديب والفنان الصورة الواقعية بما فيها من إباحيات ومحموم وزيف وما هكذا رسالة الأدب في مفهوم الإسلام .

ومن أجل دعوة طه حسن إلى (إباحية الأدب) في مواجهة (أخلاق الأدب) فهو يدعو إلى عدة معاني مضللة وزائفة كالأواقعية وكحرية الرأي . (وأنته يرى هذه الحرية كحرية «أبو نواس» فيقول إن أبا نواس وأضرابه لم يبلغوا ما بلغوه في النفوس إلا باقتحام هذه العقبة وفكرة تلك العقود ، وهو يرى أن حياة الدين كانت تجذب العرب إلى الورا بيناً تدفعهم الحضارة المسادية إلى الأمام .

ويرى أن هؤلاء الشعراء هم أول من استجاب لدواعي التطور والتزول على حكم هذه الحضارة والاستمتاع بملاذها ما يرضى الدين وما لا يرضى الدين وصدقوا الناس فيها القول فراغوا بشعرهم وكثر طلابه والمعجبون به

وهذا ما أملى عليه قولته المشهورة :

« خسرت الأخلاق في هذا التطور وريح الأدب » .

ولا ريب أن مفهوم طه حسين هذا مفهوم ضال ومبطل وزائف ، ودخيل على الفكر الإسلامي والأدب العربي ، وقد أخذ عليه كثيرون شططه في الحكم والتقدير ، فعلى حد قول السيد رفيق العظم ورماه الأستاذ المازني بالانحراف الخلقى الذى يسوغ له الرضى بالانحلال والمنافحة .

وقال الدكتور حلمى على رزق : أى شطط ومغايظة أنكى من قوله : « فلم يكن أبو نواس يدعو إلى (الصدق) لأن الدعوة إليه ترضى الدين أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه لأن الدعوة إليه ترضى الذوق وترضى الجمال الفنى ، والاستطراد هنا إلى الدين والفضيلة من اللغو والإطراب ، ولا ينبغي إلا عن الاستخفاف بالدين والاستهتار بأمر الفضيلة ، وهكذا أصبح الدين والعرف والأخلاق على يديه قيوداً يقامى الأدب باختراقها والجرأة عليها) .

ويقول الدكتور حلمى على رزق : إن حرية الأدب لا جدال في إطلاقها ولكن الخطأ في قصرها على عاطفة دون عاطفة أو وجدان دون وجدان ، فضلاً عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون ، وأخطأ الخطأ أن يوحى إلينا طه حسين أن الأخلاق من مواضع الحياة الجامدة كأنها وليده الإرادة العمياء التى نادى بها شوبنهاور فهى فرض مكروه أو إلزام أعمى يقتضى الحرب والإنكار . ولا ريب أن القاعدة الأخلاقية ليست من قبيل المواصفات العمياء ولا الضوابط الجامدة ، وإنما شأوها شأو الفن ، وليدة التجربة العميقة التى يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء ، وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة في توارىخ الأدب والفنون وتراها ماثلة للعيان فيما يجرى بيننا من شعر المتنبي وأمثال شكسبير ، على أن طه حسين عندما يصرف الأدباء عن الأخلاق ، إنما يقع في العيب الذى يأخذهم به فهو يسقط في نقي الحجر عن الشاعر ويقع هو فيه وأى حجر أشد من الوقوف بالفضائل والأخلاق موقفاً بعيداً عن الفن فلا ينبغي للأديب أن يقربها وإلا كان أدبه (قديماً من قوارير) تصطليح عليه علل الكذب وأدواء التصنع ، وينتفى عنه

سمات العصرية والأدب الحديث. ولا ريب أن الوجدان الديني يعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاسيس ومشاعر النفس، لا ينبغي ناقد ولا يكون له في قضية الحرية نصيب ، على أنه سيظل ماثلاً في الأذهان أن الحرية قد تنفضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج عن الأعراف والمواضعات وينتهي إلى التعبير عن الأهواء والتذوات .

ولا ريب أن مشكلة الفن والأخلاق من أعرض المشاكل الأدبية فهي تقتضي النظر في ماهية الفن والأخلاق فضلاً عن النظر في طبيعة النشاط الفني والجمالي ، وصلته بطبيعة النشاط الأخلاقي ومكان النشاطين من ملكات النفس ، ولا ينكر ما تتقاضاه كل مشكلة من الجهد منفردة فضلاً عنها مجتمع بعضها إلى بعض عن اختلاف الرأي فيها ، وخلاصة القول أن دعوى الاختلاف بين الفن والدين والأخلاق نشأت من اتباع نظرية (الفن للفن) ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل ، فلا عبرة بالموضوع ذاته وإنما العبرة بمقتضيات التعبير فالفنان لا حجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس اتفقت مواضعات الجماعة وأعراف الناس أم نخرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير ، ومن هنا نشأ التضارب وسار عليه الدكتور طه حسين فيما أسلفنا من القول (خسرت الأخلاق وريح الأدب) .

وهو موقف يوحى به ظاهر المذهب وقد شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبدل مقصود وحجة يسوقها أنصاف الفنانين بين يدي الانحلال ، يريدون أن يضيفوا عليه ثوباً من المشروعية الزائفة بنفقونه بها في سوء الغباء الفني ، فغاية المذهب الحققة تخلص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم تكن قصاره أن يقف من الأخلاق والأديان موقف التناقض ، والتدابير ، الذي وقفه طه حسين .

(٢)

وبعرض الدكتور محمد أحمد الغمراوي لقصة إطلاق الأدب عرضاً تاريخياً يكشف خلفية الدعوة التي حملها دعاة التفرغ وفي مقدمتهم طه حسين فيقول :

لأنهم نفر ثقافتها غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور ، والعلم الذي ظهر في الغرب هو في الإسلام جزء من الدين ، والذين جاءوا بعد محمد عبده ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب في ظنه الذي ظن بالإسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق ولم يطبقوا أن يهاجموا الإسلام مواجهة بدعوة الناس صراحة إلى نبذه . وعمدوا إلى مهاجمته مداورة بدعوة الناس إلى قبح كل ما عليه الغرب ، إن كانوا يريدون أن يكون لهم للغربيين من قوة وحياة ، وزعموا للناس أن المدنية الغربية كل لا ينتجها ، فلما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، وإما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها وإما لا يؤخذ منها شيء ، ونجحت حركة الالتفاف الذي يقوم بها دعاة الغرب ضد الإسلام في نفوس من أصغى إليهم من الناس حين ألبأوهم إلى أن يميزوا أنفسهم ذلك التميز بين القوة والحياة .

والمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين أدب وأدب ، وطريقة وطريقة ، ولكنها مسألة اختيار بين دين ودين ، فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام في أكثره ، والذين يسميهم هؤلاء : نصار القديم يؤمنون بالإسلام كله ، وبالقرآن كله ، ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، وأن يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله .

ثم إن أنصار الجديد يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون أو يقولون ، ويريدون أن يتحللوا منها فزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هي إلا عرف وتقالييد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد في الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقى الأدب ، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود ، وأنصار الجديد يدعون إلى الفن العاري والأدب المكشوف ويدعون للفنان والأدب حرية في القول والفعل لم يأذن بها الله لإنسان وأنصار قديم الإسلام يدفعونهم عن هذا ويجدون حرية الفنان والأديب بما حد الله به حرمة كل إنسان من قيود الدين والأخلاق .

ومعنى أنصار الجديد في سبيل توهين السد الإسلامي الذي يجدونه قائماً في وجوههم أيها تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع

عبرى لا من صنع الله وأنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية وإذن فينبغي أن ينضج لما ينضج له كل عمل إنسانى من النقد والفحص والبحث العلمى فيما يزعمون ويهب لدرء هذا الإفك العظيم كل كريم من رجال الأدب ويقاثلونهم على إعجاز القرآن وحرمة وتقديسه ويدعونهم إلى خطة إنصاف ليس من إنصاف بعده . إما أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشئ . إن كانوا لا يؤمنون به ، وإما أن يذكروه ويدرسوه إذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والإجلال الذى يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما عليها من الظواهر الكونية الثابتة .

ويتحدث الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن الفن فيقول إن للإسلام مقياس يعرف به الخير من الشر فى الفنون وهو كميّار معرفة الحق والباطل فى العلوم ثم يضى فيقول : إن أصحابنا المحددين يعرفون من كلمة الدين كأنما تسمعهم من اسمه النار ، إن المسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب الذى يكتبون كلاماً لا يرجع فيه إلى أصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن ، ونحن مأمورون أن نرد كل ما يختلف فيه إلى الله والرسول . إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة إنبأ نظراً لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة ، أدبها وفنها وعلمها بالدين كما أنزله الله ، أى كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول ، إن الإسلام دين يشمل الحياة بجزاها وبمحيط بها من جميع أطرافها ، ومن أخص خصائصه أن يكون الإنسان فى خلجات نفسه مع الله ، والمظهر العام للإسلام هو طبعاً اتباع ما شرع الله للإنسان فى الحياة من نظم وأحكام . كيف يجوز فى غزيرة أو عقل أو علم أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية والأدبية والعلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق ، والتطابق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه ، فليس من الثابت فى العلم شئ ينقض شيئاً من الإسلام ، وليس فى الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة فى العلم ، إن الفطرة كلها منشأ واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد اجتماعاً على استحالة التناقض فى الفطرة ، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الإسلام فى شئ ، فإذا خالفه

في أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء بها الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا ، فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودأبرت الخير وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق ، والتي تريد الفنون أن تكون منها في الصميم ، فإذا كان من شأن بعض ما يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز في تأثيره ما سبق على القيم الأخلاقية فيحول بين الإنسان وبين ربه ويدخل عليه الشك في دينه بأى صورة من الصور ، ولأى حد من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً أو إفكاً في الفن والأدب والفطرة والدين على السواء . فتحسن حين ندعو إلى وجوب نزول الأدب والفن على حكم الدين وروحه ونحرمهما التطابق العام بينهما وبينه لستنا نعتن ولا نتجنى ولا نتحكم في الأدب والفن بما لا ينبغي التحكم به فيهما . إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير في الفن والأدب ونيسر للفن والأدب طريق التثبيت في انطباقهما على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ونحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة في الصميم ، ونحن بذلك الذي ندعو إليه . ونقوم بواجبه تحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة في الدين والعلم .

فالمسألة في الأدب ليست مسألة لفظ ومعنى ، ولكنها في صميمها مسألة روح ، فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً محتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وبما أحل ، لا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقي في ذلك من لذة وألم أو غيرهما من ألوان الشعور ، ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب ، وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة في حدودها الواسعة التي حدها الله ومظاهرها المختلفة في الفطرة كما طهرها الله لا كما دنسها ويريد أن يدنسها الإنسان .

ويتحدث الدكتور محمد أحمد الغمراوي عن الأدب الأخلاق والأدب غير الأخلاقي فيقول : المقياس الذي انتهينا إليه في الفن والأدب ليس من البعيد عن الفن والأدب بل هو من روح الفن والأدب في المنهج ، أليس

روح الفن والأدب : الجمال ، أليس الجمال القنى روح الجمال الإنسانى
أليس روح الجمال النفسى أنجباته وأخلاقه وإسلامه لله، من هذا الأنجبات
والأخلاق والانقياد لله تأتى الفضيلة والسلامة والسعادة فى الحياة ومن محبة الله
سبحانه يشيع فى النفس الهدى ويشع منها النور كيف يمكن إذن أن يكون
للأدب المكشوف نصيب من روح الجمال الإنسانى يستهوى النفس التى فيها
بقية من الفضيلة والخير ، هذا الأدب المكشوف يصدى أول ما يصدى مفر
الفضيلة فى النفس ، ويؤذى أول ما يؤذى حاسة الجمال النفسى فى الإنسان
وهو فى صميمه أدب غير جميل ، بللذه ويسمع به من مسخه نفسه فصارت
تعاف الطيب وتستمرئ الخبيث .

• • •

الفصل الخامس الترجمة

محاول طه حسين أن يثبت أن الأدب العربي في حاجة إلى مترجمات من الآداب العالمية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي ، وهو يذهب إلى أن يقتحم هذه الغاية فتقدم أسوأ ما في الأدب الفرنسي من نتائج حيث اختار في جميع مترجماته الأدب الفرنسي المكشوف .

وهو كى يدارى وجهته يدعو إلى النقل من الآداب العالمية كلها ، لا الأدب الفرنسي وحده ويبدأ هذه المحاولة بأن ينشئ مقارنة بين الأدبين العربي والفرنسي فيعلن أن الأدب العربي قد أخذ من الأدب اليوناني القديم فلا بأس عليه من أن يأخذ من الأدب الغربي الحديث . ثم يذهب خطوة أخرى فيجري مقارنة بين الأدب العربي والأدب الفرنسي فيشيد بالأدب الفرنسي والتبعية واضحة في الغاية وفي الوسيلة أيضاً .

هـ تسألني عن الفرق بين الأدب الفرنسي والأدب العربي ، فأني في ذلك لا أختلف من المستشرقين الذين بحثوا هذا الموضوع وهو في الواقع فرق بين ما بين العقل السامي والعقل الآري ، فالأدب العربي سطحي يقنع بالظواهر والأدب الفرنسي عميق دائم التغلغل . وفي الأدب الفرنسي وضوح وتحديد لا وجود لها في الأدب العربي . . إلخ .

وهو في هذا يردد ما قاله أسكبر أعداء الإسلام والعرب (رينان) وهو ينطلق من هذه المحاولة المبطللة إلى الدعوة إلى نقل الأدب الفرنسي ، ولما كان لكل أدب أمة مميزاته وخصائصه المنتمية من حياة هذه الأمة وعقيدتها وأخلاقيها فإن هذه المقارنة باطلة أساساً ، كذلك فإن طه حسين حين ينقل فإنما ينقل أسوأ ما في هذه الآداب ، ينقل ذلك اللون المكشوف الداعر الذي لا حاجة للأدب العربي به ، والذي لا يستطيع أن يعطى إلا الفساد والتحلل ، وهو

في كل ما نقل من الأدب اليوناني والأدب الفرنسي جرى هذا الجرى .
وذهب إلى أبعد من ذلك حين حاول أن يهدم قاعدة أساسية وهي أن الأدب
لا ينقل دائماً كما تنقل العلوم ، وأن لكل أمة آدابها المستمدة من قيمها
وعقيدتها وتقاليدها .

ولكن يذهب إلى الدعوة لغير ذلك فيتحدث عن أن الأدب الفرنسي
لم يقف هذا الموقف ، ونحن نعرف أنه أخذ من الآداب الأوروبية المشتركة
معه في الدين والأخلاق والقيم ، ولكنه لم ينقل من آداب غير مشتركة معه
في هذه الأصول ، ونحن بالنسبة للأدب الفرنسي نختلف ديناً وأخلاقاً وقيماً
فلا يحق لنا أن ننقل أو نفتتح باب الاقتباس في هذا المجال : مجال الأدب
ونستطيع أن نفعل ذلك في مجال العلوم فهو وحده الميدان الذي تتواصل فيه
الأمم .

ويهدف طه حسين من دعوته تلك إلى هدف حيثي ، وهو أن يدخل
مناهج الأدب الأجنبي في اللغة العربية لتغلب ثقافتنا العربية الإسلامية
وتتأزج نفوس المسلمين والعرب وتؤدي خدماتها للنفوذ الأجنبي في حمل
الفكر والثقافة .

وفي هذا يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي :

يوسفنا أنه ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي في غير طريقه ، ويبسونه
ثوباً من غير نسجه ، كان الدكتور طه ومن معه يريدون أن يسوقوا الأدب
إلى الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة ، والغربي عامة حتى يفضل طريقه .
أي صلة بين المنقول من الأدب الفرنسي : وبين روح هذه الأمة ، ويذهب
طه حسين إلى الترجمة فلا يقدم إلا الشهوات والسموم ، هذا في مجال القصة ،
ولا يكتفي بهذا ، بل يذهب إلى مجال ترجمة الشعر الفرنسي ، ويختار شعر
أشد شعراء فرنسا إباحتاً ونذالة : شعر بودلير ، ويقدم هذا الشعر بأسلوب
عجيب حيث يقول :

أنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير التي سماها
(خلوة إلى النفس) والتي تحدث فيها إلى أمه .

وكما قدم أبا نواس في حياته المضطربة المليئة بالإثم والفاحشة ، فهو يقدم

لك بودلير تحت اسم الحرية والفن ، ويتحدث عن ديوانه (أزهار الفن)
الذي وقف من أجله الشاعر أمام القضاء .

ويقول لقد أثارت حياة بودلير مسألة من أدق المسائل التي سيظل الخلاف قائماً فيها أبداً بين الفرد والجماعة ، هذه المسألة هي مسألة الحرية والفن .
ويتساءل : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة بالقياس إلى الأخلاق
والسياسة والدين وما إليها من النظم الاجتماعية .

ويتساءل مرة أخرى : هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ونستخلص
منه صوراً فنية جميلة .

هذه هي السموم التي أدخلها الدكتور طه حسين إلى الأدب العربي عن
طريق الترجمة ، تلك هي عمله على أن يعرض تلك الصور التي سماها (الصور
البشعة التي يحسبها الشم واللمس أو البصر في الأجسام المألوفة المستهلكة) ، هذا
هو ما يرغب طه حسين إدخاله إلى الأدب العربي عن طريق الترجمة .
أماماً آثاره في هذا من القضايا فقد واجهناه بالرد الحاسم في الأبواب الأخرى .

(٢)

وقد حرص طه حسين من خلال برنامجه التغريبي الواسع أن يقدم في
جريدة السياسة يوم الأربعاء شعراء المهجورين ، وأن يقدم يوم الإثنين القصص
الفرنسي المكشوف .

وقد كان هدف ذلك تقديم شحنة ضخمة من الإباحيات من التراث القديم
ومن الأدب الحديث ، وقال مستر (جب) : إن القصص الذي ترجم لم يترجم
ترجمة سليمة ولم يراع في اختياره حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة
ولا الذوق الأدبي للبلاد كما ندد بالترجمات التي نقلت من اللغة الفرنسية ووصفها
بأنها استهدفت الإثارة دون المنفعة ، وأنها عملت على نقل الصور المكشوفة .
وقد لقيت هذه القصص نقداً عنيفاً من عدد من النقاد في مقدمتهم الأستاذ
إبراهيم عبد القادر المازني . الذي يقول :

خذ إليك مثلاً تلك القصص الفرنسية التي نخصها طه حسين من آن لأن
يلهى بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيراً . هل ترى بينها وبين روح
هذه الأمة صلة أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة ، وإذا لم يكن فهل فيها

شيء يحدد من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية في هذه الأمة ويعينها على سبيل العزة الذي تريد ، ما نطقن أحداً دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب إلى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلاً لضربنا مثلاً : (الرتبة الحمراء) التي ألفها — أنا تول فرانس كان فيها من المعاني ما كنا نطقن أن أستاذاً يستحي أن ينقله للناس أو أن مجلة مثل (الهلال) تنشره عليهم ولكننا تأتي أن تشير بأكثر من هذا . وصاحب الكتاب — أي طه حسين — قد دل على أنه ممن يرى إطلاق الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان جرح في أن يصور الرزيلة كيف يشاء بريشته أو بمنقشه أو بقلمه ما دام يصورها كما هي ، وهو مذهب شاع حديثاً في أوربا وأعان على انتشاره أن يجد عوتاً من الجانب الحيواني في الإنسان وأنه وسيلة قوية لتبليث الشهرة وجمع المال ، وفيها يتصل بأثر طه حسين في الترجمة ما قام بترجمته من بودلير الشاعر الفرنسي والمعروف أن بودلير شاعر منحرف الذات والذوق وأن هناك عشرات من الشعراء ذوي الفن العالي والذوق الرفيع يمكن الترجمة لهم ، وفي إحدى هذه القطع يقول طه حسين ناقلًا عن بودلير : (كذلك نفسك التي يحرقها برق اللذة الملتب تبلى سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة) .

ويقول الأستاذ المازني : (اقرأ قصصه التي ترجمها : هل كان همه نقل الفصاحة الإفرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور القاضلة في ثيابها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للثورة وتصوير الخلاعة والمجون في صور جذابة ليقضى بهذه الترجمة حق الإباحية لا حق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان طه حسين يقول : إنه ممن خلق الله لهم عقولا تجدد في الشك للذة وفي القلق والاضطراب رضاء) .

ولقد أعلن طه حسين أكثر من مرة رغبته في ترجمة الفلسفات الأوروبية كما كان حريصاً على ترجمة شكسبير ، وقد أصدرت اللجنة الثقافية في الجامعة العربية مجموعة من الكتب عن إدسون ، وول ديورانت وغيرهما تبين منها أبعاد الخلطة لإذاعة مفاهيم صهيونية ترمي إلى تدعيم القيم الإسلامية والعربية وكانت الجامعة العربية في هذا وكأنما تنسى مع البرنسكو وفرانكلين وغيرها مما يلوذ بولاء الدكتور طه حسين ويجري في مصر تحت مظلته ونفوذه .

الفصل السادس

نقد الشعر

هناك إجماع بنصوص صريحة من العقاد وزكى مبارك ومحمود محمد شاكر الذى كتب فصلاً مطولاً فى هذا فى مقدمة كتابه (الملتقى) أن طه حسين قليل الخبرة فى فهم الشعر ونقده . وتجمع نصوص أخرى على أنه فى كل معاركه التى دخلها عن الشعر كان موقفه ذاتياً وكان يصدر عن هواه الشخصى ولم يكن يملك من الأدوات ما يمكنه من حسن النظر ولا يملك من التماسك الشخصى ما يمكنه من سداد الرأى .

وموقفه من ناجى وعلى محمود طه واضح تماماً فى هذا الصدد . فحين أحس بأن خصومه السياسيين أثنوا عليهم حمل هو عليهما حملة عنيفة وكذلك كان موقفه من محمود أبو الوفا . وكان العقاد والماسزنى قد أثنيا على ناجى وعلى محمود طه وكان الرافعى قد أثنى على (محمود أبو الوفا) وكان لابد للدكتور طه أن يعارضهما لحزازات قديمة أو خلافات سياسية .

وقد علق على هذا الأستاذ سيد قطب بمقالات نشرت فى مجلة الأسبوع (يوليو عام ١٩٣٤) وقال طه حسين فى الرد عليه : (إنه لم يوفق إلى الصواب حين ظن بى أنى أثأثر فيما أكتب بمنافسة أو ضغينة أو حقد ، فאלله يشهد أنى أبعد الناس عن هذه المؤثرات وأثأثرهم عن هذه الخصال) .

وكان سيد قطب قال فى مقالة : إن طه خبيث على ما به من طيبة . وقد أجاب طه حسين : والكاتب الأديب يخطئ كل الخطأ ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن أنى خبيث رغم ما أظهر من الطيبة فلست أدرى أطيّب أنا أم خبيث ولكن الذى أعرفه ولا أحب للكاتب أن يتكره على هوأنى لا أحب الخبيث ولا أتخذ سبيلاً فيما أكتب . وقال سيد قطب : إنه لم يقل : (إنك خبيث على رغم ما تظهر من الطيبة ولكنى قلت : إن طه خبيث على ما به من طيبة) . وما أردت أن أقول : (إنك خبيث) ولكنك تتظاهر بالطيبة

فأداني الشخصية وحدها تمنعني كما قلت من أن أقول هذا وإنما أردت أن أقول : إن بك خيباً كما أن بك طيبة وما أظنني أرضى لك يا دكتور أن تكون رجلاً طيباً فقط ليس بك شيء من الخيب يحمي هذه الطيبة فأنت تعلم من هو الرجل الطيب فقط وما أظنك ترضاه لنفسك ولو كنته ما أفلحت في حياتك وما رقيت منتر كلية الآداب ، ولا رقيت منتر النقد ، وما كنت الدكتور طه حسين ولكان مكانك اليوم في واد آخر غير ما أنت فيه ، أنك خيبث يا دكتور رغم ما بك من طيبة .

أما أن الدكتور طيب أو خيبث ، فهنا موضع لفكاهة جميلة ، فأنا أزعج أن الدكتور خيبث وأن به مع ذلك طيبة وأن هذين العنصرين يتلاقسان في نفسه ، فاما الطيبة فلا أرن أن أسوق الأدلة عليها لأن الدكتور لا ينكرها . وإنما هو يريد أن ينكر الخيبث أو أن يتجاهل هذا الخيبث ، إذن فدونك البرهان يا دكتور على أنك خيبث ، ولن أبعد بك ولا بالقرءاء في شيء مضى ولن أتناول إلا مقالك الأخير الذي ورد به هذا الكلام ففيه جوانب يملأها الخيبث وإن كان ظهور هذا الخيبث في مواضع تلك حيث لا ينبغي ظهوره هو الطيبة التي أرميك بها ، فأنت تحدثت عن الرسالة وعن الزيات وعن موقفهما معك وعن توفيق الحكيم وأنت قد تحزرت الرسالة وصاحب الرسالة تحزرت بعضها ظاهر وبعضها خفي ، فقد جاء في كلامك : فكنتيت في (جريدة) الوادي كلمة عتاب يظهر أنها أغضبت صديق الزيات فهو يرد على في العدد الأخير من الرسالة بكلمة قصيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً ، أظن أنه لا يستطيع حملها ، وإن كان قوياً شديداً البأس وأظن أنه لو فكر فيها وتدر معانيها لأشفق من كتابتها ولكنه أديب فتنة السجع وخيلة الإيجاز ، ثم يعود لحكاية السجع والإيجاز مرة أخرى فيقول : (إن مودة الأصدقاء يجب أن تكون أغلى من صبرة وأنفس من إيجاز) ، ثم يردد حكاية السجع وحكاية الإيجاز مرة أخرى :

ألا تلمح خيبثاً يا دكتور في هذه الحكاية وفي ترديدها ؟

ألا تحس خيبثاً في تصوير الزيات بأن صبرة واحدة وإيجازاً واحداً يجعلانه يضحى بالأصدقاء ومودة الأصدقاء وكيف يكون الخيبث إذن يا دكتورنا

الطبيب ؟ ثم حكاية الدكتور أبي شادي وإهدائه بعض دواوينه إليك بمجرد أن تنهى إليه أنك ستتناوله بالنقد وكتاب شكره (سلفاً) على ما سكتبه (مستقبلاً) : ألا ترى في ذلك كله خبيثاً أو لباقة إن شئت أن تسميها أصدقت يا دكتور . ألسنت قد أحسست بالتوريط في صنع أبي شادي وتقربه إليك وشكره لك . . .

عل أي يا دكتور : أنت خبيث ورزق على الله ، وليس هذا الخبيث عيباً فيك تبرأ منه ، بل ربما كان أحد العناصر الممتازة التي رفعتك إلى مركزك الذي تتبوأه الآن بين المصريين .

أضف إلى هذا أن الزيات كانت له من قبل كتب مترجمة وكتب مؤلفة وأبحاث في الرسالة وغير الرسالة ونحن جميعاً وأنت معنا تعلم أن الزيات لم يصطنع السجع والإيجاز في أسلوبه منذ اليوم فقط ولكنه اصطنع لنفسه أسلوباً مضى عليه قديماً ، فما بال نقدك للسجع والإيجاز لم يجعل يحاطرك من قبل كما جال الآن ، وما بال حكاية السجع وحكاية الإيجاز لم ينطق بها لسانك كما تطلق اليوم . وهل نقدك اليوم بعد هذا الأمد كله يبعثه الإخلاص للنقد الخالص أم هي أشياء قوامها بين الأدباء الشيوخ أو الذين يسمونهم الشيوخ (١) . هـ

وتأسبياً على هذا نقول : إن الدكتور طه بعد وفاة شوقي أعلن بأن إمارة الشعر انتقلت إلى العراق (حيث الرصافي والزهاوي) ولم يلبث إلا قليلاً حين انتقل من حزب الأحرار الدستوريين إلى حزب الوفد ، حيث يوجد العقاد كاتبتهم الأول فإذا به ينتهز أول مناسبة ليعلن أن إمارة الشعر هي من حق العقاد ولم يلبث بعد قليل أن أهداها مطران .

يقول الدكتور زكي مبارك :

أشعت أن إمارة الشعر بعد شوقي قد إنتقلت إلى العراق ، أخطأت يا سيدي الدكتور ، أن الشعر لمصر حتى آخر الزمان ، أنت نفسك حاولت أن تكفر عن ذنبك فخلعت إمارة الشعر على الأستاذ العقاد وهو أديب فاضل بدليل أنك أهديت أحد كتبك إليه ، ولكنه شاعر صغير بالقياس إلى العبقرية المصرية .

ويحسن أن ننقل هنا نص مبايعة طه حسين بإمارة الشعر للعقاد من خطابه في تكريم العقاد (الجهاد ٢٩ إبريل عام ١٩٣٤) :

(ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظفروا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه) .

وكتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يقول :

إنني حين قرأت كلام الدكتور طه لم أبحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم واقتناعه وحججه وأدله ، بل بحثت فيه عن سخرية طه بالعقاد والشعراء جميعاً في أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية في قصتها المعروفة حين قالت لرجال قومها في أبيات مشهورة :

وإن أنتموا لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تغيب عن الكحل
غير أن طه في سخريته كالذي يقول : فإن لم تثبتوا أن فيكم من استطاع
أن يخلف شوق فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

ثم قال : بقي أن نقسم لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور عميداً
للكلية الآداب وكان يومئذ حراً لا يستزله الإكراه ، ولماذا جاءت الشهادة
وهو يحترف الصحافة ؟ ترى لو كان العقاد من الحزب الوطني أو من الأحرار
الدستوريين ، أو اتحادياً أو شعبياً أفنكون قوله طه حسين يومئذ وهي في
انسلاخه الثاني وانقلابه وفدياً — أفنكون إلا رداً سياسياً على العقاد وشعره
ونفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده . (الأسبوع مجلد عام ١٩٣٤) .

غير أن العجيب في الأمر مما يذكر بقصة سيد قطب (الحب والطيبة)
ما كتبه طه حسين في جريدة الجمهورية من بعد :

(أحب أن أؤكد أنني لم أبايع العقاد بإمارة الشعر وما كان لي أن أبايعه لأنني
لم أكن شاعراً وإنما قلت : مخلصاً غير محاب ولا متأثراً بالسياسة ولا مستعد
للرجوع فيما قلت : إن الشعراء يستطيعون أن يرفعوا لواء الشعر إلى العقاد
بعد أن مات حافظ وشرق فهو يستطيع أن يحمل هذا اللواء مرفوعاً منشوراً
وأن تحتفظ لمصر بمكانتها من الشعر الحديث) .

أما موقف طه حسين من العقاد بعد موته فأعجب ، فقد أعلن أنه لا يفهم
العقريات !

(٣)

وقد حمل طه حسين على شعراء النظم وقسى في محاسنهم ، ولكنه لم يلبث أن شجع كتاب الشعر الحر ودافع عنهم وقال : إن عمود الشعر ليس وحيًا قد نزل من السماء .

وهو في هذا يجرى مع غايته وهواه ودعوته في إدخال كل العناصر الأجنبية التي من شأنها أن تقضى على الأصالة . وموقفه من الشعر الحر أشبه بموقفه من اللغة ومن النحو .

فهو يدعو إلى فتح الأبواب أمام كل جديد دون احتياط ويحمل هذه الفكرة من خلال دعوته إلى (الثقافة البيضاء المتوسطة) على النحو الذي أشار إليه عام ١٩٥٧ في مجلة الآداب في حديثه عن الشعر الحر رابطاً ذلك بالأدب اليوناني والثقافة الرومانية ومن خلال مفهومه المنحرف من ترجمة كل شيء دون تحفظ ومن ذلك وصفه حركة الترجمة التي تقوم في لبنان بأنها خصبة وهكذا وضعنا طه حسين في لعبة الثقافات الأجنبية على اختلافها لإفساد قيعنا ومقوماتنا .

* * *

الفصل السابع

القصة

كان طه حسين من دعاة كتابة القصة في الأدب العربي الحديث حتى أنه قال : بأن الأدب العربي الحديث رهن بظهور القصة ، فإن لم تظهر فلا أدب ولا أدباء ، وكان طه حسين قد كتب في عام ١٩٣٢ أنه قابل مسر هاملتون جب المستشرق البريطاني وقد تناول حديثهما الأدب العربي ، وأن جب قال له : إنه ما زال ينتظر القصة المصرية الجديدة ليكتب عنها ويسجل بها نمو الأدب القصصي وتقدمه . وقد رد عليه الدكتور زكي مبارك فقال : إن هذا الحرص له نتائج مشنومة أسرها أن يغلب على أدبنا صيغة الانفعال ، الانفعال عدو الفطرة وهو شر مستطير على الآداب والفنون والقصة في جميع الآداب موقوفة على المرأة . وهي لا توجد في أدبنا لأننا لا نعرف المرأة في حياتنا .

من الذي ينتظر ظهور القصة ؟ الجواب : حاضر . ينتظر القصة أحد رجلين : مستشرق يريد أن يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية ، وشرقي مغنون بالتقليد يريد أن يسار الأجانب في كل شيء ، ومن عجيب الأمر أن نجد القصصيين عندنا في الطبقة الدنيا من أدباء اللغة العربية وللقارئ أن يعدهم واحداً واحداً ، هم جميعاً عالة على الآداب الأجنبية ، يستوحونها بلا فهم ولا تبصر وينقلون منها نقلاً سخيلاً مشوهاً يجرح الأذواق والنفوس . وهو في كتابه القصة يصل إلى نفس الهدف الذي قصد إليه من إحياء الشعر القديم أو ترجمة القصص الفرنسية المكشوفة ، ففي قصته أحلام وشهر زاد أشيع المؤلف — كما يقول زكي مبارك — حاجته العنيفة إلى لذة الشك طليقاً من كل قيد ، فليس في القصة صورة واحدة تثبت على حال ، أو تعبر عن معنى مستقر يسوق إلى غيره ، فتراه يفترض وجود عالم وهمي ننحل فيه المشاكل بالسحر ، ويتدخل السحر في الحرب والسلام ، وقد بلغ

حظه من هذا الفهم أنه وسع دائرة التنفيس عن كوامن نفسه فجعل لها ورائه عن شهريار وشهر زاد بطانة من قصته عفرينية أخرى تتمشى معها كما يتمشى الظل ، وابتكر لذلك حكاياته الملفقة عن الملك طهمان ملك الجبل وابنته فتنة ، ترى هل لم يجد الدكتور في وسعه لتثقيف المصريين وإنبأهم وحل مشاكلهم خيراً من أن يبيعهم هذه الأحلام وهذا السحر الرخيص في مملكة العفاريات (طهمان) .

وفي قصة (الحب الضائع) التي حاول فيها أن يصور المجتمع الفرنسي ، يقول زكي مبارك : يقول الفرنسيون حين يترجم هذا الكتاب إلى لغتهم : هذه بضاعتنا ردت إلينا لأن طه حسين يقتبس ولا يعوزه أن يضئ ثوب الابتكار على الاقتباس .

ويجري الحديث بعبارات على لسان فتاة توّرخ حياتها من مساء إلى مساء (الآنسة مادلين) وهو كتاب كتب بطريقة يغلب عليها الرمز والإيماء وإن كان غاية في الصراحة والوضوح عند من يساير المؤلف في أشواطه الطوال .

ويرى زكي مبارك - وهو العالم بصاحبه - أن قصة (الحب الضائع) ترى إلى تجسيم العقد النفسية . ويشير زكي مبارك إلى إيماءات في القصة تدل على أشياء لا يريد طه حسين أن يكشف عنها وذبول للقصة ومقاصد يستطيع أن يدركها القارئ في أناة وهدوء .

ويشير إلى أن مادلين في مذكراتها لم تستكشف الحقائق ، ويعود الخطأ إلى طه حسين ، لأنه المنشئ الأول لهذه المذكرات ، ويقول : إنه أضع فرصة النص على أن مادلين ضلت سواء السبيل وهي تشرح ما تعرضت له من علل وأسباب ، والرأي أن يترك طه حسين أهواء النساء لأحد بنات حواء ، ومن خطأه أيضاً أنه أجرى قصة دعاء الكروان على لسان امرأة ، كما أجرى قصة (الحب الضائع) ، ويقول كاتب آخر إن قصة الحب الضائع . تعالج فكرة الصراع بين الحب والواجب وهي فكرة فرنسية عولجت معالجة فرنسية بلغة عربية هي لغة طه حسين ، فالحديث فيها غير بين ، والقصص كلها بلا أحداث .

وهكذا نرى أن هناك ظاهرتين واضحتين : في أدب طه حسين هما الشك والجناس ، ونقل صور الحياة الغربية ومشاكلها إلى الأدب العربي لغير ما سبب وأوضح غير أنه يريد أن يشوه الأدب العربي بالصورة والمضامين الغربية عنه .

(٢)

ولعل خير ما كتب عن طه حسين والقصة هو ما كتبه الأستاذ فتحى غانم (آخر ساعة - يوليو سنة ١٩٥٤) حين قال إن الدكتور طه حسين لا يعرف كيف يكتب القصة القصيرة ، وأن هذه حقيقة يجب إعلانها وتوضيحها لأن لطه حسين تاريخاً قوياً عميقاً في كل من عالم الأدب في مختلف صورته وألوانه ، ولو ظل كتاب القصة القصيرة متأثرين بأسلوب الدكتور طه حسين وبطريقته في كتابة القصة - كما كتبها - (في المعذبين في الأرض) مثلاً لتأخر ذوقنا الأدبي ووعينا الفني .

إنه يقول : (هـ لا أضع قصة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد، ولو كنت أضع قصة لما ألزمت إخضاعها لهذه الأصول، لأنى لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعرف ما بدا للنقاد منها يكرهوا أن يرسموها إلى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أتقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوقه من حديث، وإنما هو يخطر لي فأمليه ثم أذيعه فن شاء أن يقرأ فليقرأ، ومن ضاق بقراءته فليتنصرف عنه) .

في هذا الكلام غرور صريح وغرور قبيح وهو فوق ذلك فوضى وضياح فطه حسين حر في أن يقول في مقدمته ما يشاء ، وحر في أن يكتب قصصاً لا صلة لها بمقدمته إذا أراد ، ولكنه ليس حراً في أن يتعدى حدود الأدب أعنى الفن - وليس حراً في أن يتجاهل النقاد وليس حراً في ألا يحترم عقول القراء ، إلا إذا أراد أن يقول : أنا ، أنا طه حسين أى كلام أقوله أو أنشره سيقروا الناس في إعجاب وذهول وتصديق ، أى كتاب أو مقال عليه اسمي سيقبل عليه القراء في إيمان أعشى وتسليم شائن ، وطه حسين حين يقطع روايته للقصة ليقول مثل هذا الكلام .

إن طه حسين مشغول بمثل هذه القصص عن نكبة مصر في كتابة القصة

وهو مسئول بلغته عن بعد قصصنا عن الواقع الحى . والأسلوب الذى يتخذه طه حسين فى كتابة القصة نقص أدنى لأن الكمال الأدبى يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة وهو نقص خلقى لأنه كذب ، كذلك للكاتب على نفسه وعلى معاصريه حقوق . وهو يحكم ظروفه لا يستطيع أن يكون قصاصاً ، فهو ناقد ممتاز فى زمانه وصاحب نظريات فى التعليم ولكن ليس قصصياً ، وكان من من المحتمل أن يكون طه حسين شاعراً ولكنه لم يفلح أيضاً فى إبداع الشعر .

فى أثناء هذه العشرين عاماً مضى طه حسين يحطم كناقذ كل محاولة لكتابة القصة فى مصر . وقد استقر فى قرارة نفسه أنه عاجز عن كتابتها وانقلب طه حسين إلى مدرس تحييف للغة العربية يصحح أخطاء الكتاب وينابها بقدرته على لغة قحطان وسيبويه . إن طه حسين الذى عجز عن فن الشعر وفن القصة بدأ يظهر على حقيقته ويعود إلى أزهريته وقد أحس بفشلته فى معالجة الفنون التى تصور البيئة المصرية والحياة . إن طه حسين قد انزوى فى حظيرة اللغة العربية وبدأ يتهم الذين لا يجيدونها بالكسل ، ونسى معركته مع الزافى ، وأصبح طه حسين غولاً متربعا على عمادة الأدب وفرضت كتبه على دور النشر تطبعها وعلى وزارة المعارف تشتريها وعلى التلاميذ المساكين يقرؤونها .

ويمضى فتحى غانم فيتحدث عن طه حسين : فيقول .

هل طه حسين ملحد أم مؤمن ، هل هو يؤدى فرائض الدين فيصلى ويصوم ، هل صاحب (على هامش السيرة) لا يقرب الخمر ولا يأتى من الأفعال ما حرم الله على عبادة الأتقياء الصالحين ، هل طه حسين ديمقراطى أم محافظ أرستقراطى ، هل هو شيوعى يميل إلى اليسار أم من أتباع الرأسماليين يميل معهم إلى اليمين ، أسئلة وأسئلة حاول الكثيرون الإجابة عنها فاختلغوا وتضاربوا ولم يصلوا أو لن يصلوا إلى رأى واحد ينتهون إليه ، وقام رجال الأزهر ونواب الأمة وشيوخها وقعدوا وعلى رأسهم سعد زغلول يتنادون بإلحاد طه حسين وكفره ومروقه على تعاليم الدين الحنيف لأنه درس فى الجامعة كتابه (فى الشعر الجاهلى) منشككاً فى بعض آيات القرآن الكريم وقام رجال الأزهر وشيوخها مهملين مكبرين لكتب طه حسين التى تعتقد بالإيمان والتدين ،

وكان طه حسين ربيباً لعبد الخالق ثروت وعديلى يكن رئيس حزب الأحرار صديقاً لهم يكتب فى جريدتهم (السياسة) ويعيش فى كنف أصحاب البيوتات والأبدى القوية الاستقرائية ويهاجم الحزب الوفدى على شعبيته فى ذلك الوقت ويصرح بأنه يحقته مقتناً شديداً ويزدريه ازدراءاً لا حد له ، وأنه مخف سياسي منكر . ثم أصبح طه حسين أحد أعوان الوفد الذى يحقته ويزدريه وخطب فى آلاف المتعلمين الإلزاميين يصف لهم محاسن الوفد وحكمه ورئيسه وأعوانه ومنذ أعوام استمع آلاف الطلبة فى الجامعة إلى طه حسين وهو يقول : نضر الله وجه فؤاد العظيم ، واليوم يقرؤون له مقالات يمتدح الثورة التى قضت على الأحرار الدستوريين والوفديين وطردت ابن فؤاد العظيم ، ومنذ سنوات صودرت كتب طه حسين وقيل إنه صديق للشيوعيين وبعدها سنوات طالب طه حسين بنشر الأدب الأمريكى فى الشرق العربى ، عشرات وعشرات من الأمثلة تدلنا على الذبذبة والخيرة التى عاناها طه حسين وعائيناها نحن أيضاً وهو لا يستقر على حال واحد فى الدين والسياسة ، شىء واحد قد سكن إليه طه حسين وشعار واحد اتخذته لنفسه ولم يجد عنه أبداً ، هذا الشعار هو الأدب ، فهو يسمح لنفسه أن يتلون فى أشياء كثيرة ، وأن يفرط فى أشياء كثيرة وأن يساوم فى أشياء كثيرة ، ولا يسمح لنفسه أن يتاون أو يساوم أو يفرط فى الأدب .

وما تكاد نحمد الله على أننا وجدنا شيئاً واحداً ثابتاً قد سكن إليه طه حسين وأنى أن يتلون أو يفرط أو يساوم فيه حتى نفاجأ مفاجأة مذهلة حين نسمعه يقول : إن الأدب فوضى ، نعم إنه يراه فوضى ولا شعور وشيطاناً غير عاقل يلهم بما يشاء من يشاء .

أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب لأننى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو .

(لا يستطيع الأديب أن يخضع لنظام أو يذعن لسلطان إلا سلطان هذا الشيطان الذى يلهمه ويوحى إليه ويدفعه إلى الإنتاج) .

هذا هو أدب طه حسين : فوضى لا شعور ، شيطان شغف بالفن لا بالحياة ، وليس لهذه الكلمات إلا معنى واحداً لا يجيد عنه . هذا المعنى تعبر لنا عنه

كلمات مثل الأنانية والغرور وحب النفس والخوف من الثورة والتحديد
إلا بالمقدار الذى يتيح لطله حسين حريته الشخصية فى أن يكون فوضوياً أنانياً
مغروراً .

إن طه حسين كان يحارب من أجل نفسه ونفسه فقط فإذا هبط عليه
الرضاء السامى رضى وإذا رفع عنه الرضاء السامى غضب ، إنه شخص محلىص
لنفسه أشد الإخلاص ، يحب صوته ويترنم به ، يحب أسلوبه ويشيد به ،
يحب ذوقه المصنئ الخالص ، يحب اللغة الفرنسية وآدابها ويتغنى بمجمل اللاتينية
واليونانية ويحب أن يتيح للناس جميعاً فوضى شاملة مثل الفوضى التى ينعم بها
ويريدهم جميعاً أن يتمتعوا باللغة الفرنسية كما يتمتع بها وأن يقدرُوا عظمة
اللاتينية واليونانية كما يقدر عظمها ، لقد كان رقيقاً حسن الطباع غليظ
الحس فأصبح لطيفاً مهذباً له بيت فرنسى رقيق نصف مهذب ، لا سياسة
تحمه ولا مشاكل اجتماعية تؤثره . حتى الدين فقد حول قداسه إلى شاعرية
جميلة ، فالدين عند رجل الأزهر والرافعى أيضاً كان تشنجاً وهو ساء يركب
الرعوس ويهز الأبدان ، أما الدين عند طه حسين فهو دين خاص : شعر
ونغم ، وإيقاع داخل راقص وطرب اهتزت له عمامم الأزهر ولحن الشيوخ
والفقهاء .

وعلى هذا المنوال تستطيع تفسير حياة طه حسين : يرضى الأحرار
الليستوريين عن ذوقه وأدبه فيرضى هو عنهم ويسخطون فيسخط أيضاً .

يرضى الوفديون فيرضى ويسخطون فيسخط ، وترضى السراى فيرضى
وتسخط فيسخط ، بتهمة رجال الدين فى ذوقه وأدبه فيسخط ثم يرضون
عن كنية الدنيئة فيرضى .

إن طه حسين يحتمى وراء لغته ، وهى لغة بين بين ، وهى ليست لغة
قديمة كل القدم وليست جديدة كل الجدة ويلاحظ عليها أنها لا تقطع فى
شئ أبداً ، بل هى مرنة تصلح للث والمداورة ، ولا تصف شيئاً بأنه
أبيض ولا أسود ، بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى السواد أو أقرب ما يكون
إلى البياض ، وهذه الطريقة فى التعبير هى مرآة صادقة لحياة طه حسين التى
هى دائماً بين بين .

وكذلك الأمر في قصة (الملعون في الأرض) فهو يقول في مقدمتها :
أنا لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن ولو كنت أضع قصة لما التزمت
إخضاعها لهذه الأصول لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعرف بأن
للقاد مهمما يكونوا أن يرسموا القواعد والقوانين . . . إلخ) .

ويقول محمد عبد المنعم مراد (المصري) ١ / ٣٠ / ١٩٥٣ :

إنه يضع نفسه فوق النقد ، لا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ولا يريد
أن يقيم له وزناً ، ولماذا ؟ لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على
الناس ، وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبي ؟ ألم يكن ذلك على حساب
غيره من الأدباء القدماء والمحدثين على السواء ، تخيل إلى أن الذي ألبأ
طه حسين إلى هذه الثورة المفاجئة على النقد والقراء هو إحساسه في ذلك
الموضع من كتابه . إنه تعرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء
النقاد الفضوليين . ولا أعرف في التاريخ كاتباً مهما تبلغ عبقريته يستطيع
أن يقول للنقاد : قف من أنت ، ولن يستطيع طه حسين بهذا الكلام الذي
سأقه أن يمنع قارئاً أو ناقداً من أن يبدي إعجابه بما كتب أو يخطئه عليه .

• • •

الفصل الثامن

اللغة العربية

ظل الدكتور طه حسين طوال حياته يدعى أنه نصير الفصحى ، وأنه عدو العاميات وطالما ردد هذا في مقالاته وفي نقده لكتب الكتاب وقصص القصاصين ، ولكن عدداً من الأحداث الواضحة ، والمؤتمرات الكبرى ، والمواقف المشهورة كشفت عن خبيثته ، وأعلنت سريره ، فإذا به داعية من دعاة الشعرية وعدو من أعداء الفصحى ، وكما دعا إلى قطع الصلة بين الأدب العربي والفكر الإسلامى حتى يتحرر الأدب العربي من ضوابط الأخلاق والقيم وينطلق وراء أهواء الجنس والإباحة ، فقد كان طه حسين حريصاً على أن يقطع الصلة بين اللغة العربية والإسلام حتى يمكن أن تتطور وتحرر من رباطها بالقرآن ، فتجرى في مجارى العاميات وتنحرف في طريقه الكتابة ، ولذلك فهو يصمت صمتاً بليغاً إزاء المرأة التى حاكها عبد العزيز فهمى حين دعا إلى كتابة العربية بحروف لاتينية ، وذهب إلى آخر الشوط في الدعوة إلى التحرر من قيود النحو ، وسلط تابعه (إبراهيم مصطفى) ليحمل لواء هذه الدعوة المسعومة .

وهو في أكثر من موضع يؤكد هذه الوجهة ، يقول في كتاب (مستقبل الثقافة) :

(اللغة ملك لنا ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها) .
(اللغة العربية وما يقضى عليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة دين ، لغة وطنية ملك لنا تنصرف منها ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها) .

وفي كتاب (الأدب الجاهل) ص ٥٧ يقول :

(اللغة العربية مقدسة ومبتذلة ، مقدسة لأنها لغة القرآن والدين وبالتالي لا يمكن إخضاعها للبحث العلمي الصحيح الذي يستدعي الإنكار والتكذيب والتقدو والشك ومبتذلة لأنها تدرس لنفسها وبالتالي لا تستطيع إخضاعها للبحث العلمي الصحيح) .

وفي مؤتمر دمشق للمجامع العربية كانت هذه الدعوة واضحة عام ١٩٥٦ وفي الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٧ حرص طه حسين أن يلقى كلمة معلناً فيها عن ضرورة إصلاح النحو وتجديده وتيسيره على شباب المسلمين .

وفي محيط العمل في وزارة المعارف مستشاراً فنياً ، ومديراً للثقافة ، ثم وزيراً كان الهدف واضحاً أمامه في انتزاع الدراسات العربية من حضارة الدين والقرآن والقضاء على تمييز دار العلوم في مجال اللغة العربية ومكانة الأزهري في هذا الميدان .

• • •

أولاً : فصل الدين عن الأدب :

الدعوة إلى فصل اللغة عن الدين تكمل الهدف التغريبي الذي حمل لواءه طه حسين من فصل الدين عن الأدب باسم حرية الأدب ، فكان معناه هو فتح الطريق أمام الأدب الإباحي (حديث الأربعاء والشعر الجاهلي) . يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي :

(ذلك أن ما ذكره طه حسين من أن الأدب العربي لا يدرس لذاته وإنما يدرس لغيره من فقه أو شرع مغالطة ، فإنه إذا كان الأمر كذلك في أول نهضة اللغة فما هو كذلك الآن . وقد كان الناس لذلك العهد في حاجة إلى باعث قوي يحفزهم إلى ضبط هذه اللغة وتحريرها واستنباط علومها . والصبر على ما في ذلك من مشقة وجهد ، فكان ذلك الباعث القوي هو الرغبة الشديدة في المحافظة على الدين وعلى ينبوع أحكامه أن يستغلق على الناس ، فلما فرغ المسلمون من ذلك وأمنوا على دينهم تعددت الوجهات في دراسة الأدب واللغة ، فكان علماء الدين يدرسونها كوسيلة وعلماء الأدب واللغة يدرسونها كغاية .

أما قوله : إن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة ومبتذلة في آن فالواقع أن من يدرس اللغة اثنان لا ثالث لهما : فريق يدرسها لذاتها وهو فريق جمهور المشتغلين بالأدب وواضح أن هؤلاء لا ينتدلوها . وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر برضاه واتصالها بذلك الشيء الآخر يقتضى عليها من الإكثار الذي يحيط بها ويحول بينها وبين الابتذال . فليس هناك خطر يتهدد الأدب ومن هذه الناحية : ناحية الابتذال ، أن الذين يفيضون عليها التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرضاً على فريق منهم لأنه يعين على ما هم فيه . وليس هناك غير الدكتور طه حسين وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافي حرية الأدب أو حرية العلم .

ويقول طه حسين : (من الذى يستطيع أن يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مباشراً بالإسلام أو هادماً للإلحاد) .

فلماذا كانت دراسة الأدب لخدم الإلحاد تصعباً للأدب فهل دراسته لخدم الإسلام تحرر للأدب ؟ فليترك طه حسين نصرة الإسلام إن شاء ولكن ليترك معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده في تحرير الأدب العربى من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات العصر العلمية والفنية فهو نوع من ذلك الكلام المبهم الذى يفهم الناس منه شيئاً ويريد به صاحبه شيئاً آخر ، ولو أخبرنا ما هى تلك الحاجات العلمية والفنية التى يحول دون قضائها اتصال اللغة بالدين . إن حاجة العصر هى أشد ما يكون إلى أدب شرقى نقى ، من أقدار الرذيلة ومن سموم الإباحة ، هذه اللغة التى أنهضها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو تقتل أهلها ويصبح مضروباً عليها الرق والذل .

ويقول طه حسين : (فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تدفوق الجلال الفنى فيها يؤثر من الكلام) .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : لو كان يريد من هذا الكلام
ظاهرة لما كان بينه وبين أحد من رجال العربية خلاف ولكن علمنا بالنزعة
التي ينزع إليها فيما كتب وفيما يكتب يجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام
غير ظاهره فلا يكون هناك تخرج خلقي من معنى نحسب ، ما دام هذا المعنى
يورده صاحبه في شكل فني يتذوقه ويلذه من ضعف أثر الأخلاق الفاضلة
في نفسه . ولكن الأدب ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله
لا يبالى أوافق رذائلها أم أخالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة
متناسكة لا أوصالا مفصولة .

(٢)

ثانياً : فصل الدين عن اللغة :

يقول طه حسين في كتاب (مستقبل الثقافة) :
(فالذين يزعمون لنا أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ثم
يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية إنما يخدعون الناس ،
وليس ينبغي أن تقوم حياة الأمم على الخداع فإن اللغة العربية ليست ملكاً
لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دوتها ويتصرفون
وحدهم فيها ، ولكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال وكل
فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المسالك ،
فما استوفى الشروط التي تتيح له هذا التصرف ، وإذا فمن السخف أن يظن
أن تعليم الأزهر وقف على الأزهر الشريف والأزهريين وعلى المدارس
والمعاهد التي يتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار .
هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة
العربية جميعاً وفيهم المسلم وغير المسلم) .

ويقول الدكتور محمد أحمد حسين : كان الشعوبيون يروجون للهجات
السوقية المحلية التي يسمونها العامية بمختلف الأساليب وكان أعداء العروبة
يتحابلون في انتزاع الدراسات العربية من حضارة الدين والقرآن حين قال
قائلهم هذا الكلام ، والغرض الذي يرى إليه صاحب هذا الكلام هو
قطع الصلات التي تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية هو أن

يتزع عن العربية قداسها ويجرمها من حماية الدين وحضائنه ليكشفها أمام أعدائها ويعينهم على الإجهاز عليها بعد أن يفردوها من كل نصير أو معين ولم يستع صاحب هذا الكلام وشيعته أن يتخذوا مجمع اللغة العربية ومكاتب جامعة الدول العربية ومؤتمراتها ميداناً لنشاطهم ، فدعا أحدهم في المؤتمر الأول لمجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٤٧ إلى تأليف معاجم محلية لا يثبت فيها إلا ما بقي من لهجات العرب حياً في عامية كل إقليم ، ودعا الآخر إلى إعادة النظر في ترويب النحو وتدوينه من جديد وكان ذلك كله كلاماً في كلام فإذا بنا الآن أمام هذه المشاريع جميعاً منفذة في كتب القوصى وشركاء المشهورة ، يكتب (شرشر) أو جلاجل . وفي كتب النحو التي يتولى إبراهيم مصطفى توجيهها ولم يثنهم عن عزمهم ما قرره مؤتمر مجمع اللغة العربية الأول في دمشق من أن مشاريعهم تحتاج إلى مزيد من الدرس والمراجعة والتحجيص . بل لقد استصدر قسم اللغة العربية في إحدى كليات الآداب منذ سنوات بإنشاء شعبة سماها (شعبة الدراسات العربية الحديثة) أنخل الدراسة فيها من النحو والصرف والبلاغة ومن الشعر العربي ونصوص الفصحى ومن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي ومن القرآن والحديث ، وجعل مكان ذلك كله :

- ١ - دراسات لغوية حديثة .
- ٢ - التطور اللغوي العربي في العصر الحديث .
- ٣ - اللهجات العربية الحديثة .
- ٤ - الأدب الشعبي .
- ٥ - المذاهب الكبرى في الآداب الأوروبية .
- ٦ - مدرسة العصر .
- ٧ - تطور الفكر الإسلامي في العصر الحديث .

وكان أعداء الإسلام من عمال الاستعباد والتبشير وسامسة الصهيونية الهدامة يشيعون بمحود علماء الشريعة الإسلامية أو من يسمونهم خطأ (رجال الدين الإسلامي) وينتدون بتخلف الأزهر عن ركب الحياة بزعمهم ، فإذا بنا نفاجاً بأحد أعضاء لجنة التربية الدينية بوزارة التربية والتعليم يقترح لإنشاء شعبة للدراسات الإسلامية في كليات الآداب لتخريج مدرسي الدين

الإسلامى المرن الذى يستطيع أن يساير الزمن . هذه بعض أمثلة تصور الأسلوب الجديد الذى يعتمد على (الغزو من الداخل) الذى لم يعد أصحابه يكتفون بالدعاية واجتذاب الأنصار والاستكثار منهم عن طريق الإقناع والإغراء أو الإرهاب . إنهم يعتمدون فى أسلوبهم الجديد على أفراد عصائبتهم الذين يجحوا فى التسلسل إلى مراكز القيادة ، فأصبح فى استطاعتهم أن يجعلوا أو هامهم التى لم ينجحوا فى إقناع الناس بها حقيقة واقعة بقرار أو بحجة قلم .

٢ - إن كتب القراءة الجديدة المتداولة فى الإقليم المصرى التى وضعتها لجنة تعمل بتوجيه عبد العزيز القوصى وسعيد العريان تعتمد على أسلوب جديد لا يمكن أن نصفه بأنه عربى مهما اجتهد أصحابه فى تبريره بما يزعمونه من أن كلماته التى تبدو من عامية مصر يمكن أن تجد سنداً من معاني اللغة تصلها بإحدى لهجات العرب ، هذه الكتب لا تتجنب الفصحى الذى أجمع عليه العرب والمسلمون لغرابته أو ثقله ولكنها تعتمد إهماله لأنها تريد أن تهمله وأن تجعل استعمال لهجة الأسواق فى الكتب المدرسية أمراً واقعاً ومقررأ . وهم يعلمون حق العلم أن هذه الكلمات الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها ، مهما جاءوا بأشجار الأنساب تثبت عرويتها - ليست عامة فى بلاد العرب جميعاً ، فهى مجهولة فى بعضها وهى مستعملة بمعنى آخر فى بعض آخر ، لأن الفصحى التى تجمع العرب بل المسلمين اليوم هى فصحى قريش خاصة التى نزل بها القرآن والتى دون بها الحديث والفقه والأدب وكل ما أثمرته الحضارة العربية من علوم وفنون وهى أفصح لهجات العرب وأسلمها دون نزاع . فرضتها صلاحيتها ونشرتها قبل أن ينزل بها القرآن ، فكان العرب على اختلاف قبائلهم يكتبون شعرهم بها ، ولا يستعملون لهجات قبائلهم إلا فى ضرب من ضروب الأدب المحلى المسف ، الذى يقرب مما يسميه البعض اليوم (الأدب الشعبى) وهو (الرجز) فهذه الكتب الجديدة التى يراد بها تقرير لغة جديدة للتدوين وإحقاق باطل قشل أصحابه فى إقناع الناس به رغم ما بذلوا له من دعاية طوال نصف قرن أو يزيد ، تريد فى ضحى القومية العربية أن ترد إلى الجاهلية . الكلمات الدوقية الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها والتى يصر القوصى والعريان وشركائهما على استعمالها

لما ما يقابلها من الفصيح المستعمل المأنوس وأنهم يعدلون في أكثر الأحيان عن الفصيح السمج الجميل إلى السوقي السمج الثقيل .

(المسكرى حلق عليه ، حطت اللحم في الحلة ، ميسوط ، شاف زيطه ، استغرب - زعلان ، ابن الحلال ، يعى ، حطها في القفص ، زاحنى في البحر ، الخدة تترحلق) .

فقابل هذه الكلمات من الفصيح مشهور خفيف شائع ، وهو على الترتيب : (الشرطي ، اعترضه أو وقف في وجهه ، وضعت اللحم في القدر ، مسرور - رأى ، ضوضاء ، عجب ، غضبان ، ابن الكرام ، نظر ، وضعها في القفص ، يتحياون ، الوسادة ، دفعنى في البحر ، تنزلق) .

فهل يرى القارئ مبرراً لإهمال هذه الكلمات الفصحى التي هي قدر مشترك بين سائر العرب وأصحاب الثقافات العربية من المسلمين ، أليست هذه الكتب هي التنفيذ العملي لاقتراح أحمد عبد السلام مندوب حكومة تونس الذي دعا فيه أن يؤلف في كل قطر معجماً صغيراً لا يتضمن إلا الألفاظ الفصيحة التي بقيت مستعملة بمعناها الأصل في لغة ذلك القطر ، وأن يوصى معلمو الأحداث والعامة بالاعتصام عليها قدر المستطاع .

إنى أعجب لما تحويه هذه الكتب وكتب المطالعة في عمومها من تفاهات غثة تبتد أعمار التلاميذ في صفحات لا تفيد أسلوباً ولا ثقافة ولا خلقاً . فهي لا ترتفع في معظم محتوياتها عن تسجيل الواقع المسف المنافي للدين والخلق ، المهذب في كثير من الأحيان .

٤ - زعم طه حسين في تقريره الذي قدم إلى وزير المعارف سنة ١٩٣٥ فأنقاه في سلة المهملات وطلب إليه ألا يعيد الحديث فيه حين حاول أن يفتحه فيه مرة من المرات . قال : إن الناس مجمعون على أن تعلم اللغة العربية وآدابها في حاجة شديدة إلى الإصلاح ورد نفور الطلبة من الدراسات العربية إلى أن اللغة العربية وما يتصل بها من العلوم والفنون ما زال قديماً في جوهره بأدق معاني الكلمة ، فالتحور والصرف والأدب تعلم الآن كما كانت تعلم منذ ألف سنة ولست أزعم أن الأمر يقتضى إحداث ثورة عنيفة على القديم وتغيير العلوم اللغوية والأدبية فجأة وفي شيء يشبه الطفرة ، وإنما أزعم

أن قد جاء الوقت الذي يجب أن نؤمن بأن العلوم اللسانية كغيرها من العلوم يجب أن تتطور وتنمو وتلائم عقول المعلمين والمتعلمين وبيئاتهم وحاجاتهم، ومضى آمناً بذلك فإن التطور سيأتي وسيحقق شيئاً فشيئاً ولكن لا بد أن نجهد له الطريق .

ولم يمحض على هذا التقرير سوى سنتين حتى صدر كتاب في النحو نسقه إبراهيم مصطفى على ما تخيله طه حسين في تقريره ذاك وقدم له طه حسين نفسه واقترح له اسماً ضخماً عريضاً فيه كثير من التبجح والادعاء ، فسماه (إحياء النحو) والمقول بأن إحياء النحو هو الحلقة الثانية من سلسلة تيسير النحو وهو الصورة التنفيذية لمذكرة طه حسين .

ومذكرة طه حسين صريحة في أن الخطوة الأولى ليست إلا تمهيداً لما يهيء بعد من التطور الذي سيأتي وسيحقق شيئاً فشيئاً . فهي صريحة في الكشف عن نية صاحبها وعن أسلوبه في استدراج الناس والبدء بالهين الذي لا يفاجئهم ليتدرج منه إلى الخطير ولأنه لا يسقيهم السم الزعاف القاتل لساعته لأن يلفت النظر ويثير الشكوك ، ولكنه يسقيهم سمّاً بطيئاً يصل إلى غرضه دون أن يكشف عن الجريمة . فليعرف الناس إذن أن تيسير النحو ليس هو منتهى ما يريدون ولكنه أول طريق طويل يدفعون الناس فيه إلى قرار صحيح .

٦ - ومن ناحية أخرى فإن هدف طه حسين هو استبعاد الأزهر عن القيام بوظيفة تعليم الدين ، لأن مناهجه لا تتحقق للدارسين فيه عمق الثقافة وحرية الفكر ، وثانيتها هو الطبيعة المصرية التي تبرز في الإشارة إلى مهمة مصر القيادية ، في حل مشكلات الحياة المعاصرة ومسيرة التطور الاجتماعي وهو تطور غربي بالبداهة .

وهكذا تتبين خطوات المؤامرة التي نخاضها طه حسين بحوراً من الدم في سبيل تدمير لغة القرآن ضمن مخطط واسع يرمي إلى تبديل قواعد اللغة العربية وتغيير رسمها وإملاؤها ونحوها على ما قام به جماعة من المستشرقين منذ وقت طويل، ووكل أمره إلى سلامة موسى وطه حسين في مصر وأنيس فريجة في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد قام به طه حسين في الجامعة، ثم قام به في

جامعة الدول العربية وفي مجمع اللغة بدراسة اللهجات السريانية وآدابها والدفاع عنها من فريق منبر جامعة الدول العربية . حيث ألقى أنيس فريجة دراساته المسمومة في دراسة اللهجات والدعوة إلى العامة .

ومضى أعداء اللغة العربية يجتمعون ويتفصسون هنا وهناك ويسيطرون على مناهج المدارس والجامعات لتحقيق أهدافهم .

٧ - قطع الصلة بأدبنا القديم :

إن إهمال أدبنا القديم وتوجيه أكثر العناية إلى الأدب الحديث بل التافه منه في الأعم الأغلب وتجنب ما كان منه على منوال القديم جزالة وروعة وفخامة أسلوب واحتفالاً بالمعاني الكبار خلق بأن يعين على تدعيم ما يديره بعض المفسدين فيسلكون إليه مختلف المسالك ويعالجونه بشئ الأساليب حين يسعون إلى فصل حياتنا الراهنة والمستقبلية عن مصادرها القديمة حتى يتفرق جماعتنا ويتشعب شملنا . وحتى لا تكون أخلاقنا امتداداً لخلق أبائنا ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم ولا تكون لغتنا وأصاليبنا امتداداً للغتهم وأصاليبهم ، وحتى لا تكون مذاهبنا في الفن والأدب امتداداً لقنوتهم وآدابهم بل لا يكون إسلامنا امتداداً لإسلامهم ، فلماذا نجحت في أن تجعل المجتمع الجديد مقطوع الصلة بماضينا في الدين وفي اللغة وفي العادات وفي الفنون الفنى وفي المزارع وفي التقنين الخلقى . فأى جامعة يمكن أن تجمعنا عند ذلك وأى طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله ، ويجعل لنا الحق في أن نقول : إننا قوم ، إننا عرب ، ما أيسر أن نكون عند ذلك تبعاً لسلادة الشرق والغرب وذيلنا لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السلادة يستلحقون العبيد في عصور الرق .

وهكذا نصل مع الدكتور طه حسين وشيعته ومؤامراتهم التي فرضوها على الجامعة والتعلم العام إلى مجموعة من الحقائق :

أولاً : قطع الصلات التي تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية .

ثانياً : أن ينزع عن العربية قداسها ويحررها من حماية الدين وحضارته

ليكتشفها أمام أعدائها ويعينهم على الإجهاز عليها بعد أن يفردوها من كل نصير أو معين .

الثالث : تأليف معاجم محلية ، وإذ بنا أمام هذه المشاريع جميعاً منفذة في كتب القوصى وشركاه المشهورة بكتب شرشر أو جلاجل وفي كتب النحو الجديد التي يتولى إبراهيم مصطفى توجيهها .

رابعاً : خطف دراسات الإسلام من الأزهر ونقلها إلى كلية الآداب لتدرس بأسلوب العلمانية والمادية التي سيطر على دراساتها تحت اسم مسيرة الزمن .

خامساً : كتب القراءة الجديدة لا تثبت النصح الذي أجمع عليه العرب والمسلمون بدعوى غرابته وثقله ، لأنها تعتمد إهماله وتجعل استعمال لهجة الأسواق في الكتب المدرسية أمراً واقعاً وفوراً (م ٣٠ مجلة الأزهر نوفمبر عام ١٩٥٨ ، ديسمبر عام ١٩٥٨) .

• • •

(٣)

محاولة لتيسير الكتابة

نشر طه حسين فصولا في جريدة الجمهورية عام ١٩٥٦ تبشر بأسلوب جديد في كتابه (اللغة بدعوى تيسيرها) . استهدف منها أن ينقل التشكيل إلى حروف الكتابة نفسها ، حاول أن يكتب منها الكلمات بطريقة نطقها على هذا النحو :

وقت مضى : وقت مضى .

هذا الاسم — هاذا الاسم .

على الدولة — علا الدولة .

يريد بذلك أن تكتب الكلمة كما تلفظ رغبة منه في تسهيل الكتابة العربية على أبنائها وغير أبنائها . وقد أبدى في ذلك دعاة الشعبية في العالم العربي وأعداء اللغة العربية : ميخائيل نعيمة ، وأنيس المقدسي ، وأنيس فريحة ، ورثيف خوري في كلمات نشرت في مجلة العارم اللبنانية .

وقد كانت تلك إحدى البدع التي كان حريصاً على أن يواجه الناس بها من حين إلى حين ، بهدف خلق هو إثارة شبهات جديدة وهدف ظاهر هو أن يتحدث الناس عنه .

وقد علق الأستاذ عباس محمود العقاد على هذه البدعة فقال :

قرأت اليوم كلاماً عن الإصلاح الذي قيل : إنه سيحل المشكلات جميعاً في كتابه (اللغة العربية) ، لأنه يعلم الناس أن يكتبوا الحروف كما ينطقونها في جميع اللغات . وكل ما قرأته حتى الآن يزيد مشكلات الكتابة ويوقع الاليس والاختلاط حيث لم يكن من قبل ليس ولا اختلاط . هل تنوى

من اليوم أن تقول : (رى رى رمياً ورجاً رجياً وصفاً يصفى صفيّاً .
إلى آخر هذه الألفات أو هذه الياءات) .

إن كنا ننرى ذلك فقد انحلت المشكلة وتساوت الألف والياء نكتبها ألفاً أو نكتبها ياء كما نشاء ، ولكننا لا ننرى ذلك ولا نستطيع إذا نوينا أنه يجر إلى الخلط الذريع بين أبواب الفعل وأبواب المشتقات ، وكلها مرتبط بأساس تكوين اللغة العربية لأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثى التى لا وجود لها فى جميع اللغات الهندية الجرمانية ، وهى اللغات التى تكتب بالحروف اللاتينية ويدعوننا إلى التشبه بها من يفسون الفارق الأصيل بين لغة الاشتقاق ولغة النحت والتركيب ، ومضى كان إلغاء الفوارق بين أبواب الفعل الثلاثى ضرباً من المستحيل ، فالحفظ بين ألفها وبائها يزيد المشكلات ، ولا ييسر صعوبة واحدة من الصعوبات التى تيسرها القواعد المتبعة لأصغر التلاميذ ، كل ألف رابعة فما فوقها تكتب ياء لأنها ياء المضارع أو المصدر ، كما نفهم من النطق البسيط للأفعال والمصادر ، فنحن نقول : اكتبنى يكتبنى ، واستوى يستوى ، واهتدى بهتدى ، واعتلى يعتلى ولا يوجد لسان عربى يصعب عليه أن يجرى على هذه القاعدة فى تصريف الأفعال ، ونحن نقول كذلك : تعالى تعالياً وترامى ترامياً وتداعى تداعياً ولا يصعب على أحد يأتى بالمصدر بداهة وارتجالاً على هذا القياس وهكذا نرى أن القاعدة تزيل اللبس وتحفظ للأفعال والمشتقات أبوابها وأوزانها ولا توقعنا فى الخلط بين كل ألف وكل ياء .

ومن تسليات الإصلاح الذى يستطيعه عندنا من لا يستطيع أن يفك الخط قول بعضهم : إننا يجب أن نكتب كما نتعلم ليفهم عنا جميع القراء ما نقول :

وعلى هذه القاعدة يقول ابن القاهرة : (بقه) ، ويقول السورى : (تمه) ، ويقول الصعيدى : (خشمه) إذا تكلموا عن القم فكيف تكتب ألفهم فى كتاب يقرأه القاهريون والسوريون وأبناء الصعيد .

وعلى هذه القاعدة يقول السورى : (اجره) ، ويقول : (رجله) ، ويقول السوداني : (كداعه) فكيف نكتبها فى كلام يقرؤه هؤلاء ، ونريد أن نعرف كيف يكتب الشمس والسماء والثورة والثروة .

ويبقى أن نكتبهما كما تنطق أشمس ، وسماء ، وتثورة ، وتثورة
فيزول الأشكال بحمد الله لأننا لا نطق الألف واللام في هذه الكلمات .
كما تنطقها في كلمات القمر ، والبلد ، والجمل ، والبرقال .

إننا إذا فهمنا الفرق بين لغة الاشتقاق ولغة النحت بطل الجدال المقيم
في أقوال (المصلحين) المتعجلين . فالحركة جزء في بنية الكلمة في لغة
الاشتقاق لأنها قد تغير معنى الكلمة من التقيض إلى تقيضه ، ويضاف إلى
هذا الفارق أن المشتقات والمصادر تختلف في أبواب الفعل الثلاثي . كما
تختلف فتح فتحة ، وكرم كرم ، وبلغ بلوغاً ، ولا تتغير هذه الأوزان
جميعاً بتغيير حروف الكتابة ولا يمكن أن تتغير بتغير الأوزان .

(الأخبار ١٨ يونية سنة ١٩٥٦) .

• • •

الفصل التاسع

النحو

هناك دعوة طه حسين الخطيرة إلى ما أطلق عليه تطوير النحو وهو هدف نجيب يرمى إلى صرف الناس عن دراسة كتب النحو القديم والبلاغة القديمة بدعوى أن القواعد القديمة معقدة ، فإذا ذهب كل من هؤلاء المتأمرين مذهبه في استنباط قوانين جديدة وتسمية المسميات بأسماء مبتكرة ، فقدت الاصطلاحات قيمتها .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : والنحو العربي — ولا أقول : النحو القديم — ما عيبه وهل هو حقاً كما يزعمون معقد صعب ؟ وهل ثبت فشله كما يزعمون في تشقة جيل عربي يقم عربيته ويحسن تذوقها ، نحونا وبلاغتنا لا عيب فيهما ، ومن الممكن تبسيطهما واختصار المطولات المؤلفة منهما في حدود القواعد والأقسام التي ألزمها القدماء أنفسهم . فالواقع أن إجماع الناس في كل أمصار العرب — بل المسلمين — على قواعد موحدة دون أن تحملهم على ذلك قوة القاهرة أو تلزمهم سلطة منقذة ، هذا الإجماع على قوانين موحدة في النحو والصرف والبلاغة بعد أن كانت مدارسها متعددة هو وحده الدليل الحى الذى لا ينقضى على صلاحية هذه القواعد ، وعلى أن هذه الدعوات التي توصف بدعوى التبشير والإصلاح ، هي دعوات مفتعلة يروجها هدامون وينساق وراءها مغفلون ، ولكنى ندرك خطر هذه الدعوات ونفهم حقيقة مزاها لا بد لنا أن نقرنها إلى أمثالها ، فننظر إليها في ظل ما نسمعه من الدعوة إلى تطوير : عاداتنا ، تقاليدنا ، أدبنا شعره ونثره ، أغانيها ، زينا ، تطوير قيمنا ومثلنا الأخلاقية والاجتماعية ، تطوير شريعتنا ، تطوير إسلامنا نفسه ، من أجل النظر في هذا كله وقرن

بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد وأن روح الدعرة فيها
جاءاً واحدة وأن أصحابها لا يفرون إلا بقطع دابر كل ما يربطنا بإسلامنا
وعروبنا وشريعتنا من وشائج وصلات عند ذلك نفقد طابعنا الذي يميزنا
بوصفنا جماعة أو قوماً أو أمة ، وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كياناتنا ، وفقدنا
القدرة على التكتل والتجمع وأصبح من اليسر على الشرق والغرب أو كائنا
من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ندور في فلكه ونسبح
بحمده من دون الله .

ولو كان القصد هو التيسير حقاً لقنعوا بصنيع لجنة (حفى ناصف
ودياب وطوموم ومحمود عمر وسلطان محمد) في كتاب (قواعد اللغة
العربية) لتلاميذ المدارس الثانوية ، فقد نجحت هذه اللجنة في حصر قواعد
النحو والصرف والبلاغة في كتاب صغير لا يتجاوز مائة وأربعين صفحة
خال من التعقيد . وقد كان صنيع الجارم بعد ذلك حسناً حين يسر هذه القواعد
ومهد لها بالأمثلة الكثيرة ، وأعان على إقرارها بالتقريبات المتعددة وكان
ذلك في حدود القواعد التي أثبتت ألف سنة صلاحيتها والتي استطاع العرب
بفضلها وحدها ولا شيء سواها أن يخرجوا في القرن الأخير هذا الجيش
الضخم من الشعراء والأدباء والنقاد الذين بلغ بعضهم مستوى أندادهم القدماء
في أزكى عصور الشعر والأدب العربي وذلك من بعد أن أدرك الضعف
العربية حتى كاد يدننها من القبر ، وكيف وجد البارودي وشوقي ، وكيف
نشأ محمد عبده وطبقته من الكتاب ، وكيف وجد الرافعي والمنفلوطي ،
كيف استقامت ألسنتهم وصحت أساليبهم وذلك بعد الركاسة التي كانت
تتمثل في كتاب كالجبرتي يعتبر من أحسن كتاب عصره ، هل أتقن هؤلاء
العربية عن طريق آخر غير قواعد النحو والصرف والبلاغة التي يزعم
الزعمون أنها مقيدة وغير صالحة ، فأيهما تصدق ، هل تصدق واقعاً قائماً
ماثلاً راسخاً قديماً أثبتته ألف سنة وأعادت إثباته وتأكيده تجربة القرن الأخير ،
أم تصدق مزاعم لم تر من آثارها منذ ظهرت إلا الشروء والتدهور والانحطاط
في مستوى تدريس العربية . إن انحطاط مستوى الجيل الحاضر في اللغة العربية
أمر واقع ولكن سببه ليس هو صعوبة القواعد (القديمة) بل إن سببه هو

زعم الزاعمين أنها معقدة لأنه قد صرف الناس عن إتقانها إلى التنقل بين
تجارب فجة غير ناضجة وأعان على إقرار ما يتوهم التلاميذ والمدرسون من
صعوبتها ، بل اختلق هذا الوهم نفسه بعد أن لم يكن والدليل على ذلك أن
الجيل السابق وهو جيل لا يزال كثير من أفرادهِ أحياء – أحسن إتقاناً
للعربية رغم أنه قد نشأ في ظل الاستعباد الإنجليزي وبرامجهِ ، وحب الداعين
بهذه الدعوة هزّالا وفشلاً ما اقترحوه على المدارس الإعدادية من قواعد
بيتة الضعف والفساد والمزال .

• • •

يقول الدكتور محمد محمد حسين :

إن أصحاب النحو الجديد أو ما يسمونه (تيسير النحو) شعبة من تلك . . .
الفرقة الموكلة بهدم تراثنا وقطع كل صلة تربطنا به ، فهم لا يهدمون لأن
الهدم هو وسيلتهم إلى البناء من جديد كما يزعمون ، ولكنهم يهدمون في حقيقة
الأمر لأن الهدم هو هدفهم وغايتهم وهم بهذا الهدم يهدون الأرض ويسوونها
لبناء جديد ولكنه للأجنبي لا لنا ويمحون كل ما في صفحتنا لتصبح صفحاً
بيضاء يسطرون منها أو يسطر فيها الذين يسخرونها لما يعملون من بعد
ما يشاؤون .

زعم أصحاب القواعد الجديدة أن قواعد النحو التي صنعها اثنا عشر قرناً
ضعيفة ومعقدة وزعم لهم صاحبهم أنه سيلخص لهم هذه القواعد في كلمات
مقسمة الكلام إلى مسند ومسند إليه وتكلمة وسمى كلامه هذا تيسيراً ،
والوصف الصحيح له أنه (تعقيد) لأن الاصطلاحات المتداولة ولا أقول :
القديمة أدنى إلى عقل الناشئ وتصوره ، ومن ذا الذي لا يخطئ في فهم
كلمة فعل وفاعل . إن الأمي الجاهل والسادج الذي لاحظ له من الثقافة
النحوية يستعمل هذه الكلمات بمدلولاتها النحوية في حديثه اليومي المألوف ،
الخفي والشرطي يسأل عن الفاعل : ويقول : قبض على الفاعل . ويقول :
الفاعل معلوم أو الفاعل مجهول ويسأل ما الخبر ؟

هذه المصطلحات التي استبدلوا بها المسند والمسند إليه قسموا الفاعل
ونائب الفاعل ، والمبتدأ مسنداً إليه وسموا الفعل والخبر مسنداً . إن ما أطلقوه
من أسماء لما توهموه من أقسام لا تصح اصطلاحاً حتى يجمع عليها الناس .

أصحاب التيسير يضعون أمامهم التقسيم الغربي في نحو بعض اللغات
الأوربية وفات هؤلاء أن اللغات الأوربية التي نقلوا عنها هذا التقسيم ،
كالإنجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا لأنها غير معربة ، أما المعرب

من لغاتهم مثل الألمانية ، ومثل الفعل في الفرنسية فهو لا يزال يحتاج في ضبطه إلى قواعد تفرق قواعد النحو العربي في أقسامها وفروعها .

٤ - بقی أن نسأل أصحاب التيسير كيف يصنع الناس بكتب التفسير والحديث والفقه وشروح دواوين الشعر التي تمتلئ صفحاتها باصطلاحات النحو المتداولة والتي حكوا عليها بالإعدام . وبقي أن نسألهم : هل استشرتم العرب جميعاً فيما صنعتموه . بل وهل استشرتم المسلمين الذين لا يستغنى عنها عنهم عن هذه اللغة التي لا تستعمل غير اصطلاحات النحو الذي يريدون أن يلحقوه بكل ما يرون إعدامه ، والقضاء عليه من قديم ، أم أنهم لا يعرفون أن هذه اللغة ليست ملكاً لطلح حسين وإبراهيم مصطفى والقوصي ومن شابههم ممن يخافهم أو يرجوهم أو يصله شيطانهم بل هي ليست ملكاً للمصريين وحدهم ، بل هي ليست ملكاً للعرب وحدهم ولا للمسلمين وحدهم من أهل هذا الجيل ، إنما هي أمانة يتحتم علينا أن نحفظها للأجيال من بعدنا كما تلقيناها عن قبلنا .

أقول هذا وأنا أعلم أنهم يقولون :

كلما حدثناكم في شيء أقبحتم فيه الإسلام وقلتم : القرآن القرآن ، لا حاجة لكم إلا هذا ولا تكأه لكم سواه ونحن نقول : نعم .

القرآن والإسلام في تقديركم شيء هين يسير وهو في تقديرنا كبير خطير ، ونحن لا نبالي شيئاً تزينونه وتزخرفونه إذا أبعدنا عن القرآن والإسلام ، فلو كان القرآن والإسلام عندكم لوناً من الألوان وواحداً من اعتبارات كثار ، فهو عندنا كل شيء ، به نحيا وعليه نموت ، وذلك بأن الحياة عندكم نعيم وزخرف ومتاع ثم لا شيء بعد ذلك إلا القناء ، فلا قيمة عندكم لشيء لا يتحول إلى لذة أو شهوة أو أرقام .

أما نحن فالحياة عندنا معبر للآخرة وطريق إليها ، لذلك كان الأدب عندكم لهواً ومتاعاً وخرافات وأوهاماً ، لذة للشذاذ الفارغين ، وكان عندنا أسمى من ذلك وظيفة وأعز مكاناً ، ومع ذلك كله فالقرآن والإسلام هو سبيلنا إلى العزة في الدنيا التي تطلبونها ولا ترون سواها . لأن الذي يفقد ههما يفقد الضمير ومراقبة النفس ومحاسبتها على الصغير والكبير ، ويفقد الدافع

القوى الصادق إلى العمل المثمر النافع ، ويفقد الحصانة والمناعة التي تجعله يتجاسك ولا ينهار أمام الشهوات والمغريات .

(أصحاب التيسير) كانوا يضعون أمام أعينهم التقسيم الغربي في نحو بعض اللغات الأدبية : وقد اتخذ أصحاب التفسير كلمة (تكله) وهي الترجمة الحرفية لكلمة Complement على اصطلاح البلاغيين المشهور وهو فضلة . وفات هؤلاء أن اللغات الأوروبية التي نقلوا عنها هذا التقسيم كالإنجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا لأنها غير معربة ، أما المعرب من لغاتهم مثل الألمانية ومثل العقل في الفرنسية فهو لا يزال يحتاج في ضبطه إلى قواعد تفوق قواعد النحو العربي في أقسامها وفروعها .

• • •

وقد زعم طه حسين في تقريره عن التيسير :
أن الناس مجمعون على أن تعلم اللغة العربية وآدابها في حاجة شديدة إلى الإصلاح إلخ . (مستقبل الثقافة) ، ولم يحض سوى سنتين حتى صدر كتاب في النحو نسقه إبراهيم مصطفى على ما تخيله طه حسين في تقريره وقدم له طه حسين نفسه .

والخطة واضحة تكشف عن نيته صاحبها وعن أسلوبه في استدراج الناس ، ولم يتوقف طه حسين عند هذا الحد بل ذهب يحاضر فيه في أماكن متعددة ، ففي سنة ١٩٤٧ في الدورة الثالثة عشر لمجمع اللغة حرص طه حسين أن يلقي كلمة معلناً فيها وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده ، واعتمد على كتاب ابن حزم (الرد على النحاة) وقد أورد ما جرى منذ قبل عندما عقد بهي الدين بركات سنة ١٩٣٠ لجنة لبحث ما يكتنف تعليم اللغة العربية من صعاب ، وكان طه حسين أحد أعضائها لاقتراح قواعد جديدة ، على أن لا يمس أصل من أصول اللغة وقد انتهت اللجنة إلى طائفة من المقترحات التي تخلص النحو من فلسفته وتقدمه إلى النش في صورة سهلة ميسرة ، وهونت من أمر الأعراب وهو عقدة العقد ، بدأ النحو الذي اقترحه أشبه ما يكون بأجرومية بعض اللغات الحية كالفرنسية والإنجليزية ، وظلت

الاقتراحات مطوية حتى عرضت على مجمع اللغة العربية ليبدل فيها برأيه ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثماني جلسات ، ودافع عنها طه حسين في صدق وإيمان وأراد أن يسلك بها مسلك التنفيذ ، وبقي الموضوع في طي النسيان عشر سنوات أخرى .

وفي عام ١٩٥٥ ألقى الدكتور طه حسين بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء محاضرة عنوانها مشكلة الإعراب ، ودعا إلى تيسير الكتابة وتيسير النحو معاً وقال إن علم النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسه لأنه يجد لذة في قراءة الكتب النحوية المعقدة ، على ما فيها من فلسفة وتعقيد ، مثلاً يجد عند قراءة شعر جرير أو بشار (ولكن إذا كان النحو مستحيلاً إلى الإحصائيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات فن الحق كل الحق أن يفرض على الشباب في القرن العشرين ، أقول من الحق ومن الخطأ أن نأخذ عقول الشباب يتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعصره والتوائه ، لأن ذلك لا يلائم الحياة الحديثة ولا التفكير الحديث ، ولا بد من تيسير النحو تيسيراً يتيح للشباب أن يتعلم العربية في يسر ومن غير عنف (، وأشار إلى مشروع مجمع اللغة الذي يبنى بهذا الغرض وهو قائم في وزارة المعارف منذ أعوام وفي وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقفه) .

وهكذا لم يتوقف طه حسين عن دعوته هذه وبث سمومه يوماً واحداً .

ولكن محاضرة الدكتور طه حسين عن الإعراب لم تمر بدون تعليق فقد واجه العلماء الحاضرون من أساتذة دار العلوم والأزهر زيفه ودلالة جهله .

وقد ختم محاضرته بالعبارة الآتية :

(لقد تطورت اللغة الإنجليزية وتطورت قواعدها وتطورت الفرنسية وتطورت قواعدها وتطورت اليونانية وتطورت قواعدها ، أما اللغة العربية فقد بقيت حيث كانت ولم تتطور ولم تتطور قواعدها) .

وقد جابه الأستاذ عبد الرحيم فوده الذي كان حاضراً فقال :

يا دكتور هل يدرس الإنجيل في إنجلترا وفرنسا واليونان بلغته الأولى : إن الإنجيل يدرس في إنجلترا بالإنجليزية ، وفي فرنسا بالفرنسية وفي اليونان باليونانية ، أما لغته الأصلية فهي العبرية (أو السريانية) .

ما رأيك في أن هذا النحو وهذا الإعراب بل إن العلوم العربية كلها أسوار وضعها النحاة لحماية لغة القرآن الأولى ، وأن تطوير هذا النحو وتطوير الإعراب ، وتطوير اللغة يباعد بين المسلمين وبين لغة القرآن الأصلية الأولى . إن الشعوب الإسلامية التي تدين بالإسلام ولا تعرف النحو والإعراب واللغة قد انقرضت فيها اللغة العربية لأنها جهلت هذا النحو وهذا الإعراب ، وأن اللغة العربية لم تبق إلا في مصر لأن فيها الأزهر ، وفيها هذا النحو وهذا الإعراب وأن أستاذ علماء النحو هو سيديوه وهو فارسي ، وقد انقرضت اللغة العربية من فارس لأنها هجرت نحو سيديوه .

كذلك فقد أشار الدكتور عمر فروح إلى أن الدعوة إلى تيسير النحو العربي والدعوة إلى اللهجات والدعوة إلى اللاتينية هي دعوات تبشيرية استعمارية مردها إلى رجل معروف هو ماسينون المستشرق الفرنسي ، هذا الرجل هو أستاذ طه حسين والذي تقول مؤلفة كتاب معك أنه كان لا يشرق ولا يغرب إلا ويهبط ليلتقي بطله حسين و بينهما خطط وأحاديث .

• • •

دراسة الإسلام

ومما دعا إليه طه حسين في مستقبل الثقافة وعمل على تنفيذه بعد ذلك في مناصبه مستشاراً لوزارة المعارف ومديراً للثقافة ووزيراً للتعليم - إنشاء معهد للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب : وهو يرى (أن كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية ، وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية ، ومن الحق عليها أن تأخذ نصيبها من هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين جهود الأمم الأوروبية) .

وأن المعلم الذي ينبغي أن يعاد النظر في تكوينه وإعداده ، كل هذا يتطلب من المصريين تعمقاً في دراسة دينهم وتبين موقعهم من مختلف المذاهب والاتجاهات التي يجيء بها التطور الاجتماعي ، ومن ذلك دراسة سيكولوجية الدين والتاريخ الديني والفكرى للبشرية قبل الإسلام والنظم الدينية والأخلاق المقارنة . ومعنى هذا كله تدمير الإسلام في نفسية « المعلم » الذي ستخرجه كلية الآداب لأنه سيدرس علوم الإلحاد ومفاهيم النظريات المادية الغربية على أنها حقائق وتتدخل في هذا الاتجاه خطة تطوير اللغة مع تطوير التعليم نفسه ، وهو يحجى عن طريق المناهج التعليمية ما دعا إليه كل من سبقوه من خصوص اللغة العربية حيث بدأت الدعوة إلى العامية (ويلكوس ويغور) ثم تلقفها لطفي السيد وسلامة موسى ثم جاء عبد العزيز فهمي ليدعو إلى الحروف اللاتينية ، ثم جاء طه حسين ليدعو إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب ومن ذلك قوله (في الأرض أمة متدينة ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن يكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي بها صلواتها ، فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هي اللغة الدينية

لفريق آخر . والقيطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع .

(وهو في هذا يردد ما قاله القاضي (ويهور) من كتابه (عامية مصر) طبعة لندن عام ١٩٠١) وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي اللغة العربية ومن المحقق أنها ليست أقل إيماناً بالإسلام وإكباراً له وزياداً عنه وحرصاً عليه . .) .

هذا الأسلوب الخبيث المساكر يرمى إلى ماذا ؟

يرمى إلى أن تكون للغرب لغتان : لغة تكتب بها وتقرأ ولغة للعبادة وقراءة القرآن وهذا أسوأ ما دعا إليه داع من دعاة التغريب .

وهو يدعو إلى هذا تحت مصطلحات كريمة مثل قوله : تقديس لغة القرآن والتطور . ومجازاة العصر في اللغة والنحو والبلاغة .

وفي هذا يقول الدكتور محمد محمد حسين . :

(إن تقديس لغة القرآن والالتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم تكن في يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة ، وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة كما يشيع المدامون ، ويتخذون به الأغوار ، وصغار العقول ، وصغار الحمم ، فليس التطور نفسه هو المخطور ، ولكن المخطور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة .

(كذلك اللغة وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون لها حدوداً طابقت بها مذهب الفنان وكلام العرب ، وتركوا للناس من بعد أن يستحدثوا ما شاءوا من أساليب وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض وأن يجددوا ما أحبوا فيما يشتهون ومما يتفق مع عبقرياتهم ولكن كل هذا لا ينبغي أن يخرج عن الحدود المرسومة فإذا نعت ناعت من بعد بأن إعراب أو آخر الكلمات لا داعي له ، وبأن عربية القرون الأولى لغة ميتة لا وجود لها في الحياة فسوف يجد هذا الناعت لصوته صدى في عقول هذا الجيل . حيث لا تدرس لغة القرآن ولا البلاغة ولا النحو ولا الصرف ولا الأدب السابق على الحملة الفرنسية ، هذا الهدف الذي يحاول أن يربط حاضرتنا ومستقبلنا الأدبي بالغرب في الوقت

الذى يقرن فيه تراثنا الأدبى الحى العربى بالأدب السامية الميتة : آداب السريانية والعبرية إذ يجعلها جميعها شعبية واحدة ، هى شعبية الدراسات العربية والشرقية القديمة وفى نفس الوقت الذى أنشئت فيه هذه الدراسة كان (أنيس فريخه) المدرس بالجامعة الأمريكية فى بيروت يلقي محاضرات فى الدعوة إلى دراسة اللهجات السوقية وآدابها والدفاع عنها من فوق منبر جامعة الدول العربية فى القاهرة ، وكان مجمع اللغة العربية مشغولا بدراسة هذه اللهجات وهكذا بدا دعاة العامية لا يسيرون ثوب الشعبية والدفاع عن لغة الشعب وهكذا ارتبط طه حسين بدعاة العامية القدامى بعد أن تخلى طويلا وراء ستار كاذب ، سبيتا ، فولارز ، باول ، فيلوت ، الذين قادوا هذه الدعوة فى مصر سنة ١٨٨٠ فظهر صداها فى صحيفة المقتطف التبشيرية أولا سنة ١٨٨٢ ثم انتقل إلى بقية السياسة ، ومن ناحية أخرى ارتبط طه حسين برائد التغريب الأول (دنلوب) فى مجال هدم المناهج الإسلامية الغربية والدعوة إلى الأدب الشعبى التى دعا إليها وماسيرو وبوريان :

ويقول : ويستطيع العالم أن يشير إلى التجارب الدينية منظورا إليها فى ضوء الظواهر السيكولوجية لا يمكن تمييزها من أوهام الحس .

ويقول : (إنه ليس للدين أن يتوقع أو يعتقد أن ستؤخذ قضايا مسلمة على أساس أنها جاءت من طريق الوحي وأن وراءها سلطة التقاليد القديمة . أما العالم فإنه يرى فى روح البحث الحر جوهر الحياة .

هذا هو المعنى الذى يرى إليه طه حسين من دراسة سيكولوجية الدين فى كلية الآداب وهى معانى واضحة الدلالة على الإلحاد وإنكار الوحي والنبوة جميعا فالعلم البشرى - كما يقول الدكتور محمد محمد حسين : لا يصلح لأن يكون فيصلا إلا فى شئون المادة المحسوسة التى يجرى عليها تجاربه بل فى بعض شئون هذه المادة مما يتيسر له الكشف عنه . أما ما وراء المادة من الغيب الذى لا يحصىه إلا الله ، فالعلم عاجز عن إبداء رأى فيه وكل ما يقال فى التشكيك فيها جاء به الدين ليس إلا ظنرا لا تتجاوز مرتبة (الفروض العلمية) بل كذبرا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله هذا فضلا عن المواد الغارقة التى سوف تطفى على علوم اللغة العربية

الأصيلة خاصة وأن هذه الشيعة الجديدة تسقط من حسابها كل العارم العربية : نحوها وصرفها وبلاغتها وأصولها العلمية شعراً ونثراً . كأن ذلك كله ليس له وجود وليس له آثار . وليست لنا به حاجة منذ القرن التاسع عشر ، ومعنى هذا أن هذا المخطط الذى عمل طه حسين على تنفيذه بعد أن وضع كتاب (مستقبل الثقافة) ووكّل إليه تنفيذه مستشاراً ومراقباً للثقافة . ثم وزيراً للتعليم . هو حرب على العربية ومعمل هدم يعمل فيها . إن التطور على كل حال ينبغي أن يكون بالقدر الذى لا يقطع صلتنا بالماضى وبالقدر الذى لا نخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة الأجيال المقبلة بالجيل الماضى أيضاً لا تحب أن يتحول قرآننا وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم وفقه فقهاءنا إلى طلسم لا يقرؤه إلا طلبة من الكهان يحتكرون تفسير الإسلام .

• • •

ولا ريب أن الهدف من إنشاء شعبة الدراسات الإسلامية في كلية الآداب يرمى إلى أمرين :

الأول : استبعاد الأزهر من القيام بوظيفة تعليم الدين لأن منهاجه لا يحقق للدارسين فيه (عمق الثقافة وحرية الفكر) . وقد وضعت المخطط منذ وقت بعيد لضعاف الأزهر لأنه كان يصيب التعليم بالصبغة الإسلامية في مصر ، بل في البلاد الإسلامية عامة والعربية خاصة وذلك بمحاصرته وعزله عن الحياة وسد أبواب الرزق أمام خريجيه .

والثاني : هو الصبغة المصرية التى تبرز في الإشارة إلى مهمة مصر القيادية في حل مشكلات الحياة المعاصرة ومسايرة التطور الاجتماعى وهو تطور غربى باليداهة ، كما يبرز في إمداد الدارس بما يقوى فيه الاعتزاز بفقهاء الإسلام وعلمائه من المصريين خاصة مما يرجد لونا من الشعبية الإسلامية تشبه الشعبية السياسية .

وما أوردته طه حسين مما سماه في مشروع (سيكولوجية الدين) فهو شديد الشبه بكلام القس الأمريكى (ميلر بروز) في دعاواه الهدامة التى

طالب فيها بوضع (تجربة الدين) و (تجربة النبوة) والمعجزات والصلاة والحياة الأخرى موضع البحث واصطناعها لقواعد علم النفس الحديث وغير في ما ينطوى عليه (سيكولوجية الدين) من مفاهيم أولها وأبرزها : أن الدين ظاهرة نفسية ليس لها وجود خارجي حقيقي ، لأن المعروف أن هذه (السيكولوجيا) ترد كل التصرفات إلى مصدر مجهول في أعماق النفس الإنسانية يسمونه (العقل الباطن) ، يقول المستر ميلر بروز صاحب الاقتراح الأصيل : إن تجربة النبوة يمكن أن تلاحظ وتدرس بنفس الطريقة وإلى نفس الدرجة التي يمكن بها ملاحظة التأثيرات الدوقية والوجدانية ودراستها .

• • •

الفصل العاشر

الأثر الإغريقي واليوناني في الأدب العربي

منذ أن عاد الدكتور طه حسين من باريس وقد وكل إلى نفسه بعث الأساطير اليونانية والشعر التمثيلي اليوناني وتدرسه في الجامعة المصرية القديمة . وتأليف الكتب عنه وإذاعة تلك الدعوى العريضة بأنه عقلية مصر عقلية يونانية وأن الإسلام لم يغير تلك العقلية بالرغم من أن طه حسين يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، وكان من أخطر الخطوات التي اتخذها أن قرر كتابه (قادة الفكر) على التعليم الثانوي وهو الكتاب الذي يقرر أن العالم كله ليس له قيادة فكرية إلا سقراط ، وأرسطو وأفلاطون وكانت خطوته الخطيرة في الجامعة هي فرض تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية على طلبة كلية الآداب وكان من مخطئه تلك الأحاديث التي أذاعها بالادعاء بالباطل أن الأدب العربي قد تأثر بالأدب اليوناني وأن الفكر الإسلامي قد تأثر بالفكر الإغريقي . وقد كانت الفكرة المسمومة التي دعا إليها طه حسين في هذه الوجهة هي أن الفكر الإسلامي قد تأثر بالفكر اليوناني في ماضيه ، ولما كانت النهضة الحديثة في أوروبا هي في معظم أمرها أثر من آثار اليونان فإن النهضة الحديثة في مصر والمشرق يجب أن تخضع للفكر الغربي الحديث تبعاً لخضوعها للفكر اليوناني القديم .

وهذه مغالطة مكشوفة فإن الفكر الإسلامي لم يقبل الأثر الهليني وقد رفضه منذ اللحظة الأولى ، وقد تبين مدى تضليل الدعوى التي حملها طه حسين بأن الفكر الإسلامي كان مديناً في عصره الأول لليونان وتلك دعوى باطلة عريضة كشفها كثير من الباحثين وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور علي سمي النشار وما تزال مدرسة الأثر اليوناني الذي أنشأها طه حسين وغذاها لطفي السيد وإبراهيم بيومي مذكورة قائمة تنفت سمها .

لخص طه حسين موقفه كله من الفكر الهليني اليوناني الإغريقي في كتابه

(مستقبل الثقافة) على نحو واضح : هو أن عقلية مصر عقلية يونانية وأنه لا بد من أن تعود مصر إلى أحضان فلسفة اليونان ، ومن هنا كانت دعوته الملحة إلى أن يكون المثل الأعلى يونانياً وأن يكون قادة الفكر الإنساني هم هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس . وتلك غاية أساسية في قضية التغريب التي تولاهما والتي عاش لها طوال حياته وتولاهما بالبحث والمعاودة مرة ومرة . ودعواه العريضة التي كذبها وقائع التاريخ وأبحاث العلماء المنصفين . هي أن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافات الإنسانية وأن الناس في الشرق والغرب مدينون لثقافة اليونان .

وقد حرص طه حسين على إثبات هذه النظرية الباطلة في الكتاب المقرر في المطالعة على المدارس الثانوية . كما عقد فصلاً خاصاً بهذه القضية عنوانه : (بين الشرق والغرب) أراد بهذا الفصل أن يجعل القيمة العقلية من حظ الغرب وأن يجعل البوارق الخيالية من حظ الشرق وانتهى إلى النص بأن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء ومن دعاواه الباطلة قوله : إن العقل الشرقي انهزم أمام العقل اليوناني مرات في التاريخ القديم وأنه ألقى السلاح في التاريخ الحديث .

ومن ذلك إهمال الخطابة عن الغرب والاهتمام بالخطابة عند اليونان في مقرر الأدب العربي على الثانوية عام ١٩٣٩ حيث أدخل عدداً وافراً من خطباء يونان القديم واستيعاب الأدلة الوافية من كلامهم لا في أصله اليوناني بل في ترجمته إلى العربية عن الفرنسية ، وهدفه لإبعاد النفس المسلمة عن بلاغة اللغة العربية وسمو أدبها . ولا يستطيع الدكتور طه وهو يكتب (على هامش السيرة) أن ينسى اليونان والأوديسة ، فيعرض لآلهة اليونان ويرينا أبولو ، والمريخ وأرتميس وأثينا . وقد اجتمعوا لينظروا عما عساهم يفعلون . فلم يلبثوا أن أجمعوا أمرهم على أن يرحلوا عن الديار التي سادوا فيها زمناً . ويتحدث في كتاب (على هامش السيرة) عن الوثنية اليونانية وكيف زالت وحلت محلها اليهودية والنصرانية ويتحدث في خمسة فصول أخرى عن بلاد الروم والأحباش والنمى .

ويذهب الدكتور طه في مقدمة كتاب (نقد النثر لقدماء) إلى أن قواعد

البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب من اليونانية وتابعه على ذلك عبد العزيز البشري (الجلال - يناير عام ١٩٣٦) : مع أن أى نظرة سريعة للفكر الإسلامى الأصيل تكشف زيف ما عرضه التغريبيون فى المثل السائر لابن الأثير أشهر كتب البلاغة ما يأتى :

(فإن قلت : إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه قلت لك فى الجواب : إن هذا شيء لم يكن . . إلى أن قال : وهذا باطل بى أنا فإنى لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته . ومع هذا فانظر إلى كلامى . . إلى أن قال : ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا وانساق الكلام إلى شيء ذكره لآبى على بن سينا فى الخطابة والشعر وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليونانى يسمى (اللاغوزيا) وقام فأحضر كتاب (الشفاء) لابن على بن سينا فوقفنى على ما ذكره ، فلما وفقت عليه استجهلته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخطب بعض اليونان وكل الذى ذكره لا يستفيد منه صاحب الكلام شيئاً) .

(ع . ط .) الرسالة - ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩ .

(٢)

وقد واجه الدكتور زكى مبارك مقولة طه حسين فى كتاب (مستقبل الثقافة) فقال : إلى الدكتور طه . قلت : إن عقلية مصر عقلية يونانية وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية . إن طه حسين يعلم أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة هذا الدين . كيف جاز عندك يا دكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغير العقلية المصرية بتغيير أو تبديل . أنا لا أنكر أن تكون مصر ورثت ما ورثت من علوم اليونان ولكنى أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم ، هل تصدق حقاً يا دكتور أن المصريين أحصوا العقلية اليونانية بعد الإسلام إحساساً واضحاً صريحاً . أنا لا أنكر قيمة التراث الذى خلفه اليونان ولكنى أرتاب فى أنه وصل إلى ألفاف العقلية المصرية . وأنت تعرف من نفسك ما أعرفه من نفسى : أنت تعرف أننا لم نفقه الفلسفة اليونانية إلا بعد أن

ارتضنا رياضة عنيفة جداً ما وعيت أنك فقهت فلسفة اليونان وأنت طالب في الأزهر ، فأنا أقول : إنني لم أفقه تلك الفلسفة حق الفقه . إلا بعد أن تلقيتها على أساتذة أوربيين في الجامعة المصرية . وما أظنك تهجئ بقلة الذكاء ، والعلوم التي لا تهضم إلا بعد جهد ومشقة لا تغير عقليات الشعوب وإن غيرت عقليات الأفراد ، أنت تعرف فيها تعرف أن الفقه الإسلامى نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض فكان للشافعى مذهب في مصر ومذهب في العراق ومعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان .

والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة . ومن دين إلى دين ، والتي قضت بأن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد . هذه الموجة الغائبة لا يمكن أن يقال : إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ، ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية ؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال ، أقول هذا وأنا أشعر بأنى لم أزعجك تماماً عن موقفك ولكنى موثق بأنى عرضت صدرك لشبهات ستوجب عليك الحذر حين تتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية ، وأنت تعرف ما أعنى .

(٣)

ويعرض الدكتور زكي مبارك لكتاب (قادة الفكر) التي قررتها وزارة المعارف على الطلبة المصريين زمناً طويلاً لتعلم هؤلاء أن قيادة البشرية لم تكن من نصيب الغزالي وابن تيمية والشافعى ومالك وأبي حنيفة ، ولكنها كانت من شأن أرسطو وأفلاطون . يقول :

نخلص آراء الباحثين في طوائف من قادة الفكر الذين سيطروا على العالم القديم والعالم الحديث ، والدكتور يعرف بأنه ملخص (قدرته على تلخيص ما يقرأ من جيد التصانيف) وهو يعترف اعتراف العلماء فلا يدعى أنه أجهد فكره في غير التلخيص ، وأنه يفتزع الآراء بقوة توهمك أنه المفتزع الأول وأن كتابه سيكون المصدر لمن يتحدثون عن هوميروس أو سقراط أو أفلاطون . وقد وثق الدكتور طه بن نقل عنهم ، فلم يجادلهم في رأى من

من الآراء والحق أن للدكتور طه عذراً في هذه المسيرة فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأي ولو أنه تريت لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص وقد سابر الدكتور طه الباحثين الأوربيين في القول : بأن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الإنسانية وأن الناس في الشرق والغرب وفي جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان . والحق أن الدكتور طه لو تريت لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن فلاسفة اليونان القدماء لم يكتفوا إلا بتلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

واستاذية مصر الفرعونية لليونان الوثنية ليست أسطورة وإنما هي حقيقة ويقول : أفي الحق أن العقل الإنساني لم يتضح إلا في القرن الرابع قبل المسيح ، العقل الإنساني تضح قبل الوثنية اليونانية بأزمان وأزمان . وكان مصدر تضح في مصر التي سبقت اليونان بأجيال وأجيال ، والتاريخ القديم يؤيده التاريخ الحديث ، لم يستطع اليونان بعد ظهور الإسلام أن تكون أمة تسيطر في الشرق أو الغرب .

ثم يقول : إن السبب في الإيجاز والأطناب في دراسة هذه الشخصيات يعود إلى الكتب التي بين يديه وهو يؤلف كتابه وأهمها كتاب (ليون رومان) في تاريخ الفكر اليوناني .

لقد قرر أن الإسكندر غرس الفكر اليوناني في الهند ، مع أن الإسكندر لم يلم بالهند إلا إلمامة الطيف ، فما عساه يقول : لو تذكر أن الفكر العربي تغلغل في أرجاء الهند وما زال يتغلغل بفضل المذاهب الإسلامية . ويعود الدكتور زكي مبارك بالذاكرة إلى نوفمبر عام ١٩١٩ حين وقف طه حسين أول مرة يتحدث في الجامعة عن الفلسفة اليونانية وقال : إنه عزم على إحياء التراث اليوناني لأنه يؤمن إيماناً جازماً بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان وأعلن زكي مبارك أنه لا يجوز أن يرجع الفكر كله إلى مفكرى اليونان وحتى عام ١٩٤٣ وما بعده وما زال طه حسين على إصراره على القول : بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان وحرصه على إثبات هذا القول في الكتاب المقرر للمطالعة في المدارس الثانوية .

ومن ذلك قوله : إن الغرب وطن الفلاسفة وإن الشرق وطن الأنبياء ما حظه في أن يقرر أن العقل الشرق الهزم أمام العقل اليوناني ، وما الغرض من الإصرار على أن العقل الشرق يذهب في فهم الطبيعة وتفسيرها مذهباً دينياً غائطاً ، بدليل أنه يخضع للكهان في عصوره الأولى وخضع للديانات السماوية في عصوره الراقية ، وقال : لابد من نقض هذه الآراء قبل أن يفتن بها التلاميذ لأنها صادرة من رجل ممتاز من الوجهة الأدبية أو لأنها مسجلة في كتاب رقمه على اسم وزارة المعارف العمومية .

ومن أخطاء الدكتور طه في تصوير الحياة العقلية :

١ - أنه يتوهم أن أخذ اليونانيين من الشرقيين نظام النقد ونظام المقاييس ليس إلا عملية مادية .

٢ - من أخطائه أنه يهون من فنون الحساب والهندسة فيجعلها فنوناً عملية لا عقلية .

٣ - من أخطائه أن يقول : بأن سيادة النظام الملكي في الحكومات الشرقية دليل على أنها لم تنضج من الوجهة السياسية .

وحجة الدكتور طه على قوة الغرب أنه وطن الفلاسفة وحجته على ضعف الشرق أنه وطن الأنبياء ، فما قيمة هذا الكلام إذا أقيمت له الموازين ؟ الفلاسفة لم تكن لهم فاعلية بدليل أنهم عاشوا في عزلة عن المجتمع ولم يفكروا في إقامة حكومة تحقق آمالهم في شرف الوجود ، ولم يكن للفلاسفة أى فاعلية بدليل أنهم عاشوا في عزلة عن المجتمع وسقراط أبو الفلاسفة لم يسلم عقله من الخضوع لمعبد أبولون وكان حاله عند الحكم عليه غاية في سوء المصير فقد ظهر أنه لم يستطع خلق عصبية تحميه من العقل ولم يكن تلاميذه وحواريوه إلا أنصاراً لا يجيدون إلا البكاء . أما الرسول فرجل مجاهد يرى من واجبه أن يستنقل في هداية المجتمع وأن يرحب بالموت في سبيل الجهاد وقد نجح الأنبياء المرسلون في هداية الشرق والغرب ، فلإلهم الفضل في إقامة الدعائم للحياة الإنسانية ، ثلاثة من الأنبياء سيطروا بالفكر والروح والعقل على أقطار الشرق والغرب أضعاف ما سيطر سقراط ، وأفلاطون وأرسطو . رفض محمد أن يقبل فكرة أن الشمس انكسفت لموت

ابنه إبراهيم وكانت هذه ذات أثر في إيمان الناس به ، فأعلن أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأنها لا يتأثران بمؤثر ولو كان من الأنبياء ، ولكن محمداً لا يبالي بالأثر السريع بينما هو لا بد أن يصدع بكلمة الحق ولو تعرضت نبوته للضياع .

ومن هنا فقد كان محمد هو القائد الأول للفكر الإنساني لا سقراط . أراد الدكتور أن يغض من العقلية الشرقية بحجة أنها خضعت للكهان ، والأنبياء (وهذا كلام موجود في كتاب قررته وزارة المعارف) والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية وذلك توهم طريف لأن الدكتور طه نفسه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان مع أنه في زعم الدكتور طه أول محرر للعقل الإنساني من أغلال الأضاليل . الكهانة لم تعد مهنة مقدسة إلا في عهد الوثنية اليونانية فقد كانت لها معابد ولعابدها سدنة وأمناء ، أما كهان الشرق فكان مركزهم في المجتمع أخف وأيسر ، لأن الشرق سبق الغرب إلى استيحاء العقل وهل يستطيع مكابر أن ينكر فضل الشرق في السبق إلى رفع القواعد من الحضارة الإنسانية .

أما الكلام على تفرد الشرق بالأنبياء ، فإن النبوات في الشرق دانت الإنسان بديون براها الحاضر ويذكرها التاريخ (فالأنبياء الثلاثة : موسى وعيسى ومحمد) من أروقة عربية ملأوا الدنيا في أزمان لم تعرف سوى الذي أثاروا من صياح الآراء . إن الصراع بين الإسلام والنصرانية هو أول وثبة حرة لإيقاظ العقلية الإنسانية ، وكانت دعوة لور دعوة جريئة إلى تحرير المسيحية من العبودية الرهبانية فما مصدر تلك الدعوة التي حررت عقول الإنجليز وعقول الألمان ؟ أن مصدرها مصدر إسلامي فإن لوثر أثر في الأخلاق الأوروبية تأثيراً لا يقاس عليه تأثير سقراط وأفلاطون الشرق لن يتخلل عن السيطرة الروحية وإن عجز عن السيطرة الحربية .

وقد ذهب الدكتور طه إلى أن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافات الإنسانية . وأن الناس في الشرق والغرب في جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

• • •

(٤)

أما الدكتور طه حسين في كتاب (نظام الأثينيين) فإنه يدافع عن أرسطو وعن نظريته في عبودية البشر وتجنيد الرق ، فقد حاول في كتابه هذا أن يبرئ نظرية أرسطو بكل ما أوتي من قوة من تجنيد الرق والدعوة إليه وأن يثبت أن الأمم الحديثة باستعمارها للشعوب المستضعفة تقدم أقيح صور الرق الذي كان مألوفاً في العصور الأولى ، وأنه لا فرق بين هذه الأمم وبين أهل تلك العصور ، ويقول الدكتور محمد غلاب :

(لو أننا أردنا أن نستفضي الأمر لوجدنا أن نظرة أرسطوطاليس ما زالت قائمة واقعة رغم ما كان من رقي المدنية من الاعتراف بكرامة الإنسان ، فكل ما وصلنا إليه بعد عشرين قرناً إنما هو إزالة الرق الشخصي إن كنا قد توصلنا إلى ذلك ، أما الرق الاجتماعي فما زال قائماً موجوداً والاستعمار أوضح مثال له وأقوى دليل عليه ولستأ نريد أن نعرض لاستبعاد الطبقات بعضها بعضاً وإن كان هذا الاستبعاد صورة من صور الرق) .

يقول طه حسين : ولكن من قرأ أرسطوطاليس عرف أنه من أعداء الرق ومن الذين أعدوا لإزالته والقضاء عليه ، على أن أرسطو لم يدع إلى الرق وإنما اعترف به وبأنه مشروع ولو فعل غير ذلك لهدم قواعده العلمية . انظر كيف يعترف الدكتور طه بصريح العبارة بأن الرق بأنواعه ومنها الاستعمار مهين لكرامة الإنسان ، ولكنه يخالف رأى نفسه في كتابه فلسفة ابن خلدون الاجتماعية الذي يرى فيه للفرنسيين من أجل أنهم يهانون الأمرين في سبيل بسط حضارتهم على المراكشيين المتوحشين الذين رفضوا قبول هذه الحضارة ويعترف بأن الرق كان أصلاً من أصول الاجتماع الأرسطي

لا ريب أن في تبرئتك أرسطو أيها الدكتور من الدعوة إلى الرق بهذا الإلحاح شعور من ناحيتك بأن الدعوة إليه أمر محجل سيتوارى منه في المستقبل تلاميذك ومحجوك حين ينسب إليك أنك دعوت إلى الرق وزينت الأسلوب القامى الذي تسلكه فرنسا لإزاء المراكشيين المظلومين .

وهكذا نجد طه حسين يبرر مذهب أرسطو في العبودية في تلك العبارات المأكرة التي تحمل التقوية والتفضيل .

٢ - ويقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي (البلاغ الأسبوعي - يومية عام ١٩٣٠) :

الأستاذ طه حسين في كتاب (نظام الاثنييين) لأرسطو الذي نقله من الفرنسية إلى العربية لا يتورع من الطعن ويرى العرب بالجهل لسياسة أرسطو ، وما كان من ضرر عليهم من جهلها وقد سن لهم الإسلام سياسة عادلة رحيمة ليست كسياسة أرسطو الذي يقوم على أساس التمييز بين بني الإنسان إذ يرى أن هناك أناساً خلقوا ليكونوا أحراراً وآخرين خلقوا ليكونوا عبيداً . وأن من حق الأولين استخدام الآخرين ، فأين هذا من قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . . » .

ومن قول عمر : بما استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ويشاء الله أن يكون هناك علماء من أولئك العرب الذين يبخس الآن قدرهم نصوا في كتبهم التي بهجرها شيئاً فشيئاً أولئك الباحثون المفتونون بغيرها من الكتب الأوروبية على أن تلك الفلسفة التي نقلت إلى اللغة العربية ليست هي الفلسفة اليونانية الأصيلة ، وإنما هي فلسفة لعبت فيها النصرانية وعبثت بها حتى شوهتها وبعدت بها عن أصلها اليوناني ، فلم يكن إذن هناك غفلة من العرب عن حقيقة تلك الفلسفة حتى كشف أمرها ، بل كان هناك عدم ثقة عام بتلك الفلسفة وصل إلى الحد الأقصى منه إلى الحكم بكفرها والاجتهاد في صرف الناس عنها .

(٥)

وهو من يرى أن دراسة تاريخ اليونان من شأنها أن تحقق هدفه في وضع التبعية على المسلمين وفكر الإسلام ، اتجه إلى إلزام طلاب كلية الآداب به ، فهما كان للعضارة اليونانية والرومانية من التأثير الظاهر في البلاد الإسلامية فإن هذا الأثر سرعان ما انطوى وزال بعد الإسلام بقليل وقام ما أسماه المؤرخون الانقطاع التاريخي . وقد واجه علماء المسلمين الفكر اليوناني المترجم والمسمى علم الأصنام مواجهة حاسمة وكشفوا عن زيفه . كشف عنه الشافعي

وأحمد بن حنبل والغزالي وابن تيمية الذي ألف في منطق اليونان كتاباً دحض فيه هذا المنطق وكشف عن منطق القرآن .

ولكنها تعلقة من الدكتور طه ليفرض تاريخ اليونان المائج بالسموم والشبهات والإباحيات والقصص المكشوف الداعر ، والفساد الصارخ الذي أراد أن يدخله على المجتمع الإسلامي .

وإذا كانت الجامعات في فرنسا تدرس اللغتين اليونانية واللاتينية فليس معنى هذا بالضرورة أن تدرسه الجامعات في مصر والعالم الإسلامي ، لقد عني الفرنسيون والإنجليز بهاتين اللغتين لارتباط أدبهما بهذا الأدب . أما الأدب العربي فليس له هذا الموقف ، لقد نشأت الفرنسية عن اللاتينية ، ثم غزت اللاتينية اللغة الإنجليزية ، أما العربية فإن اليونانية واللاتينية لم تغزها كما غزتا اللغات الأوروبية .

(٦)

هذه المدرسة التي أنشأها طه حسين في التبعية للفكر اليوناني والأدب اليوناني والتي اتساق وراءه فيها صقر خفاجي ومنصور ولويس وعوض وغلاب معناها تحسين الجاهلية القديمة وإحياء الأساطير تحت عبارات براقة منها الزعم بأن اليونان لها فضل على الحضارة الإسلامية وهو زعم باطل كاذب ، ولكنها تمويهات يراد بها خداع شبابنا المسلم وإذا كان الشعر الغربي لا يفهم إلا بدراسة اليونان فإن الأدب العربي لا يخضع مطلقاً لهذه الأضالعة ، بل إن طه حسين يذهب إلى إنكار فضل الحضارات القديمة ومعارفها على اليونان والعقل اليوناني ، حيث يثبتها الأوروبيون أنفسهم . وقد أشار إليها غير واحد منهم ومنهم سانت هيلر في مقدمة ترجمة الإلياذة حيث يثبت في وضوح تتلمذ اليونان على المصريين القدماء ولكن الدكتور طه يبرهنهم من هذه التبعية ثم يفرضهم على الإسلام نفسه في صلف عجيب وتضليل بالغ .

بل إن الدارسين للأدب اليوناني أحصوا عليه أخطاء في هذا الأدب نفسه تدل على أنه لا يعرف كيف يترجم ، وقد أشار الدكتور غلاب (السياسة الأسبوعية - يونية عام ١٩٣٠) إلى أنه ادعى أن أفروdit كانت ذات

قوة وصبيحة وقتك وبطش ونحن لا نعرف أن أحداً وصلت به الجرأة في قلب الحقائق وتغيير الحوادث هذا الذي بلغه الدكتور طه، فكل الناس يعلمون أن أفروديت كانت إلهة خيلة رشيقة خليعة مفعودة القوة تمثل الخور . وقد تبين أن الدكتور طه إما أنه يجهل الأدب اليوناني جهلاً تاماً وهذا ما لا نظنه وإما أنه بعيد عن النزاهة في النقد والإخلاص في العلم بعداً تاماً وهذا ما اعتقده ولا أتردد في التصريح به .

إن هناك ناحية ضعف في أخلاق الدكتور طه لا ينبغي السكوت عليها وهي غروره بنفسه إلى حد اعتقاده أنه يستطيع مهاجمة الناس جميعاً . بل هدمهم وإبادتهم دون أن يقدر أحد على أن يهاجمه أو ينال منه، هذه العقيدة نقتد إلى بعض الرموس المستنيرة قائلين كثير من الخاصة بأن الدكتور طه أقوى من أن يهاجم وأمين من أن يحطم فأصبحوا يهابونه وأصبحوا يعتقدون أنه أعلم من أظلت الزرقاء وأقلت الغبراء .

وقد أولع الدكتور طه بترجمة الأساطير اليونانية الصارخة جنساً وجرمة ليقدّم صورة من ذلك الركام الوثني في صورة براقة (كتابه مصنف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) وغيره ، ومن ذلك إشاعة الوثنية اليونانية حيث يتحدث في هذه القصص عن عبادة اليونان والرومان للألهتين (رسيقونه ودعتر) عبادة منظمة خفية وقال : إن أصولها ومراسيمها اعتبرت أسراراً مقدسة لا يعرفها الناس إلا إذا لقنوها تلقيناً ودرسوها درساً خفياً مستوراً على الذين احتكروا علمها وتعاليمها من القسس والكهان وانضم إلى هاتين الالهتين في هذا المعبد إله ثالث هو ديونوزوس إله الخمر والكرم .

راجع : قصة رسيقونه (الراوى - مجلد عام ١٩٣٤) .

وقد بلغ من قدرة طه حسين على المبالغة في الإعجاب بحضارة اليونان أن يقول في التعريف بكتاب الأخلاق لأرسطو الذي ترجمه لطفى السيد : أنه لو أن الحضارة الحاضرة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو أساساً لهذه الحضارة الجديدة ، وأن أوروبا الحديثة تعيش الآن ومستعيش غداً على فلسفة أرسطو، والواقع الذي تثبته جميع الأبحاث العلمية أن الغرب تخلص من فلسفة أرسطو منذ بدء النهضة وأن فرنسيس بيكون ومن

بعده روجر بيكون وغيرهم ، أنهم تخلصوا من فلسفة أرسطو وأنهم نقدوها وهدموها بنفس الأسلحة التي هدمها بها المفكرون المسلمون ، وأنهم استبدلوا بها المنهج التجريبي الإسلامي الذي أخرجهم من جود الفلسفة الأرسطية ، وأن الجريمة المعروفة أنهم حين أخذوا من المسلمين المنهج التجريبي لبناء الحضارة الحديثة أهدوهم منهج أرسطو ليجمدوهم ويمنعوهم من التقدم وهذا ما فعله جلارزا ولطفي السيد وطه حسين في مؤامرة التغريب التي بدأتها الجامعة المصرية القديمة .

كذلك فقد امتدت مدرسة الحلبيّة إلى البيان والبلاغة ، وجرى كلام كثير عن أثر اليونان في متكلمى المعتزلة ، وفي البلاغة ، وفي كتابات عبد القاهر الجرجاني الذين يعدونه على رأس المدرسة اليونانية في البيان العربي وقد قام الشيخ أمين الحلولى بدور واضح في هذا الاتجاه ، فقد كتب بحثه عن البلاغة وأثر الفلسفة فيها ، وتحدث كثيرون عن أرسطو معلم العرب الأول ، وقالوا : إنه معلمهم في الفلسفة كما هو معلمهم في البيان . - ولكن هذه المدرسة هزمت شر هزيمة عندما تولى الشيخ مصطفى عبد الرازق تدريس الفلسفة وكشف عن زيف هذا الاتجاه وأشار إلى أن الفلسفة الإسلامية تبدأ بالإمام الشافعي وكتابه (علم أصول الفقه) وأن ما غير ذلك فهو منسوب إلى المدرسة المشائية اليونانية ، وأن هؤلاء الفلاسفة هم المشاعون العرب وكان على رأس هذه المدرسة (ابن سينا والفارابي) ، قاد هذا التيار محمد عبد الهادي أبو زيدة ، على سائى النشار ، محمد محمود الحضرى ، وغيرهم وفي كتاباتهم تفاصيل كثيرة عن زيف وجهة طه حسين .

• • •

وفي كتاب (رحلة الربيع) التي قصد فيها طه حسين إلى أصنام اليونان تهاويل وعبارات فيها مبالغة حادة في وصف تلك الأطلال اليونانية التي يدعى أنها صدرت للعالم الفكر السياسى المعاصر والديمقراطية ويبالغ أشد مبالغة حين يقول : إنها (أى أثينا) هى التى رسمت للأجيال وللإنسانية طريقها الذى سلكته وستسلكه مدى الحياة) . ومن أين يملك طه حسين هذا التنبؤ وهو يعلم أن الإسلام جاء فحيا كل هذه الرهات والأساطير والأوهام وأن الديمقراطية التى يشيد بها تلفظ اليرم أنفاسها .

الفصل الحادى عشر

كتابا (الشعر الجاهلى) و (الأدب الجاهلى)

- ١ - فى الأدب الجاهلى .
- ٢ - نظرية ديكرات ومنهج الشك .
- ٣ - الشبهات المنارة حول كتاب فى الأدب الجاهلى .

. . .

(١)

في الأدب الجاهلي

كتاب (في الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين هو الكتاب الموجود الآن في أيدي الباحثين وطلبة كليات الآداب في بعض الجامعات في الوطن العربي ، وبعضهم يعتبره دعامة أساسية لأنه قدم المنهج الغربي في دراسة الأدب ونقده ، وهو الوليد الذي أسفرت عنه مصادرة كتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه بعد تلك المعركة الشهيرة التي أثارت مشاعر المسلمين والعرب في كل مكان ومن جراء العبارات الجريئة المدافية للقيم والعرف والمفاهيم في الإسلام في الإشارة إلى القرآن الكريم وإلى النبي صلى الله عليه وسلم والتي أرغمت الدكتور وحوارييه أن يحذفوها من الكتاب ويعيدوا طبعه تحت اسم جديد مع بعض الإضافات .

ومعنى هذا أن روح الكتاب الحقيقي العاصف الكاره الخاقد على الإسلام بقي كما هو ، وبقيت تلك النظريات المسمومة التي عمد إلى إذاعتها قائمة بل أن البعض الآن من التغريبيين والشعوبيين والماركسيين يرون أنها دعامة أساسية لإقامة منهج البحث الأدبي وقد كانوا يفخرون دائماً في كتاباتهم بهذا العمل بالإضافة إلى كتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) .

وقد حذف الدكتور طه من كتابه ما حذف من غير أن يذكر أسباب الحذف حيث جرت سنة العلماء إذا نشروا بحثاً ألا يغيروا منه من غير أن يشيروا إلى الأسباب التي دعت إلى هذا التغيير ، خصوصاً إذا كان التغيير رجوعاً في الظاهر عن رأى كان الباحث قد ارتآه وأذاعه باسم العلم وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور الغمراوي الذي قال : الواقع أن المحذوف هو ما أثار ثائرة المسلمين على صاحب الكتاب فكانت عملية تنقية الكتاب

بالحذف مما لم يقو على تحليصه من كل ما يجافى الدين وإن خلصته فيما يظهر من كل ما يؤخذ عليه القانون . أما المثبت في ثنابا الكتاب فقد بقى فيه طابع التبرك والشك ولعل القارئ يريد أن يعرف بعض ما رفع وإن كان نعتنا منصبا في هذه الحلقة على الكتاب الباقى في أيدي الناس :

رفع من الكتاب ما يتصل بتشكيكه في وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وما يتصل بالسخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم في عبارته : (فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم) ، وهى عبارة وصفها المحقق في النباة بأنها تمثل سوء الأدب في حق النبي وعبارة (ولأمر ما شعروا بالحاجة . . إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق في ألفاظه للغة العرب) وإن استبقى عبارة (وفي القرآن سورة تسمى سورة الجن أنبأت أن الجن استمعوا للنبي) وهو أسلوب مقصود منه استخفاف خفى بكتاب يجعل سورة تحدث فيها عنهم بكذا وكذا بما لا عهد للناس به وما لا يمكن إثباته إلا عن طريق القرآن وفيها عدا هذا فكتاب (في الأدب الجاهلى) هو نفس النص القديم بروحه وطابعه وهدفه الذى وجه إليه النقد من أعلام الفكر الإسلامى في عصره : الخضر حسين . فريد وجدى ، مصطفى صادق الرافعى ، لطفى جمعة ، محمد الحضرى في دراسات متصلة فضلا عن مقالات عديدة للكثيرين غيرهم .

هدف الكتاب يتمثل في عدة أهداف :

أولا : محاولة تأكيد نظرية مسمومة كتبها المستشرق اليهودى مارجليوث ملخصها أن الشعر الجاهلى موضوع جله إن لم يكن كله بعد الإسلام والمهدف هو تحطيم الدعائم التى يقوم عليها تفسير الألفاظ العربية الموجودة في القرآن والتى نزل بها القرآن لأن العرب يعرفون معناها الوارد في ديوانهم القديم والشعر كان ديوان العرب .

ثانياً : هدم النظرية الإسلامية الجامعة التى تجعل الأدب العربى قطاعاً من الفكر الإسلامى مرتبطاً به لا ينفصل عنه ويلتزم بقيمه الأخلاقية ومفاهيمه العقائدية .

ثالثاً : إذاعة نظرية مسمومة بتقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة +

وأخيراً : دعوى أن المسلمين قضا على الفكر السابق للإسلام .

غامساً : محاولة الادعاء بأنه اعتمد على نظرية الشك التي أذاعها ديكارت مع أن نظرية ديكارت تختلف ولقد كانت نظرية (الشك الفلسفي) هي عماد عمل طه حسين حياته وفكره كله في زعمه .

سادساً : الدعوة إلى تحلي الأديب عن العاطفة الدينية والقومية ودراسة الأدب كما يدرس العلم الطبيعي وعلم الحيوان والنبات .

والنظرية في مجموعها مسروقة سرقة كاملة من المستشرق اليهودي مارجليوث نشرها في المحلة الملكية الآسيوية (الإنجليزية) عدد يوليو عام ١٩٢٥ وهو بحث في ٢٢ صفحة بعنوان (نشأة الشعر العربي) يشك في صحة الشعر الجاهلي ويرى أن الشعر الجاهلي الذي نعرفه إنما هو في الحقيقة شعر إسلامي وضعه الرواة المسلمون في الإسلام ونسبوه إلى أهل الجاهلية .

كان موقف مارجليوث ومن قبله تولدكه هو موقف الاشتباه والشك والترجيح . أما موقف طه حسين فهو موقف الحسم بأن هذا الشعر وضع بعد الإسلام مع تجاهل العلوم المعروفة التي تكشف عن الفروق الواضحة بين شعر الجاهلية وشعر عصر الإسلام وهي معارف يلم بها كل من له اتصال بهذا الباب ، هذه الفروق العميقة التي تميز الشعر الجاهلي عن الشعر الأموي والعباسي رغم مسافة مائة سنة يعرفها الباحثون .

إن في الشعر الجاهلي كما يقول محمود محمد شاكر شيئاً ميبأناً ميبأنة سافرة لما في الشعر العباسي كله ، ففي الشعر الجاهلي ترجيع خفي غامض كأنه حفيف نسيم تسمع حسه وهو يتخلل أعواد نبات عميم متكاثف ، وترجيح الشعر الجاهلي ودندنته فيها ميبأنة ظاهرة لما يوجد في الشعر الأموي والعباسي ، فضلاً عن حفظه لعادات وتقاليد العرب قبل الإسلام ، وهذا هو ما انكشف لشباب كلية الآداب عندما بدأ طه حسين يلقى هذه المحاضرات وكان (شاكر) قد قرأ مقالة مارجليوث في المحلة الآسيوية قبل أن يدخل كلية الآداب وقد سرى ذلك في الأستاذة والمستشرقين - وإلى الطلاب ، فقد أعلن ذلك لهم الأستاذ شاكر وقال : إن ما يلقيه طه حسين ما هو

إلا (حاشية على متن مارجليوث) وأن طه حسين تعمد ألا يذكر مارجليوث خلال العام كله ولا بكلمة واحدة فحق أن يصفه شاكر بزعماء السطو هذه الخليقة التي عمها طه حسين في الجامعة كلها والتي شابت الأدب العربي فترة طويلة بفضل عميد الأدب .

وكان محمود محمد الحفصيري من زملاء شاكر وقد كان له دوره في الكشف عن زيف ما ادعاه طه حسين من اعتياده على نظرية ديكرت فكان أن ترجم (مقال في المنهج) لديكرت وطبعه لدى السيد محب الدين الخطيب ليثبت أن ما يقوله طه حسين ليس هو منهج ديكرت في الحقيقة وإنما هي تموجات مضللة مما ستفصله في فصل خاص عن مذهب ديكرت ونظرية الشك الفلسفي ، وكان أن جبه شاكر الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي بأنه من الضروري قراءة الشعر الجاهلي (والأموي والعباسي) قراءة مستوعبة ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة وأنه موضوع في الإسلام من خلال روايات في الكتب هي في ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير .

والحقيقة الواضحة في هذا الأمر هي (المزاورة على القرآن) دون الإشارة إلى ذلك والعمل على هدم القاعدة الأساسية التي يرجع إليها المفسرون برد كلمات القرآن الكريم إلى لغة العرب . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا أخطر مغمز لهدف طه حسين .

ولقد أصبح الشعر الجاهلي بعد الإسلام — كما يقول باحث كبير — بمثابة الوثيقة التي لا تكشف جوانب حياة العرب قبل الإسلام فحسب ، بل تعطي كذلك صورة صادقة للغتهم وأساليب تعبيرهم وطريق تصويرهم بها . لقد رجعوا في القرآن إلى الشعر الجاهلي ليفهموا معاني الكلمات فاعتبر الشعر الجاهلي مصدراً لفهم القرآن ولذلك كانت محاولة طه حسين (التي ما تزال قائمة ومستمرة في كتابه الأدب الجاهلي الذي ما زال يطبع وما زالت كليات الآداب في كثير من البلاد العربية وأساتذتهم العلمانيون يعتبرونه أساساً لنظرية النقد والبحث في الأدب) التي بثها خلال خمسين عاماً اليوم خطيرة وجد خطيرة لهدم اللغة التي نزل بها القرآن فأصبحت دراستها موضوع اهتمام

المسلمين وبذلك أصبح الشعر الجاهلي الذي يمثلها في عصر نقاشها الأول عنصراً ثقافياً هاماً في الحياة الإسلامية . ولقد كان إعجاز القرآن ومجيبته على مستوى من البيان تنقطع دونه أطباع المقلدين وانقياده بأساليب خاصة في التعبير سبباً في أن لا يتخذ نموذجاً للاحتذاء بل مثالا للاستدلال والاستشهاد ، فلم يبق أمام الشعراء والنقاد واللغويين ما يمكن أن يتخذوا منه ذلك النموذج اللغوي البلاغي الذي لا يمكن احتذائه إلا في الشعر الجاهلي وبذلك سيطرت مقاييسه اللغوية والبلاغية وتقاليدته الأدبية على الإنتاج الأدبي في العصور التالية إلى اليوم وفي الشعر والنثر على السواء .

حاول طه حسين بكتابه (في الأدب الجاهلي) أن يفصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي ، وأن يحل الأديب من العاطفة الدينية والقومية وأن يفرض عليه منهج النظرية المادية في القول : بأنه يدرس الأدب كما يدرس العلم الطبيعي وعلم الحيوان والنبات . وتلك النظرية تعتبر الإنسان حيواناً وتدرسه على أنه لا يملك جوانب روحية أو معنوية وهذه نظرية فاسدة من أساسها لأن الأدب إذا خلا من عاطفتي الدين والقومية فقد كمل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التي يرجد فيها هذا النوع مقيمة من الأدب الصحيح كمل الأفقار .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إن صاحب الكتاب ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي في طريق غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسيجه وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ويسوقونه في نفس الطريق الذي ضل فيه الأدب الألماني حتى رده إلى الطريق الصحيح هالماً وهاجيدون ولستج وما تلك الطريق التي يسوقون الأدب العربي فيها إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغربي عامة حين لا صلة بين ذلك كله وبين روح الأدب العربي ، خاصة أن التقليد إن جاز في العلم من غير قيد لا ينبغي أن يؤخذ منه في الأدب إلا بمقدار ، لأن أدب الأمة من روحها ، فالتقليد فيه إخضاع لروح الأمة وإضعاف لشخصها . أما العلم فإنه ميدان العقل ومتاعه وهو لا وطن ولا قومية له ، وليس الأدب كذلك فبينما أنت لا تجد في العلم علماً إنجليزياً أو فرنسياً ولكن علماً واحداً إذا بك تجد الأدب متعدداً

بتعدد الأمم . لكل أمة أدبها كما لكل أمة لغتها ، وتجد أدب كل أمة مطبوعاً بطابعها طبعاً لا خفاء فيه . إن التجديد في الأدب كالتجديد في العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضي .

وفي الرد على نقطة (نسيان القومية والدين كشرط أساسي من شروط البحث العلمي) يقول الدكتور الغمراوي : إن الإنسان يستطيع أن يراعي الدقة العلمية في البحث وهو متذكر لدينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد غير مجوز على قرآنه خطأ ولا على توراته ، بل إن الدين الصحيح يزيد الباحث الخلق إن أمكن حرصاً على الحق واستمسكاً به إذا وصل إليه . إن الباحث المتدين لا يخوف عليه مطلقاً أن يخفق الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكنه الباطل فالمتدين الصحيح والعلم الصحيح يمكن اجتماعهما إذن كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران في خدمة العلم .

هذا وإن فصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي إنما يدفعه إلى طريق التحرر من القيم والأخلاقيات لبعضى في طريق الإباحية والانحراف وهو ما فعله بدراسة أبو نواس وبشار وترجمة القصص الفرنسي المكشوف . هذا بالنسبة لهذه النقطة ، أما النقاط الباقية فزعدنا بها البحث القادم بإذن الله .

~ ~ ~

نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفي

إن (منهج الشك الفلسفي) هو الأطروحة الكبرى للدكتور طه حسين في حياته كلها . وهو الهدية المسمومة التي حملها إياه المستشرقون الصهيونيون ، والمبشرون الذين تلقفوه في معهد الدراسات الشرقية ، الذي كانوا يصوغون فيه أتباعهم إلى البلاد العربية .

ونحن إذا أردنا أن ندرس حياة طه حسين . فإن (مفتاح حياته) هو هذه الحكمة التي علموه إياها . ثم تركوه بناطح الفكر الإسلامي ، وهي : (أسلوب الشك هو مصدر الشبهة وإحداث الدوى) . وقد كان طه حسين يتطلع إلى هذا الهدف منذ مطالع شبابه . لظروف حياته وعاهته .

ومن ثم فقد استهل بها حياته في الجامعة ، حين وكل إليه تدريس الأدب العربي ، وذلك بالشك في الشعر الجاهلي . ومتابعة المستشرقين ، في القول : بأنه منحول .

لقد ادعى طه حسين أنه يستخدم (منهج ديكارت) ليغايظ الأزهريين ، حين قال لهم : إنهم لا يعرفون هذا المنهج .

وقد تصدى له الأستاذ محمد أحمد الغمراوي خريج كبرج ، وقال له : إن ما قدمه ليس هو منهج ديكارت ، بل أن الأستاذ الخضيرى ترجم كتاب ديكارت (مقال عن المنهج) . ليؤكد أن ما قدمه طه حسين . ليس هو منهج ديكارت .

وقد طبعت هذا الكتاب المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب رحمه الله عام ١٩٣٠ . ليبين فساد اقتباس طه حسين .

ولقد أضطهد عميد الأدب . الأستاذ الخضيرى وطرده من الجامعة وتابعه ومنعه أن يدخل هيئة التدريس في كلية الآداب وجرمها عليه . حين أطلقها لكل ناعق — على حد تعبير الدكتور نجيب البهني .

وقد تبين من بعد أن ديكرات قرأ ترجمة كتاب (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالي ، وأشار على نسخته الخاصة الموجودة في مكتبته المهداة إلى السريون على الماشي أمام عبارة الغزالي عن (اتخاذ الشك طريقاً إلى اليقين) . ولكن طه حسين استعمل هذه النظرية لشيء آخر ، لإنكار كل قطعي وحقيقي وبقي ، ولقطع الطريق على القيم الجامعة المتكاملة ، ولفصل الأدب عن الفكر ، ولأن يترك الباحث المسلم ، دينه وقوميته ، عندما يبحث في أي أمر من الأمور ، وهذا غاية في الخطأ والتوهم وفساد الرأي . وقد عالج هذه القضية الأستاذ الغمراوي في كتابه (النقد التحليل للأدب الجاهلي) فقال :

١ - إنه تدرع بما سماه القاعدة الأساسية لمذهب ديكرات ، لينطلق به إلى الانسلاخ من كل قديم في هذه اللغة التي هو أستاذ لأدائها . وليتخذ ذريعة يرى وراءها هذه اللغة وما اتصل بها ، حتى إذا قيل له : لم فعلت ما فعلت . وهل يفعل هذا عاقل ؟ قال : فعله قبلي ديكرات .

٢ - لقد خلط الدكتور طه بين الشك وبين المخرج من الشك . فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذي ابتغى ديكرات أن يتخلص به من الشك ، والذي أدى به في بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة .

٣ - ليس صحيحاً ما ذكره الدكتور من أن القاعدة الأساسية لمنهج الشك عند ديكرات ، أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً ، وهذا قطعاً ليس من قواعد منهج ديكرات .

٤ - الواقع أن كلا من ديكرات وبسكال ، مسبوق إلى ما عرف باسمه من قواعد النظر ، سبقهما الغزالي على الأقل وقد سبقهما قبل ذلك بقرون - كما تشهد بذلك كتبه - مثل كتاب (محك النظر) و (معيار العلم) :

والغرب معذور حين ينسب بعض تلك القواعد إلى ديكارت ، وبعضها إلى باسكال ، فهذا أول من أظهره عليها ، ولكن ما عذر الدكتور طه حسين حين ينسب إلى ديكارت منهجاً سبقه إليه الغزالي ، ألا أن الدكتور كان يجهل مذهب الغزالي في النظر ، أم لأن الغرب نسب وهو للغرب تابع .

٥ - ليس هذا الذي زعمه طه حسين ، من وجوب تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل ، مما قال ديكارت ، فإن الذي قاله ديكارت هو : إنه يجب علينا ألا نقول عن شيء : إنه حق ، إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك .

وشتان بين هذا المعنى ، وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قبل في موضوع البحث من قبل ، إذ من الجائز أن يكون ما قبل قد قام البرهان على صحته .

ثم يدهى أن تلك القاعدة من معناها أن يتولى كل إنسان إثبات كل شيء لنفسه بنفسه ، كما تقتضيه القاعدة الأساسية التي زعم الدكتور ، لأن ذلك صنف لا ينتج عنه إلا التأخر والخطأ والفوضى .

هذا التصور ، يشهد على صاحب الأدب الجاهل ، بما لا يمكن أن يسمى إلا جهلاً بديكارت وافتراء عليه ، كما أنه افترى على علماء العربية المتقدمين .

٦ - على أن فلسفة ديكارت ، قد يكون لها الفضل في الحكم بين طه حسين وبين بقية علماء الأدب العربي ، وفي الشعر الجاهلي وغير الشعر الجاهلي ، ذلك لأن من قواعدها أو حقائقها التي وصل إليها ديكارت نفسه : (أن ما وجد في الدين واضحاً جلياً ، فهو حق يجب أن يسلم به تسليماً) .

والدكتور طه لا ينكر أن القرون قد مرت على العالم العربي ، وأن الأجيال قد تتابعت فيه ، والشعر الجاهلي قائم في الأذهان واضحاً جلياً ، منسوباً إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين ، فالشعر والشعراء والنسبة حق إذن ، يحكم بذلك القدماء وأنصار القدماء ، ولو كان كل باحث حديث يهمل نتائج أبحاث غيره ويستقبل بحثه خلواً من كل ما قبل ، فيما يتعلق به المعنى الذي يقول صاحب الكتاب : إن ديكارت يعنيه ، لو وقف العلم عن التقدم ، بل لما كان هناك علم منظم محدود .

تصور أن كل باحث في علم الطبيعة أو الكيمياء مثلاً - شك في كل ما عده من العلماء ، شك كما شك الدكتور ، في أمانة القادرين ، وفي مقدرة الأمانة . وشك طبعاً في النتائج التي وصلوا إليها . وأنه أخذ بمنهج ديكارت ذلك ، وطقق يعيد تلك الأبحاث من جديد !

قل لي : هل يتسع عمره لهذه الأبحاث كلها أو أغلبها ، وهي قد استنفذت أعمار الأجيال من قبله . أم هل يستطيع كل متشكك أن يعيد الصعب من أبحاث من عده من العلماء .

إن التفرغ لفرع ما ، من علم ، يكسب المتفرغ مقدرة خاصة . في ذلك الفرع ، غير المقدرة الخاصة التي يكتسبها شخص آخر تفرغ لفرع آخر في نفس العلم ، فهل من الممكن أن تنشأ تلك المقدرات الخاصة في كل بحث شكاكاً حين يريد ؟ ! أم هل من الممكن أن تجتمع كلها لإنسان واحد . طبعياً كان أم كيمياوياً أم لغوياً ؟ !

من أجل ذلك كان منهج ديكارت كما فهمه وطبقه (طه حسين) . منهجاً غير علمي ، يفرق بين المجهود العلمي ، ويدخل القوضى في العلم . ويؤدي في النهاية إلى زوال جهد العلماء طالما يتناوله الجهلاء بالتحريف ، ولكن العلم لا يأخذ برأى طه حسين . والعلماء في علومهم وأبحاثهم - يأخذون بغيره .

ولم تكن عظمة ديكارت راجعة إلى أنه شك ، ولكن إلى أنه تطلب مخرجاً من الشك ، واهتدى إلى طريقة في البحث خرج بها إلى بحبوحة اليقين . ثم ترجع إلى أنه حقق تلك الطريقة ، فأثمرت في الرياضة ولم تثمر معه في الفلسفة والطبيعة إلا قليلاً مما يأخذ به العلم اليوم .

ولقد عقد صاحب الكتاب - (في الأدب الجاهلي) - فضلاً عن منهج ديكارت ، وعجز لامرماً عن أن يبينه فيه ، وذكر في ذلك الفصل شيئاً سماه (القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت) ، ليتفرع به إلى الانسلاخ من كل قديم ، فضلاً عن أن (طريقة ديكارت ، وليس منهج ديكارت) . كان مما أخرجه في الشباب ، صدرى لذلك الشك الذي استحوذ عليه في الشعر ، ومن ثم فشكه شك الفتى الغرير ، لا العالم الخبير ، ومن الظلم أن يحتج به ، أو أن نشدد في محاسبة صاحبه .

ولكن الدكتور طه ، خلط بين الشك وبين المخرج من الشك ، فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذى ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك ، والذى أداه فى بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة . وفى بعض الميادين الأخرى إلى نتائج بعيدة عن العظمة ، لأنها بعيدة عن ظن الصحة .

وبالجملة فقد أكد الدكتور محمد أحمد الغمراوى - وما ترجمه الأستاذ الحضرى من كتابات ديكارت (مقال عن المنهج) - فساد ما عرضه طه حسين من قوله : إن القاعدة الأساسية هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الدهن مما قيل فيه خالوا تماماً ، إنما قال ديكارت : ألا يقبل قط شيئاً على أنه حق من غير أن يكون على بينة من أنه كذلك ، أى أن يتجنب العجلة والهووى . وفارق بين المعنيين .

ونحن نسأل هل استطاع طه حسين فى بحثه هذا ، أو أى بحث آخر ، أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل ، حين تحدث عن الشعر الجاهلى أو على هامش السيرة أو مستقبل الثقافة ؟ بالعكس ، لقد فرض طه حسين فروضاً تغريبية وشعوبية ، وضعها أمامه ثم بحث فى النصوص ، حتى وجد منها ما حسب أنه يؤكد فكرته ، فتملقها وتجاهل حقائق غيرها تدحضها . ومزق بعض النصوص ، فأخذ منها ما يؤيد فرضه وترك الباقى .

وإن طه حسين كان فى كل عمله يقوم على العجلة والهووى . وأنه كان حريصاً على إثارة الشكوك والشبهات حول جميع النصوص والوقائع التى صادفته فى جميع كتبه ، ذلك لأنه سار فى هذا على منهج التلمودية الذى عرفته كتابات فرويد ودور كايم ، وهى أن يسأل ويثير الشك ، ثم يترك من يتحدث إليه فى حيرة ، فلا يهديه إلى شيء من اليقين ، لأن الهدف هو خلق هذا الجو من (الشك) ، الذى كان مصدر الفكر التغريبى كله . وقاعدة العمل التى قام به الاستشراق والتبشير فى العالم الإسلامى .

وقد أشار الأستاذ محمد طاهر نور ، رئيس النيابة الذى حقق مع الدكتور طه حسين ، إلى هذا العمل الخطير فقال : إن الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، كما

فعل في أمر الاختلاف بين لغة حمير ولغة عدنان ، وفي مسألة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة ، فقد بدأ بقوله : (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وللقرآن أن تحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكتفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة) . إلى هنا أظهر (الشك) بعدم قيام الدليل التاريخي في نظره ، كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى بأن قرر في كثير من المصاححة :

(أمر هذه القصة إذن واضح ، فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب ديني) ، فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك إلى اليقين ؟ هل دليله هو قوله : (نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وإن أقدم عصر يمكن أن يكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالي البلاد العربية ؟

المؤلف يرى ، أن ظهور الإسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية بين العرب واليهود ، لازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية ، فاستغلها لهذا الغرض فهل له أن يبين السبب في عدم اهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لترقيق الصلة بين الإسلام والنصرانية .

إن الأستاذ (أي طه حسين) ، ليعجز حتماً عن تقديم هذا البيان ، وكل ما استند إليه من الأدلة قوله : (ليس يبعد أن يكون) ، أو (فما الذي يمنع) ، أو (ونحن نعتقد) ، أو (وإذن فنستطيع أن نقول) .
فالأستاذ المؤلف في محته ، إذا رأى إنكار شيء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التي تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدل عليه بغير الأدلة التي أحصيناها له . وكفى بقوله حجة ! !

وسئل عن أصل هذه المسألة — أي تلفيق القصة — وهل هي من استنتاجه ؟ أو نقلها ؟ فقال : هذا فرض فرضته ، أنا دون أن أطلع عليه في

كتاب آخر . وقد أخرجت بعد أن ظهر الكتاب ، أن شيئاً من هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين . هـ .

وهكذا نجد أن البحث كما أثبتته النيابة العامة هو (إشاعة الشك) . وإقامته على الفروض ، ثم لا يلبث أن يعتبر هذه الفروض حقائق تبني عليها أكاذيب أخرى . ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر : (إن اتكاء طه حسين على ديكارت إتكاء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التحويل يذكر ديكارت الفيلسوف مع أن الدكتور في محاضراته ليس من منهج ديكارت في شيء . وقد صارحته بهذا في حينه . وقلت له : إن ما يقوله عن المنهج وعن الشك غامض ، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت ، وإن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليماً لم يداخله الشك بروايات في الكتب هي في ذاتها محفوفة بالشك ، فأنتهرني الدكتور طه وأسكتني .)

وقال الدكتور نجيب الهميني : لم يعرض ديكارت التاريخ على منهجه ، فأنى طه حسين إلا أن يعرض الشعر الجاهلي والتاريخ على ما دعى له بمنهج ديكارت ، فنزل بالهدف من الشك الغزالي إلى دون ما نزل إليه ديكارت ، ونأخذه بمنهج الغزالي ، وكان اصطناع الغزالي الشك طريقاً فكرياً يهدف إلى الانتهاء منه إلى الإيمان بالله ، وقد اتخذ ديكارت شك الغزالي في بيئته التي كانت لا تزال تعيش على الأساطير ، وتتداوى ببقايا رفات القديسين ، وتستسلم للتثليث باسم التوحيد .

وننتهي من كل هذا ، إلى أن (منهج الشك) ، الذي حمله طه حسين ، ليس هو منهج الغزالي الذي اصطنع منهج الشك البصير ، ولا منهج ديكارت ، الذي قصد به الخروج من دائرة الأساطير ، وإنما هو منهج زائف يراد به إثارة الشبهات في وجه كل حقيقة علمية دينية يقينية ، وإثارة كل عوامل القلق والاضطراب في نفوس الشباب المسلم ، لينكر قيمه الأساسية .

ومن هنا فقد كان كل كتاب التغريب وما زالوا ، يعلنون إعجابهم بمذهب الشك الذي قدمه طه حسين لأنه أفسد العقول والقلوب ، وقضى على اليقين والإيمان في قلوب رغبة ، في فترة لم يكن فيها غذاء روحي وثقافي كاف لمقاومة الشبهات والشكوك المثارة ، أما اليوم فإن الأمر يختلف تماماً والحمد لله .

(٣)

الشبهات المشارية حول كتاب في الشعر الجاهلي

أثار كتاب (في الشعر الجاهلي) عند صدوره سنة ١٩٢٦ ضجة كبرى ، وكانت نقطة الخطر فيه : أنه ألقي على طلبة كلية الآداب على هيئة محاضرات ، والجامعة يومئذ حديثة العهد .

وقد تبين منذ اليوم الأول : أن نظرية انتحال الشعر الجاهلي (مسروقة) من مستشرق يهودي كتبها قبل ذلك ، هو (مرجليوث) الذي قصد إلى إثارة الشك حول هذا المصدر ، الذي اعتمد عليه المفسرون في شرح معاني كلمات القرآن الكريم ، باعتبار أن الشعر يجعل العرب كما قال ابن عباس رضي الله عنه .

وقد نشر في الرد على كتاب (في الشعر الجاهلي) عدد من المؤلفات :

١ - تحت راية القرآن : مصطفى صادق الرافعي .

الشهاب الراصد : محمد لطفي جمعة .

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي : محمد الخضر حسين .

٤ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي : محمد فريد وجدي .

٥ - محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية في كتاب الشعر الجاهلي :

محمد الخضرى .

٦ - النقد التحليل لكتاب في الأدب الجاهلي : محمد أحمد الغراوى .

٧ - مقدمة في كتاب الرافعي : كتابة التاريخ لا تكون بالافتراض

ولا بالتحكم : شكيب أرسلان .

تقرير علماء الأزهر :

وقد وضعت اللجنة التي شكلت من كبار علماء الإسلام لدراسة كتاب

(في الشعر الجاهلي) تقريراً جاء فيه :

أنها وجدت شيئاً كثيراً مما يناقض الدين الإسلامى ، وبمسه مسأ مختلف
الدرجات فى أصوله وفروعه :

- ١ - أضاع عليهم المسلمين الوحدة والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما .
 - ٢ - أضاع عليهم الإيمان بترائر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله .
 - ٣ - أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .
 - ٤ - أضاع عليهم الثقة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما كتب فيها .
 - ٥ - أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن ونزيبه عن الكذب .
 - ٦ - أضاع عليهم الرحمة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم بين الأنصار والمهاجرين .
 - ٧ - أضاع عليهم تنزيه القرآن وقداسته عن مواطن التهم والاستخفاف
 - ٨ - أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .
 - ٩ - أضاع عليهم تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم وأسرته عن مواطن التهم والاستخفاف .
 - ١٠ - أضاع عليهم صدق القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ملة إبراهيم وصحف إسماعيل .
 - ١١ - أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكرام خلفه .
- وقد سجلت اللجنة فى تقرير آخر أن كتاب فى الأدب الجاهلى لم يبرأ من هذه الشبهات .
- والذين يتصورون أن طه حسين ألف كتابه عن الشعر الجاهلى ، ليناقدش (الشعر المنحول) هم مع الأسف قصار النظر .
- فالواقع أن طه حسين أراد أن يثبت مجموعة من الآراء المنحرفة الإلحادية ، ويعطرح نظرية الشك الفلسفى ، ويهدم عدداً من القيم والدعائم فى الفكر الإسلامى والأدب العربى ، فلا علاقة فى الحقيقة بين البحث وبين اللهجات العربية ، ولكنه محاولة للهجوم على القرآن الكريم والتشكيك فيه ، والقول ببشرية القرآن ، وأنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم .

لذلك فإنه حين كشف أمره أسرع فاستبدله بكتاب في الأدب الجاهلي، وهو المطبوع الآن والمنشور . لم يغير شيئاً من جوهر الغاية والهدف، وإنما رفع بعض الكلمات والجمل الجارحة، ليس هذا فقط، بل لقد مضى طه حسين يعلم تلاميذه في كلية الآداب نقد القرآن، والقول بأن بعض آياته ضعيف وقوى، (على النحو الذي سنبينه).

كما أنه واصل عمله بالحدّث عن إنكار القراءات السبع الموحى بها . وقد أصر طه حسين على متابعة هدفه إلى آخر أيام حياته في كل ما كتب وإن ظهر أنه مختلف أو متعارض معه، كل ما هنالك أنه غير الأسلوب للخداع والتجويه.

بل أن كتاب على هامش السيرة جرى في نفس المنطلق . حين حسب بعض البسطاء أنه عودة إلى الإسلام أو تمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم، ويبدو أثر مفاهيم الشعر الجاهلي في كتابه (الشيخان) وكتابه: (مرآة الإسلام) و (الفتنة الكبرى).

سأل وكيل النيابة الذي حقق مع طه حسين بعد أن أثبت عليه أنه :
أولاً : كذب القرآن الكريم، في أخباره عن إبراهيم وإسماعيل .
ثانياً : أنه أنكر القراءات السبع المجمع عليها، فزعم أنها ليست منزلة من الله تعالى :

ثالثاً : أنه طعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .
رابعاً : أنه أنكر أن للإسلام أولية في بلاد العرب وأنكر أنه دين إبراهيم .
سأله المحقق :

هل قرأت هذا في مصادر قبل ذلك، فقال طه حسين :
هذا فرض فرضته دون أن أطلع عليه في كتاب آخر، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب، أن شيئاً من هذا الفرض يوجد في كتب المبشرين .
وهذه ليست الحقيقة، فإن طه حسين كان يعلم أمرين :
أولاً : أن مرجليوث نشر بحثه في المجلة الآسيوية، عام ١٩٢٤ وأن الشعر الجاهلي صدر عام ١٩٢٦ .

ثانياً : أن هناك كتاب (مقالة في الإسلام) - لـ جرجيس صال المبشر الإنجليزى - عربيه عن الإنجليزىة هاشم العربى وطبع عام ١٨٩١ فى مصر ، ولا بد أن المبشرين الذين ألهموا طه حسين مواد البحث قد هدوه إلى هذا البحث الذى اعتمد عليه ، فى إنكار حديث القرآن والتوراة عن إبراهيم عليه السلام . وإحقاقاً للحق نقول : إن الشيخ عبد المتعال الصعبدى - رحمه الله - هو أول من كشف (سطر) طه حسين على الكتاب الثانى ، كما كان الأستاذ محمود شاكر ، هو أول من كشف (سطر) طه حسين على الكتاب الأول . فقد وفق الشيخ عبد المتعال الصعبدى رحمه الله فى العثور على هذا الكتاب ، الذى يرى مؤلفه ما رأى الدكتور طه حسين فى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وينسب لنفسه على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة ، فلماذا استحل الدكتور طه هذه السرقة اليلقاء ؟

غير أن هناك خلافاً بين دعوى المبشر الإنجليزى وعميد الأدب العربى .

يقول الدكتور طه حسين :

(أمر هذه القصة (قصة إبراهيم وإسماعيل) إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وسياسى ، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بها ، عندما يريد أن يتعرف على أصل اللغة العربية الفصحى ؟) .

ويقول المترجم هاشم العربى فى كتابه (مقالة فى الإسلام) : (وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود العرب تزلفاً إليهم وتندرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب يلجؤون إليها .

وصاحب الذيل يجعل التوراة هى الأصل ويعرض عليها القرآن ، فإن خالفها طعن فيه (أى فى القرآن) .

أما الدكتور طه حسين فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً . ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، ويكذب أبوة إسماعيل للعرب ، فبأنى المقلد فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل ، فضلاً عن أبوتيهما للعرب ، وكان صاحب الذيل فطناً محترساً ، وكان حاكياً قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى :

(أن التوراة قد انتشرت في البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها في جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل . فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرائي العرب ، حيلة منهم للتقرب إليهم . ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوا ذلك حيلة فما هو السر في أن كان ذكر إبراهيم وإسماعيل في جميع نسخ التوراة) .

إن صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية وقد كان أفتن هذه الاعتراضات التي وقع فيها طه حسين فصدق صاحبه الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، وكذب بأبوتيهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور طه حسين بحثه من كتاب ضئيف ، ولم يفهمه على وجهه ، ونقله من كتاب المسيحي المبشر ، على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة .

ومعنى هذا كله أن طه حسين سرق من يهودى ومن مسيحي وأثار الشبهات حول القرآن والإسلام . وأنه شكك في التنزيل أماس دينه ، بينما دافع هؤلاء عن أديانهم .

ما حذفه من كتاب الشعر الجاهلي :

لقد بقى كتاب الشعر الجاهلي في منبهجه وهدفه وتخطيطه كما هو ، تحت العنوان الجديد (في الأدب الجاهلي) وكل ما حذف منه بعض عبارات أزيلت قبل إعادة طبع الكتاب مرة أخرى بالاسم الجديد ، وهي العبارات الجارحة التي أشار إليها تقرير العلماء :

أولا : تكذيبه للتوراة والقرآن الكريم في وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

ثانياً : ما أشار إليه من أن في القرآن سورة تسمى سورة الجن ، أنبأت أن الجن استمعوا للنبي صلى الله عليه وسلم وقد أوردتها بلغة التشكيك .

ثالثاً : عبارته السخيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (ولأمر ما اقتنع الناس بأن النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم : **رابعاً :** عبارته المريرة عن القرآن : (ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات

أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ، وهي أساس مؤامرة هدم الشعر الجاهلي ، أو هي في أن القرآن من عند الله تبارك وتعالى .

خامساً : قضية الصلة بين اليهود والعرب ، التي نقلها من (جرجس صال) على النحو الذي أشرنا إليه ، وقد خدم جرجس صال كتابه وهاجم القرآن ، بينما هاجم طه حسين كتابه ودينه وخدم التبشير والاستشراق .

اسم واحد في كتابين :

وقد أشار السيد عبد الرزاق الحسني إلى الفارق بين الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي فقال : إن كان قد طوى من الطبعة الجديدة بعض الخزي الذي كان في الطبعة القديمة ، كزعمه أن ما ورد في القرآن وفي التوراة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إنما هو أسطورة ؟ ؟ غير مستند في هذا الزعم إلى دليل علمي ، فإن الطبعة الجديدة من العداء للإسلام والعرب ، ومن السفسة المستورة والمكشوفة شيئاً كثيراً ، لقد أحاطه بشيء من الإخفاء ولكن الخطوط العريضة والكفر الصريح بقي معروفاً وبشكل واضح .

انتقاد القرآن الكريم :

لم يتوقف الدكتور طه حسين بعد الضجة بشأن كتابه ومضى في طريقه فقد أرسى الدكتور طه حسين في كلية الآداب منهج نقد القرآن الكريم على قاعدة ما رسمه في كتابه (في الأدب الجاهلي) .

ونشرت مجلة (الحديث) التي تصدر في حلب نموذجاً من أربع محاضرات ألقاها على طلبة كلية الآداب جاء فيها :

أولاً : التشكيك في القرآن :

١ - (ونحن نستطيع أن نظفر بشيء واحد يؤيد ما أشرنا إليه هو : أن الكتاب شيء غير القرآن ، كان موجوداً قبل إنزال القرآن ، والقرآن صورة عربية منه ، وقد أخذ صوراً من قبل كالتوراة والإنجيل) .

وهذا نص آخر ، فيه إنكار (عالمية الإسلام) وإصرار على (بشرية

القرآن) (وإذن فالقرآن دين محلي لا إنساني عالمي ، قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها ، قال صاحبه متأثراً بحياته التي عاشها وعاش فيها . ولذلك يعد تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة ، أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفاً عاماً للإنسان ، فليس ذلك بحق . إنه دين بشري وليس حياً إلهياً والقرآن مؤلف ، ومؤلفه نبيه محمد ، ويمثل تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه الجزيرة في اتجاهات حياتها المختلفة السياسية والاقتصادية والدينية .

ثانياً : نقد القرآن كأنه كتاب بشري :

في مجلس النواب :

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد - رحمه الله - في خطاب أمام مجلس النواب المصري (مارس ١٩٣٢) إلى أن طه حسين كان يكلف بعض طلبته أن يتقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم . ويطلب منهم إثبات هذا النقد في كراسات يتلون عليها ، فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان ، وأن تلك الآية على جانب من الركاسة وأن الآية الأخرى مفككة ، لا تؤدي المعنى المقصود منها ، وأنه كان يريد أن يبرن طلبته على النقد .

دليل دامع ونص خطير :

وقدم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة لأحد طلبته طه حسين أثبت فيها ما كان يلقيه عليهم . يقول في محاضرة في كلية الآداب بقصر الزعفران (١٩٢٧ - ١٩٢٨) أي بعد ضجة الشعر الجاهلي : وصلنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن ، وقررنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة :

لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر ، حيث يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة ، فثلا نرى القسم المكي فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد أن القسم المدني واليتربي تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة ، فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم

المكى يتفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب ، والسباب والوعيد والتهديد ، ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر الآيات ، والخلو التام من التشريع والقرائين . كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والثنين والزيترن ، إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التي تشبه بيعة مكة تأخرًا وانحطاطًا .

(أما القسم المدنى فهو هادىء لين وديع مسالم . يقابل السوء بالحسنى ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة ، والبرهان الساكن الرزين ، كما أن هذا القسم يتفرد بالتشريعات الإسلامية ، كما لمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيع وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر من آثار الثوراة والبيئة اليهودية . التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة ، يشهد بها هذا التغيير الفجائى ، الذى ظهر فى أسلوب القرآن) .

(ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد ، فيجب أن يجرى عليه ما يجرى عليها . والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التي تتصورونها ، وأن تعتبره كتاباً عادياً فتقرروا فيه كلمتكم . ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه) .

(هناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة ، التي تبتدىء بها بعض السور أمثال : ألم ، أتر ، طس . كبعض : حم ، عسق ، الخ ، فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التحويل وإظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ، أو هي رموز وضعت لتمييز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب) .

(متقول بالنص عن محضر الجلسة الرابع والعشرين لمجلس النواب المصرى ٢٨ مارس سنة ١٩٣٢ (ص ٣٤٦) وما بعدها) .

ونحن نقدم هذه النصوص دون تعليق عليها ، إلا من ناحية ذلك الترافق بين إنكار إبراهيم وإسماعيل فى هذا الوقت المبكر ، وهو ما أذاعته كتابات اليهود من بعد خدمة للصهيونية . وإشارته إلى أن صلة النبي صلى الله عليه وسلم باليهود قد أدخلت على عبارات القرآن الكريم بعد الهجرة إلى المدينة ليرنة ورقة ، وفى هذا ما فيه من الولاء اليهودى . مضافاً إلى قصة عبد الله بن سبأ

في كتاب (الفتن الكبرى) ، ولكن القضية الكبرى هي : قول طه حسين
ببشرية القرآن ، على النحو الذي يجري فيه النقد الأدبي ، للكتب التي كتبها
أفلام الرهبان والأخبار . .

(٤)

كتب الأستاذ محي الدين صبحي (الحوادث اللبنانية) مجلد عام ١٩٧٧
طرح الدكتور طه حسين قصة (الشعر الجاهلي) طرحاً أقل ما يقال فيه
اليوم أنه كان وقحاً فجاً تعتمد فيه الاستفزاز تعمداً . ذلك أن قصة الشك
في الشعر الجاهلي ليست جديدة ولا مبتكرة . وليست من وضع المستشرقين
ولا من اكتشافات الدكتور طه حسين . بل لقد تنبه إليها العرب في حينها
ونبذوا أنواع التزييف بين (كل الرواه) وكل المولدين فاستعدوا روايات
الرواة المشكوك بصدقهم من أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر .

فإن كانت مشكلة الشك في صحة بعض الشعر الجاهلي ما يعرفه القدماء
ونعرفه عند المحدثين ، فإذا فعل طه حسين بها حتى جعلها تستنفر البيئة الثقافية
ضده في مصر والبلاد العربية .

قام الدكتور طه حسين بخطوة غير علمية حين عمم الشك ليشمل التراث
كله وهو في هذا يشبه أي مراهق ممن يطالعوننا في هذه الأيام على صفحات
المجلات ويطلقون الأحكام الجزاف مثل الشعر العربي التقليدي أو التراث
العربي المسروق من اليونان ، هذه الأحكام نمر بها غير عابئين ولا يتعدى
رد فعلنا عليها إخماء استخفاف وضيق بالهجر والمآذرين لأننا أصبحنا شديدي
الوثوق بشخصيتنا ، وكذلك حال القوم قبل نصف قرن من الزمان . وعلى
الصعيد الفكري والأدبي نجد أبحاث مرجليوث التي تتراوح بين الشك في أصالة

(١) تبين بعد أن أصدر طه حسين غندما تولي مديراً لدار الكاتب المصري اليهودية كتاب
(العقيدة والشريعة) لليهودي (جولد ترير) ، بعد ترجمته عام ١٩٤٧ ، أن هذه الآراء
موجودة به ، وكنا ننتظر إلى معرفة مصدرها ، فقد عودنا طه حسين على السطو على المستشرقين
دون إسناد أو إشارة لأصل ما اقتبس .

آثار العربى والطعن فيه والزراية عليه ، فجاء طه حسين يضم شتات تلك التحاملات فى كتاب يدعيه لنفسه .

ولما كان الجميع على علم باجتهادات المستشرقين تعد امتداداً لطله حسين متسللاً أو خائناً أو متواطئاً .

إن القصة اللغوية — الأدبية قصة سياسية منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبالتالى فهى قصة عاطفية انفعالية عند الحديث بالعموميات ، ولن نجد مشككاً فى تراث أمة إلا وهو يستهدف صميم شخصيتها ولب كيائها .

وقد فعل الدكتور طه حسين هذا كله وزاد وأربى فلما حوكم اعتبره الفكر الكبير إلى ضميره الفكر الحر والبحث العلمى وهو منهما براء لأن حياته التى امتدت نصف قرن بعد ذلك تخلو من أى من هذه المواقف . وفى الواقع فإن تجربته الفكرية الأولى (فى الشعر الجاهلى) تكاد أن تلخص حياته كلها فتجربته الأولى اتسمت بسيات ثلاث :

١ — التهوين من أمر التراث مع التهويل فى التأثيرات الأجنبية عليه .

٢ — الإغارة على آراء الأولين والآخرين مع ادعاء جهودهم .

٣ — التوصل إلى أحكام نقيضة مغلوطة لا تثبت للبحث العلمى الرصين .

ومن يقرأ فى الأدب الجاهلى وبعده حديث الأربعاء ثم مستقبل الثقافة فى مصر يدرك مدى التزام طه حسين بالتهوين من أمر التراث والتهويل بتأثير اليونان عليه قديماً ، ثم التطلع حديثاً إلى ربط مصر بأوروبا وبالثقافة المتوسطة توصلنا إلى سلخها من العرب إذا لم يجاورها فى الدوران بالفن الغربى .

(٥)

كتب الأستاذ محمود محمد شاكر : عن حقيقة الشعر الجاهلى يقول :

المستشرقون لم يقولوا بأن الشعر الجاهلى موضوع كله أو أكثره ولا أن الكثرة المطلقة مما نسه شعر أ جاهلياً ، ليست من الجاهلية فى شىء . فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلية وأن ما بقى عندنا من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شعراً ولا يدل على شىء ، لم يقل المستشرقون هذا . بل قاله مستشرق واحد لا غير هو مرجليوث

وأن كثيراً منهم قد رفض هذه القصة ورد عليها ونقضها ، وكان أمد أمدهم (ابرى) في كتابه المعلقات السبع . وقال أن السفطة وأخشي أن أقول الغش في بعض الأدلة التي ساقها مرجيرث لا تليق اليه .

٢ - أما ابن سلام - سنة ٢٣٢ هـ صاحب كتاب فحول الشعراء فهو من هذه القصة بمنزل . .

فإن لفظة الشعر الجاهلي من يطلق لا يراد به إلا الشعر العربي الذي كان قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وشعراء هذه الفترة مدونون بأسمائهم وقد ألف الناس أن يجعلوا أولهم أو من أولهم امرؤ القيس الكندي .

ولكن كان في عهد ابن سلام كتب فيها شعر عربي آخر منسوب إلى أم بائدة من العرب . هم عاد وثمود وحمير وتبع . بل إلى أبينا آدم عليه السلام فأشار في مقدمة كتابه إلى هذا الشعر فقال :

(وفي الشعر مصنوع موضوع لا خير فيه ولا حجة في عربيته « وذمه ذماً شديداً قال لمن حمل إلى الناس هذا الشعر : أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر وأراد منه آلاف السنين والله تعالى يقول (وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبق) فهذا قطع ببطلانه لا شك فيه ، وذلك لتطاول الزمن وهلاك هذه الأمم من العرب البائدة عاد وثمود . .

ثم ذكر العرب المستعربة أنباء إسماعيل عليه السلام فقال : إن العرب ليست التي تقف عند أبيهم عدنان وابن عدنان وابن إسماعيل آلاف السنين وأن معد بن عدنان كان يلزاه موسى بن عمران عليه السلام . ومع ذلك فتحن لا تجد لمولاء العرب الأوائل من معد بن عدنان شعراً فكيف يعاد وثمود وهذه حجة أخرى مرتبطة بالزمن وقضاائه

ثم استدل بدليل آخر مرتبط بتطاول الزمن ثم باللغة فقال : إنه قد بقيت بقايا قليلة في أقاصى الدين ، كان عندهم بقية من لسان حمير وهم عرب ولسانهم عربي أيضاً وزمانهم أقرب عهداً من زمان عاد وثمود ، ذاكر قول أبي عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤ هـ) في ذلك وهو ما لسان حمير وأقاصى

الدين اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف بما على عهد عاد وثمود ، هذه الحجة الأخيرة. هي التي ضللت من شك في الشعر الجاهلي لأنه وضعها في غير موضعها وحرفها إلى الشعر الجاهلي في الزمن قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة .

وقد ختم ابن سلام كلامه في هذه القصة وبين ما عناه من الشعر فقال بلفظ واضح لا ليس فيه :

(لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته وإنما قصدت القصائد طول الشعر على عهد عن المطلب وهاشم بن عبد مناف (يعني قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة) فهذا يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحميم وتبع . هذا تحديد واضح وقطع ببطلان الشعر المنسوب إلى هذه الأمم التي ذكرها والتي لا يدخل شعرها تحت اسم الشعر الجاهلي هذا قطع بالبطلان لا شك في الشعر الجاهلي الذي يضم الشعر العدناني والقحطاني انتهى

بقيت قصة أخرى تعرض لها ابن سلام في كتابه عن فحول شعراء الجاهلية والإسلام واستخدمت استخداماً سيئاً جداً .

وخلاصة القضية بلفظ ابن سلام لا بلفظي أنا ولا بلفظ من خلطوا بين القضيتين :

قال ابن سلام :

(وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ثم كان الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي تليت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولما وضع المولدون ، إنما عضل بهم (أي صعب عليهم) أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل من ولدهم فيشكل عليه بعض الأشكال) فهذا كما ترى ليس شكاً في الشعر الجاهلي بل هو الدليل القاطع الحاسم على أن العلماء بالشعر قبل ابن سلام وبعده قد محصوا لنا هذا الشعر ووثقوه وأدوه إلينا على أسلم وجه .

أما قصة الزيادة في شعر شاعر أو نسبة شعر إليه ليس من شعره ، فهذه قضية معروفة في جميع آداب الأمم. فهذا شكبير مثلاً تعرضت لبعض أعماله

لننقد وقيل إنه لم يكتبها هو ، بل كتبها فلان ، فهل يمكن بعد ذلك أن نشكك في شعر شكسبير كله ونطرحه كله ، حتى بعد أن يثبت على وجه القطع صحة ذلك الشك .

وفي زماننا هذا جمع شعر الدكتور ناجي ، ثم تبين لبعض الباحثين أن في ديوانه قصائد ليست له فهل يجوز لي أنا بصفتي معاصراً له أن أشك في شعر ناجي كله وأقول أنه مصنوع كله وأضخ إليه شعر على محمود طه ومحمود حسن إسماعيل ثم أرتفع بهذا الشك إلى شوقي وحافظ والبارودي : هذه أساليب عجيبة تأتي في زمن عجيب !

ابن سلام يا سيدي لا يشكك في شعر هو أحد حفاظه وعلمائه ثم يؤلف في هذا الشعر وشعرائه كتاباً قائماً برأسه هو كتاب (طبقات فحول الشعراء) فلماذا نزيغ الحقائق .

(٦)

عاربة ومستعربة

من أبرز شبها كتاب (الشعر الجاهلي) أكذوبة تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة : هذه نظرية روجها كتابات المستشرقين والتبشير وحفلت بها الكتب المدرسية وهي تشير إلى أن العرب العاربة هم القحطانيون (وهم أصل العرب) ظهوروا في اليمن وانتشروا فيها واستقرت هجراتهم على حافة الهلال الخصيب عقب حادث سيل العرم وقبله ومنهم المناذرة في الحيرة وكذلك في نجد والغساسنة في الشام .

والمستعربة : وهم الفدائيون أو المصريون وأنحصهم نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذين سكنوا الحجاز ومنهم ظهرت قبيلة قريش التي تنتمي إلى مضر وعدنان . الهدف هو القول بأن عشيرة محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه القرآن بلسانه تعد كسائر العدنانيين من غير العرب وقد دخلوا على العرب العاربة .

الواقع أن كثيراً من المؤرخين القدامى من شكك في هذا الكلام وفيهم من خالفه ونقضه ، وكانت هناك آراء أخرى اختلفت في العاربة والمستعربة

فذهب ابن إسحق والطبري إلى أن العاربة هي ثمود وعاد وطسم وجديس
والمستعربة بنو قحطان وبنو إسماعيل .

ويقول الدينوري مؤلف الأخبار الطوال إن ولد أرم بن سام بن نوح
هم الذين اختصوا باللسان العربي عند تعليل الألسنة وأولاد إرم عاد وجديس
وطسم وثمود وصحار وجاسم وبار نزل الأول اليمن والثاني البصرة والثالث عمان
والبحرين والرابع الحجاز إلى الشام والخامس من الطائف إلى جبل طي
والآخر قرب الحرم والأخير ما وراء الرمل وبذلك تتساوى بلاد نجد والبحرين
وبادية الشام والحجاز واليمن وأقصى الجزيرة في عروبها لانتشار أولاد إرم فيها .
ويقول الدينوري أن فالغ هو جد إبراهيم وإسماعيل وأن عدنان وقحطان أخوان .

وجاء في لسان العرب : كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق
بلسان أهلها فهم عرب بمنهم ومعدهم ، بل نجد أبلغ من ذلك في الدلالة على
رجحان العدنانية فابن خلدون يقول : إنه لم يكن في بني قحطان من زمن
نوح إلى عابر من تكلم العربية .

ويقول أبو عمر بن العلاء : ما لسان حمير وأقصى اليمن لساننا ولا عربيتهم
عربيتنا .

قال ابن حزم في كتاب الأحكام ، إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً
أن السريانية والعبرانية والعربية (التي هي لغة مصر لا لغة حمير لغة واحدة
تبدلت تبدل مساكن أهلها ، ويلخص العلامة الكرمي إلى أن النتيجة أن اللغة
العربية هي لغة عدنان وكلمة عربي إنما أطلقت على قوم — هم قوم عدنان — ثم
نسبت أرض الجزيرة كلها إليهم ، فكيف يقال عن هؤلاء الأصول أو الأصلاء
إنهم دخلاء (١) .

ويقول فيليب حتى : أن لغة الشمال هي لغة القرآن إلى اللغة العربية
المعروفة ، أما أهل الجنوب فكانت لهم لغة سامية قديمة لغة سبأ وحمير وهي
تمت إلى اللغة الحبشية بصللة

(المجلة العربية محرم ١٣٩٨)

(١) هذا النص عن سعيد الكرمي مجلة الجمع العلمي العربي .

البابُ الثاني

تاريخ الإسلام والسيرة

- الفصل الأول : القرآن الكريم .
- الفصل الثاني : السيرة :
 - ١ - هامش السيرة .
 - ٢ - الشيخان ، مرآة الإسلام ، الوعد الحق .
- الفصل الثالث : تاريخ الإسلام :
 - ١ - الفتنة الكبرى .
 - ٢ - علي ونبوه .
- الفصل الرابع : الإسلام .
- الفصل الخامس : التراجم :
 - ١ - الأيام .
 - ٢ - الشيخان .
 - ٣ - المتنبي .
 - ٤ - ابن خلدون .
- الفصل السادس : الفكر الصهيوني (اليهود والأدب العربي) .

الفصل الأول

القرآن الكريم

إن موقف الدكتور طه حسين من القرآن الكريم موقف متفتح ، وذلك لخطورة التصريح بما يعمل على إذاعته وبثه في الخفاء لتلاميذه في كلية الآداب وما يعرفه المتصلون به وما توحى به الخطوات التي اتبعها على مدى حياته الفكرية جميعاً من محاولات لإشاعة الشبهات حول التفرقة بين كلمتي الكتاب والقرآن في نصوص القرآن ودعاواه حول النحر والبلاغة موقفه الواضح الصريح في إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من ورودهما صريحاً في القرآن بدعوى أنه يقبلها وجدانياً ويعارضها عقلياً وهي دعوى باطلة توحى بالثنائية الممزقة للكيان الإنساني بين مؤمن وغير مؤمن في وقت واحد ، ولقد كشف طه حسين عن هويته في نص صريح سجله في كتابه (في الصيف) حين تحدث عن (نقد الكتب المقدسة) وقال : « إذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرءوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث أنها كتب مقدسة فلا بعض منها ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد وبعبارة أوضح لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية » .

ومعنى هذا عند طه حسين أن الكتب الدينية كتب بشرية فهي معرضة للنقد ، وهو حين يقبل هذا الرأي الذي يقول به الغربيون في الثورة ، والإنجيل ليطبقه على القرآن الكريم يغفل عن الفوارق العميقة بين كتب تأكيد أصحابها من علماء اللاهوت إلى أنها من كتابات الأحبار والرهبان وبين القرآن الكريم الذي هو النص الموثق المنزل بالوحى الذي لم يدخل عليه أى إضافة أو حذف والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل

من حكيم حميد ، ولكن طه حسين يود أن يخدع مجموعة من الشباب المسلم الغر الذي وكل إليه تعليمه في كلية الآداب ولم تكن له خلفية إسلامية في فهم هذه الحقيقة ولذلك فهو قد فتح هذا الباب واسعاً لهذا الغرض على النحو الذي كشف عنه الدكتور عبد الحميد سعيد في مجلس النواب المصري عام ١٩٣٢ حيث قدم كراسة لأحد الطلبة في كلية الآداب وفيها يطلب إليهم طه حسين (نقد القرآن) والكشف عن الآيات الضعيفة فيه والآيات القوية ويدعوهم إلى الجرأة على القرآن لأنه كتاب أدبي ومن ذلك قوله : إن في القرآن أسلوبين مختلفين : أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ، ففي هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، وأسلوب آخر عندما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة واتصل ببيئة اليهود وهو أسلوب فيه شيء كثير من الليونة والانطلاق .

كذلك فقد أثار شبهة الحروف الواردة في أوائل سور القرآن ووصفها بأنها معميات . وقد تبين من بعد عندما كلف الدكتور طه حسين عام ١٩٤٣ بعض الأساتذة بترجمة كتاب المستشرق اليهودي جولد زيهر (العقيدة والشريعة في الإسلام) وأصدره حين كان مشرفاً على دار الكتاب المصري (هراي اليهودية) . إن هذه الأفكار موجودة فيه وأنه أخذها قبل هذا الوقت الباكر ليسمى بها أفكار طليته ، وهذا ما كان يقصد إليه طه حسين من دعوته إلى نقد الكتب المقدسة ، والفكرة يهودية الأصل فلحساب من يعلن طه حسين عام ١٩٢٦ أن وجود إبراهيم وإسماعيل ليس صحيحاً من الناحية التاريخية ، ويدعو إلى نقد القرآن على مفاهيم يهودي متعصب هو جولد زيهر ، ويكون كتاب (الشعر الجاهلي) من كتابات يهودي متعصب آخر هو (مرجليوث) حتى أطلق عليه (حاشية طه حسين على متن مرجليوث) ولتوصل ما قاله الدكتور عبد الحميد سعيد ، فقد جاء بالصحف ١٧/٣/١٩٣٢ وبحاضر جلسة مجلس النواب في اليوم السابق قوله :

(إنه بحث الطلبة على أن ينظروا في القرآن كأى كتاب عادي يجرى عليه من النقد العلمي ما يجرى عليها وأن يفضوا النظر عند البحث فيه عن قدسيته ، وقال : إن فواتح السور علامات مميزة لمصاحف الصحابة ،

وقال : إن للقرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما (جاف) وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ، في هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، فلما هاجر النبي إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً وأصبح ذلك الأسلوب ليناً) .

ومن عبارات طه حسين قوله : إن قرآن مكة مائة النصراني ، وقرآن المدينة مائة اليهود .

ومن عجب أن يكتب طه حسين في بعض ذكرياته : أنه تعلم فهم القرآن من مستشرق متعصب في باريس هو (كازنوف) وأنه لم يكن يفهم القرآن قبل ذلك ، بالرغم من السنوات التي قضاها في الأزهر .

ولا ريب أن رأى هذا المستشرق وغيره في القرآن معروف ، فهو عندهم من عند محمد ، لا من عند الله ، وأنه مكى مدنى ، عرف محمد فيه النصراني في مكة وعرف منه اليهود في المدينة .

إن مفهوم كازنوف هو الذى قدمه طه حسين لطلابه في الجامعة عن القرآن وهل يمكن أن يكون رأى مستشرق مسيحي متعصب خاضع لفكر غربي له جذور وثنية وهليونية وغيرها أن يفهم القرآن فهمه الأصيل وأن يصل إلى مفاهيمه الصحيحة على النحو الذى يذكره طه حسين .

إنه لمن المؤسف والمغزى والمثير للسخرية أن يترك طه حسين الأزهر دون أن يفهم القرآن ، ثم يأتي باريس ليتعلم ذلك من رجل مستشرق ، ثم يجد في هذه المفاهيم ما يرضى نفسه وما يشعره بأنها المفهوم الحقيقي للقرآن بينما ضاق صدره بمفاهيم القرآن الحقيقية في كتب المسلمين الأصيلة التي واجهته أول حياته في الأزهر ، فأعرض عنها ، مهما كان ورقها أصفرًا وكان عرضها قديماً ، إنه لمن المؤسف حقاً أن يقال : إن طه حسين قد تلقى فهم القرآن على مستشرق غربي .

يقول : لم أكد أجلس إلى كازنوف حتى استيقنت أن هذا الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر في فهمه وتفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنة وسدنته وأصحاب الحق في تأويله .

ومن هنا فنحن نقرر أن الدكتور طه حسين عاش حياته كلها بفهم

الإسلام فهماً غربياً كنسياً ، وأنه قد اقتنع منذ ارتضع لبان المفاهيم المسيحية الغربية بهذا المفهوم الذى يصير عليه ، وهو أن الإسلام سبحات روحية وتوهمات وجدانية وراء تراثيل موسيقى الكنائس ، ويؤمن بأن الإسلام انتهى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وأن الحكومة الإسلامية لم توجد ، وأن الخلافة الإسلامية ازوت ، وهذه هى المفاهيم التى قدمها فى كتبه (الفتنة الكبرى ، الشيخان ، . . . إلخ) على نحو ما سبأى عرضه فى تضاعيف هذا البحث .

إن مفهوم الإسلام عنه مشوب بالتمسح ، وقد كان مؤهلاً ليكون داعية الإسلام على هذا النحو من الذين ساندوه لولا حماقة فى كتاب (الشعر الجاهلى) غيره ، فقد زعت منه روح الإسلام الأصيلة عمداً وشكل على أساس روح أخرى لها طابع المسيحية من ناحية والوثنية الإغريقية من ناحية أخرى . ونحن نعرف أن اليونان والمسيحيين والأوربيين يؤمنون بالله ولكنه إيمان يختلف عن التوحيد الإسلامى الذى يجعل من التوحيد الخالص حجر الأساس ويعمل من الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع وليس مفهوماً لاهوتياً خالصاً مقتصرأ على العلاقة بين الإنسان والمخلوق جل شأنه . بل يمتد ليشمل أيضاً العلاقة بين الناس وبعضهم ولذلك فإن أسلوب طه حسين فى كتاباته الإسلامية قد اكتسب روح التراثيل الكنسية وليس روح البيان الإسلامى .

ومن يقرأ كتاب (معلق) للسيدة سوزان يرى أن طه حسين دخل عشرات الكنائس وسمع مئات التراثيل ولكنه لم يدخل مسجداً واحداً .

(٢)

لقد كان الغربيون يعلمون أن القرآن هو مصدر الرسالة الإسلامية وأن عودة المسلمين إلى الإسلام من جديد تبدأ من متطلق فهم القرآن على وجهه الصحيح دعوة إلى بناء المجتمع الإسلامى على أساس أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك فقد كان عليهم أن يربوا أتباعهم الذين سيثرونهم فى البلاد العربية والإسلامية على مفاهيم خطيرة أولها الاستهانة بالقرآن والنظر إليه على أنه كتاب أدب أو كتاب تراث ويدعون قومهم إلى الجرأة عليه

بالنقد والنظر ووصف آياته بالعنف أو القوة ، على النحو الذى تعلمه
طه حسين من كازنوفافى مدرسة الكوليج دى فرانس فى قوله فى جريدة
السياسة (٢٧ مارس عام ١٩٢٦) :

(كان كازنوفافى مسيحياً شديداً الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد
النصوص ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى فرانس نسى
من المسيحية واليهودية والإسلامية كل شىء إلا أن لها نصواً يجب أن تخضع
للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاءون
من ألوان البحث والامتحان) .

وهذا الكلام فيه زيف كثير ، فإن كازنوفافى كان يتناول الإسلام
وأقدس قدس الإسلام وهو القرآن ، وهو خصم له . أما دعاوى المنهج
العلمى فإننا نعرف هذه المناهج العلمية التى صك بها أذاننا طه حسين سنوات .
إنها ليست من العلم فى شىء ، وإنما هى مناهج الفلسفة المادية التى صنعها
اليهود وفرضوها على الدراسات الإسلامية وجعلوها سلاحاً لتكوين أتباعهم
الذين يخرجهم معهد الدراسات التبشيرية الذين أطلقوا عليه :
(كولينج دى فرانس) .

ومعنى هذا إن الهدف هو الخيلولة بين المسلمين وبين العودة إلى هذا
الأساس المثلث وأن على طه حسين أن يدمر هذا الأساس المثلث إن استطاع
وهو عندما كان يتحدث عن القديم ويسخر به إنما كان يقصد القرآن
والسنة وعلى مراحل متعددة : مرحلة الشعر الجاهلى ، وإنكار مصادر
الدين الربانى ، ومرحلة هامش السيرة ومرحلة الفتنة الكبرى ومرحلة
كتاب الشيطان .

أولاً : بشرية القرآن :

إن الواضح من مواقع كثيرة فى كتابات طه حسين المنقادة ببشرية
القرآن وإنكار بعض آياته وأن إنكاره لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنكار
لآيات صريحة فى القرآن الكريم : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً

واجتنبى وبى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .
(سورة إبراهيم ٣٤ - ٣٧)

لقد أنكر طه حسين هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الحجاز واعتبرها أسطورة أولاً ، ثم - على حد تعبيره - حيلة اختلقها قريش لأسباب سياسية واقتصادية وصدقها القرآن ليحتال على اليهود بتآلف قلوبهم ولينسب العرب إلى أصل واحد ، ويرى أن قريش كانت تبحث عن أصل تاريخي قديم فليس ما يمنعها من أن يتصل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام .

٢ - يعتقد طه حسين أن القرآن يمثل العصر الجاهلي جنباً إلى جنب مع التاريخ والأساطير وأن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية .

٣ - إرجاع كلمة القرآن إلى مفهوميها في اللغة السريانية بمعنى الجهر وذلك اعتقاداً منه بأن القرآن من كتب الترانيل والدعاء الديني .

٤ - يرى أن القراءات السبعة ناتجة عن اختلاف لهجات القبائل ، مع أنه من الثابت ومن المتفق عليه في أصول الإسلام . إن القراءات السبعة منقولة بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وطريقها الوحي .

٥ - التشكيك في الحروف التي تفتح بها السور والقول : بأنها إشارات موسيقية أو رموز صوتية يقصد بها ذكر النغمة قبل تلاوة السورة .

٦ - يؤمن طه حسين بأن المسلمين ربطوا بين الإسلام من جهة وبين دين إبراهيم عليه السلام من جهة ثانية كي يثبتوا أولية الإسلام في الحجاز وكى يوجدوا جذوراً له في المنطقة .

٧ - يزعم طه حسين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حرض على الهجاء وأثاب شعراء المسلمين عليه .

٨ - شكك طه حسين في كل ما يتصل بالقرآن ومن ذلك أنه لم ينفع ما زعمه المستشرق كليمان هوار من زعمه بأن شعر أمية بن الصلت من مصادر

القرآن ويقول : من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآنى كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم وكان من اليسير أن يعرفه غير النبى ثم أن النبى وأمة متعاصران ، فلم يكون النبى هو الذى أخذ من أمة ألا يكون أمة هو الذى أخذ من النبى .^{١٧} وهذا أسلوب من تثبيت الشبهة وإدخالها إلى الأذهان والقلوب .

(٣)

إنكار عالمية الإسلام

عرض الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) إلى فكرة طه حسين عن بشرية القرآن كما أوردها فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) وكما أعادها فى كتاب (فى الأدب الجاهلى) وهى محاولة مأكرة فى الطعن على القرآن طعناً غير مباشر ويكشف أسلوبه الخبيث فى نسف إلهية القرآن دون أن يتلبس بالفكر الصريح ، على حد تعبير (غازى الزوبة) ، يقول الدكتور البهى : تعرض فكرة بشرية القرآن فى إحدى صورتين :

الأولى : أنه انطباع فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم نشأ عن تأثره ببيئته التى عاش فيها ، بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية .

الثانية : أنه تعبير عن الحياة التى عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم بما فيها المكان ، الزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية .

والفكرة التى يرددها طه حسين مأخوذة من المستشرق جب فى كتابه (المذهب المحمدى) وهى قوله : إن القرآن هو من عمل إنسان هو محمد عاش حياة خاصة وهى حياة المكين ، وطه حسين فى كتابه (الشعر الجاهلى) يقول : (إذا رجعنا إلى القرآن نجد قد صور العرب وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية ، تنشأ أن تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم ، كما كانت أمة

وسطاً بين البحر المتوسط والمحيط الهندي وبذلك تكون مدخلا للتجارة العابرة. وهو أى القرآن يصف اتصالهم الاقتصادي، بغيرهم من الأمم في السورة المعروضة : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . ثم يقول : رأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي ، رأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهلين . ومعنى هذا القول كما يريد أن يفهم المؤلف قارئه : إن القرآن انطباع للحياة القائمة في وقت صاحبه وهو النبي ، وهو يمثل لذلك بيئة خاصة ، في عقيدتها ولغتها وعاداتها .

ويقول طه حسين في توضيح هذا المعنى :

(وليس من اليسير ، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب ، فأو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر) .

(وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية ، وفيه رد على اليهود وفيه رد على النصارى ، إنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها ، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر) . (وإذا القرآن بعبارة أخرى دين محلي للإنسانى عالمى ، قيمه وخطره في هذه المحلية وحدها ، قال به صاحبه متأثراً بحياته التي عاشها وعاش فيها ولذلك يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة . أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفاً عاماً للإنسانية فليس ذلك بحق) .

(إنه دين بشرى وليس وحياً إلهياً ، قاله صاحبه لقوم معينين ولذلك تجاوبوا معه أو قاموا ضده ، ولو أن صاحبه قاله في جماعة أخرى (لما حفل به أحد) ، لأن ما يقوله فيه لا يتصل عندئذ بحياة الجماعة الأخرى في قليل أو كثير) .

فالقرآن مؤلف ومؤلفه محمد ، ويمتاز تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه جزيرة العرب في اتجاهات حياتها المختلفة : السياسية ، والاقتصادية والدينية ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام

دراسة علمية ، كما يدور عند صاحب كتاب (الشعر الجاهلي) بين أمرين لا ثالث لهما : بين ما يسمى بالشعر الجاهلي ، وبين القرآن كلاهما للإنسان وكلاهما يتحدث عن الحياة العربية الجاهلية ولكنه استبعد الشعر الجاهلي واختار القرآن لهذه الدراسة لأنه صادق في كونه (انطباعاً) دقيقاً - لهذه الحياة .

القرآن إذن عند طه حسين مصنوع مؤلف وهو مرآة لأفق خاص من الحياة في شبه الجزيرة العربية في مكة بوجه خاص .

وبالموازاة بين (المذهب الحمدي لجب) والشعر الجاهلي لطلح حسين نجد أن كليهما يرى :

١ - أن الحياة الجاهلية قبل الإسلام كانت حياة حضارية ، كانت حياة حافلة بالكياسة السياسية والنشاط الاقتصادي والبهضة الدينية .

٢ - أن محمداً - أو الإسلام أو القرآن - استغل المقدسات في مكة وفي مقدمتها البيت الحرام أول بيت وضع للناس بمكة والذي قام على عمارته إبراهيم والد إسماعيل . وظاهرة استغلال هذه المقدسات كما يرى كتاب (المذهب الحمدي) : هي في أن ثورة محمد ، والإسلام أخذت طابع الدين دون الطابع الاجتماعي . أما كتاب (الشعر الجاهلي) فيرى هذه الظاهرة في أن محمداً أو الإسلام اضطرت إلى قبول قصة إسماعيل وتعليمه العربية اضطراباً مع أنها خرافة أثبتت الحقائق العلمية عدم وقوعها ! اضطرت إلى ذلك حتى لا يفقد سلاح (المقدسات الدينية) القائمة في مكة وحول مكة في صراعه مع خصومه (المكيبين) ! إذا المكيبون أنفسهم كانوا على استعداد نفسي لقبول هذه القصة ، رغبة في الوحدة والتكتل ، ليكونوا قوة ثالثة في مواجهة قوى الفرس والروم .

٣ - كذلك فإن (القرآن) لم يكن جديداً كل الجدة على العرب فما فيه من عقائد كانت تعرفها مكة ويعرفها العرب في شبه الجزيرة .

ولكن صاحب كتاب (المذهب الحمدي) يرى أن آية معرفتهم لذلك هي عدم معارضة المكيبين له فما ذكر من عقائد - حتى عقيدة الوحدةانية - وارجع معارضتهم إياه إلى المنافسة السياسية والحشية من انهيار اقتصادهم

بينما يرى صاحب كتاب (الشعر الجاهلي) أن آية ذلك هي قبول من قبل منهم ومعارضة من عارض من بينهم ، فلو لم يكن القرآن مألوفاً لديهم لما عارض من عارض ولا قبل من قبل ولا حفل به أحد ولا كان له أى خطر !

٤ - وإن دعوة الإسلام دعوة محلية في جماعة خاصة وفي حياة خاصة ، ولذا فالقرآن أو الإسلام انطباع واضح لهذه الجماعة الخاصة ، في حياتهم الخاصة ، ويمكن أن يتبع آثار هذه الجماعة الخاصة في حياتها الخاصة ، في حياة محمد في جميع أدواره ، وهذا ما يصوره صاحب كتاب (المذهب المحمدي) ولهذا السبب يعتبر القرآن تعبيراً صادقاً عن هذه الجماعة الخاصة في حياتها الخاصة حتى عن أمانتها كما يصوره صاحب كتاب (الشعر الجاهلي) وإذن فالقرآن محدود القيمة ، محدود المكان ، محدود الزمان .

ومنطق هذا كله : أن القرآن ليس وحياً لرسالة ، إذ لو كان وحياً من عند الله لكان للناس جميعاً ، في كل مكان وفي كل جيل ، ولو كان وحياً أيضاً لرسم خطة جديدة لهداية الناس في عقيدتهم ولم يكن حاكياً لما كان عليه بعض أفراد الجماعة الإنسانية ، ثم إن العرب أنفسهم قبل - الناس الآخرين - لم يكونوا على جهل ولم يكونوا على ضلال حتى يحتاجوا لرسالة جديدة تدعوا إلى الهداية .

والفرق بعد ذلك بين الكتابين في عرض فكرة (بشرية القرآن) هو : أن أحد الكتاب في وصفه للقرآن وفي وصفه لصلة القرآن بالعرب يقول :

— فيه آى القرآن ما أخذ من الوثنية العربية .

— وفيه ما أخذ من المسيحية الغربية .

— وفيه ما أخذ من اليهودية العربية .

وهذا الكتاب هو كتاب (المذهب المحمدي) .

وبهم الاستشراق أن يردد دائماً أن القرآن أخذ من المسيحية أو اليهودية بدلا من أن يذكر أنه رد على المسيحية أو اليهودية بينما الكتاب الثانى : (الشعر الجاهلي) في تحديد هذه الصلة يذكر أن القرآن :

- فيه رد على الوثنية العربية .
- فيه رد على المسيحية الغربية .
- فيه رد على اليهودية العربية .

وذلك كى يوهم القارئ المسلم أن القرآن لم يلتق مع المسيحية القائمة ومع اليهودية الموجودة إذ ذاك ، طالما حدد الكتابان القرآن بالبيئة العربية فما وراء ذلك من اختلاف لا يحدث فرقاً أصلاً بينهما ، لأن التعبير بأنه (أخذ) من المسيحية واليهودية قصد التهديد إلى الحكم بأن القرآن لم يكن كله جديداً على العرب ، وهذا عين ما قصده التعبير بأنه (رد) وبينة الكتابين هي التي أوحى إلى كل منهما بالاختلاف في التعبير على نحو ما رأينا .

ولم يكن القصد من الموازنة بين الكتابين في عرض بشرية القرآن إلى بيان أن أحدهما أخذ من الثاني ، بل كان القصد أولاً بالذات ، إلى توضيح : أن كتاب (الشعر الجاهلي) في العالم العربي يحكى رأى المستشرقين في هذا الجانب ، ذلك رأى الذى تنوعت أساليبهم في عرضه ، والذى يعد مع ذلك هدفاً سياسياً في يدهم منذ أن نشأ الاستشراق ومنذ أن اتجه الاستشراق في مبدأ أمره إلى تمكين الاستعمار الغربى في البلاد الإسلامية عن طريق إضعاف قيمة الإسلام كدين ورسالة من رسالات السماء .

(٤)

مؤامرة (ترجمة القرآن)

دعا طه حسين إلى ترجمة القرآن بهدف الغاية الخفية وهي تخزيق الأمم الإسلامية وتوسيع مسافة التباعد بينها . وقد تصدى له الدكتور محمد سعاد جلال (الجمهورية في ١٩ أغسطس عام ١٩٥٥) قال : أن ذلك هدف الاستعمار الذى لا يطمئن على أنه قد ازدرت الأمم الإسلامية ازدراداً كاملاً إلا بعد تخليصها من الشوكة التى تقف في حلقه وتمنع عنه عملية الابتلاع الكامل وهو صوت القرآن العربى المجلجل في صدور المسلمين أياً كانوا ، وأياً كانت لغاتهم ، وأن عربية القرآن هذه تحمل قداسة القرآن ومهابة القرآن ومعجزة

القرآن في خلق الأنفس ودعم الإيمان ، فإذا نزعنا القرآن من لغته الإلهية فقد نزعناه من هذا كله ونزعنا الأهم الإسلامية من هذا كله أيضاً .

هل صحيح ما يقال : من إنه ليس كتاب ديني معجز إلا هذا القرآن وأنه معجز بلغته العربية ، وأن هناك أصحاب أديان على الأرض ليس في لغتهم الهجاز ، وإن سلخ القرآن من عربيته وتجريده من نظم إعجازه من أعمال المساواة المقصودة بين الكتب جميعاً ؟

هل علماء القرس والترك كانوا من الغباء والجهالة وفقدان الغيرة على صواحبهم بحيث تركوا السعي إلى ترجمة القرآن وهم يعلمون أنه مشروع وعمل مفيد ، أم أن صدودهم عن الترجمة مع توافر الداعي لها وظهور بعض المنفعة بها كان لا اعتقادهم ومهمتهم . إن ترجمة القرآن ونقله من لغته الربانية ونظمه الإلهي عمل لا يميزه الشرع ولا تتحقق به المصلحة ، وإن محاولة ذلك مما لا يقدم عليه مسلم ، هل كان أولئك الأفذاذ في العراق والشام وفارس وما وراء النهر ومصر والأندلس وغيرها من الأطراف وكلها أمم ذات لغات أصيلة غير لغة القرآن مات بعضها وبقي بعضها إلى اليوم حياً ؟ وهل كان علماء الأتراك وقد عاش سلطانهم على الأرض قروناً وامتد ملكهم إلى قلب أوروبا ؟ ، هل كان هؤلاء جميعاً حين لم يقدموا على ترجمة القرآن وإقامة الترجمة فيهم مقام الأصل عبادة وقراءة واستنباط للأحكام أقل علماً وذكاء وفهماً للمصلحة القومية والإسلامية من الدكتور أحمد زكي وأمثاله من الداعين المتحمسين لفكرة الترجمة ، أم أن هذه الدعوة المتحمسة تحمل باطلاً غير ظاهر وغرضاً في نفس قائلها ، ثم لماذا لا تظهر هذه الدعوة في نطاق واسع إلا في لحظات التاريخ المظلمة التي يمر بها المسلمون تحت مطارق الاستعمار وأعناقهم وأيديهم في قيوده واصفاده وليس لهم في مقاومة ذلك كله إلا آيات القرآن يتنادون بها القصي ويواصلون بها القريب ، ويربطون بأسلوبه الموحد ولغته الموحدة شتات وحدتهم الضائعة ، ودولتهم المستتلة المهيبضة الجناح ، ولماذا تقترن الدعوة إلى ترجمة القرآن بالموثرات الاستعمارية والتبشيرية الضخمة حول أمم العالم الإسلامي في بقاع الأرض طراً ؟ .

وقد تواصلت المعركة وحاول الدكتور طه حسين أن يدافع عن وجهة

نظرة ويرى نفسه من تهمة التآمر في هذا المجال ، وهو واحد من مجالات عدة فأجاب الدكتور محمد سعاد جلال بقوله :

قلنا : إن سر الترجمة هي القدرة على الإحاطة بالمعنى الذى أراداه صاحب الأصل وعدم الإحاطة بمعنى الأصل مانع من صحة الترجمة وبالتالي هو مانع من الإقدام عليها وإلا لكانت الترجمة حينئذ تزويراً وتزييفاً على الأصل . إن البحث الذى يستهدف صدى هذه المشكلة يجب أن يبتدئ من السؤال عن طبيعة الوحي المحمدى هل هو (وحي ذاتى) أو هو (وحي إلهي)؟ يذهب عامة المستشرقين وأصحاب الدراسات الإسلامية في أوروبا إلى أن الوحي المحمدى وغيره من صنوف الوحي إنما هو (وحي ذاتى) أى أنه عبارة عن تضاضط طائفة من الأفكار الدينية الإصلاحية اختمرت في العقل الباطن لدى النبي حتى إذا بلغت نضجها ارتدت إليه في عالم الوحي على أنها منزلة من السماء ، يصرح بذلك (نولدكه) في كتابه الضخم عن تاريخ القرآن ، وحاصله بعبارة لا تقبل النفاق : أن القرآن أفكار بشرية وفي إمكاننا أن نحيط علماً بمجرد صاحبها وفي إمكاننا بناء على ذلك أن ننقلها بأمانة ميسرة إلى أى لغة أخرى كما ننقل أفكار شكسبير أو جوته أو دانتي ، أو أى فكر عالمي . أما إذا ذهبنا إلى أن الوحي المحمدى إنما هو (وحي إلهي) « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » كما هو معتقد المسلمون في كل عصور التاريخ وفي كل مكان في الأرض فهيات هيات ثم هيات أن يتفق منطق هذا الرأي مع إمكان ترجمة القرآن أو نقل معانيه إلى لغة أخرى ، إذ كان لا بد في ذلك من الإحاطة على سبيل القطع بمراد الله من كل كلمة ومن كل جملة ومن كل سورة وهذا محال وفوق المحال .

ويقول طه حسين : والإسلام دين فيمتد إلى الناس كافة لا إلى العرب خاصة وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن يفرض على الناس أن يقرءوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا أن يعرفوه . لأن هذا تكليف بالمحال كما يقولون فلا أقل من أن يفسر لهم القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم .

ويقول الدكتور محمد سعاد جلال : لاحظت أن هذه الجملة المركزة ربما تطرق الضعف إلى مكان الاستدلال بها من وجهين :

أحدهما : يصح أن يسمى (مغالطة) والآخر ما يبدو أن يكون تناقضاً ، أما المغالطة فتظهر أولاً في قوله : (وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن يفرض على الناس أن يقرءوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا أن يعرفوه) وقبل أن ندخل في الصميم نمر بملاحظة شكلية تتعلق بقول الدكتور الفاضل : (إذا أرادوا أن يعرفوه) ذلك أنهم إذا أرادوا أن يعرفوه حقاً تعين عليهم أن يطلبوه في نصه العربي بغير شك ، فمن أراد معرفة شيء تعين عليه في شرعه المنطق أن يطلبه بوسائله المردية إليه لا أن يكلف الآخرين بتقديمه إليه ، وكما كان الدكتور مريداً للمعرفة الأوروبية والآثار الأوروبية يوماً ، فتعلم من أجل ذلك بعض لغاتها ، فكل من أراد علم شيء فعلياً أن يتخذ إليه سبيله ولعل التعبير الدقيق الذي فات الدكتور هو أن يقول : (إذا أردنا أن نعرفهم به) فهذا هو التغيير الصحيح الذي يتسق مع اتجاه تفكير الدكتور في هذا الاستدلال . يجترح الدكتور مغالطة كبيرة حين يزعم أننا نفرض على الناس أن يقرءوا القرآن ، فمن الذي فرض هذا من فقهاء المسلمين وعلمائهم أو حتى من عامتهم . إن علماء المسلمين لم يفرضوا قراءة كل القرآن على أحد من المسلمين عربياً وغير عرب فضلاً عن غير المسلمين ولم يفرضوا على المسلمين الناطقين بالعربية بعضاً من القرآن إلا ما تيسر لأداء الصلوات وهو مقدار ضئيل جداً .

ثانيهما : من وجه المغالطة ذهابه هو وأصحاب الرأي الأول إلى أن نقل معاني القرآن غير ترجمة القرآن وهذا إيهام وتلبيس وهم بهذا الإيهام والتلبيس يتحاشون مصادمة الأدلة التي تمنع جواز الترجمة وترد القول بها على أصحابه . والحق أن ترجمة القرآن ونقل معاني القرآن شيء واحد ، لأن البيان في أي لغة ألفاظ ومعان ، تقع تحت الألفاظ ولا يمكن ترجمة الألفاظ — أي نقلها إلى لغة أخرى — إلا بنقل ذواتها وأعيانها ، وإذن فلا ترجمة ولا نقل في الألفاظ . فانهصر وقوع اسم الترجمة والنقل على المعاني خاصة إذا كانت هي وحدها التي يمكن نقلها من اللغة المنقول عنها ، وإلباسها ألفاظ جديدة

من اللغة التي نقلت إليها ، فالقول : بأن ترجمة القرآن غير نقل معاني القرآن تليس وعبث لا يتقل في يد الحق موازينه . أما التناقض في قول الدكتور بعد ذلك كنتيجة لمقدماته التي استبان فسادها : (فلا أقل من أن نفسر لهم — للناس — القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم) وكأنما يخاطب الدكتور بهذه العبارة قوماً لم يقرءوا العلم أصلاً ، فانظر أنه يقول : نفسر القرآن ، ثم يقول : بنقل معانيه ، فهذا هو مكان التناقض فامسك به ذلك أن التفسير في الكلام المركب يفيض شيئاً من الزيادة على الأصل وإلا لم يكن تفسيراً ونقل المعنى يقتضى عدم الزيادة على الأصل أبداً وإلا لم يكن نقلاً ، بل كان تحريفاً وتزييداً ، فإذا قال الدكتور طه : إن التفسير يكون بالنقل فكأنه قال صراحة : إن التفسير يكون زائداً على الأصل وغير زائد عليه في وقت واحد وهذا هو التناقض الذي أطبقت العقول على القول به ولعل الذي أوقع الدكتور في هذا التناقض الغريب هو اندفاعه في طريق المغالطة إلى آخر الشوط ، فلما علم أن بعض العلماء يبيع ترجمة تفسير القرآن فأراد أن يوهم عليهم بأن الترجمة التي يعنيها أو نقل المعاني الذي يبيحه إنما هو من قبيل ترجمة التفسير تحجباً لمخالفاتهم وابتعاداً عن الوقوف أمامهم . إنه يستهدف غرضاً فلماذا لا يحاول من كل السبل تناقضاً ومغالطة أو أى شئ .

أما بعد : فقد كشف النقاب عن سر المسألة فما رأى الدكتور طه وأصحابه في حقيقة الوحي وفي أى صف يقفون ؟

وكان في مقابل ذلك صمت طويل للدكتور طه ، فقد عرف أنه فشل . ويعاود الدكتور محمد سعد جلال في بحث آخر في ١٦ أغسطس عام ١٩٥٥ قضية الوحي على النحو الذي أشار إليه (نولدكه) وهو غير الوحي الإلهي الذي عرفه النبي صلى الله عليه وسلم ويقول فإذا ذهبت إلى أن الوحي المحمدي إنما هو وحي إلهي : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) كما هو معتقد المسلمين في كل عصور التاريخ وفي كل مكان في الأرض فهيئات ثم هيئات أن يتفق منطق هذا الرأي مع إمكان ترجمة القرآن أو نقل معانيه إلى لغة أخرى .

هذا هو السؤال الذى أوردناه على الدكتور طه حسين لما رفع رأسه
بفكرة الترجمة من أكتوبر عام ١٩٥٤ إلى اليوم ونقدمه الآن مرة أخرى
إلى الدكتور أحمد زكى الذى كان قد بدأ حلقات فى هذا الصدد ، وكان الرد
هو الصمت المطلق وهذه هى عادة الدكتور طه حسين إذا أُلجم بالحجة وفى
كثير من المواقف .

• • •

الفصل الثاني

السيرة

إن موقف الدكتور طه حسين من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يخرج عن نطاقه معتقده الذي كونه وسار على أساسه في عرض الأدب والتاريخ والقرآن والإسلام . وهو موقف يستمد من كراهية حقيقته للإسلام ، وإذا ذهبنا إلى أول نص كتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم لوجدنا ذلك النص الذي أورده في كتابه الشعر الجاهلي وأعادته في كتابه الأدب الجاهلي ص ١٤٦ : وهو قوله .

(لأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب) .

وليس بعد هذا النص شيء يمكن أن يدل على عقيدة طه حسين ووجهته وغايته من كتابه السيرة التي طلع بها على المسلمين بعد أن انتقل إلى معسكر الوفد ، حيث أصبح في حماية الحزب الشعبي الضخم ، وقد استظل بظلاله وكسب ثقة قادته فأصبح يستطيع أن يواجه خصومه بعبارة واحدة هي أنهم يهاجمون في الهجوم عليه : الوطنية المصرية .

ولما كان طه حسين من بين العمل المكلف به تدمير التراث الإسلامي بنقده وتزييفه والتشكيك فيه ، فلقد كان عليه أن يخطو خطوة أخرى بعد ذلك أكثر جرأة وهي كتابة التراث الإسلامي من جديد وهو مافعله عندما كتب هامش السيرة ثم الفتنة الكبرى والشيخان وغيرهما .

فقد جمع كل السموم والشبهات التي أثارها الاستشراق في مختلف كتبه وفي دائرة المعارف الإسلامية وأدخلها في دراساته عن النبي وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم .

ومن هنا فإن قول الباحثين بأن (على هامش السيرة) هو نتيجة تجريبية (الشعر الجاهلي) وامتداد له قول صحيح ، هو نتيجة التجريبية من حيث النأي عن المصادمة والتماس طريق المراوغة والمكر في عرض السموم ، ومن ناحية أخرى في إفساد السيرة نفسها بعد أن نقاها مؤرخو الإسلام من الشبهات والأساطير فقد جاء طه حسين يعيدها إليها بل ويزيد من عنده حيث أعلن أنه وسع على نفسه في القصص ، وما كتبه في مقدمة (على هامش السيرة) يحاول به أن يثير في نفوس الناس الشك في سلامة السيرة وأنها أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق وأنها ليست من العلم والتاريخ ، مع أن القرآن الكريم هو مصدر أساسي من مصادر السيرة حتى يمكن القول بأن (على هامش السيرة) يمكن أن يسمى (على هامش الشعر الجاهلي) .

ولقد عني بالبحث في هذا الموضوع كاتبان جليلان هما : غازي التوبة في كتابه عن الفكر الإسلامي المعاصر ومحمد التاييف في مقالاته المستفيضة عن السيرة التي نشرها في مجلة المجتمع الكويتية سنوات (١٣٩٤ و ١٣٩٥) .

وقد كسب الدكتور طه حسين من كتاب (على هامش السيرة) كثيراً فقد استعاد الثقة في نفوس بعض البسطاء الذين كانوا قد آثموا بعد صدور كتاب (الشعر الجاهلي) بالمروق من الدين . ولكنه كان خبيثاً ما كرأ فقد استطاع بهذا العرض الموسيقي الجميل خداع الكثيرين حين أدخل عليهم كثيراً من الشبهات مع أن كتبه الإسلامية كلها تحمل السخرية الواسعة العميقة بكل مفاهيم الإسلام .

(٢)

على هامش السيرة

إن فكرة عرض كتب طه حسين والكشف عن السموم التي حشدها للنيل من الإسلام — تحت ستار براق من أسلوب زخرفي خادع ، خدع به عميد الأدب الكثيرين من شباب الإسلام الذين لا يعرفون أبعاد حركة التغريب والغزو الثقافي — إن هذه الفكرة يجب تحقيقها بلا إبطاء .

والذين يظنون أن ترديد أسماء (النبي) صلى الله عليه وسلم والصحابة ، وعرض هذه الصفحات ، إنما هو عمل على طريق الدعوة الإسلامية مخدعون ،

ول أن عددًا كبيراً من كبار المثقفين في المشرق والمغرب ، قد خدعهم تراتيل هامش السيرة .

ولما كان قد جاء بعد مرحلة طويلة من كتابات وصفت بأنها خصيصة للإسلام ، كما جاء في (الشعر والأدب الجاهلي) و (حديث الأربعاء) وأحاديث عن الدين والعلم ، نشرت في الصحف فقد صفق كثير من الناس وقالوا : لقد عاد الدكتور طه حسين مرة أخرى إلى حظيرة الدين .

ولم تكن هذه هي الحقيقة . وإنما الحقيقة غير ذلك . عكس ذلك تماماً تحت ستار المراوغة .

لقد أحس الذين كانوا من وراء طه حسين ، أنه في اندفاعه نحو إغاطة الجماهير ، قد بلغ مرتبة أصبح منها موضع احتقار الميئات الأدبية والثقافية ، ولما كانوا يعدونه ليتسّم أعلى المناصب لتحقيق أغراضهم في السيطرة على التربية والتعليم والثقافة كما حدث بعد . لذلك فقد أوحى إليه بأمرين :

الأول : ترك أحزاب الأقليات والاندماج في الحزب الشعبي الكبير (الوفد) فإن ذلك يعطيه مكانة وقوة :

الثاني : التأليف في السيرة لإرضاء السذج والبسطاء .

وقد بدأ نشر هذه المقالات في هالة كبرى في الأعداد الأولى لـ مجلة الرسالة ، التي أصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٣ فكان لذلك ضجة وأثر .

ولكن حقيقة الهدف وخفايا القصد لم تعرف إلا بعد أن صدر الجزء الأول ، وقد تصدى له المراقبون فكشفوا حقيقة الموقف ، وقد تبين ما يأتي : أولاً : وضع الكتاب على نمط كتاب غربي كتبه (الفريد أورشيم) الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان : (على هامش سيرة المسيح) ، ذكر ذلك الأستاذ عبد الله كنون في كتابه : (التعاشيب) .

وأشار الدكتور محمد برادة إلى أن طه حسين كتبه تقليداً لكتاب (على هامش الكتب القديمة) لجيل لوميتير .

يقول الدكتور طه حسين في كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام ١٩٤٦ في باريس : ويتحتم أن نعرف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين

اللتين أشعلتا موقدين مختلفين ، أحد الكتابين لجيل لومير وعنوانه : (على هامش الكتب القديمة) والثاني : (حياة محمد) لإميل در منجم .
أما كتاب جيل لومير فلنى بعد أن شغفت به كثيراً . وضعت فى نفسى
الأسئلة الآتية :

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية فى تاريخ الإسلام فى أسلوب جديد ، أم أنه يتعدى ذلك . وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر ؟
لقد حاولت أن أقص (بعض الأساطير) المتصلة بالفترة التى سبقت ظهور النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم قصصت مولده وطقولته ، ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جيل لومير وهو (على هامش السيرة) وهذا الكتاب من عمل الخيلة . اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسى حرية كبيرة فى أن أشرح الأحداث وأختراع الإطار الذى يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة ، مع الاحتفاظ بالطابع القديم) .

وقد كان الدكتور يتحدث بهذا إلى المستشرقين فى أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام ، وبعد كتابه هذا خطوة فى هذا السبيل ، من حيث دمج الأدیان كلها فى كتاب واحد وفى اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير فى الأدب العربى .

هذا ما كشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور (على هامش السيرة) فإذا كان موقف الباحثين منه ؟

يقول صديقه ورفيق دربه ، الدكتور محمد حسين هيكل : أستطيع الدكتور طه حسين العذر إن خالفته فى اتخاذ النبى - صلى الله عليه وسلم - وعصره مادة لأدب الأسطورة .

ثم أشار إلى ما يتصل بسيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - ساعة مولده وما روى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم قال :

(لهذا وما إليه يجب فى رأى أن لا تتخذ حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - مادة الأدب الأسطورى ، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ،

وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر - وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثرًا ما .

والنبي - صلى الله عليه وسلم - وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي فلذة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثرًا ، واعلم أن هذه الإسرائيليات قد أريد بها إقامة (ميولوجية إسلامية) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ، صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام .

ثم قال هيكل : (من أجل ذلك أود أن يفصل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول تجري مجرى (على هامش السيرة) بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها) .

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريح للدكتور طه حسين في اتجاهه وتحميل له مسؤولية من أخطأ المسؤوليات . وهي : إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - منها طوال العصور ، إعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدي إلى إفساد العقول في سواد الشعب ، وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه - صلى الله عليه وسلم -

وهذا الذي كشفه هيكل ما زال كثيرون يجهلون ، وما زال المتابعون لحياة طه حسين وتحولاته ، يرون أن هذا أخطر تحول له ، وأن هذا التحول جاء بعد أن انضم إلى حزب الوفد وأمن المحجور عليه ، وخذع الناس بأسلوبه . وطارت الدعوات تقول : إن طه حسين عاد إلى الإسلام وأنه يكتب حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق ، ولكنه كان تحولاً خطيراً وفق أسلوب جديد ، لضرب الإسلام في أعز فلذات حياته وهي سيرة الرسول الأمين - صلى الله عليه وسلم - ولقد دمهغ هيكل حين قال : لقد تحول طه الرجل الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل - إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على

إحيائها ، وأن هذا ليثير كثيراً من التساؤل ، إذ أن طه حسين - وقد فشل في تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمي - لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب إظهاراً لما فيها من أوهام في الظاهر تفتن الناس .. .
ولقد كان هذا مصدراً لما أورده الأستاذ محمد النايك في كتاباته (دراسات عن السيرة) حيث قال : (على هامش السيرة) هو في حقيقته (على هامش الشعر الجاهلي) ومنتسم له ، فهو على طريق تطاوله على الإسلام ولكن مع المراوغة والمداهنة .

وقد ساء طه حسين أن يكون لليونان أساطيرهم وللرومان أساطيرهم وأن الناس يقبلون برغبة ملحة على دراسة هذه الأساطير ، ثم لا يجد الراغبون أساطير للعرب يتناقلها الناس ، من أجل هذا ألف هذا الكتاب ليكون أسطورة عربية . وقد كتب ما كتب متأثراً بجيرد . وبلوت . وموليير . ولما كان يقلدهم في كل شيء ، فقد أقبل على السيرة النبوية يضع منها أساطير كما أساطيرهم ولقد شهد على نفسه بالكفر حين شهد بأن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق وليست من العلم والتاريخ .

لقد كفر لأن القرآن الكريم مصدر رئيسي من مصادر السيرة ، والسيرة وصلت إلينا من أوثق المصادر العلمية وأمتها ، والمسلمون يدرسون سيرة فيأخذون منها عقيدتهم وعبادتهم وقادوتهم . لا يدرسونها للمتعة ولا للتسلية كما يفعل الملاحدة .

ثانياً : تحدث في هامش السيرة عن قساوسة مصر والشام وحمير ونصاري اليمن ، وهذا شيء خطير يناقض المنهج الصحيح . كما أنه عني عناية كبيرة بالتاريخ اليوناني والروماني ، على نحو لا يفهم منه إلا أنه خلط بين المسائل خلطاً شديداً ، وأنه كان يرى إلى خلط شديد بين تاريخ الإسلام وتاريخ آخر لا يتصل به ، وإنما هو حديث عن الرهبان والأخبار ، مقصود به إثارة جو من الخلط الشديد بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين هذه الجاهلية ، وقد اهتم بإنصاف اليهود ، وأن يقدم لهم شيئاً في قصة مخيريق ، فهو يروي حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - (مخيريق خير يهود) .

ثالثاً : في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يأخذ بالأحاديث

الموضوعة ، وحين يأخذ أحاديث موضوعة يرد أحاديث صحيحة لأنها خالفت
هواه ، ويعول كثيراً على الإسرائيليات التي جاءت في تاريخ الطبري وأكثر
منها في الواقدي وأحياناً ابن إسحق (والمعروف أن روايات ابن إسحق عن أهل
الكتاب وعما قبل النبوة لا يعتد بها) .

**رابعاً : حشد قدر كبيراً من الأساطير في قصة حفر زمزم على يد
عبد المطلب ، وبالعجدة في قصة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه
لم يثبت منها إلا حديث واحد ، وأخذ بالأخبار الموضوعة في قصة (زينب
بنت جحش) وجسم بعض المعجزات التي حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم
عند مرضه حليلة السعدية وأثناء سفر النبي - صلى الله عليه وسلم - في تجارة
خديجة رضي الله عنها .**

**خامساً : خص الشياطين في كتاب هامش السيرة باهتمام بالغ متوسع
في الحديث عنهم ، وصور مؤثراً يتصدره إبليس للشياطين ورسم صورة
للشيطان الذي حضر خلاف قريش على الحجر الأسود ، وكان على شكل
شيخ تجلدى ، وتحدث عن الشيطان الذي صادف عمرو بن هشام على هيئة
شيخ أعرجي فأ أن سمع عمرو صوته حتى توقف .**

**سادساً : أولع بتجسيم الروايات واختراع الحكايات عن ولادة النبي
- صلى الله عليه وسلم - وحتى بعثته . وعمد إلى إحاطة الدعوة بالخوارق
ولخص القصص المكتوبة عن مدعى النبوة في قريش .**

وعلى ندرة الصفحات التي خصصها لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم
جاءت هذه الصفحات مملوءة بالمغالطات والذي سلم من التحريف كان
للمتعة والتسلية .

ومن أخطر مزاعمه زعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم . قد أحب زينب
وهي زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم .

**سابعاً : توغل في الحديث عن أهل نجران وتوغل في أمر اليهود وتحدث
عن اليهود وصراعها مع أهل نجران . وعن راهب الإسكندرية والأديرة
والتجاشي ، والحواريين الحاكم الروماني وصديقه كاليكراتيس واندروكلبيس
والنصرانية وآلهة اليونان والرومان القدماء .**

ولا ندري لماذا كل هذا البحث عن حاجات اليهود وتاريخهم في السيرة وتركيز الدكتور طه حسين عليه وإبرازه .

وإذا كان طه حسين قد أشار في المقدمة إلى أنه اهتم باختراع الأحاديث فإن الحرية التي أباحها لنفسه لم تكن إلا لهوى معين وهدف واضح ، هو أن يقدم عن طريق القصص من السموم ما عجز عن طريق النقد والكتابة الأدبية .

ثامناً : سوى بين أساطير الجاهلية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : يقول (فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ في صورة معينة ، وإنما قصص الرواة في ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف ، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية ، وفي أكثر البلاد الإسلامية ، قصورها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى) .

ويحضر هذه الشبهة الأستاذ غازي التوبة فيقول : (كذب طه حسين في هذا القول على التاريخ ، فلم يقصد رواية سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجمال القصصى في حديثهم عنه ، ولم يبتغوا الزينة اللفظية في تاريخهم لدقائق حياته ، وإنما جاء الجمال القصصى والزينة اللفظية عرضاً في مثالي الكلام ، فعملهم في سيرة نبيهم أسمى من أن يهدفوا منه التقاصص أو التلاعب . وهم أوعى من أن يسفوا إلى هذا الدرك . إن مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام من نفوسهم ونظرتهم إليه مانعان بينهم وبين هذا اللغظ) .

ثامساً : يعتذر الدكتور طه حسين لتناقض بعض أحداث السيرة مع العقل ، وعدم استقامتها مع التفكير العلمي ، ولكنه يبرر موقفه بأن هذه الأساطير ترضى ميل الناس إلى السذاجة ، وترفع عنهم حين تشق عليهم الحياة فيا لهوان السيرة عنده .

ويقول : (وأنا أعلم أن قوماً سيضيعون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ، ولا يطمثون إلا إليه وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها) .

ويقول غازي التوبة : (إن طه حسين ينصب نفسه إماماً للأساطير اليونانية ويضع السيرة في مصاف الآلياذة ويطلب من المؤلفين والكتاب

أن يفتتنوا في الحديث عنها افتتاناً أوربا بأساطير اليونان ، كى يرضوا ميول الناس إلى السذاجة ، ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم . ولكن هل يتساوى الأثران في المجتمعين (الألياذة في المجتمع اليوناني . والسيرة في المجتمع الإسلامى) وهل كانت السيرة يوماً ما في التاريخ موضوعاً لتسليية قصصية أو مباراة لفظية ؟ .

ليس من شك في أن تناول السيرة بقصد الترفيه عن النفس وإرضاء ميل الإنسان إلى السذاجة وتنمية بعض عواطف الخير ليس من شك أنها سابقة خطيرة لا يحسد عليها طه حسين لأن من كتبوا — دوماً وكثيراً — في سيرة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ومحصوا أحاديثها وميزوا دقائقها وبوبرا تفاصيلها ، كان نظريهم خلال ذلك كله وبعده يرمى في محمد — صلى الله عليه وسلم — مثلاً أعلى للإنسانية ويلتذ في ذلك ويشتم الصفات العيقة .

عاشراً : لم يكن الدكتور محمد حسين هيكل وحده هو الذى كشف خطة طه حسين المدمرة ، ولكن هناك كثيرون في مقدمتهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، الذى وصف كتاب على هامش السيرة بأنه تهكم صريح .

وفي الجزائر نشرت مجلة الشباب الجزائرية (ذى القعدة عام ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م) تحت عنوان (دسائس طه حسين) قالت : ألف طه حسين كتاباً أسماه (على هامش السيرة) ، يعنى السيرة النبوية الطاهرة ، فله من الأساطير اليونانية الوثنية وكتب ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها ، فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال ، حتى يحيل للقارئ أن سيرة النبي — صلى الله عليه وسلم — ما هى إلا أسطورة من الأساطير ، وفي هذا من الدس والبهت ما فيه .

ومن العجب أن قام كاتب في مجلة الرسالة بطوى هذا الكتاب يقول : فالدكتور طه حسين الذى كان يقول في الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين ، أصبح اليوم وبعد ما خرج من الجامعة يحسب للمسلمين حساباً ، فلا يكتب إلا ويقول أنه مسلم وأنه يعظم الإسلام . ولكن ما انطوى عليه صدره بأبى إلا الظهور ، كما بدأ جلياً في كتابه الأخير .

وقال زكى مبارك في البلاغ (يناير عام ١٩٣٤) : (وأنا أوصى قرأتى

أن يقرأوا هذا الكتاب (على هامش السيرة) بروية فإن فيه نواحي مستورة من حرية العقل ، عرف الدكتور كيف يكتبها على الناس ، بعد أن راضته الأيام على إثثار الرمز على التأليف (يقصد بعد ضربة الشعر الجاهلي ، أثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه) .

بل إن الدكتور هيكل في جولة أخرى حول كتاب (على هامش السيرة) ج ٢ ، في ملحق السياسة الأسبوعية (١٩٣٧ / ١٢ / ٢٥) أشار إلى جملة من المعاني الخطيرة ، وإن كان قد تناولها بحذر لكن لا يغضب صديقه القديم .
أولاً : أشار إلى أن طه حسين (أراد أن يمزج الثقافة العربية بالثقافة الإغريقية ، حين تحدث عن حياة الرهبان والرومان .

ثانياً : أنه لا يريد أن يقص شيئاً من أمر السيرة لذاتها ، ولا بما قد يرى أنه التاريخ الحق فيها . وهو لذلك يريد أن يبقى على هامشها .

ثالثاً : جانب الأساطير غزير واليهود لم ياع طويل في دس الإسرائيليات على الإسلام ، وأن من رجال الأدب من يرون أن هذه الأساطير لها أثر مبيء ، لأنه يسيء إلى الفكر الإسلامي الذي لا يعرف من الأساطير ما يعرفها اليهود وما يعرفها الإغريق) .

ثم لم يلبث الدكتور محمد حسين هيكل أن قال :

(الحق أنني كنت أشعر أثناء قراءة هذا الجزء الثاني من هامش السيرة ، وكأنما أقرأ في كتاب من كتب الأساطير اليونانية ، أو في بعض ما كتب أناطول فرانس ومثلها في هذه الأساطير ، وليس فصل (نادى الشياطين) بأشد إمعاناً في أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب) .

طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) يمضي في طريقه المرسوم بعد أن توقف ملياً أمام السهام التي ناشته بعد كتابه (في الشعر الجاهلي) . الخطة واحدة وإن اختلفت الأسلوب ، الغرض واحد ، وقد أمعن فيه تحت ستار خداع كليات براقة وقد انكشفت الخطة من الجزائر إلى أقصى المشرق ، ولكن هل

(١) قصص أسطوري يحرك المواطن وإن لم يكن له أصل من الصفة (الخطة) .

توقف طه حسين ، لقد أوغل في دراسات تاريخ الإسلام يثير السئوم في (الفتنة الكبرى) وفي (الشيخان) وفي غيرها .

خلاصة البحث أن التبعية واضحة في كتابات طه حسين الإسلامية ، للمناهج الغربية التي تود إخراجنا من الأصالة ، والاستسلام الواضح للفكر الوثني بصفة عامة . واليهودي بإسرائيلياته بصفة خاصة ، بل يكاد يكون الدكتور طه حسين في مختلف كتبه الإسلامية محيياً لمفهوم الإسرائيليات ، ووجهة نظر اليهود ولذلك الباب تفصيل كبير سنفرد له فصلاً خاصاً .

(٣)

الشيخان ومرتأة الإسلام والوعد الحق

١ - قصص أسطوري يحرك العواطف وإن لم يكن له أصل من الصحة .

يمضي الدكتور طه حسين في كتبه هذه على نفس النمط الذي سار عليه في كتاب الفتنة الكبرى ، وهي مجموعة أحقاد ووصايا تبشيرية واستشرافية موجّهة ومدرّسة ، يضعها في قلب هذه الدراسات لإثارة الشكوك حول تاريخ الإسلام والخلافة وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد مهد لكتاب (الشيخان) بمقدمة خطيرة أعلن فيها مذهب الشك الفلسفي بوضوح .

فقد أعلن أنه يشك (أعظم الشك) فيما روى عن هذه الأحداث التي تناقلتها الكتب عن حياة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهما الشيخان حيث يقول :

(وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ، وعن تاريخ العصر القصير الذي وليا فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامها .

وإن كان من الحق أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كذب الناس عليه . وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس ، فلا غرابة

في أن يكون لكبار صاحبيه العظميين وتقديسهما مصدراً من مصادر الكذب عليهما أيضاً) .

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول : (إن الذين روى التاريخ الإسلامي هم المنتصرون وحدهم بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم ، وإنما نقلت إليهم أنباءه نقلاً ، أقل ما يمكن أن يوصف به أنه لم يكن نقلاً دقيقاً ، وهم لم يسمعوها أنباء هذا الانتصار من المهزمين من قريش وروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة ، فهم سمعوا صوتاً واحداً ، هو الصوت العربي ، وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المهزموون والمنتصرون معاً) .

١ - تطوع للدفاع عن الروم :

وهكذا تطوع الدكتور طه حسين (كما يقول الأستاذ محمد الناييف في بحثه المستفيض عن السيرة) للدفاع عن المهزمين من علوج الرومان ، ليكون لسان حاله مطعوناً بعدائه ، محكوماً عليه بالكذب ، لا يعرف طعم الأمانة ، ويأبى الطريق الذي يوصله إلى الحقيقة .

ومن المقدمة وحدها نعلم أن طه حسين اتخذ من الشيخين رضى الله عنهما نفية وستاراً ، ليعبث في تاريخ أمتنا الإسلامية ويطعن بالرواة الثقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعي التابعين وينكر أحاديث متفقاً على صحتها .

وبمضى طه حسين في كتابه على غرار ما ذهب إليه في المقدمة مشككاً بالرواية والراوى ويتكرر هذا الأسلوب في كل حادثة من الحوادث .

٢ - الطعن في حادثة السقيفة :

يقول : (ولست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذى كان بين أبي بكر وصاحبيه من جهة ، وبين الأنصار (أوسهم وخزرجهم) من جهة أخرى) .

٢ - الطعن في الحديث الذى روى عن العباس وعلى رضى الله عنهما ،

من أن العباس عرف الميرت في وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - والغريب أن الطبري يروي هذا الحديث من طريقين دون أن ينكر منه شيئاً .

هذا الحديث رواه أيضاً البخاري في كتاب المغازي في صحيحه . ونقله ابن كثير في البداية والنهاية ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، ولعل طه حسين يعلم رواة هذا الحديث ولكنه أراد التشكيك .

٣ - تشكيكه في استسقاء عمر بالعباس - رضى الله عنهما - مع أن الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أنس : أن عمر خرج يستقي وخرج بالعباس يستقي به . ورواه ابن كثير في البداية والنهاية . وشيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة التوسل والرسيلة .

٤ - تشكيكه في أن يكون عمر قد راجع أبا بكر - رضى الله عنهما - معترضاً على حرب المرتدين ، مع أن مراجعة عمر لأبي بكر صحيحة رواها الجماعة في كتبهم ، سوى ابن ماجه ، أي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

وفي جميع هذه الحوادث التي ينكرها الدكتور طه حسين لا يعتمد على سند علمي صحيح ، وإنما على عقله الذي وصفه في بعض المواضع بالتناقض والضعف والاضطراب .

٣ - محاولة لنسف التاريخ :

ولأن طه حسين يعلم أن التشكيك برواة التاريخ الإسلامي الأعلام العدول ، محاولة لنسف التاريخ من أصله ، لأجل هذا فهو يناصبهم العداء ويصدر أي خبر لهم بقوله (ويزعم الرواة) وكلمة يزعم تقال للخبر المشكوك فيه .

وأخيراً يستخدم العصبية الجاهلية ، فلن أكثرهم موالى يكرهون العرب حسب زعمه دون أن يذكر أسماءهم . ومعظم الرواة من غير العرب وفي مقدمتهم ناصر السنة الإمام البخاري .

بل إنه يضم هؤلاء الرواة بأن قلوبهم لم تبرأ من الضغن على العرب لأنهم فتحوا بلادهم .

ونحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد طهر قلوب هؤلاء العلماء الأبرار الذين

صاغهم الإسلام في بوتقته . وأخرجهم من هذه العصبية وهذه العنصرية التي لم يعرفها المسلمون ، إلا حين أيقظها الشعوبيون بعد ذلك .

٤ - ولوغه في أعراض الصحابة :

وقد شارك طه حسين كثيراً من المستشرقين المتعصبين في تحريج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمز أبا هريرة رضي الله عنه ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وتعامل على معاوية رضي الله عنه ، وأوغل في عرض سيف الله خالد بن الوليد ، ووجد في القصص التي اختلقها الرضاؤون من أعداء الله عبر التاريخ الإسلامي ذريعة للطعن بأعظم قائد عرفته المعارك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويذكر قتل خالد لمالك بن نويرة ، واستدعاء أبي بكر - رضي الله عنه - له . ثم يعقب بأن : هذه الواقعة تبين ما أسماه (عنف خالد وإسرافه في القتل) وأنها تظهر عن خلق آخر ، هو حبه للتزوج ، وخلق آخر معروف في عشيرته من بني مخزوم ، وهو العجب والحيلة .

وما زال يتناول على سيف الله خالد رضي الله عنه حتى جاء بأسطورة لم يشهد لها تاريخ الفتوحات الإسلامية ، وقد ترفع المستشرقون عن نقلها : وهي ادعاءه أن خالداً قد أجرى ماء النهر بدمائهم ، وقد أثبت الدكتور طه حسين هذه الرواية التي لا سند لها ، بينما أنكر الروايات الموثقة التي رواها البخاري رضي الله عنه .

وهو يهدف من ذلك إلى تصوير الفتوحات الإسلامية وقواد المسلمين بالهمجية ، ولم يثبت سائر الروايات التي اعتذر فيها عمر رضي الله عنه عن عزل خالد (راجع محمد النايف) و (غازي التوبة) .

ثانياً : ولم يتوقف انتقاد طه حسين للشيخين في كتابه هذا وحده . ولكنه تعداه إلى كتبه الأخرى ، فقد وصف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في غير موضع بالبطش . وقال أنه لم يمت حتى ملته قريش . وانتقد أبا بكر - رضي الله عنه - في أنه حصر الخلافة في قريش وعمر كان يعارضه في ذلك ؟

ثالثاً : افترى الدكتور طه حسين على الصحابة وسبهم واحداً واحداً وصنع لهم مثالب ووصفهم بالنفاق ، وهدفه من ذلك إزالة الكرامة عن الصحابة - رضوان الله عليهم - وجعلهم في صف السياسيين المحترفين في هذا العصر ، ومن ذلك وصفه عمرو بن العاص - رضى الله عنه - بأنه مكر أهل الشام ، ووصف الأشعث بن قيس ، بأنه مكر أهل العراق ، ولا ريب أن الطعن على الصحابة - رضوان الله عليهم - يرمى إلى زلزلة الثقة بأهل الثقة .

هـ - الجرأة على القرآن والسنة :

وهو في كل ذلك جرىء - إن صح التعبير - على القرآن والسنة والحديث ضعيف المصادر منتحل من كتب الأدب ، وعندما تقرر كتاب « الشيخان » في المعاهد المصرية ، كتب الغيورون يطلبون إلغاء تقريره ، وفي مقدمتهم الأستاذ عبد الحفيظ القرني الذي قال ، إن هذا الكتاب عرض هذين الخلفيتين العظيمين لموجة من الشك الذي حشى به كتابه ، فترك الشباب في قلق وحيرة لا يدري أين يضع قدمه بين تلك الأمواج المتدفقة من عباراته . مثل : أنا أشك ، زعموا - يزعمون ، أنا غير واثق ، إلى غير ذلك مما يفتح الطريق واسعاً للتخبط والشك والضياع .

وكان الأستاذ محمد عمر توفيق ، قد ألف كتاباً عنوانه (الشيخان) رداً على كتاب طه حسين - في إبان حياته - وقال :

إن طه حسين تجافى منهج أهل الحديث في اعتياده على أحاديث مشكوك فيها ، لإثارة الشبهات عامداً . وقال : إن أساويه الخلاب خطير ، لأنه يخفى وجه الحق فلا يتنبه قراء كتابه فيضلون ، وإن الناس قد تخفى عليهم وجوه الخطأ والصواب في كتاب مثله ، وقد يغريهم اسم المؤلف بتصديق كل ما يقول . وأن طه حسين خدع قراءه في أول كتابه بإظهار حبه للشيخين ، وشعوره بالتقصير في حقهما ، لأنه لم يشارك في الحديث عنهما من قبل .

وقال المؤلف : أن طه حسين قد شكك في القدماء والروايات الإسلامية القديمة ، ولكن لم يتجاوزها إلى المستشرقين - الذين هم عنده موضع الإجلال - دون أن يكون لديه ميزان دقيق في هذه الأحكام الجائرة .

وبعرض الأستاذ عبد العظيم الديب لنص مسموم من كتاب طه حسين :

(الشيخان) يقول : (وكان حظ الكوفة من سراد العراق ومما فتح من أرض
الفرس أعظم من حظ البصرة ، وكان أهل البصرة يطعمون في أن يوسعوا
ورقتهم ويكثروا من الفتوح ، لتتاح لهم من الغنائم وسعة الثراء ، إلى ما كانوا
يؤمنون به من فضل الجهاد والغزو في سبيل الله .

حتى قال الأحنف بن قيس ذات يوم لعمر رضى الله عنهما :

إن عيشنا أضيئ من عيش إخواننا بالكوفة ، وأنا لن نأمن الفرس ،
وما زال الإلحاح حتى أذن عمر . فاندفع أهل البصرة حتى بلغوا من الفتوح
ما أرادوا .

وهكذا يروى الخبر بصيغة الجزم والقطع (حتى قال الأحنف بن قيس)
ولا يكلف نفسه أن يأتي بصيغة تخفف من هذا التأكيد مثل (روى) ونحوها
ثم انظر قوله (أهل البصرة يطعمون في أن يوسعوا رقتهم ويكثروا من الفتوح
لتتاح لهم من الغنائم وسعة الثراء) وانظر (أن عيشنا أضيئ من عيش إخواننا
بالكوفة) .

هذا الفهم وهذا التفسير لا يكون إلا من نقص الإدراك ، وبالتالي
من نقص الاستجابة للأحداث ، ولو كان لدى طه حسين الإدراك الكامل
السلام ، لأدرك الروح التي كانت تحكم هؤلاء الأبطال ، ولعلم أن هذه
الحكاية أولى بكل أدوات الشك التي يعثرها في كتابه ، ولأدرك أن هؤلاء
هم الذين تربوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ووعوا قوله : (من قاتل
لتكون كلمة الله هي العليا فذلك في سبيل الله) فما بال القتال في سبيل الغنائم
والمال الذي يبعد المجاهد عن سبيل الله .

ولو وعى — طه حسين — أبسط الحقائق النفسية ، لأدرك أن من يقاتل
في سبيل الغنائم لا يدوم له النصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب بما خلفه وراءه
من مال ، وبما يبغيه من أبدى عدوه . ومثل ذلك لا يدوم له نصر وإن كسب
المعركة أو أكثر .

ولعمري إذا كان المستأذن الأحنف بن قيس أحلم العرب ، وكان الآذن
عمر بن الخطاب رضى الله عنهما الذي كان يكره الحرب ويتمنى أن لا يلجأ
إليها ويكره عليها .

إذا كان الأمر كذلك ، فما يبق للمسلمين والإسلام ، ولكن الدكتور
عميد الأدب العربي ، المباحي دائماً بأنه ربيب الثقافة الغربية ، والمتبرك دائماً
بالثقافة الإغريقية ، فاته أن يدرك وأن يستجيب لأحداث تاريخ الإسلام كما
يجب أن يكون الإدراك والاستجابة .

وهكذا نجد أصولاً عامة مشتركة في كل كتب طه حسين الإسلامية :

أولاً : ظلم عثمان واستنفاص الصحابة - رضوان الله عليهم - والافتراء
على السيدة عائشة رضي الله عنها .

ثانياً : محاولة الغض من شأن الخلافة الإسلامية . والقول بأن تجريبتها
في أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قد انتهت إلى الفشل .

ثالثاً : متابعة المستشرقين في شبهاتهم . وإثارة جو من الانتقاص للسيرة
والتاريخ الإسلامي .

رابعاً : تكذيب الروايات التي وردت في صحيح البخاري وكتب السنة .

وفي كتاب الوعد الحق :

أولاً : يطيل الحديث في كتابه (الوعد الحق) عن ظلم عثمان رضي الله
عنه وطفئانه ، وأنه ما زال يضرب ابن مسعود رضي الله عنه حتى كسر
ضلعه ، وأشبع عمار بن ياسر رضي الله عنه ضرباً ، حتى أصابه الفتن ،
وغشى عليه ، وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب (ص ١٧٠) .

والرواية على هذه الصورة لا صحة لها . وأن خلاف عثمان مع ابن مسعود
- رضي الله عنهما - على المصحف كان بدون ضرب والحق في ذلك مع
عثمان رضي الله عنه . وخلاف عمار مع عثمان رضي الله عنهما لم يتجاوز
العتاب ، كما يقول ابن عساكر في تاريخه .

ثانياً : يؤمن بأن بني أمية في عهد عثمان حكموا حكماً جاهلياً بعيداً عن
الإسلام ، وأن عثمان رضي الله عنه نكث عن بيعته لعبد الرحمن بن عوف ،
وانعرف عن طريق صاحبيه .

وفى كتاب مرآة الإسلام :

يمضى طه حسين فى كتابه حتى الربع الأخير فيه ، دون أن يثير شبهة ، ثم تبدأ الشبهات وتترالى . وهذا أسلوب مآكر من أساليب الاستشراق . وفى هذه الصفحات الأخيرة تنزلى عباراته الجارحة للصحابية رضوان الله عليهم وتكذيب الأحاديث الصحاح .

ويركز طه حسين فى هذا الكتاب على خصوم الإسلام الذين تأمروا عليه من أمثال الزنادقة فى عهد المهدي ، والحلاج ، فيدافع عنهم ويهاجم الخليفة المهدي فى صتيه بالزنادقة ، ويصف قتل الحلاج بالغار . ويحاول أن يعمم هذا فيتحدث عن ابن رشد وابن حزم ، ويذكرى المعتزلة القائلين بخلق القرآن . وقد تجاهل طه حسين أن الحلاج اتخذ بيتاً ليطوف الناس به . بدلا من أن يذهبوا إلى البيت الحرام فى مكة . وأنه كان من دعاة الجلول — حلول الله . تعالى عن ذلك — فى البشر .

بل أنه يدافع عن قتلة عثمان رضى الله عنه . ويرى أن الدين ثاروا عليه لم يكونوا محطئين ، وبذلك يضع نفسه فى صف رجال عبد الله ابن سبأ الذى شكك فيه فى كتاب الفتنة الكبرى .

إعجاب طه حسين بثورات التخريب :

بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك فى مغايظة المسلمين وتكيب الطريق الصحيح ، ويعتبر أن مؤامرة القرامطة والزنج ، ثورتان إسلاميتان تطلبان العدل والمساواة .

حاشية :

كتب الدكتور السيد الطويل عن إعطاء طه حسين فى كتاب (الشيخان) فقال : إنه كتاب يشكك فى القرآن وفى صحة آياته :

أولا : فى التعليق على الآية الكريمة :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . . . »

قال طه حسين : وهذا يفارق الدنيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويختاره الله إلى جوارحه فلا غرابة أن يشكك الصادقون فى أنه قد مات وكان الذى — صلى الله عليه وسلم — قد أظهر دين الحق »

ولا ريب أن طه حسين كما يقول محمد النابف ، لا يستطيع أن يتخلى
عن عاطفته نحو الملحنين ، كالمسيكة والزناقة والحلولية والقرمطية وثورة
الزنج . ويحشر المرء مع من أحب . .

• • •

«على الذين كله في جزيرة العرب ولم يظهره في سائر أقطار الأرض ، فلا غرابة في أن يرتد الذين
يبدون الله على حرف .
ثانياً : يقول طه حسين :
(المصحف الذي جمع في أيام أبي بكر وعمر لم يكن مرجعاً لعمامة المسلمين ، أما المصحف
الذي أريد به جمع الناس على قراءة موحدة فهو المصحف الإمام وبعبارة طه حسين توسع بأن
المصحفين متباينين .
ثم يقول في مقدمة حديثه : (وأشك أعظم الشك فيما روي عن هذه الأحداث) ، فهل معنى
ذلك أنه يشك في أحاديث البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من العلماء الأجلاء ؟
(هذا ما جاء في رسالة الأستاذ حسن بطل محمد عبد الخالق) .

الفصل الثالث

تاريخ الإسلام

بعد أن تعرض طه حسين للسيرة النبوية بكتابه (على هامش السيرة) وبها استرد بعض ثقة الناس ، الذين لم ينفذوا إلى ما في كتبه من نظرية ومضمون اقتحم المرحلة الثانية من خطته فأخذ يكتب عن الإسلام ، وانتقأ أخطر ما في ذلك التاريخ من قضية وهي قضية الخلاف الذي وقع في آخر عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه وأول عهد الخليفة على رضي الله عنه ، ونحاض في هذا الأمر الخطير خوضاً واضح الوجهة من خلال الخطوط التي رسمها في (الشعر الجاهلي) وفي (هامش السيرة) وفي موقفه من الإسلام نفسه أراد بهذا العمل أن يخدم هدفاً واضحاً كان واضحاً في الشعر الجاهلي عندما أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل لحساب الصهيونية العالمية ، وحين ذهب إلى أبعد من ذلك في هامش السيرة وفي كتاباته عن الأدب حين أعل من شأن اليهود وجعل لهم دوراً في الأدب العربي كما جعل للفلسفة اليونانية أثراً في الفكر الإسلامي .

وقد كانت ضرباته للتاريخ الإسلامي واضحة منذ وقف موقفه المسموم من أهل القرن الثاني الهجري ، حين اتهم العصر بأنه عصر شك ومجون (حديث الأربعاء) وتجاهل أعلام الإسلام في هذا العصر الذين فتحوا القلوب إلى الإيمان وأعلى من شأن عصبة المحمان الذين كانوا موضع ازدراء المجتمع الإسلامي واحتقاره أمثال أبي نواس والضحاك وبشار بن برد وغيرهم . وقد حرص طه حسين على أمرين هامين في كتاباته عن تاريخ الإسلام :

أولاً : إنكار دور عبد الله بن سبأ اليهودي في مؤامرة قتل عثمان وما بعدها والتشكيك فيما ورد عنه في كتب التاريخ الصحيحة

ثانياً : الطعن في الحكومة الإسلامية التي أقامها النبي والادعاء بأن الدعوة الإسلامية لم تغير المجتمع العربي الجاهلي ، وأن هذه التجربة ماتت وسقطت على يدي أبي بكر وعمر . وليس أسوأ في ذلك من قوله :

(إن الدولة التي أقامها النبي لم تكن دولة دينية بأضيق معنى الكلمة ولا ديمقراطية ، ولا ملكية ولا دولة تحكمها مكة ، ولكنها نظام من نوع خاص على نسق النظام السياسي القبل بعد أن أضيف إليه العنصر الديني بما يضمن من عناصر التهذيب والاستقامة) .

وقد هاجم طه حسين كتابه (التاريخ الإسلامي) وسخر منها ومن كتابه الصادقين في دعوة عريضة إلى إنكار مجد القدماء من أعلام العرب والإسلام فهو يرى أن هؤلاء الكلام من أعلام الصحابة ليسوا إلا أناساً أشبه بالساسة المحترفين وهو يصورهم في كتاباته على هذا النحو ، ويتجاهل مكانتهم الكريمة في بناء المجتمع الإسلامي والفتوح ، وفي صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وصفهم به وما لهم من مكانة تجعلهم أصحاب جلال وخطر وكرامة إزاء الدور الذي قاموا به وما زالوا يمثلون لنا أكرم صورة من صور البطولة .

ولكن طه حسين كان يهدف إلى إنكار هذه المكانة وإشاعة روح الاستهانة بكرامة الأعلام والعظماء في تاريخ الإسلام تحت اسم كسر هذه القيمة الأساسية في ديننا وتاريخنا ، وهو منهج صنعه كتاب اليهود ليجعلوه أداة لاحتقار عظماء البشرية ، بينما هم لا يطبقونه على أبطالهم ولا الشخصيات المعروفة في تاريخهم ، ولم نجد في كتاب الغرب من طبقة على عظمائهم الذين لا يصلهم في كفة واحدة من الصحابة والتابعين ، ولكن طه حسين كما يقول تلاميذه لا يعلمنا ألا نخدم أحداً ولا ننظر إلى الراحلين نظرة التقدير بحكم الحرية التي للأبناء في أعناق الأبناء) .

وقد وجه إليه العلامة رفيق العظم نقداً صريحاً لمقاييسه التاريخية ، وكشف له عن فساد الوجهة التي اتجه إليها في نتائج أبحاثه منها :

الحل من الحكم على أبي نواس ومن في طبقة أو على شاكلته من الشعراء بأنهم كانوا مثالا صادقا للعصر الذي عاشوا فيه وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع بالذائد في ذلك العصر ، فذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء المجرن .

وقال : إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة

لأول مرة لأنها تسند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقلها وقائلها وهم معروفون مشهورون في التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفي لمثل ذلك الاستنتاج ، ولا تبني عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون . ومن عاصرهما .

وكشف خطأ طه حسين في تعجل الحكم لتلقي أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من سفره كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها إليه وصدورها عنه وهذا ما لا يصح للمؤرخ المخلص السليم به والسكوت عليه .

وقال : إن الحقائق التاريخية ولا سيما في تاريخ الإسلام تشبه الدر الملقى بين أشواك تحتاج من يريد استخراجها من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الأشواك .

وأشار إلى ما عاناه رواة الحديث ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من الشوائب : شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم منها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له .

وأشار إلى كتب القصاصين في عصور الحقبة ، وإلى أخبار نسبتها لشيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبتها لشيع آل علي إلى خلفاء بني العباس وقال إنه من المحال أن يكونوا من الخطاط الأخلاق والسيرة إلى المنزلة التي أنزلها إليهم الرضا ، وقال إننا نقرأ أفصح من ذلك في كتب القصاصين منسوبة إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

وقال إن التنازع السيامي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأحباريين من شوائب في التاريخ الإسلامي ليست منه ، وإنما هي من موضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك والمتشبعين ببعض المذاهب السياسية والدينية .

وقال : إن كتب القصاصين : وضعها واضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع

أما البراعث السياسية والدينية فهي منع العامة من الخوض في سياسة الخلفاء والحكام والخوض في أخبار الصحابة .

وقال : إن بعض الأذكىاء وضعوا قصصاً تتلى في المجتمعات وهي مثيرة للعواطف والأفكار . وقد تناقش الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ، ووضعها مفرقة تارة ومجموعة تارة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام .

وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذي أخذ فيه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم) .

وهكذا كشف العلامة رفيق العظم فساد وجهة الدكتور طه حسين في دعواه العريضة بتسمية عصر الصحابة : عصر شك ومجون ، كما أنه كشف فساد وجهته فيما سماه مذهب تقديس السلف وإسباغ الدين على التاريخ وهو مذهب دعا إليه كثير من خصوم الإسلام ، المستشرقين وتوسعوا فيه من بعد أمثال نبيه أمين فارس .

فهم يعرفون مدى قدرة التاريخ الإسلامي على العطاء وبناء الأجيال وأثره في تكوين النفسية الإسلامية والمزاج الإسلامي والوجدان الحر الكريم المؤمن ولذلك يرغبون في طمس هذه الوجهة حتى لا يكون التاريخ عاملاً في بناء الأمة الإسلامية من جديد .

ولقد كشف العلامة رفيق العظم في أدب جم فساد وجهة طه حسين وقال له في أدب كريم إنه اعتمد على كتب القصاصين والرواة المبتطلين والمفسدين الذين جمعوا الروايات الباطلة لإفساد وجه التاريخ الإسلامي النضر الكريم تحت عنوان عدم تقديس التاريخ وإبطاله وهي عبارة صهيونية دخيلة وما كان المسلمون يوماً من الأيام يقدسون التاريخ ولكنهم يرونه ضوئاً كاشفاً يتبعون به في بناء حياتهم فيقدرون إنجازاته ويتجنبون سلباته .

ولقد كان من أخطر خطايا طه حسين اتهام الإسلام بأنه حجب تاريخ الجاهلية وأديها الذي كان يمثل المعارضة ضد الإسلام .

وكان الدكتور طه قد ألقى محاضرة عن تأثير الوثنية اليهودية والنصرانية في الشعر العربي أعلن فيها أن ما وجد من الشعر مشتملا على مبادئ الوثنية أو اليهودية أو النصرانية إنما هو منسوس على من نسب إليهم وأنه لم يكن موجوداً في عصرهم وأرجع هذا إلى أن الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادئ هذه الديانات بما يخالف سنن الإسلام ومبادئه ومحوره جميعاً ، وقال إن أهل هذه الملل بعد سكوت حركة الفتح واستتباب السلم وتيقظ الحركة الفكرية في ميدان الأدب والعلم قد دفعهم تعصبهم لشعراء ملتهم السابقين إلى القول عليهم بما لم يقولوه ونسبة أشعار إليهم لم تكن من نسيج بيانهم ولا من منتجات عقولهم . وقد كتب الأستاذ عباس فضل (جريدة السياسة (١٣ / ١ / ١٩٢٦) يناقش الدكتور طه حسين في هذا الادعاء بأن العرب بعد الإسلام محروا جميع الأشعار التي تشتمل على مبادئ هذه الديانات وقال إنها تهمة على جانب كبير من الخطورة ، ولا يصح السكوت عليها على أنها من مقررات العلم المسلم بها لأن الأبحاث العلمية ليست أساسها المشاعر وقيام نزعات وميول خاصة ولا بد أن تقوم على أساس اليقين الذي يطمئن إليه الباحث في بحثه ويقتنع به كل من يدلي إليه . بهذا البحث ، فن من ملوك المسلمين وحكامهم هو الذي أمر برأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوره ومن من أعوان هؤلاء الحكام الذي تولى ذلك بداهة بقوله : وإذا كان لحاكم أيأ كان أن يحمر ما حوته بطون الكتب فكيف السبيل له أن يذهب بما وعنه صدور الحفاظ من أهل هاته الملل وأن يعقل ألسنتهم عن أن ينقلوا إلى أهل ملتهم من بيتهم ومعاشريهم ومخالطيهم وأصدقائهم . وهناك دليل آخر نسرقه وهو أن ديننا بحث على نشر العلم ويزهو نبيه بقوله « أنا مدينة العلم » يستحيل أن يعمل على دثر آثار شعراء هاته الديانات لمجرد مخالفته لمبادئه .

إنه لا يمكن التسليم بحال من الأحوال بما أراد أن يصل إليه وهو أن جميع الشعر المنسوب إلى شعراء الملل الأخرى في الجاهلية على الأخص هو شعر

مدخول عليهم منسوس بحكم التعصب ونعرة الانتصار لأهل الملة ، إن هذا الاتهام لا يرتكن إلى شيء من الحقيقة اليقينية وكذلك القول بتلفيق كل الموجود من شعر هؤلاء القوم بما هو منسوب إلى العصر الجاهلي أو الأموي أو العباسي هو الآخر قوم لم يقدّم الدليل على صحته فضلاً عن مخالفته لمقتضى المعقول الذي يحرم باستحالة منع تسرب شعر هؤلاء القوم . إن واجب الذمة والأمانة التي علقها العلم في رقاب من تصدوا لنشره قد دعا إلى أسما عنا كلمته بشأن هذه الشكوك وتبين حجة الباعثة لنا وباقي مستمعيه إلى الاطمئنان إلى أحكامه ، ولم يجب الدكتور طه حسين بل صمت وتصدى تلميذه زكي مبارك فقال كلمات عاتمة قوامها « أظن أن رجال الإسلام كانوا من التسامح بحيث يرضون أن ثبت أصول هذه البيانات من جديد ، أن النبي وأصحابه لم يروا من الخير أن يبقوا على أي نزعة تخالف وجهة الإسلام فقصوا قضاء مبرماً على ما كان من شعر النصارى واليهود والمشركين » .

ولكن الأمر لم يتوقف عن هذا الحد فقد تصدى له أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في مقال مطول نشر في مجلة « الزهراء » ثم مقدمة لكتاب النقد التحليلي للأدب الجاهلي الذي نشره الأستاذ محمد أحمد الغمراوي .

إن الدعوى بأن السلف في صدر الإسلام وضعوا (سانسوراً) على الشعر الجاهلي المشرب بمبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية ، أي وضعوا حجاباً دونها ولما كانت هذه الدعوى مبنية على الافتراض والتخيل ، وأنها لا تستند إلى دليل بل الواقع يناقضها من كل الجهات فقد تحدث كثيرون في دحض دعوى الأستاذ العميد .

قال أحدهم : من من ملوك المسلمين وحكامهم أمر بوأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه ، ومن هم أعوان هؤلاء الحكام الذي تولى ذلك ، وكيف كانت طريقة المحر : وهل كتب لها النجاح في بلاد الإسلام إلخ .

والحقيقة أنه ليس لهم من جراب على هذا الدوال ، ولا حيلة لهم في التخلف منه إلا بليزاد أدلة واهية لا تدفع شيئاً عن حقيقة حرية الرواية في ذلك ومن كون بابها بقي مفتوحاً على مصراعيه .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : إن عصر الصحابة لم يعرف (السانور) ولا مراقبة الرواية ولا كتم الأفواه ولا شيئاً من أوضاع ديوان التفتيش . إن مراقبة الكتابات والروايات هي من أوضاع الهيئات الاجتماعية المتعددة التي استبحر منها العمران وتأنل الملك وأن (السانور) لا يتأتى مع بدو المجتمع ولا يعقل وجوده في الأيام التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وسلم . فراقبة الكتب والخطب كانت تقع في رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القياصرة وفي أيام سلطة البابوات ، وفي عهد ملوك فاتحين كلويس الرابع عشر وقد بالغ فيها نابليون الأول ثم نابليون الثالث ، وقد وقعت في أيام العرب في عهد العباسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم أو الملوك العرب الذين اتخذوا أطرار الأعاجم . أما أنها كانت في عهد الخلفاء الراشدين وفي أيام الصحابة فمحض تحكم ومكابرة .

ومن قال إن العرب أعرق الأمم في الحرية فغير مبالغ ، لهذا نجدهم رووا بالسنتهم وكتبوا بأفلامهم جميع مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يخفوا منها قليلاً ولا كثيراً ونقلوا الشبه والاعتراضات التي كانت تقع على الرسول ورهطه ، وذكروا كثيراً مما كان يسفه به بعض العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أن اثنين تخاصما إليه فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه هذا حكم لم يرد به وجه الله فقال عليه الصلاة والسلام : أودى موسى من قبل بأكثر من هذا وغير ذلك مما هو مستفيض في كتب السيرة النبوية وأخبار صدر الإسلام ولم يكن عندهم حرج في نقل تلك الأحاديث وإيرادها كما جاءت ، لأنهم كانوا على بينة من دينهم الذي دانوا به ، وكانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان وكانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم معلومة عندهم بدقائقها فلم يكونوا يحتاجون إلى (السانور) درماً للشبهات عنها وخوفاً من أن يقضى تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الإسلام التي لم تكن منذ جاء بها صاحبها (صلى الله عليه وسلم) إلى اليوم على شفا جرف

هاريل الإسلام مولود رزق الصحة ووثاقه التركيب منذ ولادته نعم: في هاتيك الأيام وما بينها كانوا يرددون أهاجى بعض الشعراء للصحابية والأنصار ولبنى النجار ، وفي تلك الأيام كان يعاتب الرسول ويقال له : ما كان ضرك لسر عفوت فربما من القبي وهو المقيظ المختق وفي أيام السلف كان ينادى الأخطل :

ولست بصائم رمضان عسرى ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بقاتل ما عشت يوماً قبيل الصبح (حتى على الفلاح)

كان يقول هذا ويدخل على الخلفاء ويمجونه الجوائز السنية ، وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم ويعلنونه في أشعارهم التي كان يرونها المسلمون ويقيدها في دفاترهم ، ولما جاء الملك النعمان بن المنذر رجل نصراني في اليوم الذي عنده يوم بوؤس ، وأقر النعمان بقتله استباحه النصراني مهلة أن يودع أهله فأذن له على أن يقدم كفيلاً يحل محله في القتل إذا هو لم يرجع فرجع وتعجب النعمان من وفائه ، فسأله : ما حملك على هذا الوفاء فأجابه النصراني : حملني ديني . فقال له النعمان وما دينك قال له النصرانية وتنصر النعمان بعد هذه فكانت هذه الرواية مما حرره المسلمون ولم يغمطوا النصرانية حقها ولا يغمطوا اليهودية حقها وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموعل وكان السموعل يهودياً ، وما زال السموعل مضرباً للأمثال من علو النفس وكرم السجية إلى يومنا هذا حتى قال عنه شوقي شاعر العصر منذ أيام قلائل :

فكان من السموعل فيه شيئاً فكل جهاته كسرم وخلق
فكيف يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنق كل صوت غير صوتهم
وعوا آثار النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب .

ثم إن شعر شعراء النصرانية من الجاهلية يملأ الدواوين وما منهم إلا من حرص علماء الإسلام على التنبيه أنه كان نصرانياً وقد نقلوا خطب قس بن ساعدة الذي كان مطراناً ، ونقلوا ثناء النبي (صلى الله عليه وسلم) عليه .

أما كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع في بيروت موضوعاً وأن الشعراء المروية أشعارهم فيه لم يكونوا نصارى بل جعلهم صاحب الديوان

نصارى وهم جاهليون لا غير فن يقول هذا ومن يصل به المرء إلى إنكار أن أكثر هؤلاء الشعراء كانوا نصارى ، غاية ما يقال : إن بعض هؤلاء الشعراء لم تثبت نصرانيتهم ، وهذا لا يبنى أن شعراء كثيرين مثل العبادى والأخطل والقطامى كانوا نصارى مجعاً على نصرانيتهم ، وأن المسلمين نقلوا أشعارهم كما هي ولم يحدفوا منها شيئاً . وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم وكان جرير يقول :

قال الأخطل : إن رأى ربابهم يا مار جرجس لا تريد قتالا

فالقول : بأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يبقوا على نزعة تخالف دين الإسلام وأنهم طروا شعر النصارى واليهود والمشرىين محض تحكم لم يقم عليه أدنى دليل ، بل قام الدليل على حرية الإسلام وتساهله فى الدين . ونقل رواة المسلمين ليس شعر النصارى واليهود والمشرىين فقط ، بل أهاجى كثيرة قالها هؤلاء فى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره ، ومن من العلماء والمؤرخين المحققين بقدر أن يقول : إن أدباء العرب بعد الإسلام رغبوا عن شعر الجاهلية وأهملوا روايته من أجل أن قائله كانوا مشركين ، أو أن المسلمين طروا كلام قس بن ساعدة ، لأنه كان نصرانياً أو لم يعجبوا بقصيدة : (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه) ، لأن صاحبها كان يهودياً ، من يارب يقول هذا إلا الذين يذنون التاريخ على الأهواء والخيالات .

ورويت أشعار المعرى ومن فى سبيله حتى فيها يخالف الدين الإسلامى (قوم أتوا من أقاصى البلاد لرى الجمار ولثم الحجر) رسالة الغفران وصلت إلينا ولو أنها تدولت بالنسخ من قرابة ألف سنة لما وصلت إلينا ، ولو كان هناك (سانسور) لما أبقي على رسالة الغفران وشاعت أقوال التعطيل والإلحاد فى هاتيك الأيام برغم الضغط والمراقبة ، ودونت أقوال الملحدين والدهريين ، ولا أننى مع ذلك أن الدول الإسلامية فى القرون التالية كانت تحجز أحياناً على الفلسفة التى يراد بها التعطيل أو الإلحاد ويسمون ذلك (الزندقة) . أما إزالة شعر النصارى واليهود والمشرىين ومنع روايته فشىء لم يقع لافى زمن الصحابة ، ولا فى أيام بنى أمية ، ولا فى أيام بنى العباس . ولقد ألف

النصارى في تعظيم دينهم في زمان بنى العباس كتباً كثيرة وتواريخ أبدوا فيها مذهبهم وما اعترضهم أحد ، ولا منعت الدولة كتبهم ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بأن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان وأجل عمر النصارى واليهود فلم يكن ذلك لينقص شيئاً من حرية النصارى واليهود في دينهم في سائر بلاد الإسلام ، بل حرية الصابئة والمجوس وما قال مؤرخ غربي ولا شرقى : إن الإسلام أكره الدين أو منع كتب الملل الأخرى . يا إخواننا إنه في صدر الإسلام كانوا يتناقلون مثل قوله :

لعبت هاشم بالدين وما نبأ جاء ولا وحى نزل
ليت أشياخي ببدر اعلموا قلق الخزرج من وقع الأسر
روى هذا المسلمون وما زالوا يروونه .

وقال السيد محب الدين الخطيب الذى نشر هذا الفصل في مجلة الفتح تحت عنوان : التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم :

لقد صار للغرب اليوم جنود منا يعملون على تشويه فضائلنا وتشويه تاريخنا وقطع صلتنا بآبائنا ، وفتح قلوب أبنائنا لنوع آخر من أنواع الاحتلال الأجنبي ، قد يكون شراً من احتلال البلاد ، والقضاء على استقلالها .

وقال إبراهيم الإيبارى في مقال له عن كتب طه حسين في التاريخ الإسلامى أنه يريد أن يطبق المنهج الاجتماعى المادى في (تفسير الإسلام) ، ويريد أن يضع شخصيات المصادر الأول على طاولة النقد كأنهم رجال السياسة يصطرون حول الحكم .
الآن قد فهمنا .

(٣)

ومن أخطر القواعد التى وضعها طه حسين للنظر في الأدب والتاريخ تلك القاعدة المسمومة التى تقول : نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى : وقد رد الأستاذ محمد أحمد الغمراوى داحضاً إياها فقال : إن الإنسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد ، غير مجور على قرائه

قرأته خطأ أو على توراته . بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصاً على الحق واستمسكاً به إذا وصل إليه ، ولا خوف عليه مطلقاً إن يخفى بعض الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه ، لأنه ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل هو يعلم أن دينه حق ، يعلم ذلك علم متيقن . ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التناقض بين أجزاء الحق ، يعلم ذلك علم مستيقن أيضاً ، فهو لا يخشى أبداً أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تناقض دينه ، ولذلك يمضى في أبحاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقوم الطرق في البحث والتفكير ، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى نتائج صحيحة . فحسب ، ولكن لأن هذا في اعتقاده هو أيضاً الطريق الوحيد الذي لا يؤدي إلى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه والدين الذي يؤمن به . فالتدين الصحيح والتفكير العلمي الصحيح ممكن اجتماعهما إذن ، وكثيراً ما اجتماعهما كما أن العاطفة الدينية القومية ، والعاطفة العلمية القومية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الإخلاص في البحث « ١٠ هـ .

(٤)

اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية

أقيم الدكتور طه حسين نفسه في هذه القضية ، على أثر تقديم المستشرق (جريفي) تقريراً عنها في مؤتمر التاريخ الذي عقد في يناير عام ١٩٢٤ في فلورنسا ، على نحو ما نشر في جريدة السياسة اليومية في ٢٣ / ١ / ١٩٢٤ وقد اتخذ أسلوب الشك والسخرية على نحو يكشف عن تهاون في المسؤولية العلمية فضلاً عن أنه ليس مؤرخاً في الحقيقة ، وإنما دعاة المستشرقون إلى هذا المؤتمر ليفتحوا له الآفاق إلى إثارة الشبهات ، ومع أن بحث المستشرق (جريفي) لا يتهم العرب اتهاماً واضحاً بحرق مكتبة الاسكندرية ، ولكنه يقدم وثائق من هنا ومن هناك فإن الدكتور طه اقتحم هذا الموضوع بحقده المعروف على الإسلام والمسلمين ، وبسخريته المقلعة حين قال : أوكد لك أيها القارئ أن حركة الفلك لن تقف حين يعلن المؤرخون أن من الجائز أن يكون العرب قد حرقوا خزانة الكتب في الإسكندرية ، كما أن من الجائز ألا يكون قد حرقوا هذه الخزانة . لو أنك ذهبت تستشير العقل وفروضه

في أمر هذه الكتب التي يقال أنها أحرقت في مصر وفي فارس ، لما جزم العقل بأن تحريق هذه الكتب مستحيل . بل لما إلى أن تحريق هذه الكتب ممكن . فليس من الغريب في شيء أن أمة بدوية كالأمة العربية قد اعتنقت ديناً جديداً كالدين الإسلامي ، ليس من الغريب أن أمة كهذه الأمة تقوم على تحريق كتب لا تعلم ما فيها ، ولكنها تعلم أنها تمثل ديناً غير الدين الذي أذعنت له وكتبت فيه ، وهي أن كانت فعلت ذلك فليست آثمة إلا أمام طائفة معدودة من العلماء والمؤرخين .

وهذا الكلام رخيص وتافه ، ويمكن أن يوصف بأنه ليس كلام علماء ، وإلا فكيف يمكن أن يكون الحدث واحداً في تقدير الأمم كلها ، أو الأديان كلها . فإن معنى هذا أن موقف الإسلام من ذلك هو موقف الفراعنة في مصر أو الوثنيين في فارس من مثل هذا الأمر ، فهو يريد أن ينكر فضل الإسلام وتمييزه في مواجهة مثل هذه الأمور ، وارتفاع الإسلام عن هدم آثار الأقدمين مهما كانت مخالفة للإسلام نفسه ، والدكتور طه حسين يجرى في ذلك مجراه مع قوله المسموم بأن الإسلام قضى على الشعر والأدب الذي كان سابقاً للإسلام وقد جوبه في ذلك بانتقاد شديد ، على النحو الذي أورده في مكانة هذا الكتاب .

وطه حسين يكتب هذا متنافه للمستشرقين ، وإرضاء لهم ، وليس إرضاء لله ولا للحق ولا للعلم نفسه ، ذلك لأن المصادر العلمية جميعاً تؤكد حرق هذه المكتبة قبل أن يصل المساهون إلى الإسكندرية ، وهناك مؤرخ واحد هو القفطي الذي ادعى هذه الدعوة وعنه أخذ المستشرقون وجرجي زيدان ، ومن العجيب أن الأجانب أنفسهم هم الذين كذبوا ابن القفطي . كما أوردت ذلك دائرة المعارف البريطانية حيث تقول : أن الدعوى ليست في الحقيقة إلا مهاترة وتلفيقاً لأن المكتبة لم تكن وقت الفتح العربي تحوى شيئاً ذا قيمة بعد الحرائق التي انتابتها قبل العرب بزمان طويل ، وجاء في دائرة المعارف الفرنسية أنه ليس يصدق أن يكون عمر بن العاص قد أمر بإحراق بقايا مكتبة الإسكندرية التي كان المسيحيون قد سبقوا فأعدموها ، وكذلك هناك ما أورده جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) الذي قال أن كتاب القرنين ، الخامس والسادس الميلادي لم يذكروا شيئاً عن وجود مكتبة

في الإسكندرية وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وأن دعوى الإحراق لم تظهر إلا بعد نيف وخمسة عشر عاماً من وقت الحادثة المزعومة وقوعها ، وقال أنه لو صح أن المكتبة كانت موجودة وأن العرب أحرقوها لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم قريب العهد من الفتح مثل حنا النيقوسى .

(٥)

الفتنة الكبرى

كان اقتحام الدكتور طه حسين لمجال دراسات التاريخ الإسلامى ، بمثابة مرحلة جديدة في حياته الفكرية ، وفي وجهته التغريبية .

وكان قد بدأ ذلك بكتابه (على هامش السيرة) ثم أحس - وأحس ذووه - بنجاح الخطوة الأولى ، فضى في الطريق مقتنعاً حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، عن طريق الحديث عن الخلاف ، الذى بدأ في عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فكتب الفتنة الكبرى في جزأين .

وهنا نعرض للجزء الأول « على وبنوه » ، على أن أخصص الحلقة التالية عن الجزء الثانى (عثمان) .

ثم تابع خطواته على هذا الطريق فكتب : (الوعد الحق ، مرآة الإسلام ، الشيخان) ، وقد عرضنا لكل منها .

غير أننا في هذه الحلقة يجب أن نكشف عن هذه الوجهة وخلفياتها ، وأبرز ما يتصل بها هو تحقيق هدف من أهداف الصهيونية العالمية ، وهو : إنكار الدور الذى قام به (عبد الله ابن مسأ) اليهودى الإنجى المعروف بابن السوداء ، والذى كان القائد الحقيق للفتنة التى اضطرت ضد سيدنا عثمان رضى الله عنه ، في مختلف الأقطار (مصر والشام والعراق) .

وكان اليهود قد مهدوا لذلك في إسرائيل ، بطبع كتاب (أنساب الأشراف) وهو كتاب مريب وملقى للبلاذرى ، ضاعت منه أجزاء ، وقد بدؤوا بطبع الجزء الخامس منه بإشراف مستشرق يهودى .

وقد اعتبر هذا مقدمة للدور الذى يقوم به الدكتور طه حسين بالاعتقاد عليه . فى إنكار وجود شخصية عبد الله ابن سبأ ، والادعاء بأنها شخصية وهمية اخترعها المؤرخون المسلمون .

قال هذه القولة البلهاء الدكتور طه حسين ، بينما توجد عشرات المراجع الموثقة ، التى تصكك دعوته وتؤكد وجود من يسمى عبد الله بن سبأ .

هذه المراجع التى يعرض عنها طه حسين جميعاً ، ويتكىء على البلاذرى فى كتابه « الملق » . فى جميع المراجع — ما عدا البلاذرى — يرد أمر ابن سبأ . فى مقدمة ذلك الطبرى — الذى تجاهله طه حسين فى هذا الموقف تماماً — قال الطبرى :

« كان (عبد الله بن سبأ) يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء ، فأسلم زمن عثمان — رضى الله عنه — ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ، ثم الشام » .

كما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل ، وابن حزم فى الفصل ، وعبد القادر البغدادى ، فى الفرق بين الفرق ، والاسفرايينى فى (التبصير فى الدين) وابن قتيبة فى (تأويل مختلف الحديث) وابن عبد ربه فى (العقد الفريد) .

وقد كشف هذا عن خطة المؤامرة التى جاءت فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل تستعد للسيطرة على فلسطين وكانت تمهد بذلك لفرض مفاهيم مختلفة ، بدأتها برسالة الدكتوراه ، التى قدمها اليهودى (إسرائيل ليفسون) التى أنفذها الدكتور طه حسين من خلال مدرج الجامعة « جامعة فؤاد » الأول — القاهرة فيما بعد « عن اليهود فى بلاد العرب ، وفيها محاولة للادعاء بأن اليهود هم الذين مدنوا العرب فى شبه الجزيرة .

(أ)

الدعوى ورد الدعوى

بدأ طه حسين حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء « عبد الله بن سبأ » فذكر « أن الرواة المتأمرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد

في المصادر المهمة . وأن (ابن سعد) لم يذكرها . وأن البلاذري لم يذكرها في (أنساب الأشراف) وهو فيما يرى الدكتور من أهم المصادر « وأن الذي ذكرها هو الطبري وأخذها عنه المؤرخون الذين جاؤوا من بعده » .

ولكى ينفي الدكتور طه حسين تهمة (الفتنة الكبرى) عن ابن سبأ اليهودي . بدأ كتابه بدعوى عريضة هي : (أن الفتنة عربية ، نشأت من تراحم الأغنياء على الفقراء والسلطان . ومن حسد العامة لمولاء الأغنياء) .

وكرر هذه العبارات فتنة عربية . وعامة عربية . لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذي يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب في دم عثمان .

حتى إذا اطمأن إلى ترسيده الأرض . بدأ يعرض القضية بعرض ما أسماه « قصة » أكبر الرواة المتأخرون من شأنها ، وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان رضي الله عنه ولما أورد هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين « . وهي قصة عبد الله بن سبأ .

ويقول : « إن كثيراً من الناس يضيف إليه . كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية أيام عثمان رضي الله عنه ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحصاءاً ، فنظم في الأمصار جماعات خفية وتستتر بالكيد وتتداعى فيها بيئتها إلى الفتنة ، حتى تهيأت له الأمور ، ووثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر معلقاً :

« فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور على أن يصف الفتنة بأنها (عربية) ، وبأن العامة الذين كانوا أشرار هذه الفتنة ، كانوا (عامة عربية) أي أنه ليس لهذا اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل في تأريث نازها ، وهذا تحريج بين جدأ ، لا يخالفنا فيه أحد » .

وبمضى الدكتور طه فيقول :

(ويخيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد ، يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً وأول ما نلاحظه أننا لا نجد لابن سبأ

ذكر آ في (المصادر المهمة) التي قصت أمر الخلاف على عثمان ، وانتفاض الناس عليه) .

فلم يذكره (البلاذري) في (أنساب الأشراف) وهو فيما أرى (أهم المصادر) لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً وذكره الطبري عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر .

ثم هون من أمر (عبد الله بن سبأ) وقال : (إنه من الهوان بحيث كان يمكن أن يأخذه الرلاة ويعاقبه أو يبطشه به) . ثم يقول : (فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولتكبر المسلمين في صدر الإسلام ، عن أن يعذب بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء) ، ويقول : (هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغي أن يقام لها أمر التاريخ) .

وهكذا يقطع الدكتور الرأي بجملة واحدة .

ثم عاد فأشار إلى قصة الكتاب - كتاب إلى وإلى مصر - الذي يقول الرواة : إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجعين ، ويرى أن هذه القصة ملفقة من أصلها .

ويواجه الدكتور طه قضية (الرواة المتأخرون) فيروي : (أن فيها إيهاماً شديداً متعمداً فيما يظهر) .

وقد كان الرد الذي تقصى خبيثته : أن الطبري ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد سنة ٢٢٥ هـ ومات سنة ٣١٠ هـ ، فهو معاصر للبلاذري . ومن طبقة تلاميذ (ابن سعد) صاحب الطبقات ، وأن سيف بن عمر الذي روى عنه الطبري هذا الخبر من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبري والبلاذري ، وهو في مرتبة شيوخ (ابن سعد) ، ومات قبل سنة ١٩٠ من الهجرة ، فلا يقال عنه ولا عن الطبري : إيهاماً من (الرواة المتأخرين) كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

ويستطرد الأستاذ محمود محمد شاكر فيقول : (إن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإن لم يكن كتاب الطبري من المصادر المهمة ، فليت شعري ما هي المصادر المهمة التي بين أيدينا ؟) .

(ب)

كتابان مريسان

هما كتاب ابن سعد ، وكتاب البلاذري :

(وإن كان الدكتور طه يعلم أن : كتاب ابن سعد الذي بين أيدينا كتاب ناقص . . وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص ، وبعضها مختصر .

والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر رضى الله عنه في ٨٤ صفحة . ولأبي بكر رضى الله عنه في ٣٣ صفحة ، فلما جاء إلى عثمان رضى الله عنه والأحداث في خلافته هي ما يعلم الدكتور ويعلم الناس ، لم يكتب سوى ٢٢ صفحة . ولما جاء إلى علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - والأمر في فترته أفسح . لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة .

هذا على أن الكلام على طريقة ابن سعد في تراجم الرجال شيء آخر ، غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر في هذا الفصل إلا قليلاً جداً مما ينبغي أن يكتب ، لو أنه ألف كتابه في التاريخ العام ، لا في الترجمة للرجال وهذا شيء يعلمه الدكتور طه حق العلم ولا ريب .

وكانت حجة الدكتور في نفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودي اللعين : (أن البلاذري لم يذكره) ، وهو فيما يرى (أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً) .

ثم عاد فننى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر . مع أن البلاذري ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت في كتاب غيره . ولا ندري كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة في قضية ، ثم يننى أيضاً خبر آخر قد ذكره ولج فيه (٢) .

أين ابن سبأ . . في البلاذري ؟

(بقى أمر آخر : هل كان في نص البلاذري قديماً ذكر عبد الله بن سبأ اليهودي ثم سقط ؟ أو أسقط عن الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لي إلا إذا وقفت

على نسخة قديمة وثيقة من كتاب (أنساب الأشراف) ، فإن النسخة التي بين أيدينا إنما طبعت في أورشليم ، كما يسمونها وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية وإنما بالعبرية وليأذن لنا الدكتور : أن نشك أكبر الشك في ذمة اليهودي الصهيوني ، الذي طبع الكتاب في مطابع الصهيونية ، في أورشليم ، فقد رأينا من قبل رجلاً آخر أحاطه الدكتور يوماً برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية وكان يسمى نفسه (أبو ذؤيب) : لإسرائيل وللفنسون (وهو الآن في فلسطين يجاهد في سبيل الصهيونية) ، فألف كتاباً في تاريخ اليهود في بلاد العرب . طبع في مصر ، وقدم له الدكتور مقدمة أنني فيها عليه ثناء بالغاً) . (ومع ذلك فقد وجدنا في الذي نقله من الأخبار والأحداث : تحريفاً ، وبتراً ، واقتطاعاً من نصوص محفوظة معروفة) .

(أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك في أن اليهودي الآخر طابع كتاب البلاذري يفعل مثل هذا) .

(هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة ، وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذري ، قد يترك المؤلف فيه شيئاً في مكان ثم يذكره في مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر في المكان الأول . أفلا يجوز أن يكون البلاذري قد ذكره مثلاً في ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد بن أبي بكر) أو (محمد بن أبي حذيفة) أو رجل ممن اشترك في الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذي وجد من كتاب البلاذري قسم ضئيل جداً ، طبع منه في ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودي الصهيوني طبع جزء آخر ، هو الذي ترجم فيه عن عثمان في عام ١٩٣٦ ثم طبع جزء آخر في عام ١٩٣٨ .

المقدمة العبرية :

قال الناشر في مقدمته المكتوبة بالعبرية :

(إن هناك حوادث جرت في عهد يزيد بن معاوية وهي وقعة كربلاء وموت الحسين - رضي الله عنه - ، ولم تذكر في ترجمة يزيد ، بل ذكرها في تراجم بني أبي طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب ، وفقاً لتسلسل الأنساب) كما قال ينص كلامه .

أفلا يجوز إذن أن يكون (البلاذرى) قد أدمج أمر (عبد الله بن سبأ) في مكان آخر . كما فعل فيها لاحظته وذكره اليرودى ؟ كل هذا جائز .
(ولكن الدكتور حين يبنى شيئاً لا يبالي أن يختار كل هذا ، وبغضى عنه ليقول فيه رأى الذى يشبهه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف) .

الطبرى مؤرخ ثقة :

ثم كيف يفسى الدكتور أن من يرووا خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة ، كالبلاذرى والطبرى . بل لعل الطبرى . أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلاً له . وهو الذى روى عنه أنه قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تنفى فيه الأعمار قبل إتمامه ، فاختصره لهم فى ثلاث آلاف ورقة .

(ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه وتفسيره . علم أن (عزيمة هذا الرجل) حق ، وأن الرجل كان متفرغاً للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها . ورأى فيها رأى الذى لا يكاد ينقص ، والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطئه بصير بهذا العلم ، فليس من الحجة فى شىء أن يقال (فى عصرنا هذا) : إن البلاذرى لم يذكر هذا فيكون ذلك كافياً للرد على ما ذكره الطبرى . وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كبير) .

(إذن : فالدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله . حين نرى خبر عبد الله بن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه العلمى) .

(وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفي الأخبار وتكذيبها بلا حجة ، عن طريق أهل التخصيص . بل تحكم حكماً بلا دليل يسوقه عن أفضلية البلاذرى وتقديمه على الطبرى . وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها ، كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً) .

(وإذا فقد أراد الدكتور طه أن يقول : إن (الفتننة الكبرى) التي أفضت إلى مقتل عثمان إنما كانت (فتنة عربية نشأت من تراحم الأغنياء على الغنى والسلطان . ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء) ص ١٠٩ ، فن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة . ركب كل مركب في تصوير الحياة الإسلامية بعد الفتح . بالصورة التي تنتهي به إلى هذا الغرض وحده دون سواه . وهو الغنى والمال والسلطان . وتراحم الأغنياء على الغنى والمال والسلطان وحسد العامة العربية . . . إلخ) .

ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء معرض هذه الفتنة فبنى خبر (عبد الله بن سبأ) اليهودي وخبر الكتاب الذي كتب فيه الأمر بقتل رؤوس وفد مصر .

وهذا الهدف هو الذي ينشأ عن اليهود الشركة في دم عثمان . والتحريض على قتل الإمام ، فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء ، في جرح الأخبار ، وكذب الرواة في شيء بغير برهان ، وصدقهم في شيء آخر بغير برهان أيضاً ، وهو نفسه ينشأ في كتابه على (الذين يكذبون الأخبار التي نقلت إلينا ما كان من الناس من فتنة وخلاف ، فقال في ص ١٧٢ :

(فتحن إن فعلنا ذلك لم نرد على أن نكذب التاريخ الإسلامي) بيد أن الدكتور طه نفسه قد فعل ذلك ، فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه ، وحين روى ما يؤذيه ، وفعل ذلك أيضاً فصدقهم ، حين روى ما يروقه وحين روى ما يرضيه ، فإن الذين روى أخبار الكتاب بقتل وفد مصر . فلم أخذ شيئاً بغير برهان ، ونفى أخاه بغير برهان .

(والشيء البين هو أن الدكتور أراد كما قال في ص ١٣٤ : (إن يكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يبحث بدينهم وسياسيتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء . . . إلخ) . وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل ، وليس يعمل بنا ولا بالدكتور طه أن يغالط في الحق لشيء يراه هو ، أو نراه نحن حسناً جميلاً ، والتاريخ لا يكتب بالتحكم وإنما يكتب بالرواية ثم بالاستدلال) أ . هـ .

(ج)

هذه النقطة هي أخطر ما في الكتاب . وقد أحصى على الكتاب الاعتماد على أحاديث ضعيفة ، اعتبرها المؤلف أساساً لإقامة منبج البحث ، بالإضافة إلى المصدرين المضطربين : (طبقات ابن سعد) لابن سعد ، و (أنساب الأشراف) للبلاذري . وكلاهما طبعهما أعداء العرب والإسلام أول ما طبعوا . كما أخذ على المؤلف خلوه من المراجع - بل أن طه حسين - وهو يذكر البلاذري - لم يكن دقيقاً ، فلم يعرف بعضهم هل يقصد كتابه (الفتوح) أم كتابه (الأنساب) .

كذلك فقد أخذ على المؤلف اعتياده على مراجع ليست أصيلة في البحث بل هي ثانوية القيمة . مع تركه الكتب الهامة في هذا البحث . ومنها شرح التهج لابن أبي الحديد . وتاريخ ابن واضح اليعقوبي . كما ذكر الأستاذ سعد محمد حسن في نقده للكتاب .

مع ملاحظة أن كتاب ابن أبي الحديد لا يوثق به ، لأن مؤلفه على مذهب ابن سبأ .

وقد أخذ على طه حسين اعتياده حديث (من كنت مولاه فعلي مولاه) على أنه يعني خلافة علي ، وقد أشار الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن الحافظ البيهقي عن فضيل بن مرزوق : أن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب قيل له : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنت مولاه فعلي مولاه ؟ فقال : بلى ولكن والله لم يعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان ، ولو أراد ذلك لأفصح لهم به . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان أنصح للمسلمين ، ولو كان الأمر كما قيل لقال : يا أيها الناس هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختارا علياً لهذا الأمر ، وجعله القائم للمسلمين من بعده ، ثم ترك (علي) أمر الله ورسوله لكان على أول من ترك أمر الله ورسوله .

ولذلك كان حقاً على الدكتور طه ألا يعتمد على هذا الحديث ، وأن يلتزم الأمانة العلمية فيورد رأى أهل السنة فيه وقد قال في حقه العلامة ابن حزم :

(« أما من كنت مولاه فعلى مولاه » ، فلا يصحح من طريق الثقات أصلاً) الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٤٨ .

وقال العلامة ابن خلدون في أحاديث الشيعة : (لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، وأكثرها موضوع أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة . المقدمة ص ٩٦ طبعة بولاق سنة ١٢٧٤ هـ) وفي كتاب التمهيد للقاضي أبي بكر الباقلاني ، تنمة شيقة لهذا الموضوع .

وهكذا يتضح جلياً أن المؤلف لم يعن مع الأسف الشديد بدراسة موضوعه دراسة جيدة (ونقول : أو ربما كان على غرض خفي في نفسه يهدف إلى تحقيقه) .

ويشير طه حسين إلى أبي ذر رضى الله عنه ، فيقول : إنه نفي إلى (الرملة) والصحيح (الربة) ، ويقول : (ولم يطلق عثمان نفسه معارضة أبي ذر فأخرجه من المدينة) .

ويقول السيد محب الدين الخطيب ، رحمه الله : الصواب في أمر أبي ذر ما رواه ابن خلدون في العبر : أن أبا ذر هو الذي استأذن عثمان في الخروج من المدينة إلى الربة وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا (مكان) ، فأذن له ، ونزل الربة وبني بها مسجداً وأقطع عثمان صرمة (عدد بين العشرة إلى العشرين) من الإبل ، وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتعاهد المدينة ، وبين الربة والمدينة ثلاثة أميال ، وقال ياقوت : وكانت من أجل منزل في طريق مكة .

وقد حاول الدكتور طه في دعوى عريضة ، أن يقول : بأن المؤرخين أعرضوا عن ذكر عبد الله بن سبأ لأنهم تبينوا أن أمره متكلف منحول قد اخترع باخره ، والمؤلف يرى أن خصوم الشيعة من أهل السنة وغيرهم ، من الذين وضعوا أمر ابن السوداء وتولوا كبره ، ليدخلوا في أصل الشيعة عناصر يهودية ، إمعاناً في الكيد لهم والتبيل منهم على حد تعبيره .

ويرى الباحثون الذين نقضوا كتاب (الفتنة الكبرى) وفي مقدمتهم السيد محب الدين الخطيب : أن الدكتور طه قد جانب الصواب ، فأى كيد للشيعة في وجود عناصر يهودية في بعض فرقها وأهل السنة والشيعة جميعاً بلعنون ابن السوداء ويثيرمون منه ومن جماعته . وأن ابن أبي الحديد شارح النهج قد أعلن ذلك ، وهو مؤرخ شيعي .

وبحاول الدكتور طه أن ينكر على المؤرخين . تأليه ابن السوداء لعلى ابن أبى طالب ، مع أن هذه حقيقة لا يدفعها شك ، رواها رجال أثبات من السنيين والشيعة وغيرهما ، منهم الشهرستاني في الملل ، ابن حزم في الفصل وعبد القادر البغدادي في الفرق بين الفرق ، الرسعني في مختصر الفرق ، الاسفراييني في التبصير في الدين ، ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ، ابن قيم الجوزية في الطرق الحكيمة ، وغيرهم كثيرون . أما دعوى الدكتور بأن خصوم الشيعة دسوا عليهم ابن سبأ ، فهي تدل على قلة اطلاعه على كتب الشيعة قديمها وحديثها .

(٢)

على وبنوه

صدر كتاب (الفتنة الكبرى) في جزئين : الأول : عن عثمان (رضى الله عنه) ، والثاني : عن (على وبنوه) ، وقد استهدف الكتاب إحداث فتنة كبرى حقيقية في مفاهيم الإسلام ، بإثارة التشكيك والدس ومغالطة الحقائق وإذاعة الروايات الباطلة .

ولقد كان هدف صدور كتاب الفتنة الكبرى واضحاً : وهو إثارة الشبهات حول صيحة العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقيام الحكومة الإسلامية ، وقد رأى الاستشراق أن يطرح أمام هذا (الأزهرى) صاحب الأسلوب الموسيقى الجميل ، شبهات معينة لإذاعتها ، ونصوصاً معينة لعرضها ، وتشكيكات معينة لتقديمها ، في داخل عرض واسع مرن ، يقدم السموم في إطار من العبارات البراقة ، والكلمات الرقيقة ، فتخفى على السذج والبسطاء غايتها .

أهداف سياسية :

ولقد كانت هناك مسائل أساسية أريد طرحها ، وإقناع القارئ المسلم بها ، من خلال هذه الكتب المتوالية — بالإضافة إلى الفتنة الكبرى — وهى : (مرآة الإسلام ، والشيخان ، والوعد الحق) ، ولكنها برزت بصورة واضحة في كتاب الفتنة الكبرى وهى :

أولاً : وهو العمل المسام الخطير ، الذى برز فى مختلف هذه الكتابات واستغرق أغلب الكتابات : انتقاص الصحابة الكرام والتشجيع عليهم ، وإثارة الشبهات حولهم ، وتصويرهم بصورة السياسيين العصريين المخترفين .

ثانياً : انتقاص الشيخين (أبو بكر وعمر) بالباطل ، والافتراء على عائشة وظلم عثمان ، والافتراء على أصحاب بيعة الرضوان — عليهم رضوان الله أجمعين .

ثالثاً : التشكيك فى نظام الحكم الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

رابعاً : التشكيك فى الدور الذى قام به عبد الله بن سبأ بالادعاء بأنه يهودى ضعيف ، لا يستطيع أن يحدث كل هذا الأثر ، أو التشكيك فى وجوده إطلاقاً ، (وقد تكلمنا عن هذه النقطة فى الحلقة السابقة . فلا نعود إليها) .

أولاً : انتقاص الصحابة الكرام :

كان الهدف واضحاً من انتقاص طه حسين للصحابة الكرام ، وهو هدم هذا الصرح الإسلامى الذى تقرم عليه السنة والتاريخ وسير الغزوات والحياة الإسلامية ، فى عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم ، وقد أطلق لسانه فيهم جميعاً — كما يقول الأستاذ النايـف — يغمز بهم ويبرحهم فى أمور ، ويكشف عنهم تلك الكرامة التى أمدتهم بها الإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . . . » . (التوبة — ١٠٠)

ويقول صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابى ، لا تسيروا أصحابى . فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أتفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه » . (رواه مسلم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . هذه الكرامة التى أمدتهم بها الإسلام . أراد طه حسين أن يهدمها ، وأن يسخر بها . وأن يفسدها بالـدس والفتنة .

فهو يكتب عنهم مصوراً إياهم وقد عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ،
ويحاول أن يصور معركة الجمل ، وكأنها معركة جاهلية بين بني هاشم ،
وبني أمية . ويتجاهل على (بنى أمية) - فيدعي أنهم من الطلقاء الذين دخلوا
الإسلام ، وقد غلبوا على أمرهم ، ثم عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ،
ويحكم بأن الذين عادوا إلى جاهليتهم : مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ،
وعبد الله بن أبي السرح ، ومن الذين كانوا يحكون أهواءهم ومصالحهم وهم
في وضع قريب من الجاهلية : عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنهم أجمعين .

وقد اتهم عمر بن العاص ، بأنه يدد خراج مصر ، وأنه كان يكره
بيعة على كرم الله وجهه ، لأنه لا ينتظر من هذه البيعة ولا ولاية ولا مشاركة
في الحكم ، ولهذا انضم إلى معاوية .

وكان ابنه (عبد الله بن عمرو) ، يرى أن أباه باع دينه بثمن قليل ،
وقد وصف طه حسين عمرو بن العاص مع معارضة رضي الله عنهما بقوله :
(وهنا ظهر عمرو بن العاص ، الذي لم يكن أقل دهاء ، ولا أدنى مكرراً ،
ولا أهون كيداً من معاوية) .

وتصل به دعواه وجرائه في الباطل أن يقول : إن مروان بن الحكم ، هو
الذي قتل طلحة في موقعة الجمل ، مع أنهما كان يحاربان في صف واحد ،
ويصور معاوية ، وقد عاد إلى جاهليته في موقفه من أبي ذر ، فيقول :
(وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .
هو أبو ذر ، ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضي رسول الله صلى الله
عليه وسلم عنه ، وإيثاره إياه ولما سبقته في الإسلام ، ولم يستطع أن يقتله عن
دينه بالمسال) .

ثانياً : انتقص الشيخين الكرام :

١ - كذلك فقد حرص طه حسين ، على انتقاص الشيخين (أبو بكر
وعمر رضي الله عنهما) بالباطل ، ووصف عمر بن الخطاب في غير موضع

بالبطش ، وقال أنه لم يمض حتى ملته قريش ، وانتقد أبا بكر في أنه حصر الخلافة في قريش ، وقال أن عمر كان يعارضة لذلك ، حتى قال ، لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لولاه عمر عند وفاته ، وهو ليس من قريش .

٢ - سب الصحابة واحداً واحداً - رضوان الله عليهم - ولم يترك أحداً منهم دون أن يصنع له المقالب والانهامات ، ثم وصفهم جميعاً بالنفاق .

قال : « وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر . فيتكلمون التجميل بسيرته . ويحتالون في ألا يظهر على دقائق أحوالهم وحقائقه ، يلقونه مظهرين الشطط وغلظة الحياة وحشونة العيش ، ليرضى بعضهم ويطمئن إليهم ، فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو خلا بعضهم إلى بعض ، أخذوا بما ألقوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، في كثير من الإكبار له والإعجاب به » . ووصف (عمرو) بأنه مآكر أهل الشام وداهيتهم . وأن الأشعث بن قيس . هو مآكر أهل العراق وداهيتهم .

ثالثاً : الافتراء :

وافترى على أصحاب بيعة الرضوان . وفي مقدمتهم (الزبير وطلحة بن عبيد الله) رضي الله عنهما ، فقد اتهمهما بالنفاق من غير وفاق . وصور طلحة بن عبيد الله بصورة غير لائقة . ووصفه بأنه كان يبحث عن الرأى من أى طريق ، وأن ذلك دفعه إلى مبايعة عثمان ، ثم كان من المؤلّين عليه والمشاركين في حصاره ، وأنه يابغ علياً ونكث البيعة .

هذا والزبير . هو الذى قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » .

وطلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .

٤ - افترى على السيدة عائشة رضي الله عنها . افتراء واسعاً ، فقد تحدث طويلاً عن أنها كانت تخطب الناس وهي على جملها ، وتخرضهم على القتال ، في خيال ودعاوى باطلة ، فهي لم تخرج إلى قتال .

وما يتصل بخبر (الجواب) ، قال الذهبي وابن حجر في روايتها أنه

مجهول فلم تصل عائشة (الجواب) . ولا اضطر عبد الله بن الزبير أن يأتي بخمسين شاهداً ليشهدوا كذباً بأن المكان ليس (الجواب) .

ومن دسه الرخيص ، قوله أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، كانت تنكر على ، على كرم الله وجهه ، أنه تزوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورزق منها الحسن والحسين . فكان أباً للزيرة الباقية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتح لها هي . الزلد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه أتيح لمسارية القبطية أم إبراهيم ، أواخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن هذا العقم كان يؤذيها في نفسها بعض الشيء » .

وأمر آخر كانت تجده على سيدتنا على رضى الله عنه ، فيما روى الدكتور طه حسين كاذباً . أنه تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبي بكر رحمه الله وأسماء هي أم محمد بن أبي بكر الذي نشأ في حجر علي ، فكانت عائشة تجده على علي لهذا كله .

أى دس رخيص هذا وأى مقاييس تلك التي وضعها له المستشرقون ، وأما أهل السيرة فهم منه براء .

اتهام ابن عباس بالسرقة :

ولقد كان نصيب الصحابي الجليل « عبد الله بن عباس » رضى الله عنه من تحامل الدكتور طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) ، كبيراً ، فقد بدأ هجومه عليه — كما يقول الدكتور إبراهيم شعوط — بعبارات لا يليق توجيهها لأى إنسان له منزلة مثل منزلة ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد اتهمه بنهب أموال المسلمين في البصرة كما اتهمه بالغدر لابن عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وذكر أنه هرب الأموال المسروقة إلى مكة . وفوق ذلك فقد ذكر أن ابن عباس كان يتطلع إلى الانضمام لمعاوية ضد ابن عمه علي رضى الله عنهم أجمعين .

ويقول الدكتور طه حسين ، أن المؤرخين تخرجوا من ذكر هذه الوقائع المدعاة وأن في ذلك ما يكشف نيات المؤلف وبسفه رأيه ، لأنه إذا كان وجاهل الحديث — وهم المصدر الموثوق في كل ما يرى عنهم — لم يذكرها

شيئاً من ذلك ، وكذلك كتب التراجم للمؤرخين الثقات ، فمن أين جاءت هذه الأخبار للمؤرخين الذين اعتمد عليهم طه حسين ، فضرب بكلام المحدثين عرض الحائط ، وظل في تحييطه هكذا حتى يصل إلى هدفه ، ليحيط من مقام ابن عباس رضي الله عنهما الذي اعترف له - دون أن يشعر - بأن مكانته من النبي صلى الله عليه وسلم ، ومكانته من الفقه والدين ، أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام .

قال الدكتور شعوط : « إذا قرأنا ما يكتبه خصوم الإسلام ، من اليهود والمسيحيين والشيوعيين ، نقرأه بحذر ، والحذر أصل من أصول البحث التاريخي . أما إذا كتب المسلمون عن الإسلام فإننا نكتفي بأن الكاتب مسلم ، وقد يكون المسلم هذا أشد خطراً على الإسلام من كل خصومه » .

ومتى نبت الشك في عقيدة المسلم ، وسبقت فيه الجرأة على الأصول المقررة في الإسلام ، فإننا يجب أن نضعه فيما يسمى (القائمة السوداء) ، ونقرأ ما يكتب بكل دقة وحذر .

إن قضيتنا هي جرأة الدكتور طه حسين على ما هو أعظم ، على تهجمه على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل من نفسه قاضياً يصدر الأحكام على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم المعصوم من كل ذلة ، ونحن هنا نجد الكاتب قد ترك أدلة البراءة كلها ، سواء منها الصريحة وغير الصريحة ، واعتمد اعتماداً كلياً على أدلة الاتهام مع ضعفها وفساد أسانيدها .

ثالثاً : التشكيك في نظام الحكم الإسلامي :

ولعل هذه هي غاية الغايات التي أراد أن يصل إليها الدكتور طه حسين حين قال : إنها تجربة جريئة تو شك أن تكون مغامرة ، وأنها لم تنته إلى غايتها (ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها ، لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً) .

ومن حيث عبارته قوله (حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر ، أن تنشئ هذا النظام القديم - فأت أبو بكر رحمه الله ، ولم يكذب يبدأ التجربة ، وقتل عمر رحمه الله ، وقد خطأ بالتجربة ، ولكنه لم يرض عنها » :

ويقول : « إن الناس كانوا يعارضون حكم عمر ولكنهم يخشون سلطانه ويخافون منه . والثورة على عثمان دليل على فشل التجربة الإسلامية ، وأن الوقت لم يعد في مصلحة الحكم والخلافة الإسلامية » .

وهو يرد العدل والحريّة والمساواة (في عهد أبي بكر وعمر) رضى الله عنهما ، إلى مراهب وشخصية الرجلين وليس إلى الإسلام ، ويرى أن جهودهما كانت محدودة .

ويزعم أن الحكم (أيام الرسول) صلى الله عليه وسلم ليس سماوياً ، وأنه ليس بين الإسلام والنصرانية فرق في هذه الناحية .

ويقول : « كان الحكم أمراً من أمور الناس يقع فيه الخطأ والصواب . يتاح للناس أن يعرفوا منه وينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه » . فهل كان الناس حقاً يسخطون على رسول الله صلى الله عليه وسلم !

وهو يزعم أن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية ، وليست تطبيقاً للإسلام ، ولا يكتفى إلا بتشبيه نظام الحكم الإسلامى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

ويرى أن العنصر الدينى فى النظام الإسلامى زال بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يعد له وجود بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقتتلوا على الدنيا وتنافسوها وتقاتلوا عليها ، وادعى أن هناك أرستقراطية قامت . قرأها القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها دون الأنصار . وأن استئثار قريش بالخلافة جر على المسلمين كثيراً من الفتن .

ويعتقد أن نظام الخلافة قد أخفق . وأن تجربة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل ، وأن (علماً) لم يحقق وحدة وإنما أخفق نظام الخلافة كله . وأن هذه الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام ، لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها . فيقوم فيها الحكم على مثل ما كان يقوم من قبل ، من الأثرة والاستعلاء . ونظام الطبقات الذى تستند فيه الكثرة الضخمة . لا من شعب واحد ، بل من شعوب كثيرة لقلة قليلة من الناس .

والحقيقة غير ذلك تماماً . فإن الإسلام قد استمر قائماً على مصالح المسلمين بالعدل والرحمة ، وظل حكام المسلمين يحكمون بكتاب الله . إلى أن جاء الاستعمار الغربي .

ويرى أن « الأوباش » الذين قتلوا عثمان لم يكونوا مخطئين ، فسياسة عثمان في العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذي أعطاه ، وليس من شك في أن الذين ضاقوا بهؤلاء العمال ، وثاروا عليهم ونقموا من عثمان توليتهم ، لم يكونوا مخطئين .

الهدف هو تسفيه نظام الحكم الإسلامي :

وهكذا نجدنا أمام مجموعة ضخمة من السموم والأكاذيب والافتراءات ، التي حشدها الاستشراق على لسان رجل مسلم اسماً ، ليحطموها به تلك الدعوة المنطقية على ألسنة وأقلام دعاة اليقظة الإسلامية .

وقد تركزت الحملة على نظام « الحكم في الإسلام » ، مما صح معه القول بأن كتاب « الفتنة الكبرى » ، إنما هو فتنة كبرى في الفكر الإسلامي ، لما امتلأ به من التشكيك والدس ومغالطة الحقائق ، وقد أراد الدكتور طه حسين من هذا العمل — أو أريد له — إقناع المسلمين بأن الحياة الإسلامية لا وجود لها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وأن طبقت فلأمد محدود لا يتجاوز حياة عمر ، فقد عمد إلى تلطيف صورة الخلافة الوضاعة ، لكي يصرف أبصار الناس عنها ، على حد تعبير الأستاذ « محمد النايف » .

بلا دليل :

ولكن هل استطاع الدكتور طه حسين أن يقدم سنداً علمياً أو تاريخياً لكل هذه الافتراءات ، فما هي مصادره في دعاواه . الحقيقة أن مصدره هو هواه ، وما فطر عليه من غلر وتطرف في الاعتماد على الروايات الضعيفة ، وعلى كتب الأدب لا روايات الحديث والسير .

إن طه حسين يريد أن يقول للمسلمين :

إن النظام الإسلامي قد عجز ، وأن الطريق الصحيح الذي تحقق وما زال مفتوحاً هو النظام العلماني . الذي يحل مشكلات الدنيا . وهو يدعو مسلمي

حصره إلى صرف النظر عن التفكير في النظام الإسلامي وفي الخلافة وأن يبطوا السعي إليها ، وأن يرضوا بحكم الديمقراطية الغربية (حل مسائل الدنيا بوسائل الدنيا) .

الله أكبر . . والحق أكبر :

ولكن الحق أكبر من طه حسين ، فقد زيفت الدراسات الإسلامية كل دعاواه وكشفت الصحوة الإسلامية عن أن نظام الحكم في الإسلام هو الأعلى ، وأنه هو المنطلق الذي لا سبيل غيره لإقامة حياة المسلمين ومجتمعاتهم ولو كره الذين حرضوا طه حسين . وفتحوا له أبواب الشهرة ، المناصب والأوسمة . وقد باء بهذه التبعة الدافلة . « أن يكون خادماً للفكر الوثنى المسادى » ، وأن يستغل هذا الأسلوب الجزل الذي أعطاه الله إياه ودرسته القرآن . ليكون حرباً على كلمة الله والقرآن .

وسيطل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكانهم العظيم الكريم ، وفي ذلك المستوى الذي لن يستطيع الناس أن يبلغوه .

وقد صغر منه كل قارئ مؤمن . فما كان يستطيع الدكتور طه حسين ، أن ينال من هذه الأسماء الكريمة مهما ذهب في الدس والتزييف .

تناول هذه الكتب بالدراسة عدد من الباحثين في مقدمتهم الأساتذة غازی النوبة ، محمد الناييف ، الدكتور إبراهيم سسقوط . الدكتور محمد البهي ، الأستاذ محمد عمر توفيق .

حاشية :

كتبت الدكتور بنت الشاطئ . (إبريل عام ١٩٤٨) مقالاً في الأهرام أشارت فيه إلى الدور الذي قام به عبد الله بن سبأ في خروج جموع الأقاليم إلى المدينة ودوره في سادنة الجبل يوم تم الصلح بين المسلمين ، ودوره في أحداث صفين ، وقالت : إن طه حسين لم يعرض لشيء من هذين الحادثين الأخيرين ، وقال : إن هذا الإضعاف من هذا الشأن وهذا الإغفال ، يخالف الروايات الشاملة ويوافق الروايات القليلة التي لم تشتهر ، وأشارت إلى الفرق بين كتابة الأديب وكتابة المؤرخ هذه الأحداث ، وقالت : إن الدكتور يتألى ليت أحكامه أحياناً في إطار يسقى الحرس واعتماد يمنع من الخلل .

الفصل الرابع

الإسلام

إذا أردنا أن نصور موقف طه حسين من الإسلام في كلمة واحدة لاستطعنا أن نقول : هي الجرأة على الله تبارك وتعالى .

فإذا تحدث الناس عن فساد وجهته في الاختلاط بين الجنسين في الجامعة قال : لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة رسوله نصاً يحول دون الاختلاط بين الرجل والمرأة ، وإذا سألت (روم لاندو) عن ظاهرة الإسلام التي تكشف في شباب الجامعة حين وقفوا ضد موافقة كلية الآداب على تقرير كتيب فيها إساءة للنبي والإسلام ، قال : إنه لا يعتقد أن الدين أصبح عاملاً مهماً في حياة شباب الجامعة .

وعندما سأله المحقق عند إنكاره وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من وجود نص ذلك في القرآن قال إن العالم يعتقد شيئاً بوجوده ولكنه لا يقبله بعقله ، ومعنى هذا هو تراوجه بين الإيمان والشك . وقد أثبتت نصوص كثيرة أوردناها في الفصول السابقة عن قوله ببشرية القرآن دون أن يصرح بذلك خوفاً من غضب الجاهل ، ونحزه للسيد الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : (لأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ، ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب) .

وحين ينكر طه حسين أن القراءات السبع منزلة من عند الله تبارك وتعالى إلى عديد من المواقف كلها تكشف بوضوح عن جرأة شديدة على الله تبارك وتعالى .

وفي فصل كتيبه في سنوات مبكرة عام ١٩٢٣ يتحدث فيه عن المؤمن والملحد وكيف يتردد في النفس ذلك الإيمان مرة وذلك الإلحاد مرة أخرى ، وهو حريص أن يثبت الشك والحيرة في النفوس حين يقول :

« وهذا الملحد الذي يستشعر الإلحاد ويتخذ مذهباً وعقيدة فيعاند وينازع ويدفع عن إلخاده . كما يدفع المؤمن عن إيمانه وينكر الله . كما يثبت المؤمن . ويعتقد أن العقل كل شيء وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار وأن نجاة الإنسان في عبادة العلم والإذعان له لا في إكبار الدين . والخضوع لأوامره وتواحيه » . هذا التصور مهما براد به فهو أمر خطير أن يقدم للشباب في الصحف السيارة على هذا الوجه ، وهو ما كان طه حسين يقوله لتلاميذه . وما قاله لهم حين أخرج من الجامعة بعد حادث كتاب (برنادور) الذي يهاجم الإسلام وحين اقتحم الطلبة مكتبه وكادوا يفتكرون به . يقول للشباب في إبان الاحتفال الذي أقيم له (الأهرام ٤ / ٦ / ١٩٣٢) :

أرجو أن يكون بيننا عهد ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم هذا العهد هو أن لا نؤمن إلا بالعلم وطه حسين هو الذي يقول : إن الدين ظاهرة اجتماعية وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة كلها . وأن الدين لا يستطيع القدرة على إثبات الله . وزعم أن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق ، وقال : إنه في البحث عن الأدب ننسى قوميته وكل شخصياتنا ننسى ديننا وكل ما يتصل به وإن علينا أن ندرس الأدب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو القفض منهم ولا مكترئين بنصر الإسلام أو النعي عليه .

والدكتور طه حسين هو الذي عارض مادة (الإسلام دين الدولة) التي وردت في الدستور . قال : إن للدولة المصرية ديناً رسمياً هو الإسلام . ولو قد استشارني أولئك أو هؤلاء لطلبت إليهم أن يتدبروا ويفكروا قبل أن يضعوا هذا النص في الدستور ، وقال : إن هذا النص كان مصدر فرقة لا بين المسلمين وغير المسلمين — وإنما كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا في تحقيق النتائج التي ترتب عليه .

وفي أحاديث أخرى وصف هذا النص : بأنه [النص المشتمل] وحين استشرت فئمة التبشير وتحديث الصحف عن محاولات المبشرين في تخدير ضحاياهم ونقلهم إلى المسيحية من أمثال نظلة غنيم ، كتب يقول : من

أعترف أن الإسلام لن يضعف إذا خرجت منه نظرة غريم ، وأن المسيحية لن تقوى إذا دخلت فيها نظرة غريم .

وحسب عباراته العامة في كتاباته توحى بالاستهانة بالإسلام والسخرية ، فهو الذي يقول : من ذا الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للإسلام أو هادماً للإلحاد .

هذه النصوص كلها تستطيع أن تعطي الانطباع الصحيح لموقف طه حسين من الإسلام .

(٢)

إذن فما هو موقف طه حسين من الدين ؟

يقول طه حسين : ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية . وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيقي ينظر إلى الدين كما ينظر اللغة وكما ينظر الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدتها وجود الجماعة ويتبع الجماعة في تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة من المؤثرات المختلفة كالبيئة والإقليم والوضع الجغرافي وما إلى ذلك . إذن فالدين ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي ، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها . (السياسة الأسبوعية ، وكتابه (من بعيد) ١٧ يوليو سنة ١٩٢٦) .

هذا هو العلم الذي عاهد طه حسين طلبته بعد إخراجهم من الجامعة أن لا يؤمنوا إلا به ، فما هو هذا العلم ؟ هل هو حقيقة ذلك العلم التجريبي الذي خرج نتيجة معادلات الأنابيق في المعامل ؟ الحقيقة أن كلمة العلم هنا هي خدعة خدع الدكتور طه حسين بها الناس سنوات طويلة من دعواه . إن ما يقوله هو البحث العلمي والمنهج العلمي ، وما يقوله العلماء ، وأن هذا العلم هو ما اعتمد عليه في البحث في الأدب والتاريخ والاجتماع . إنها خدعة كبرى . ذلك أن هذا الذي يعنيه طه حسين إنما هي الفلسفة ، والفلسفة المسادية خاصة التي شكلها دعاة التنوير في الغرب من اليهود والذين حلوا

لواء الدعوة إلى هدم كل مقدرات الأديان والمعتقدات ، وفي الأخير أسانذته أصحاب مدرسة العلوم الاجتماعية : دوركايم ، وليقى بريل ، وكازنوف ، أتباع نظرية التفسير المادى للتاريخ وتلاميذ ماركس وخدام أهداف بروتوكولات حكماء صهيون ودعاة هرزل والمهندون لسيطرة الفكر الصهيونى الشيوعى على العالم الإسلامى .

وهذه الأطروحة التى قدمها طه حسين كانت فى الحقيقة مقدمة لما كشفت عنه محاضرات الشعر الجاهلى على طلبة كلية الآداب بالجامعة . فهذه الفكرة مأخوذة من (دوركايم) اليهودى ، الذى غص من قدر ابن خلدون وتابعه طه حسين فى هذه الوجهة فى رسالته إلى جامعة باريس . وفكرة الشعر الجاهلى وانتحاله والتشكيك فيه من عمل (مرجليوث) اليهودى أيضاً ، فهذه خطة مرتبة لم تكن أبعادها واضحة فى ذلك الوقت للباحثين والمراقبين ولكنها كانت واضحة فى نفس طه حسين ، فقد كانت فكرة الكوليج دى فرانس الخفية هى هدم الإسلام ، والأسلوب الظاهر هو الأدب والعلم والشعر الجاهلى والقصة الجنسية المكشوفة وإحياء شعر أبى نواس وبشار ، بدعوى أنه يمثل العصر ، وإن القرن الثانى للهجرة عصر شك ومجون . وهكذا تظهر القطاعات منفصلة عن بعضها ثم تتشكل فى صورة كاملة خطيرة .

وكلام طه حسين عن الدين والعلم واضح فى إنكار طه حسين لمصدر الدين وللوحى وللتبوة وإيمانه بالفلسفة المادية التى أطلقها خصوم الإسلام تحت اسم العلم خداعاً وتضليلاً .

وقد وجدت كتابات طه حسين هذه فى وقت ظهورها من ردها وكشف زيفها . يقول الأستاذ عبدالباقى سرور نعيم :

(إن منشأ القول بالتنافر بين العلم والدين هو التوسع فى إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة ومذاهب علماء الطبيعة وفروضهم ، فقد ظن بعض الناس ألا بأس بإطلاق لفظ : العلم على مذهب العالم الفلانى ، وأثبت العلم نظرية الفيلسوف الفلانى . وهكذا تراهم يتوسعون فى إطلاق لفظ : العلم حتى جر بعض أصحاب النيات الفاسدة إلى أن يطلقوا على الآراء الإلحادية

بأسرها لفظ: العلم، ولا شك أن العلم بهذا الإطلاق يتنافر مع الدين لأنه ينقضه ويبطله. ولأن الدين ينهى عن اتباع مثل هذا النوع من الوهم والضلال ولكن إذا حدد معنى العلم يتبين أن هذا النوع الأخير - أى الفلسفة المادية - يتنافر مع العلم كما يتنافر مع الدين لأنه لم تؤيده تجربة ولم يشهد بصدقه اختبار، غاية الأمر أنه منسوب لعالم يعرف علم الطبيعة أو لفيلسوف يدرك نظريات الكيمياء. وهل ضل الناس إلا منذ أن غفلوا عن التفرقة بين ما يقوله العالم تطبيقاً لقواعد العلم، وبين ما يقوله من تلقاء نفسه جرياً وراء أهوائه واستحساناته؟ يقرر الدكتور طه: أن العلم لم يرض بأن يقتصر على الخصومة بينه وبين الدين، بل عمل على إخضاع الدين لمباحثه، فجعل يقلبه بين يديه وينظر فيه نظرة استقراء واستقصاء وأخذ يطبق عليه مذهب النشوء والارتقاء، فاعتبره شأناً من شؤون الاجتماع وحالاً من حالاته يتحول ويتنقل من حالة أدنى إلى حالة أعلى وهى فى جميع تطوراتها من صنع الإسلام، ومن مبتكراته فهو مبدع الدين وموجده.

وهو يريد بلفظ: العلم (علم الاجتماع) فهو الذى يتناول هذا المبحث، وفى الحق أن الباحثين فى علم الاجتماع تقلدوا هذا المذهب، فلم يذهب إليه إلا فريق قليل (كسبنسر) من هذا حذوه. إن نظرة واحدة فى علم الاجتماع تكفى للحكم بأنه لا يزال فى دور التكوين وأن قواعده لم تثبت ومباحثه لم يبرهن عليها، وإنما هناك طائفة من المباحث اصطلاحوا على تسميتها (علم الاجتماع) وذكروا مع هذا الاصطلاح أن هذا العلم لم يبلغ بعد مبلغ العلوم الرياضية ولا مبلغ العلوم الطبيعية.

يقرر بعض الباحثين فى هذا العلم: أن الدين من مبتكرات البشر وأنه ليس وحياً سماوياً وأن الكتب من مختلفات الرسل، وأن دعوى الرسالة كذب وافتراء، فيأتى الدكتور طه ويقول لنا: إن العلم أخضع الدين لمباحثه وأنه شرع يحلله وينقده وأنه اعتبره من شؤون الاجتماع يجرى عليه ما يجرى من أحكام وفروض. وهو فى إطلاقه لفظ: العلم، يوهم القراء أن العلم الذى أوجد المحترعات والمساكنات وأنشأ سلك المدنية المادية هو يعنيه العلم الذى يقرر هذا رأى ويثبت أن الدين من صنع البشر. مع الفارق الواضح بين

مرتبة العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع ، أم هو يدلّس فيستعمل لفظ : العلم فيما لا صلة له بالعلم ليُرهم القراء أن العلم الذي شاد تلك الحضارة الماثلة واكتشف تلك المكتشفات الباهرة وغير وجه البسيطة : هو يعنيه العلم الذي أخضع الدين لمباحثه فشرع ينقده ويحلّله ويعتبره شأناً من شئون الاجتماع له من الأحكام والصفات ما لظواهر الاجتماع وحالاته من نشوء وارتقاء وتحول من أدنى إلى أعلى .

إن خطأ تطبيق علم الاجتماع مذهب التشوّه والارتقاء على البيانات واضح ، مع أن المذهب نفسه لم يثبت في مجاله العلمي . إن تطبيق مذهب من المذاهب لا يكون إلا بعد التثبت من صحته والجزم بأنه قد جاوز طور الزعم وطور الظن ودخل في حيز العلم الراقى وتطبيقه — قبل التثبت من هذه الأمور — جناية على العلم وتدلّيس على الناس . إن إخضاع الدين للعلم يقتضى أن يكون العلم قادراً على استحضار جميع الأدوار التاريخية التي مر بها الدين استحضاراً تاماً والوقوف عليها وقوفاً تفصيلياً . وإذا كان المقرر في العلوم الطبيعية إنها ليست بقادرة ولا بمستطاعة أن تعطى رأياً نهائياً في مقدراتها العلمية ، وإذا كانت الآراء كلها نسبية في العلوم والمعارف وقابلة للتحويل والتعديل والمراجعة وإعادة النظر فكيف يقرر الدكتور في تلك المسألة أن العلم يقرر وأن العلم يؤكّد؟

لقد كان الدكتور في كتاب (الشعر الجاهلي) يعتمد على الشك ، كان يشك في كل شيء وكان يقول : إن العلم يؤيده في شكّه ، وإن مذهب ديكرارت يعتمد الشك في كل شيء ، وها هو اليوم يقول : إن العلم يؤكّد خضوع الدين للتشوّه والارتقاء ، فالعلم يعتمد الشك حينما يريد الدكتور الشك ويعتمد الإثبات حينما يريد الدكتور الإثبات ، فالعلم طوع إرادة الدكتور يصرفه كيف يشاء ويضعه حيث يشاء . العلم متاع من أمتعة الدكتور يرسله إلى المحطة التي يريدّها ، فإن شرق شرق معه وإن غرب غرب معه ، وعلم هذا شأنه أولى أن يكون في نعال الناس لا في رءوسهم وأن يدام بالأقدام لا أن يحفظ في الصدور . إن العلم الذي يمتّنه صاحبه إلى هذه الدرجة خلاق به أن يلعن وأن يطارد من البهائم العلمية فإنه سفاهة وحق .

ونخلص الباحث فكرته في سطور قليلة فقال :

- ١ - العلم إذا أطلق حيناً يراد المقارنة بين العلم والدين فالمراد به ما أنتجته التجارب وأيدته الاختبارات وتجاوزت به طور الظن .
- ٢ - أما الفروض والظنون والنظريات المحتملة فلا تسمى علماً ، وكذلك لا يسمى علماً ما يثبته الفلاسفة من الآراء بعد أن تحدت العلوم الطبيعية وامتنازت بنتائجها التي تجاوزت دور الاختبار والتجربة .
- ٣ - المذاهب الفلسفية لا صلة لها بالعلوم الطبيعية ولا علاقة تربطها بمسمى العلم حيناً يراد بلفظ : العلم : النتائج الصحيحة .

(٣)

وهناك نظرية أخرى خطيرة يدعو إليها الدكتور طه : هي ازواجيه الإيمان والإنكار . ومعنى هذا إنه إذا نفي العلم السموات السبع وذكر أنها ليست ثمّة كواكب تسير في الفضاء آمناً بذلك وإذا أثبت الدين السموات السبع آمناً بذلك وصدقناه ، وإذا قال الدين : إن ما جثت به من السموات ومن عند الله نزل به الروح الأمين آمناً بذلك وصدقناه ، وإذا قال العلم : إن الدين ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة والأزياء لم ينزل من السماء وإنما هو من الأرض آمناً بذلك وصدقناه .

وهكذا يرى الدكتور طه ، وبذا استقام له فيما يظن الدفاع عن نفسه ضد من يرمونه بالكفر وأظن أنه بالغ الغاية فيه ، فهو حين يعلن في كتاب (الشعر الجاهلي) أن قصة إبراهيم وإسماعيل أسطورة حدثت قبل الإسلام ، إنما يعتقد ذلك بالشخصية العاقلة وهو بعد يؤمن بالله وملائكته وكتبه . ونحن نؤكد للدكتور أن ما ذكره من تهيبته لاحتمال التقيض في مجالات العقول باطل ، وأنه لا يمكن الإيمان بالتقيض فلا يمكن الإيمان بأن البحر الأبيض شمال إفريقيا وليس شمالها .

ولذا قال علماء الكلام الذين شرطوا في التكليف الإمكان : إن الله لا يكلف بالعلم والجهل معاً ولا بالإيمان بالتقيض معاً وعلم أن الإيمان بالتقيض مجال من يدييات العقل ومهما قال علماء النفس على طريق التسميح :

إن في الإنسان شخصين ممتازين فلم يريدوا (الالثنائية) بمعناها الذي يجوز أن أحد الاثنين يؤمن بأحد النقيضين والآخر بالنقيض الآخر فلم يبلغ التفاهت بأحد أن ينكر بأن لكل إنسان وحدته وشخصيته . وإذا رجع أحد منا إلى نفسه آمن بما يقول ، وكل بديهيات العقل تبين أن الإنسان من المحال عليه أن يؤمن بالنقيضين وأن يجمع في معارفه بين التصديق بالشئ والتصديق بخصمه .

هذا هو الدكتور طه حسين الذي فقتش المصريون فلم يوجد بينهم من يصلح أن يكون مدرساً للأدب فيها سواء ، هذا هو الذي يطعن في الأديان ويكذب الكتب السماوية ويطعن في علم الأوائل المعاصرين ، يجهل ما يعلمه يتميز الإنسان المميز عن المجنون والحيوان الأعجم ، ولطالما نهينا الناس إلى أن الدكتور طبل أجوف صوته عال وفواده هواء ، وأنه ليس عند المترلة التي يدعيها لنفسه ولكننا في بلد تروج فيه كل دعوى .

(مجلة الفتح)

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي :

(في مقاله يريد أن يثبت أنه من الممكن أن يكون مثله كافراً أشد الكفر على اعتبار أنه عالم يبحث بعقله ، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون مؤمناً أقوى الإيمان على اعتبار أنه شاعر يحتوى الإيمان في شعوره ، وليس يخفى أن الشعور محل الغفلة ، كما أن العقل محل الخطأ ، فلم يكون طه كافراً ومؤمناً في عقله وشعوره ، ولا يكون في فلسفته هذه مغفلاً من ناحية ومخطئاً من ناحية أخرى ، وهل يجتمع هذا التناقض إلا في عقل واهن ضعيف كمقل الأستاذ ، وإلا فمن ذا الذي يعقل أن نفي النبوة والوحى وتكذيب الكتب السماوية هو على وصف من الأوصاف علم وعقل وعلى وصف آخر دين وإيمان ، وفي أي عقل أن في النفي إثباتاً لما ينفيه وهما نقيضان ولا يجتمع نقيضان معاً في هذا الكون كله) .

(٤)

وعندما اتسع نطاق البحث دخل فيه كثيرون يكشفون زيف طه حسين ومغالطاته .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لم يحض الدين على معارضة العلم ،

بل على العكس إن الإسلام يدعوا إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح
الذهني : العلم والدين اليوم يتكاملان ، والفضل في ذلك يرجع إلى تفكير
العلماء على النمط الفلسفي ، فأصبح العلم اليوم يسلم بوجود ما ليس قائماً أمام
الحس ، وذهب عصر البيهيات وتغير واقع القواعد العلمية وأصبح عصرنا
عصر يقين واعتقاد بالقوى الخفية . وقد أستطيع القول : بأن العلم في الأيام
المقبلة سيخطر نحو الدين خطرات جريئة .

وقال الدكتور محمد حسين هيكل : ليس بين العلم والدين خصومة
بحال من الأحوال لأنه مستقل في ناحية لا تناقض الدين ولا تقع في دائرته ،
وواضح أن العلم بهذا الإطلاق ليس من مباحثه إثبات وجرد الله ولا إثبات
نبوة الأنبياء لأنهما ليسا ينال بالتجربة أو يقع تحت الاختيار ووظيفة
العلم الطبيعي لم تخلق لبحث هذه المسائل ، ولا عيب يلحق العلوم الطبيعية
إذا لم تتناول ما هو خارج عن وظيفتها .

فالحق المؤيد بالدليل أن للمعارف طرائق متعددة منها التجربة ، وقد
اختصت بها العلوم الطبيعية ، ومنها البرهان والقياس على مدار العقل البشري ،
ومن هنا يتضح أنه ليس بين العلم الطبيعي الثابت بالتجربة وبين الدين خصومة ،
نعم بين بعض المذاهب الفلسفية والمذاهب العلمية التي دخلتها الفلسفة وبين
الدين خصومة ولكن هنا فرقاً واضحاً بين العلم الثابت بالتجربة وبين ذلك
المذهب الوهمي الذي لم تؤيده تجربة ولم يقم عليه استقراء .

وكتب الأستاذ محمد محمود بدير الحامي : إن ظروفاً أحاطت بالدكتور
طه حسين في تدبير حياته الأدبية جعلت منه رجلاً خطراً في بعض آرائه
وتصرفاته إن مغالطته وعناده يدفعان به غالباً إلى أمرين ظاهرين :

أولاً : محالقة أساطين العلم لا في الشرق فقط بل في الغرب .

ثانياً : مهاجمة العقائد وعدم مراعاة الشعور العام .

ولعل الذين يتبعوا تطورات الدكتور طه وعرفوا شيئاً من آرائه ومواقفه
لن يجدوا كبير جهد في الوصول إلى الحقيقة .

ومعلوم أن علماء الإسلام في الماضي والحاضر قد تحدثوا عن العلم والدين

وكلهم يجمع على أن النظريات العلمية الحديثة لم تثبت تناقضاً بين العلم والدين وقد تناول الدكتور هيكل هذه الناحية في جريدة السياسة الأسبوعية فأثبت فيه تعاون العلم والدين وعدم وجود تناقض بينهما ، وقال : ليس هناك خلاف بين العلم والدين ولكن يوجد أحياناً خلاف بين رجال العلم ورجال الدين .

كان الدكتور طه في أوروبا فلم يستطع السكوت ولم يستطع التأييد لأنه يميل بطبعه إلى الخلاف والشذوذ في مغالطة وعناد مهما كلفه ذلك ، فأسرع يبعث للسياسة بمقال كبير يرد فيه على الدكتور هيكل قال فيه : (ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية . . . إلخ) .

وقال : من زعم غير هذا وحاول التوفيق بين العلم والدين فهو إما خادع أو مخدوع ، وأنه لا سبيل لاجتماعهما إلا يوم أن ينزل أحدهما عن وجوده ، وحرص على أن ينشر هذه الآراء في كل فرصة تسنح له . وقد حصل أن أقام له طلبة الجامعة ذات يوم حفلاً فخاطبهم قائلاً :

— أرجو أن يكون بيننا عهداً ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم (أن لا يؤمن إلا بالعلم) .

على أن الدكتور طه ومصلحته الآن تناقض مصلحته منذ سنين ، لو خرج في إعلان رأيه في العلم والدين — الآن قد لا يجد مانعاً من أن يعلن أنه أخطأ في الماضي وإن كان هذا صعباً عليه .

. . .

الفصل الخامس

التراجم

١ - الأيام .

٢ - مع المتنبى .

٣ - ابن خلدون .

مدخل

أراد طه حسين بكتابه عن التراجيم الإسلامية قطع الطريق على العمل الذي قام به المخلصون من إعادة التمثيل لبطولات كبار الصحابة وأعلام المسلمين أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وسعد بن أبي وقاص ، هؤلاء صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شيدوا هذا الملك الباذخ ونشروا الإسلام في آفاق الأرض من أمثال محمد المثل الكامل وما كتبه الشيخ الحضري ومصطفى صادق الرافعي . فكان هدف طه حسين أن يقطع عليهم هذه الوجهة وأن يفسد هذا الاتجاه وأن يحاول اتهام هؤلاء الصحابة الكرام بأنهم جماعة من السياسيين المخبرين .

فهل كان طه حسين مؤرخاً ؟ اللهم لا . إذن فهذا العمل الذي يدخل في باب الأدب لم يستوف شرائط المنهج العلمي حتى يكون صالحاً ، فضلاً عن أنه كان بعيداً عن النصفية والزهادة ، فقد تابع المستشرقين المتعصبين في أحقادهم على فضل هؤلاء الأعلام وإنكار فضلهم وحاول أن يتصيد لهم الأخطاء .

وهو لم يتوقف عند هذا فنحسب بل ذهب إلى أبعد من ذلك بأن قدم لشباب المسلمين هيرموس وسقراط وأرسطو وأفلاطون على أنهم قادة الفكر البشري ، في كتاب تقرر في المدارس رديحاً طويلاً ونشأت عليه أجيال ، من دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وخالد ، فلما استدارت الدنيا وأعلا صوت اليقظة الإسلامية جاء طه حسين لينقض هؤلاء الأعلام الكرام ويغمز لهم على النحو الذي تجده في كتاب الفتنة الكبرى ، والوعد الحق ، والشيخان وغيرهما .

• • •

(١)

الأيام

حاول الدكتور طه حسين في كتاب (الأيام) أن يكتب ترجمة لحياته في أسلوب فني على نحو التراجم الذاتية الغربية وقد تردد أنه كتبه في ظروف نفسية قلقة بعد حادث كتاب (الشعر الجاهلي) ولقد كان لهذا الحدث آثاره على الصورة التي رسمها لأسرته ومشايخه .

فانك تحس من قراءة الجزء الأول أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع ، وهكذا يصف أباه وأمه بالكذب والعبث والخداع . ثم يعود إلى اتهامه بالكذب مرة أخرى في صورة تظهر فيها تقمته على المجتمع بأسره يقول : (وأى فرق بين الشيخ - أبوه - يقسم ويحنت وبين سيدنا (أستاذة) يرسل الطلاق والإيمان لإرسالاً وهو يعلم أنه كاذب ويعود مرة ثالثة ليصف أمه بأنها كانت مهملته له غليظة عليه ، وأن أباه كان يهمله وينظر إليه بشيء من الازدراء ، ويريد أن يلفت الناس إليه وأن يتحدثوا عنه ولا سبيل إلى ذلك إلا بإنكار ما يعتقدون وتسفيه ما يؤمنون به .

ويرى الباحثون أن روح القسوة اللاذعة تشيع في كتاب (الأيام) بأجزائه الثلاثة وأن المؤلف يصف أباه في الجزء الأول ص ٣٨ بالظلم والكذب والخداع . ويصف جده بثقل الظل وأن يستشعر بغضاً له دون أن يؤذيه في شيء (ص ٢٦) . أما مبالغته في ذم فقيه القرية فيظهر بجلاء إذا قرئت بما كتبه أحمد أمين في (حياتي) أو هيكلي في (أوقات الفراغ) أو الزيات في (وحى الرسالة) .

وقد أشار الدكتور محمد رجب البيومي إلى ظاهرة الظلم الواضحة في كتاب الأيام للشخصيات اللامعة في تاريخ العصر . أمثال : طنطاوى جوهرى ومحمد المهدي ومحمد الخضرى وحفنى ناصف . ظلماً ربما يدفع إلى إهمال

آثارهم الأدبية على نفاسها المشهورة ، مما جعل ظاهرة روح القسوة اللاذعة أبرز مظاهر هذا الكتاب .

فمن الشيخ طنطاوى جوهرى وهو علامة كبير له تفسير علمى للقرآن كان غاية في الأثر لأهل عصره ، وكان من الدعاة إلى السلام العالمى ، وكان لأثاره مكانها في الدوائر العالمية يقول عنه :

(كان يدرس الفلسفة الإسلامية ، وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً . وكانت كلمات الجلال والجلال والبهاء والكمال والروعة أكثر الكلمات جرياً على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه ، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها وأسرف في المد وربما أخذه شيء من ذهول وهو يمد هذه الألف فيغرق الطلاب في ضحك يخافت بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر . . . الخ) وبمضى الدكتور في مثل هذا الاستخفاف دون اقتصاد وإذا كان من حقه . وقد صور انطباعه الخاص نحو دروس الشيخ أن يقول ما يعتقد ، فإن من الواجب العلمى عليه أن يقرن هذا التهمك المتصل ببعض ما يشير إلى فضل الأستاذ في إنتاجه العلمى المبتكر وفي تأليفه الموسوعى الذى ترجمه إلى عدة لغات ، أما أن يكن هذا التهمك الخالص كل ما يخص الرجل من تلميذه فذلك لإجحاف صارخ إن أحس به الدارسون فلن يشعر به من يقرءونه من الطلاب .

وكذلك كان مرقفه من أستاذه الشيخ محمد المهدي أستاذ الأدب في عصره في دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى خلال أكثر من عشرين عاماً ، قال عنه : كان أبعد ما يكون من العمق وكان متكلفاً متفاحصاً لا يتكلم إلا العربية مقرباً فيها ، يملأ بها فمه وربما أضحك منها طلابه ، وكان الفنى (يريد الدكتور طه حسين نفسه) جريئاً عليه ، يجادله في الدرس فيرهقه من أمره عسراً وربما أضحك منه الطلاب لأنه كان لا يحقق ما يروى من الشعر ، ولأن الفنى كان يردده إلى الصواب فيظهر عليه الاضطراب .

وبمضى الدكتور في شبه ذلك عن تأثر بموقف منه في درجات الامتحان .

أما الأستاذ الشيخ محمد الخضرى فهو أحد أعلام النهضة الفكرية المعاصرة ، وصاحب المؤلفات الذائقة ، التى تعددت طبقاتها مثل : نور الدين ، وتحمام الوفاء وأصول الفقه . وغيرها ، يقول عنه طه حسين :

(وقد سحر (الخضرى) القى (طه) بعدوبة صوته وحسن لقائه ، وصفاء لمجته ، وأحب دروسه فى السيرة وفى تأريخ الخلفاء الراشدين وحقوقهم ، وكان يظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم ، ولكنه لم يكن يسمع دروس التاريخ فى أوربا حتى عرف أن الأستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه من كتب القدماء فى غير نقد ولا تعمق وفى أسير ما يكون من فقه التاريخ) . وهو فى هذا لم يتصف الشيخ الخضرى ، بل أجحف به ، وموضع الإجحاف فى هذه المقارنة الفرق بين منهج الخضرى وبين أساتذة الاستشراق فالأستاذ الخضرى لم ينقل دروسه من كتب القدماء نقلاً آلياً ولكنه انتخب واختار ووازن بين رواية ورواية حتى وفق إلى بناء مطرد ، وما كان طه حسين فى رأيه هذا من المتصفين ولكنه حمل من بعد على أستاذه عندما نقى كتاب (الأغاني) مما يحمله من الروايات الإباحية وكان هذا الكتاب هو المرجع الذى يعتمد عليه فى أن يتهم القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك وجور .

(٢)

أما موقف الدكتور طه من الأزهر فقد كان شراً كله : فقد أراد أن ينتقم من موقف العلماء من كتابه فى الشعر الجاهلى ، فحمل على الأزهر حملة قاسية وظالمة ، حمل عليه مرتين : مرة لموقفه منه حين أسقطه فى امتحان العالمية ، ومرة أخرى نتيجة موقفه من كتاب (الشعر الجاهلى) . ولقد جابه الدكتور الأزهر بالانتقاص والتشهير على حد تعبير الدكتور محمد رجب البيوى ، وملاً الصحف هجاء منكرراً لأساتذته ، وقد عفوا عنه فلم يهملوا ببعض ما يستحق . ثم شاء صاحب الأيام أن يواصل هجومه عليهم دون مبرر معقول ، فكيف يكون الأزهر قد ظللمه وضاق به وهو ، المتحرش المهاجم . وفى الجزء الثانى من كتب (الأيام) يكشف الدكتور نفسه ويفسر ساوكة الهجو على مجتمعه تفسيراً سافراً لا يقبل أدنى شك ، فقد أشار إلى أنه عندما رجع إلى قريته للمرة الأولى بعد انتسابه للأزهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده أخوه الأكبر ، فغاضه هذا الإهمال ، فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم وهكذا كما يقول : (انتقم الصبي لنفسه وخرج من عزلته وشغل الناس بالحديث عنه) .

وهذا ما يفسر سلوكه المهاجم للأزهر في جميع مراحل حياته .
وقد روى كيف أن أستاذه المستشرق أخذه إلى دروس الأزهر وحرصه
على نقد الأستاذ ، فلما رده الأستاذ رداً شديداً ، أمسك به المستشرق حتى
لا يبادل وأخذه وخرج به ، وهكذا كانوا يعرضونه على الأزهر ويثرون
في نفسه الأحقاد عليه ، هذه التي ظلت تتلظى في قلبه إلى آخر يوم من أيام حياته ،
وكان هجومه على الأزهر بمثابة نجوم جديدة يعلقها المستشرقون على صدره .
يقول الدكتور البيومي : لقد اتسع له صدر الأزهر ، ولكنه كان يريد
أن يلقى الناس له ، فاصطنع الخلاف وآثر الشقاق ، وفزع إلى الصحف
ليهاجم من يعلمونه . وقد آذاهم بالباطل دون إنصاف .
وقد ظل يجادل مدرّس النحو حتى ضاق به وقال له :
(الله يحكم بيني وبينك يوم القيامة) .

وكان لظه في الأزهر يومها سبعة أشهر وهي مدة لا تتيح له مهما كان
عقرباً أن ينازل شيخاً ، قضى في العلم والتدريس أربعين عاماً حتى يضيق به
صدره ولم ينتفضه الشيخ ولم يغضب عليه ، ولكن ظه لا يرعوى ، بل
يحاول إثارة أساتذته وهم راحون ، فأخذ يصنفهم بالغيبة والنجاسة والفساد ،
وهو بعد لجوج عنيد يعارض الأساتذة ويسرف في التهم والاستنكار .
وقد تعرض لكبار علماء الأزهر وفي مقدمتهم الشيخ نجيب المطيعي
ووصفه بالجهل ، وكانوا ينقلون كلام المشايخ ليكون مادة جديدة للتشنيع ،
ثم زاد ظه في اغتياب الأساتذة وفي التهم على كبار العلماء تهجماً سافراً أمام
الطلاب في ساحة الأزهر .

وتحدث عن سقوطه في امتحان العالمية بالأزهر : هذا الرسوب الذي
عده السطحيون ظلماً صريحاً له ، فإذا حللنا أحداثه تحليلاً صريحاً وجدناه
نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا متصرف ، إذ أن الظلم قد انصرف — كما
قال عن نفسه — عن دروس الأزهر انصرافاً تاماً حين فتحت أبواب الجامعة
لمثله ، فهو إذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالأزهر لم يشأ أن يستفيد
من دروسه شيئاً ، وخصص دروس الجامعة بكل اهتمامه ، نائياً عن دروس
المنطق والفقه والأصول والتوحيد والوضع والتفسير الحديث ، نائياً تاماً

لا اتصال من بعده ، وكان لا يلم إلا بدروس المرصني في الأدب والفقه ، واتسعت الصحف لنقد أساتذته لا لشيء سوى الدوى والاشتهار ، ثم تقدم لامتحان العالمية دون أن يستعد ويتسلح بمعرفة كتب الأزهر المعقدة وفهم موادها العلمية ، تقدم وهو لا يجيد غير علوم العربية وحدها ، وهناك علوم كثيرة لم يجلس إلى الأساتذة لكي يستظهرها ، وجاء الطالب إلى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الأليم في سب الأزهر والأزهريين واحتقاره الصريح لكل ما يدرسه ويتناولون به أساليب الشرح والتقرير وهو بعد لا يلم في غير دروس العربية شيئاً ذي بال ، ولقد كان عليه حين أراد أن يظفر بإجازة الأزهر أن يستوعب علوم الأزهر ، إما أن يتعالى على هذه العلوم ثم يشنع على أصحابها في الصحف والمجلات ثم يرى من حقه أن يظفر بالنجاح فيها دون تعمق فذلك ما لا يرتضيه منتصف (١) .

ثم هو بغضب من حملة الأزهر على رجل يقول في دروسه أن القرآن يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل ، ولكن حديث القرآن لا يكفي لإثبات وجريده . ماذا ينتظر المسلمون في بقاع الأرض من الأزهر الشريف حين يرى أستاذاً جامعياً لا يطمئن إلى حقائق القرآن بل يعلن شكه في هذه الحقائق على منات من الطلاب المسلمين في الجامعة ، ثم ينتقل ليقوله إلى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح في كتاب يتداوله الناس ، فإذا كان ينتظر من رجال الأزهر غير أن يعفوا في وجه من يشكك في حقائق كتاب الله ويحاول أن يزلزل عقائد الشبهة الإسلامية في الجامعة ، أكان ينتظر أن يسكتوا على هذا الإفك الجريئ ليرضوا أعداء الإسلام ، أم أن ينتظروا أن يهب العلماء في طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن في حقائق القرآن .

وقد قاموا بواجبهم ولم يحدث أن تراجع منهم أحد لينال منصباً دنيوياً حقيراً كما شاء مخرج مسلسل (الأيام) أن يفترى على الشرفاء بغياً بدون حق (محمد رجب البيومي (الأزهر ديسمبر عام ١٩٧٩ - الهلال سبتمبر عام ١٩٨٢) .

(١) والشعوب أن المستشرقين حققوا له أمل ما يمكن أن يصل إليه من رد اعتباره ، فأعفوه دكتوراه من باريس ، وعدد من هذه الشهادات من جامعات العالم ولكن ذلك لا يفي شيئاً عن حقيقة جهله بعلوم الإسلام .

ولقد استنكر الناس تلك الإضافات التي وردت في المسلسل تحاول
أن تدب الأزرار عن مواقف لم تكن موجودة في أصل الكتاب على نحو يؤهم
بأن علماء الأزرار هادنوا في أمر الدين ابتغاء عرض الدنيا .

(٣)

(مع المتنبي)

يمكن القول بأن المستشرق (بلاشير) الفرنسي قد كتب كتابه عن
المتنبي بهدف واضح هو تعزيز المتنبي الذي اتخذ الأدب العربي مدخلا
إلى البطولة العربية في فترة من فترات الحرج واستعلاء النفوذ الأجنبي .
والمتنبي مكروه في الغرب وفي الاستشراق لأنه شاعر سيف الدولة ، ذلك
الأمير المجاهد الذي قاوم دولة الروم على الحدود مع الشام وحمل في وجهها
سيف الجهاد سنوات طويلة فأدال منهم وكان لشعره أثر كبير في بعث الحماسة
في قلوب أولئك المقاتلين الذين قاوموا نفوذ الدولة الرومانية الشرقية ولذلك
فكان لا بد أن يهاجم المستشرق (بلاشير) هجوماً عاصفاً شنيعاً ويؤلب
عليه ويدعو كتاب العرب من أوليائهم لكتابة دراسة تكشف عن دخال
هذا الشاعر الضخم وكان أول من لبى النداء هو الدكتور طه حسين الذي وجد
مفتاح الهجوم على المتنبي في تلك الدعوة المبجلة : وهي ما ادعاه عليه من أنه
كان لقيطاً بحجة أنه لم يذكر أباه في شعره صراحة .

ويرى (بلاشير) أن إحياء المتنبي كان بهدف انبعاث أعقائد القومية
والوحدة العربية الشاملة في البلاد العربية في هذه الفترة يقول :

إن شهرة المتنبي في وقتنا هذا صادرة عن ينبوع آخر : هو تلك
المؤثرات القومية والعربية الشاملة التي تحمل المسلمين على أن ينقبوا في
(شرق) القرون الوسطى عن رجال يقاتلون بهم رجال الغرب ، تجعل
من مآدح أمراء سوريا ومصر وفارس ممثلاً للعبقرية العربية ، منتصباً تجاه
العبقرية الأعجمية ، وهكذا يظهر المتنبي بمظهر فيزي أو جوته بل بمظهر
نيتشة شرق يبرهن بمقدرة باهرة على المساواة الثقافية في بلاد هي اليوم تحت
وصاية أوروبا الفكرية والسياسية . . إلخ .

وهكذا نجد أن دراسة طه حسين كانت استجابة لهدف استشراقي ضخم ،
هو هدم شخصية عربية القس فيها العرب في هذه الفترة وسيلة للدفاع عن
وجودهم ومقاومة الاستعمار الأجنبي الذي يفرض عليهم نفوذه ومطامعه ،
فلذا اتخذوا من أمثال المتنبي بطولية يتحدثون من حولها عن الحرية والبطولة
كان لا بد أن يضرب هذا الهدف وأن يוכל هذا الأمر لرجل يكتب بالعربية
فتحمس طه حسين ليستعمل مذهب الشك الفلسفي فيهم المتنبي بأسوأ تهمة
وهو أنه « لقيط » ولما كان الأستاذ محمود محمد شاكر قد أصدر قبل وقت
دراسة عن المتنبي قرأها طه حسين فإنه لذلك دار بينهم في هذا حديث :
يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : أراد الدكتور طه أن يخلص إلى القول
بأن مولد المتنبي كان شاذاً وأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته
كلها ، وسبب الشك هو أنك إذا قرأت ديوان أبي الطيب لا تجد فيه ذكراً
للأبيه ، أنك تجده لم يمدحه ولم يفخر به ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه .

يذهب الدكتور طه حسين إلى أن المتنبي (لقيط لغية) وكان من حديثه
لي أن قال : أنت تذهب إلى أن المتنبي علوي النسب وأنا قرأت هذا الفصل
وأوافقك على الشك في النسب ولكني لا أوافقك على أنه علوي ، ثم ماذا
يا فلان ، لو قلنا إن المتنبي لقيط - وقد والله خيل إلى أن الشيطان فاغر فاه يبنى
وبين الرجل فرجفت رجفة وعدت بالله .

ثم قلت له : إن هذا رأي منقوض من وجوه ، وهو على كل حال
نتيجة للشك في نسب المتنبي مع التوقف عند هذا الشك قبل القول بأنه علوي
أو جعفي ، أو هذا وذاك ، أخذ الشك من النسب مني وعجز أن يقول شيئاً
في نسب جديد يلصقه به ، وهذا الرأي وحده هو سر اهتمام الدكتور طه حسين
بالكتابة عن المتنبي فلم يكن وقع عليه ما كتب عنه .

ويقول طه حسين : وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء إلى وآثرهم
عندي ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب والإثارة ، ولقد
أتى على حين من الدهر لم يكن يخطر لي أن سأعني بالمتنبي ، أو أطيل صحبته
أو أديم التفكير فيه « فلولا أنه شك في نسب أبي الطيب وانتهى إلى أنه (لقيط)
لما كتب عنه حرفاً واحداً لأنه لا يحب الرجل ولا قننه . وقد شرح المازني

ذلك في كتابه (قبض الريح) قال (ص ٨٣) : ولقد لفتني من الدكتور طه حسين في كتابته (حديث الأريعاء) و (قصص تمثيلية) أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجر والزناقة) .

وما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن المتنبي (لم يكن يعرف أباه ، ولم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه ، وأنه كان يشعر بالضعف والضعف من ناحية أسرته ، لم يستطع الدكتور الجليل أن يأتي بيت واحد من ديوان أبي الطيب يؤيد به هذا الرأي ، ومع ذلك هو يقول به ويكرره ويعيده .

أين وجد المتنبي يشعر بالضعف أو ينكر أمر نفسه أو أمر أسرته وأين هذا الأثر الذي أتاح له أن يقتنع بأن مولد المتنبي كان شاذاً وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها . لم يشر الدكتور طه في موضع واحد إلى حكاية هذا النسب فهو بذلك عاجز من ناحيتين : ناحية شعر المتنبي وعاجز من ناحية تفسير حياة المتنبي وتحليلها على ضوء هذه الصفة وهذا المولد الشاذ . وكبر مقتا عند الله وعند الناس . (البلاغ ٢٧ / ٢ / ١٩٣٧) .

(٤)

وقد أشار الأستاذ (محمد خالد) أبو خلدون) إلى ترجمة الدكتور للمتنبي فقال : إنه يتبع فضائل أبي الطيب وما تحله الناس إياه من الفضائل فينسجها واحدة بعد واحدة ويعمد إلى القواعد التي أقام التاريخ عليها مجد المتنبي فينتقصها قاعدة بعد قاعدة ، وما زال به حتى جرده منها جميعاً وأصاره إلى شيء ضئيل تزور عنه العين وتعافه النفس ، إن رجع تلك الصدمة العتيقة التي لاقيتها حين رأيت الدكتور يحاول هدم أبي الطيب المتنبي ويحط منه وهو الشاعر الذي زين الشعر العربي وجمله ونفح منه من روح الفتوة والحماسة ، إن الدكتور طه حسين قد أقام كثير من قضاياه على أبي الطيب مقام الافتراض والظن ثم ذهب يعرض تلك القضايا كأنها قضايا قائمة على حقائق ثابتة ووقائع تاهضة ، وفي هذا من الظلم لأبي الطيب والتحاميل عليه ما لا يخفى ومما يزيد هذا الظلم سوء مغبة أن المواضيع التي أقام الدكتور طه حسين قضاياه لتأييدها

ولياتها هما من المواضيع الخطيرة التي تقترح نتائجها في المترجم له وتهدى به إلى الحضيض . وحق قضايها مثل هذه أن لا تقوم على الطعن والافتراض بل على اليقين والواقع ، من مثل هذا أن الدكتور اجتهد بل ألح إلحاحاً شديداً في الزرابة على نسب أبي الطيب حتى لقد خيل إلى وأنا أقرأ الفصول التي كتبها عن مولده وآبائه الأذنين أن الدكتور يهني ذهن القارئ نتيجة لموقفه هي أشنع ما يمكن أن يقترح بها في إنسان من عامة الناس ، بل أمثال أبي الطيب من ذوى الأنفة والحمية ، فإنه فهم ما عناه من تلك المقدمات الطويلة ولمح على كره النتيجة التي تنهى إليها هذه المقدمات إن صحت ، وهي أن المتنبي ممن يوصف بأنه « ابن أبيه » وقد استند الدكتور طه حسين في هذا الحكم الموبق إلى شيء واحد هو أن والد المتنبي لم يرد له ذكر في شعره .

وفي الكتاب كثير من هذه الأمثلة التي تؤيد ما أسلفنا ذكره من أن الدكتور طه حسين قد اعتمد كثيراً على ظنه واستخلص من وراء هذا الظن نتائج خطيرة بعيدة الأثر .

(٥)

ويقول الأستاذ خليل شيبوب (الأهرام ٢٧ / ٣ / ١٩٣٧) إن طريقة الدكتور طه حسين في نقد المتنبي ليست هي الطريقة العلمية التي راعت الأستاذ ابن خلدون لأنها ذاتية لا موضوعية ، بدليل تقريره أن المتنبي ليس أحب الشعراء إليه فلا عجب في ذلك بل العجب أن يكون غير ذلك . والمتنبي رجل خشن المحس ، صلب العود ، أكثر من ذكر الدم والقتل ، ووصف الحرب ومجانبة اللهو وطمح إلى الملك والإمارة وجاب آفاق الشرق من مصر إلى العجم قلقاً نافرأ مطارداً ، أمثلة عليها لا يحققها ، والدكتور طه حسين رجل ناعم النفس وادع الخلق لين العريكة دمث الجانب يحب المفاكهة والمداعبة والنكتة الباردة مطمئن القلب ، لا يكون حبيباً إلى نفسه إلا شاعر كالبحتري وأبنا نواس ، ولذلك جاء نقد الدكتور طه حسين متمشياً مع عاطفته وذوقه لأمع الجمال الموضوعي في المنقود والفن المستقل الذي يشع عنه ، ودون التفات إلى اللذة النفسية التي يثيرها أو لا يثيرها ، وإذا حاول مرات

أن يتخلص من مؤثرات نفسية ويسير في نقده على ضوء الفن المجرد ، فإنه سرعان ما كان يقتضب البحث ويختصر الطريق ويعود إلى محبته وطبعه .

قال إناطول فرانس : النقد كما أفهمه ضرب من القصص تتداوله العقول وكل قصص إذا حسن تناوله ترجم حياة كاتبه ، فالناقد المجيد من قص حوادث نفسه في ثنايا الوقائع الأدبية ولكن يبقى الناقد جريئاً يجب عليه أن يقول أيها السادة : سأكلّمكم عن نفسي بمناسبة شكسبير وبمناسبة راسين وبسكال أو غوته فلنأخذ الفرصة جميلة .

وهذا ما فعله الدكتور طه حسين ، وكان صريحاً جداً لأنه أعلنه من غير مداراة ولا التواء ، فهذه هي الطريقة الذاتية في النقد التي يعنى الناقد على مقتضاها بذاته وبنفسه أكثر مما يعنى بذات المنقود وحينما جابه قراء العربية بما ينطوى عليه من دعاية ومفاكهة راع مثل صديقنا الأستاذ خلدون إذ ظن أنها الطريقة العلمية التي تبني وتهدم ، وفيها أسرار التركيب والتحليل ، أما الذي ثبت لها ثبات الطود ولم تنل منه فشلاً ، فالمتنبى نفسه وإذا كان قد طال عمجي وإعجابي من براعة الدكتور طه حسين إلا أن الروعة الصحيحة لا تزال تملكني كلما جرى ذكر المتنبى وحسب عبقريته أنه لا تزال تؤلف فيه الكتب وتدرس أشعاره على أحدث طرائق النقد .

وردت مزاعم في الدراسة ، وكل ما فيها قائم على استنتاج واستنباط هما أقرب إلى الاستبداد والتحكم ، وكان آخر من توسع في الكلام عليه صاحب المنبي المتوفى في القرن الحادى عشر للهجرة ما ورد . فأورد في سياق حديثه أموراً كثيرة استقل بتقريرها ولا شك أن الأستاذ بلاشير وغيره من الغربيين إنما رجعوا إلى هذه المصادر العربية وكتبوا ما كتبه على طريقتهم التي يشغف بها الدكتور طه ويتنهجها . أما الديق صاحب المنبي فأغلب الظن أنه لم يتدع الوقائع التي سررها ، بل لأن أنه طالعها مبصرة في كتب كانت عنده فجمعها على طريقته في التأليف . أما هذه الكتب فلا شك إما أنها فقدت فأقفل بفقدائها باب البحث في محبة ترجمة الديق للمتنبى أو أنها تحت أطباق من التراب في إحدى مكاتب الدنيا .

يقول الأستاذ محي الدين صبحي :

لقد كتب المستشرق رينجيش بلاشير كتاباً عن حياة المتنبي جاء آية من آيات التحقيق التاريخي ، وهو في الوقت ذاته كتاب مثير للاهتمام في تحقيره للعرب بثقافتهم وشعرهم ، جهادهم وحضارتهم ، أنكر فيه بلاشير على سيف الدولة كل عظمة أو نصر في حروبه مع بيزنطة ، وبالغ في إبراز طابع البداوة غالباً على الحضارة والبلاطات العربية ، ليغزو فصائل المدنية إلى الفرس والفلسفة إلى اليونان بحيث أرجع إلى أرسطو معظم معاني المتنبي ، والعلوم إلى الهند ، فلم يبق للعرب مع هذه البداوة سوى إمارات مجزقة متناصرة انفرد العرب منها بإمارتي الموصل وحلب لمحمدانيين . يأخذ بلاشير على المتنبي إيمانه بعرويته ، بل يتخذ من هذا الإيمان مطعناً عليه يتخذ به إلى السخرية بالشاعر وبأميره سيف الدولة وبالأمّة التي أنجبتهما ففي سنة (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) كان المتنبي في فلسطين عند أمير الرملة التابع للأخشيديين في مصر ، وكان له أن يختار بين سيف الدولة في حلب ، وكافور الإخشيد في القسطنطينية ، فكان اختياره التاريخي بطبيعة الحال أن اتجه إلى سيف الدولة فلتنظر بأي ابتذال وحذقة عرقية ساخرة يعلل ويحلل بلاشير خيار المتنبي ذلك . ويشير إلى أن المتنبي العربي القح ، الذي شعر بالهوان من جراء الانحناء أمام زنجي وعبد سابق هو كافور . هذه نقمة بلاشير في كتابه عن المتنبي استهانة بالأمّة العربية كلها توصلته إلى الاستهانة بشاعرها الأعظم ومواقفه القومية .

إن بلاشير يسلم بعظمة المتنبي لكنه لا يغفر له اختياره العربي ، فتجد بلاشير بغض من قيمة السيوفيات (قصائد المتنبي في سيف الدولة) وقيمها تقييماً مجحفاً من خلال حقهده على تحديات سيف الدولة لبيزنطة وانتصاره عليها : (لا بد لنا أخيراً من قبيل النصفة من الاعتراف بأن المتنبي أجاد طوال تسع سنين ، العزف برشاقة دوماً ، وإخلاص أحياناً على الآلة التي ارتضاها لنفسه ، وأنه استعمل بخاصة ، دقائق فنه ومهاراته كلها ، وحيل مهنته كلها . ليوسع بعد هذا موضوعاً وحيداً ، ألا وهو تمجيد عظمة أمير شامى صغير ،

أى باختصار لا يرى بلاشير أن من حق المتنبي أن يمدح سيف الدولة أو يستلهم بطولاته . وقد رد طه حسين على بلاشير رداً مباشراً لا لبس فيه ولا التواء حين درس سيبقيات المتنبي في أفضل فصول كتابه عن المتنبي ، ويصور عجز بلاشير عن تذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي لاختلاف المزاج والطبع . والدين أيضاً وهذه شجاعة محمد لطفه حسين لو قرن إليها شيئاً من الأمانة العلمية والزاهة الشخصية .

فإذا فعل طه حسين بالمتنبي ؟

أغار على التحقيق التاريخي الذي أنفق بلاشير عشر سنوات لإثباته (ولولاه لما كان لكتاب بلاشير أية قيمة) ، فسلخه سلبخ الأهاب وادعاه لنفسه في يسر ودعه وهون وخفض من العيش وراحة الضمير . وانقض على آثار كل من كتب في شعر المتنبي وحياته من القدماء والمعاصرين بحيث لا يحمل إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة قول العلامة محمود شاكر : إن كتاب (مع المتنبي) للدكتور طه حسين هو في الحقيقة حاشية كبرى على ثلاثة كتب : أولها كشاف ، ثم كتاب الدكتور عبد الرهاب عزام . ثم كتاب المستشرق الفرنسي بلاشير عن المتنبي .

وقد غاب عن محمود شاكر ما هو أعلم منا به . فلم يذكر أن طه حسين إن كان سارق التحقيق التاريخي من بلاشير فقد سرق أحكامه النقدية من كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي علي عبد العزيز الجرجاني سنة (١٣٩٢ هـ) مستفيداً من كل ما في هذا المصدر المتعمق من مناقشات غنية في اللغة والنحو والمعاني والأدب والنقد ، فضلاً عن شروح الواحدى والمكبرى وغيره دون أن يشير إلى مصدر واحد من هذه المصادر إلا حين يستدرك عليه بخطأ أو زيادة .

عند ذلك يذكر طه حسين الكاتب وينبه على غلظه أو نقصيره ، ويظهر هو بمظهر المصحح والمفكر الذي يضيف إلى التراث — وإن كانت الإضافات المزعومة ليست أكثر من نثرات جمع طه حسين فتاتها من مصادر أخرى بمهارة لا يتقنها سواه .

هذا من ناحية الأمانة العلمية ، أو بالأحرى انعدام الأمانة العلمية عند طه حسين .

أما النزاهة الشخصية ، فعلاقة طه حسين بها أسوأ بكثير جداً من علاقته بالأمانة العلمية ، فقل إن عرف تاريخ الأدب والنقد باحثاً مثله يسخر دراساته لصقل صورته الشخصية في محبلة القارئ وسيلة إلى إصدار أخلاقية قاسية على شخصيات الشعراء وسلوكهم .

هذا الخلط بين السيرة والنقد والتقويم الخلقى ، يؤدي بطله حسين دائماً إلى انعدام النزاهة لأنه يربط تلك العناصر الثلاثة جميعها لشخصية المتعالى عن الدنيا ، والمسافة بعد ذلك قصيرة بين انعدام النزاهة وانعدام الموضوعية ، فحين يدس الباحث شخصية بين عقله وبين الأديب موضوع الدراسة ، يغدو الميل مع الموى أقرب مثالا عند الدارس من التجرد المفترض في الحكم الموضوعى . فقد وضع طه حسين كتابه (مع المتنبي) ليحط من شخصية الشاعر وإن كان قد سلم بعظمة شعره ، كان طه حسين يتأذى أن يرى العرب في المتنبي عظيماً من عظماء هذه الأمة ، فلم يترك صغاراً ولا هواناً أو إلحاداً إلا ألصقه به وإمعاناً من طه حسين في الكيد للمتنبي فإنه يجعل كافوراً في موقع السيامى الحقيقي الذى يفر من شاعر طامع ، ولا أدري إذا كان تصغير المتنبي يجعل من طه حسين شيئاً كبيراً بحال من الأحوال ، غير أن إلصاق الدنيا بالأدباء يقع في روع القارئ أن طه حسين يتبرأ منها ومنهم . ويرفع عنها وعنهم ، وقد فعل ذلك بمعظم من تناولهم في (حديث الأربعماء) .

وتحدث الكاتب عن ما أسماه الدور التفضيلى الذى يقوم به نتاج طه حسين ، أنه ينشر أفكاراً مضللة ، سطحية أو عامة ، أو مبالغاً في مثالياتها أو انحطاطها ، عن حياة الأدباء وأدبهم ، وبالتالي فإن كتبه لا تصلح مراجع تاريخية لأنها ليست بتاريخ ولا تصلح لأن تكون مراجع نقدية لأنها ليست بنقد أدبى . ولا تصلح أن تكون مراجع علمية لأنها ليست من البحث العلمى فى شيء ، ولن نجد موضوعاً طرقة طه حسين يصلح لباحث جاد أن يعتمد على نتائجه لتواصل البحث انطلاقاً منها ، بل لابد لكل باحث من أن يبدأ أولاً بتمحيص ما جاء به طه حسين ونحله ليرى ما تبقى لديه من حصيلة هذا الغناء الأخرى

وإذا كانت كتابات طه حسين لا تصلح للباحث فهي شديدة الخطر على الطلاب في الجامعة وما قبلها لأنها تملأ أذهانهم بأوهام وأباطيل عن الأدب العربي يصعب اقتلاعها منهم بعد ذلك ، فيشار طه حسين وأدبه هما غير بشار الحقيقى وأدبه ، ومتنبى طه حسين وشعره هما غير المتنبى التاريخى . مثل ذلك عن الصحابة وفى كل ما دار على قلم طه حسين أو لسانه . فتناجيه يبلبل الأفكار الناشئة مثلما يقف حجر عثرة فى طريق البحث العلمى الرصين بحيث لا يستقيم الأمر دون إزالتها ، وسوف يحتاج الأمر إلى أجيال من الباحثين قبل أن يتم نهائياً تصفية التأثيرات المخلّة والضارة التى تركها عبث هذا الرجل وممالة الجامعين له باسم الليبرالية على نحو ما نجد اليوم من محالة للجهلة والأدعياء باسم التقدمية .

(الحوادث اللبنانية سنة ١٩٧٧ م)

• • •

(٧)

فلسفة ابن خلدون

كان كتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بمثابة أطروحة الدكتور طه حسين ، التى تقدم بها إلى جامعة السربون ، بإشراف أساتذته المستشرقين دور كايم ، وليئى بريل (اليرديان) وكازانوفا ، وقد كتبها بالفرنسية وترجمها الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وكانت أول صيغة من شرق ، لا تنقاص هذا العملاق الذى أشاد به علماء الشرق والغرب والذين أجمعوا الآراء على أنه منشئ علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد بشهادة علماء الغرب أنفسهم (قدم الرسالة للحصول على الدكتوراه عام ١٩١٧ م) .

فإذا فعل الدكتور طه حسين ؟

أولاً : أنكر على ابن خلدون نظريته الاجتماعية ومن رأيه أن ابن خلدون لا يستحق لقب (اجتماعى) .

ثانياً : شكك فى نشأة ابن خلدون ونسبه العربى .

لثالثاً : نقل آراء دور كتاب المؤرخ اليهودي من أتباع النظرية الماركسية وجعلها أساساً للبحث .

رابعاً : خلط بين المصادر ، ونسب إلى ابن خلدون اعتياده على كتب لم يقينها .

خامساً : لم يفهم مسائل التاريخ الأساسية وزعم أنه جمع آراءه في علم الاجتماع من قضايا التاريخ . ولم يلاحظ العالم الاجتماعي الواقعي .

سادساً : اتهمه بأن أسلوبه مضمحل جداً ، تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات .

سابعاً : قال : إن طريقة البحث التي لجأ إليها كانت محدودة وناقصة وأنه بقي جاهلاً بطريقة استنتاج التاريخ من الآثار .

ثامناً : ادعى أن هناك تناقضاً منطقياً في طريقته في البحث .

تاسعاً : هاجم أهل المغرب في مقاومتهم للاستعمار الفرنسي .

عاشراً : اعتمد على المستشرقين ، وجهل المنهج الإسلامي في - مراجعة المصادر .

وقد ظهرت أبحاث عديدة تكشف زيف طه حسين ، وفساد اتهاماته لعلاق التاريخ (ابن خلدون) في مقدمتهم : الدكتور علي عبد الواحد وافي . والأستاذ ساطع الحصري ، والسيد محب الدين الخطيب رحمه الله ، والدكتور عمر فروخ .

أما أسلوب ابن خلدون ، فقد وصفه طه حسين بأنه كآسلوب معاصريه مضمحل جداً تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات والمقامات التي يكثر فيها التكلف ، وقال وافي : الحقيقة إن هذا الوصف لا يصدق إلا على خطبة الكتاب التي لا تستغرق إلا بضع صفحات ، وهي ليست في الحقيقة جزءاً من المقدمة . بل هي ديباجة لكتاب العبر كله . وقد تعتمد ابن خلدون تعمداً أن يخرج فيها عن طريقته ويصوغها في هذا الأسلوب ، ذلك لأن افتتاحيات الكتب كانت تعد في عصره وسيلة لإظهار البراعة والتمكن من مفردات اللغة ، والقدرة على اللعب بالألفاظ والتراكيب فجاري عصره في ذلك حتى لا يتهم بالضعف .

وبالنسبة لطريقة البحث التي اعتمدها ابن خلدون ، فقد وصفها طه حسين بأنها كانت محدودة وناقصة . وقوله : إنه كان يزعم أن المعلومات التاريخية تأتي من الأخبار المكتوبة أو المروية وحدها ، وأنه بقي جاهلاً لطريقة استنتاج التاريخ من الآثار . قال الدكتور وافي : إن عدم توصل ابن خلدون إلى طريقة معرفة التاريخ من الآثار المادية لا تجرد عمله من صبغته العلمية بوجه من الوجوه . وأن الأمر الذي يترتب علينا في هذا الصدد ليس أن نبحث فيما إذا كان ابن خلدون قد عرف طرائق البحث في التاريخ أم لم يعرفها . بل هو أن نبحث فيما إذا كان قد سار على طريقة علمية في الساحة التي لاحظها والوسائل التي انتهى إليها .

وفي مواجهة قول طه حسين عن ابن خلدون (بوجود تناقض منطقي في طريقته) ، يقول الدكتور وافي : لو صح وجود هذا التناقض - لنفي عن عمل ابن خلدون كل صفة علمية بطبيعة الحال ، غير أن ما يزعم الدكتور في هذا الصدد ، لا ينطبق على آراء ابن خلدون بوجه من الوجوه . كما أنه يخالف الحقائق التاريخية والاجتماعية أيضاً من كل الوجوه .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : يدعى الدكتور طه بأن ابن خلدون يرى أن الوسيلة لدرس المجتمع البشري هي ملاحظة الوقائع التاريخية . غير أن ابن خلدون لم يقل أبداً : إن وسيلة دراسة علم العمران المذكورة ، هي درس علم العمران ، مع ملاحظة الوقائع التاريخية ، بل أنه قال بصراحة تامة : إن الوسيلة المذكورة هي درس المجتمعات الحالية والوقائع المشهورة .

لهذا السبب نحن نرى أن طه حسين عندما ادعى بأن ابن خلدون يستند في علم العمران إلى التاريخ قد عزا إليه رأياً لم يقل به أبداً ، ونخطة لم يسلكها قط ، كما أنه قد تباعد عن الحقيقة تباعداً كلياً عندما توصل من ذلك إلى القول : بأن ابن خلدون دخل في مأزق فكري ، ووقع في شباك دور باطل غير منطقي . . ونحن نعتقد بأن رأي ابن خلدون في هذه القصة ، يدل بعكس ذلك على عبقرية فذة ، لأن الرأي المذكور يرفعه إلى مصاف علماء التاريخ والاجتماع الحديثين مباشرة .

ذلك لأن علاقة التاريخ بعلم الاجتماع من المسائل التي اهتم بها العلماء والمفكرون اهتماماً شديداً منذ أوائل القرن الحاضر .

أليس من الغريب أن يعتبر الدكتور طه محاولة ابن خلدون للاستفادة من علم العمران بالتاريخ محاولة فاشلة تنطوي على الدور الباطل والضلال المبين . ألا يتحقق لنا أن نقول : إن رأى ابن خلدون في وجوب الاستفادة من علم العمران في التاريخ كان من العبقريّة ، بعكس ما ذهب إليه طه حسين تماماً ؟ إننا نعتقد أن ابن خلدون دل في هذه القضية على بصيرة فائقة وعبقرية خارقة . إذ ابتدع طريقة جديدة في درس التاريخ وتفسيره ، طريقة لم يقدر أهميتها علماء الغرب ومفكروه إلا بعد مرور مدة تقرب من ستة قرون منذ ابتدع ابن خلدون لها .

أطروحة طه حسين :

ويتحدث الدكتور عبد الواحد وافي على أن أطروحة طه حسين عن فلسفة ابن خلدون تتميز بأمرين هما :

أولاً : عدم التعمق في درس المقدمة درساً حياً .

ثانياً : عدم ملاحظة تطورات علم الاجتماع ملاحظة شاملة وقال : (يظهر أن الدكتور طه كان يتمسك برأى واحد من الآراء المتضاربة التي قال بها علماء الاجتماع من غير أن يلاحظ أن ذلك الرأي قد يكون مخالفاً لآراء جماعات أخرى من علماء الاجتماع الحديثين ، ومن غير أن يلاحظ أن استحقاق ابن خلدون لقب (العالم الاجتماعي) لا يتبع موافقته أو عدم موافقته لمذهب واحد من مذاهب علم الاجتماع الحديث) . وما لم يقله الدكتور وافي هو أن هذا المذهب المخالف لعلماء الاجتماع هو مذهب دوركايم .

مراجع ابن خلدون :

ارتاب طه حسين في رسالته في أن يكون ابن خلدون قد درس في صباه جميع الكتب التي ذكرها . ويذهب إلى أنه ربما كان لا يعرف من بعض هذه الكتب إلا أسماءها وأنه ذكرها بقصد التمدح والتفاخر . ويؤكد شكه هذا بما ذكره ابن خلدون عن كتابين منهما وهما مختصر

ابن الحاجب في فقه الإمام مالك وكتاب الأغاني فيقول في صدد الكتاب الأول : (يذكر ابن خلدون أن مختصر ابن الحاجب كان من بين الكتب التي درسها في تونس ويعده ضمن كتب الفقه المالكي ، مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه ، بل هو كتاب في أصول الفقه وهو مؤلف جم الانتشار ولا يزال يدرس في الأزهر حتى يومنا هذا .

وقال في صدد كتاب (الأغاني) الشهير : فإنه في ترجمته يزعم أنه استظهر جزءاً منه ومن ثم فإننا نعتقد أن ابن خلدون لم يعرف منه سوى الاسم .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : والحقيقة إن جميع الكتب التي ذكرها ابن خلدون قد أتبع له دراستها دراسة عميقة ، بدليل ما ذكره في الباب السادس في مقدمته ، عن مسائل كل كتاب منها ، ومناهجه وخلاصة آراء مؤلفه وتاريخ تأليفه ، ومدى انتشاره على أنها ليست من الكثرة بحيث لا يتسع لها وقت طالب تفرغ للدراسة تفرغاً كاملاً زهاء خمسة عشر عاماً حتى لو كان طالباً عادياً . بله طالباً عبقرياً من طراز ابن خلدون .

مختصر ابن الحاجب في الفقه وليس في الأصول :

وليس بصحيح ما ذكره طه حسين في صدد مختصر ابن الحاجب ، فالحقيقة أن لابن الحاجب مختصراً مشهوراً في فقه الإمام مالك يسمى المختصر الفقهى أو الفرعى ، وقد عني بشرحه كثير من المغاربة ، وهذا الكتاب هو الذي عناه ابن خلدون وظن طه حسين عدم وجوده . أما ما يسمى بالمختصر من مؤلفات ابن الحاجب في أصول الفقه ، وهو الذي تحدث عنه طه حسين فهو عبارة عن مختصرين اثنين لا مختصر واحد لكتاب الأحكام للآمدي ، ويسمى أوسعهما المختصر الكبير ، واشتهر أصغرهما باسم المختصر أو المختصر الصغير .

والعجيب أن ينهم مثل ابن خلدون وقد كان إماماً في الفقه وقاضى قضاء المالكية في أرقى بلد إسلامي في هذا العهد ، وهو مصر . وقد تولى تدريس الفقه المالكي في المغرب وفي مصر وفي الأزهر نفسه ، والعجيب أن ينهم رجل هذا شأنه بأنه يجهل ما ألف في هذا الذهب ، وبأنه يتباهى بأنه درس

في هذا المذهب مختصراً لا وجود له . والحقيقة أن ابن خلدون قد قرأ كتاب (الأغاني) وحفظ كثيراً من أشعاره بدليل ما نقل من نصوص هذا الكتاب في مقدمته وفي كتاب العبر . وقد كان الكتاب في مكتبة الناصر الأموي بالأندلس . هذا إلى أن ابن خلدون قد نقل من كتاب (الأغاني) في تاريخه العبر عدة نصوص ، ولم يرد في كلام ابن خلدون ما نسب إليه طه حسين من استحالة الحصول على نسخة من كتاب (الأغاني) في عصره .

ولعل الدكتور طه قد اعتمد في ذلك على ترجمة فرنسية غير صحيحة للمستشرق روسلان لعبارة وردت في مقدمة ابن خلدون عن كتاب (الأغاني) وهي قوله : (ولا يعدل بكتاب الأغاني في ذلك) في فنون شعر العرب وتاريخهم وأيامهم » كتاب فيما تعلمه وهره أي كتاب الأغاني » الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها) .

فلم يفهم روسلان المترجم الفرنسي معنى عبارة (فأنى له بها) فترجمها إلى (كيف يمكن الحصول على هذا الكتاب) .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : إن طه حسين في مسهل حياته العلمية لم يكن علم الاجتماع من فروع تخصصه ، فخفيت عليه عظمة ابن خلدون وأصالة بحوثه ، ولم يوفق في دراسة معظم النواحي التي عرض لها في الرسالة . وقد تصدى للرد على طه حسين بشيء من التفصيل ، ساطع الحصري بمقالات جمعها في كتابه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) .

يقول ساطع الحصري : مما يؤسف له كل الأسف أن الدكتور طه حسين كان قد كتب هذه الأطروحة المذكورة ، عندما كان حديث عهد بدراسة علم الاجتماع ، فلم يكن قد أحاط علماً بنظريات علم الاجتماع وتاريخه الإحاطة الكاملة ويظهر أنه كان مدفوعاً في الوقت نفسه ، بروح انتقاد عنيفة حملته على نقد العلماء الغربيين الذين قد بهرتهم (طرافة ابن خلدون) حسب تعبيره وجعلهم يرون فيه فيلسوفاً حديثاً .

وقد اعتقد جماعة منهم أن ابن خلدون كان أول من أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، غير أن الدكتور اندفع في الاعتراض عليهم صائحاً :

ابن خلدون لم يفكر في ذلك مطلقاً ، وقال عن تلقيه بالعالم الاجتماعى :
إن ذلك يكون مبالغة كبيرة .

وقد اعترض طه حسين على جماعة العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون سبق المذاهب الحديثة التى ترى إلى جعل التاريخ علماً لا فناً أدبياً ، وزعم أن طريقة ابن خلدون فى التاريخ خاطئة من أساسها .

إن العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، بنوا قولهم هذا على ما شاهدوه فى المقدمة من الملاحظات والمحاولات التى استهدفت اكتشاف تلك القوانين . وبيان تلك العلل والأسباب ، لا على معنى واحد من معانى كلمة واحدة ، فها لا مجال للشك فيه أن (المقدمة) كانت محاولة صريحة لبحث الوقائع التاريخية بحثاً علمياً ، مهما كان حظ المحاولة من النجاح والإصابة ، وهذا يبرر تماماً قول القائلين : بأن ابن خلدون كان أول من حاول جعل التاريخ علماً .

دور كايم صاحب النظرية الأصلية :

وقد أجمعت الأبحاث التى ردت على مفتريات طه حسين نحو ابن خلدون ، بأن عميد الأدب درس ابن خلدون فى ضوء نظرية دور كايم المادية التى كانت أساس منهج المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى ترى أن (اتحاد الجماعة مصدر لعلم الاجتماع ، لا الفرد) وتقول هذه النظرية بالجزء التاريخي .

والمعروف أن دور كايم كان أستاذاً طه حسين فى السربون ، والمشرف على رسالته وأنه توفى قبل أن تناقش الرسالة وضاع على الدكتور طه ذلك الاتجاه التبعية المسف . الذى مضى إليه فى اعتناق آراء الكاتب اليهودى ، وأنكر - هو العربى المسلم - فضل رجل يفخر به كل عربى مسلم ، بل ولقد وجد من علماء الغرب غاية التقدير والإنصاف ، فأى سبة لطله حسين أكبر من أنه يلمطخ وجه عظيم من عظماء أمتنا فى محفل غربى حاقد ، وينقصه ثم يشاء الله أن لا يبلغ غايته فى تفادى الأستاذ المشرف اليهودى .

ولقد كان الحق على ابن خلدون راجعاً إلى أن منهجه استمد من القرآن الكريم وليس من أى مصدر آخر .

ويقرر الدكتور محمد غلاب في مقاله بمجلة النهضة الفكرية (٢٦ أكتوبر عام ١٩٣١) أن طه حسين تعامل على ابن خلدون ونفى عنه صفة الاجتماعي من أجل إرضاء أعضاء لجنة الامتحان . الذين كانوا يرون أن ابن خلدون لا يستحق لقب اجتماعي . فاندفع وراهم إلقاء شرهم أو قسوتهم . وقد أشار الباحثون إلى أنه نقل آراء دور كايم عن ابن خلدون واعتبرها أساساً للبحث ودور كايم مؤرخ يهودي من أتباع النظرية الماركسية ورأيه في ابن خلدون مشوب بالتعصب .

وقد اعترف الباحثون الغربيون المنصفون بسبق (ابن خلدون) للفلاسفة الغربيين في وضع أسس الاجتماع والاقتصاد السياسي . أمثال : آدم سميث وأوغست كونت . وبينهما أربعة قرون كاملة .

وقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس استمداده من القرآن الكريم . وقرر أن الظواهر العمرانية في تراثها وتواليها تحكمها قوانين . وكانت وسيلته في الدراسة الاستقراء والقياس . . ومن هذه المقدمة بدأت بذور الفكر الاقتصادي مما عده الباحثون من بعد نقطة بدء للمدرسة العلمية في الاقتصاد . وقد أكد المنصفون من الباحثين أن آراءه لم تكن مجرد جمع لمعارف متنوعة ولكنها جاءت كمعمل منظم ومرتب ينطبق عليه لفظ العلم في معناه الدقيق . وقال شميدت في كتابه :

Ibn Kaldoun. Historian Sociologist and Philosopher .

إنه مما يطلق عليه لفظ Wissenschaft وليس مجرد لفظ Wissen وأن البحوث الحديثة وإن كانت تستند إلى وسائل بحث أنجع إلا أنها في شكلها وموضوعها مماثلة لبحوثه .

وقال استفانو كروازيو الإيطالي : إن هذا المؤرخ العربي العظيم اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيديران ، وماركس ، وباكونين بعدة قرون ، وإن ما يعزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية يجعله إماماً لاقتصادى هذا العصر .

فلسفة التاريخ :

ويقول أرنولد توينبي الفيلسوف والمؤرخ البريطاني : إن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ (فلسفة التاريخ) وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى في أى زمان ومكان .

ويقول سارتون في كتابه (مدخل العلم) : إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره إلى اصطلاح ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي .

وفي القاهرة حيث عاش ابن خلدون ودفن عقد أضخم مؤتمراً لابن خلدون عام ١٩٦٢ جمعت أبحاثه في مجلد ضخم بلغ ٨٠٠ صفحة يمكن أن يقدم لطله حسين وأساتذة التفريب .

إنه من دواعي الأسف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون أنفسهم ولكن الذي يؤسف له حقاً أن يقوم بعض الشرقيين يحطون من قدر ابن خلدون بعد أن جهد الغربيون كل جهد في نشر فضائله وإظهارها .

ويشير الدكتور غلاب إلى ملاحظة أخرى : هو أن الدكتور طه في رسالته عن ابن خلدون يرى عرب إفريقيا الشمالية بالهمجية والذوحش ، ويستدل على هذه الدعوة بأن الفرنسيين عانوا مشقة شديدة في سبيل إخضاعهم ويزعم أن ابن خلدون حظى في إسناده هذا العصيان من جانب عرب المغرب إلى العزة والإباء . ويقول : بل إن الفرنسيين قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة في مراكش في سبيل بسط حضارتهم .

ويعلق السيد محب الدين الخطيب على أخطاء طه حسين في مصادر ابن خلدون فيقول : إن طه حسين لم يسمع باسم كتاب مختصر ابن الحاجب ومن ثم يجب أن يكون ابن خلدون كاذباً . إنه لو كان صادقاً لعرف ما عرفه طه حسين من أن مختصر ابن الحاجب في الأصول لا في الفروع . أرايت كيف اكتشف طه حسين أن ابن خلدون جاهل كاذب .

ولكن طه حسين كان سيئ الحظ . في هذا أيضاً كدأبه في كل ضربات معوله ، التي ينتجى بها على جدار الإسلام وسور الحضارة العربية التي

لا تموت . وكأني أسمع صفار التلاميذ من أتباع مالك بن أنس سواء كانوا في جامع الزيتونة أو في الجامع الأزهر ، ينادون طه حسين فيقولون له : على رسلك يا أستاذ ، فإن لابن الحاجب مختصرين ، وقد سمعت بأحدهما ، وغاب الآخر في جملة ما غاب عنك وهو كثير . لقد بلغ مختصر ابن الحاجب الفرعي من الشهرة المكان الذي لا يجهل حتى من صفار التلاميذ، ولو كان هذا الدكتور الجريئ متمرنًا على طرق التحقيق ومستأنسًا بأساليب البحث المأمونة العواقب ، لتأني كثيرًا قبل أن يهجم تلك الهجمة الخائبة المخزية على طود عظيم في الإسلام كابن خلدون ، ولدفعته السليقة العلمية إلى مراجعة (كشف الظنون) على الأقل وهو من الكتب التي يجب أن تكون دائماً تحت اليد ، ليري ما جاء في مختصر ابن الحاجب لأن المجهوم بلا سلاح على مثل هذا البطل الكبير ليس من الخيطة في شيء .

ويقول الدكتور شحاتة سفيان : إن عدم اعتراف طه حسين بابن خلدون في مقدمته مؤسساً لعلم الاجتماع مبالغة جسيمة . وإن كان هذا رأى طه حسين في ابن خلدون ، فإن كثيراً من علماء الاجتماع في مصر ودارسيه لا يؤيدونه بل يعتقدون أن ابن خلدون كان أول عالم من علماء الاجتماع .

وقال جورج سارطون : إنني أسمى العصر الذي سبق العصور الحديثة العالم كله : عصر ابن خلدون .

...

الفصل السادس

الدراسات الصهيونية

هناك عوامل متعددة تكشف عن صلة الدكتور طه بالفكر الصهيوني منذ خطواته الأولى في مجال الدراسة الجامعية في فرنسا تتمثل في اتصاله بجماعة المستشرقين اليهود المسيطرين على جامعة السربون وفي مقدمتهم المستشرق اليهودي دور كايم وتبنى آرائه في العلوم الاجتماعية وفي ابن خلدون وفي بشرية الأديان السماوية المنزلة ، كما ظهر ذلك في أكثر من موضع في كتاباته ودور كايم كان رأس مدرسة العلوم الاجتماعية التي تستمد مصادرها الأساسية من النظرية الماركسية والتفسير المادي للتاريخ ، ومن هنا فإن وجهة طه حسين يمكن أن تكون ذات شقين : شق صهيوني ، وشق ماركسي ولقد خطفت أبصار الناس في التعرف على طه حسين في مطالع شهرته إنكاره (وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وإنكار ذهابهما إلى مكة وبناء البيت الحرام) في عبارته الجريئة التي تقول : إنه مهما ذكر ذلك القرآن وذكرته التوراة فهو لا يعترف به .

لم يكن واضحاً في تلك اللحظات أن هذه (القنبلة) كانت لخدمة الصهيونية وإنما هي مقولتهم التي اعتمدوا عليها في إعلان الحركة الصهيونية وخداع العالم ولكن اعتماد طه حسين على نظرية دور كايم اليهودي في علم الاجتماع ونظرية مرجليوث اليهودي في الشعر الجاهلي أعطت علامات مميزة ما لبثت أن اتضح استقدام طه حسين اليهودي (إسرائيل ولفنسون) من فرنسا حيث أعده لتقديم أطروحته المشهورة عن (اليهود في جزيرة العرب) ثم جاء بعد ذلك اليهودي الآخر : بول كراوس .

في هذه الفترة تمت عمليات أخرى جريئة في هذا الاتجاه : أبرزها زيارة طه حسين للجامعة العبرية في القدس ، وزيارة إسرائيل . (وقد أشار إسماعيل

توفون رئيس إسرائيل إلى هذا الحدث في كلمته التي ألقاها في مصر ونشرتها الصحف في ١٧ / ١٠ / ١٩٨٠ م عندما صحب طه حسين في زيارته لبعض القرى التعاونية الإسرائيلية ، وقد تبين أن هذه هي الزيارة الثانية . أما الأولى فقد أعلن عنها الدكتور حسين فوزي (مجلة أكتوبر - ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٩ م) عندما قال : إنه زار إسرائيل عام ١٩٤٤ مع طه حسين الذي كان مديراً لجامعة القاهرة بالنيابة وطلب محمود فوزي قنصل مصر في القدس إلى طه حسين ألا يخبر أحداً من العرب أنه اتصل بأحد من اليهود ، وقد زار مع حسين فوزي كلية العلوم بالذات للاستدلال على مصادر الكتب الحديثة في أمريكا وآخر مبتكرات العلم .

أما الأمر الثاني : فهو تلك الزيارات المتصلة للمدارس الإسرائيلية في مصر ، والمحاضرات التي يريد طه حسين أن يقول فيها : إنه كان لليهود حضارة تأثرت بها الجزيرة العربية في فجر الإسلام .

أما الأمر الجليل الخطر فهو توليه دار الكاتب المصري اليهودية عام ١٩٤٥ وإصدار مجلة الكاتب المصري الشهرية وعدد من المؤلفات المترجمة ذات الغرض الواضح ، فإذا أضفنا إلى هذا محاولة طه حسين في تبرئة عبد الله بن سبأ اليهودي من تهمة الصريحة الواضحة في إثارة الفتنة بين المسلمين مما أدى إلى مقتل الخليفة عثمان عرفنا إلى أي مدى ذهب طه حسين في وجهته نحو خدمة الفكر الصهيوني الحديث .

(٢)

أطروحة إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية
وصلت الإسلام

يقول طه حسين في تقديم هذه الرسالة : الموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جداً في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية ، فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز وليس من شك في أن الخصومة

كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود ، وفي أنها قد استحال من الحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية ، ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام معروفاً على وجهه وإنما هي طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص .

فإذا كان عالمنا الشاب (يقصد إسرائيل ولفنسون) قد وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه الذي أقدمه أنا إلى القراء سعيدياً مغتبطاً بفترة مضاعف ، ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، وفق إلى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً في كتاب كانت اللغة العربية في حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة ... إلخ .

وقد كان هذا التصريح من طه حسين مرتبطاً بآرائه التي أذاعها في الجامعة المصرية (ونشرت في صحيفة الجامعة المصرية سنة ١٩٣٥) تحدث فيها عن اليهود وما حاول أن يجعل لهم من أثر ، لا في الحياة العربية فقط بل في الحياة الأدبية أيتها .

وقد كانت محاضراته أولاً في مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية في ديسمبر عام ١٩٤٣ عن اليهود والأدب العربي .

قالت مجلة الشمس اليهودية الصادرة باللغة العربية :

حفلت دار المدارس الإسرائيلية بالإسكندرية بعدد زاهر من أفاضل أهل الإسكندرية لحضور المحاضرة القيمة التي ألقاها عميد الأدب العربي دكتور طه حسين مساء الخميس ٢٣ ديسمبر وحضرها سيادة الحاخام أبرامو ، والحاخام فنشورا وقد قوطعت في كثير من مواضعها بعاصفة من التصفيق وأعلنت المدارس الإسرائيلية عن جائزة خصصت باسم الدكتور طه حسين تعطى سنوياً للفائز الأول . والفائزة الأولى في اللغة العربية .

وقد حرص طه حسين في محاضراته على إثبات أشياء معينة :

- أن الشعر اليهودي امتاز بالحث على الفضائل وإنكار الذات .
- امتاز اليهود بين إخوانهم العرب بالوفاء وطلب المثل العليا (شعر السموءل بن عادباء وربيعة بن الأشرف) .

— أخذ العرب عنهم فلسفتهم في أن الحياة وسيلة لا غاية واختلفوا عنهم في أن تكون الحياة للفرد وأنانيته ومتعه ومجونه كما يلاحظ في شعر طرفة ابن العبد .

— كان اليهود الدماغ المدبر للمالية والاقتصاد في عصر الامبراطورية العربية ، وكانت منهم طائفة كبيرة من العلماء في الإسكندرية عند دخول عمرو بن العاص .

— كانوا عنصراً أساسياً في غزو بلاد الأندلس ومساعدة طارق بن زياد ضد القوط .

— من نوابغ اليهود في الاقتصاد وإدارة أعمال الخزينة يعقوب بن كلس الذي وفد على مصر أيام كافور الأخشيدي وظل يتقلد في مناصب الدولة حتى أصبح وزيراً فرئيساً للوزراء ونظم المالية المصرية .

— كانت جهود اليهود هائلة جبارة أيام الدولة الأموية في أسبانيا وكان اليهود هم الذين نقلوا ثقافة العرب وتراث العرب إلى أوروبا .

وبالرغم من أن هذه النصوص محرفة وفيها مغالطات كبيرة فإنها كانت في هذه الفترة تمهد لقبول الكيان الصهيوني في البلاد العربية . يظهر ذلك من تعليق مجلة الشمس (٧ يناير عام ١٩٤٤) حيث يقول :

كانت محاضرة الدكتور طه حسين عن اليهود والأدب العربي آية على بقظة الشرق وعنايته بترائه ومظهر عملياً من تعامله وتساند بين أبناء العروبة وقد جاءت في الوقت المناسب تذكراً بما كان لليهود في العصور الخوالي من آباد بيضاء وفضل عظيم في نشر النور والعرفان وكانوا الواسطة إلى نقل ثقافة اليونان إلى الشرق كما نقلوا ثقافة العرب إلى أوروبا ، ولكن العنصر السامي الكريم الذي علم الإنسانية الإيمان والمثل العليا جوزى من الغرب جزاء سئار وما وقع لليهود في أوروبا في العصور القديمة والحديثة يدل على أن المثل العليا التي بشر بها الشرق لم تأت بالغرض المستور منها ، ولا تزال الجماعات اليهودية لا تجد الراحة في الغرب . واليهود عنصر كريم من الجنس السامي الذي يعرف اليوم بالعربي وصلات اليهود بسكان جزيرة العرب تعود إلى عصور قديمة جداً ، وكان لهم شأن كبير . وقد تركوا فيها تراثاً . . .

وقصارى القول أن اليهود ليسوا غرباء على العروبة أو الأدب العربى وهم يعتزون ويفتخرون بانتسابهم إلى الدول العربية ويعملون على تجديد ذلك الماضى المجيد .

وهذا هو الهدف . وهذه هى رسالة الدكتور طه حسين فى هذه الفترة . وقد عمد الدكتور طه حسين إلى تقرير ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود : أولاً : أن اليهود أثروا فى الأدب العربى أثراً كبيراً جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

ثانياً : أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

ثالثاً : أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وقد حاول ولغفنون بتأييد من طه حسين أن يثبت أن بنى إسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً فى الأدب والفن .

وقد ممكن الدكتور طه حسين للصهيونى إسرائيل ولغفنون تقديم أطروحة فى الجامعة المصرية عن اليهود فى بلاد العرب .

يقول الدكتور فؤاد حسنين : أن معظم ما أورده إسرائيل ولغفنون وأعانه عليه الدكتور طه حسين المشرف إنما هو كل ما أرادت الصهيونية إذاعته من آراء فى هذا البحث كان حلقة من حلقات الدعاية الصهيونية وما نقله ولغفنون فى رسالته من آراء كان القصد منها إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الأجنبية التى يجهلها القارئ اليوم فى الشرق ، وهذه الرسالة مشحونة بالأخطاء التى لا تصدر من طالب مبتدئ فى البحث وهى صدى للآراء التى كثيراً ما ردها الدكتور طه حسين فى الجامعة . فضلاً عن أن المراجع العربية لا تمت إلى البحث بصلة ، والدكتور طه حسين المشرف على الرسالة لا يعرف العربية ، وقد أخذ بالنتائج التى قدمها الباحث دون التحقق منها ودون الاستئارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية تقتضى غير ذلك .

وليس صحيحاً أن لليهود فضل عن العرب بل الفضل الحقيقى للعرب على

اليونان واليهود ، ولم تكن لغة اليهود حين نزلوا الجزيرة العربية إلا لغة ركيكة هي خليط من العبرانية والكلدانية واليونانية واليهود هم الذين أدخلوا من العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير وقد أحسن الإسلام معاملة اليهود . هذه هي الحقيقة العلمية التي نسوقها إلى الدكتور طه حسين وتلميذه الدكتور إسرائيل ولقنسون .

وهذا يكشف هوى الدكتور طه حسين وزينه فيما حاول هو وتلميذه اليهودي يضيفا إلى اليهود ما ليس لهم وما لم يكن منهم ، بل هو فضل خلعه على اليهود فما كان لليهود على العرب أو غيرهم على مر التاريخ البشري أى فضل .

لقد حاول ولقنسون أن يروج لمجموعة من الأكاذيب والمقتريات .

١ - حاول أن يدعى أن بنى إسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً من الأدب والفن .

٢ - حاول أن يدعى أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية وقد كان لها نفوذ وسلطان .

٣ - حاول أن يدعى أن (إبله) مدينة العقبة كانت مستعمرة يهودية منذ قديم وأن اليهود أدخلوا بلاد العرب طرقاً للحرارة والزراعة .

(٣)

جاء يهودي آخر إلى كلية الآداب هو بول كراوس . احتضنه الدكتور ويشتر به قبل قدومه من باريس ، وأشار إلى سعة علمه بالتراث العربي الإسلامي (وكان الدكتور طه حسين إذا أحب أسرف في حبه) وقد ظل كراوس في حيازة الدكتور طه في ظل نفوذه عميداً للكلية كان أو مجرد أستاذ بها .

يقول الدكتور نصار عبد الله :

« وكان كراوس حاقداً على الإسلام في وقت كان الحقد على الإسلام يتضمن الحقد على العروبة وأن من بين بحرته العلمية يبدو منها حرصه الشديد

على إحياء رسائل كتبها أئمة الملحدون في عصر الإلحاد والزندقة في الإسلام ، وإن كنت أنبه مقدماً إلى أن من ينهم بدراسة الإلحاد ويؤرخ له لا يتحتم أن يكون ملحداً . ولكن الدافع عند هذا المستشرق اليهودي قد يبدو على غير هذا الوجه ، فقد عني أشد العناية بأئمة الملحدون الذين اعتصموا بالعقل واعزوا بمنطقه ، واستهانوا بالإيمان الديني واستخفوا به . فمن أشهر الرسائل التي جدد في البحث عنها ونشرها بعد دراستها رسائل (ابن الراوندي) وكانت طعناً سافراً في الإسلام وهدماً صريحاً للنسبة ، وإبطالا للرسالات ومخرقة بالمعجزات . واستخفاً بإعجاز القرآن حتى جعل فصاحة (أكثم بن صيفي) تفوق فصاحة القرآن . وهكذا كان ابن الراوندي يبطن الزندقة ويقصد إلى زعزعة الإسلام في نفوس أهله . وكان من أحب المفكرين الإسلاميين إلى قلب ذلك المستشرق اليهودي محمد بن زكريا الرازي . حقيقة أنه كان من أعظم أطباء عصره . ولكن كراوس اهتم به ملحداً شغل نفسه بهدم النبوة استناداً إلى قيمة العقل ومنطقه ، وتصدى لهدم الأديان كلها . ربما لأن ذلك خطوة إلى زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس أهلها ، ونقد الرازي الكتب المقدسة وأبان عن فسادها وهاجم اعجاز القرآن نظماً وتأليفاً ومعنى ، وهكذا سار سيرة سلفه الملحد (ابن الراوندي) .

وقد ترجم له عبد الرحمن بدوي إلى العربية كتابه (شخصيات قلقة) وترجم له كثيراً من بحوثه ، وكان أخلص أصدقاء كراوس ، وقد نشر كراوس رسائل جابر بن حيان الذي يعده البعض معجزة العرب في العلم الطبيعي فاعتبره كراوس شخصية خرافية وليست شخصية واقعية وهو ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، واهتم كراوس أن يثبت الصلة بين كتبه المنحولة وآراء غلاة الشيعة الإسرائيلية ، وأشار الدكتور نصار عبد الله إلى أن حب المستشرق كراوس للعروبة ودفاعه عنها كان موضع شك كبير وتجمع الروايات على أنه كان حاقداً على الإسلام في وقت كان فيه الحقد على الإسلام يعني الحقد على العروبة ، وقد أثبت منذ فترة ضجة في مجلة الدوحة لإبراز كراوس ولكن الحقائق الدافعة كشفت عن أن سبب انتحاره فضيحة مالية شهدتها كلية الآداب ، وكان كراوس هو البطل الوحيد في هذه

الفضيحة وموداعها أن الدكتور طه حسين عميد الكلية قد أوفده إلى فلسطين لشراء بعض الكتب والمخطوطات ولما عاد كراوس بالكتب لوحظ أنه لم يقدم وثائق تثبت ما دفعه وأبدت الجهات المسئولة قدراً من الشك في صحة الأثمان المزعومة ، وتبين أن كراوس اختلس معظم المبلغ لنفسه .

وقد أشار الدكتور طه الحاجري إلى أن الدكتور طه حسين بعد عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا جلس إلى تلاميذه وحدثهم عن ذلك الشاب الذي عرف عنه : أنه شاب تشيكي (ولم يقل يهودي) اتخذ الاستشراق منهجاً له ولم يكن يتحدث إليه حتى أعجب بسعة ثقافته ومرونة تفكيره ، وما يملك من أدوات علمية لا بد منها لمن اتخذ هذا المنهج ، يتمثل إلى جانب ما يعرفه من اللغة العربية فيما يحيط به إحاطة جيدة من اللغات الأدبية القديمة وأخصها اللغة اليونانية واللغات السامية القديمة كالعبرية والسريانية والآرامية ، وقد أعانه على أن يمضي في الموضوع الذي استمواه وشغل به فكره وهو التاريخ للفكر العلمي عند العرب (الدوحة - ديسمبر عام ١٩٨٢) .

وقطعاً كان هدفه هو تدمير دور العرب في الفكر العلمي على النحو الذي تقدم في موقفه من ابن الراوندي وجابر بن حيان .

(٤)

وفي دراسات قدمتها الباحثة سهام نصار في أطروحة ماجستير عن الصحافة اليهودية كشفت الباحثة عن الدور الخطير الذي لعبه طه حسين في هذا المجال . كذلك فقد نشرت الدكتور عواطف عيد الجليل بعد ذلك كتاباً تحت عنوان (الصحافة الصهيونية في مصر عام ١٨٩٧ - ١٩٥٤ م) وفي كلا البحثين المتتابعين تتكشف حقائق هامة : أخطرها إنشاء اليهود لصحيفة الكاتب المصري (أكتوبر عام ١٩٤٥) .

تقول الباحثة : وعندما أقبلت الأريعنات وأصبح تحقيق الوطن القوي اليهودي قاب قوسين أو أدنى وانكشف تماماً الخطر الصهيوني أمام الرأي العام العربي والمصري ، واصلت الحركة الصهيونية نشاطها الدعائي من خلال الصحف التي كانت قد صدرت في الثلاثينات ولم تصدر صحف جديدة ،

ولكن عرضاً عن ذلك فوجئ الرأي العام المصرى بأسلوب دعائى جديد يتلخص فى إصدار صحيفة مصرية ذات طابع ثقافى ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين يتمويل يهودى صهيونى وبواجهة حضارية لا تحتمل إثارة الشكوك حول إنشائها تلك هى صحيفة الكاتب المصرى التى صدرت فى أكتوبر عام ١٩٤٥ ، وكانت تنزى تحويلها أسرة هراى : إحدى العائلات اليهودية الثرية برأس تحريرها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

ومنذ البداية ثارت الشكوك حول المجلة التى حملت اسم الكاتب المصرى والتى تخصصت فى نشر الدراسات الأدبية والتقدية وضمت طائفة من الكتاب الأوربيين والأمريكيين إلى جانب الكتاب المصريين أمثال : توفيق الحكيم ، ولويس عوض ، وسهير القلأوى ، وحسين فوزى ، ونجيب الملالى .

وقد تعرض الكاتب المصرى لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف الوطنية مثل صحيفة (مصر الفتاة) متهمه إياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وأن الهدف من إصدارها هو العمل على استقطاب المثقفين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم لإزاء الصراع العربى الصهيونى فى فلسطين .

إن متابعة إعداد المجلة تثبت بالفعل نوعاً من التجاهل للقضية الفلسطينية أو معالجتها كمحادث هامشى لا يحتل أكثر من عمود أو اثنين من أعمدة المجلة ، بينما كانت الصحف المصرية كلها مشغولة بمتابعة القضية إن ذلك . لا يمكن إرجاعه إلى الجهل بالمشكلة الفلسطينية لأنها كانت آنذاك فى ذروة تصاعدها .

إن معظم من شاركوا فى هذه المجلة كانوا من التيار المؤمن بالقومية المصرية ، وأن هذا التيار كان يضم المجموعات الفكرية التى تبنت النظرة المتوسطة التى ذهبت إلى أن مصر تمثل جزءاً من حضارة البحر المتوسط ، وقد كان لهذا التيار موقف متحفظ من التيار العربى فى مصر منذ البداية .

ولم يكن الكاتب المصرى هو المحاولة الوحيدة للالتفاف حول المثقفين المصريين ، ولم يكن أيضاً المحاولة الوحيدة لاكتساب تعاطف طه حسين ، فقد تعلم على يديه كثير من الطلبة اليهود أمثال : إسرائيل ولفسون الذى

أعد رسالة دكتوراه عن (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية والإسلام)
أشرف عليها طه حسين ، وقد أحاطت الصحافة اليهودية طه حسين باهتمامها
الواضح وخاصة عندما أعيد إلى الجامعة بعد إقصائه منها لفترة طويلة
عام ١٩٣٤ وقد قام أحد المثقفين اليهود بترجمة كتاب طه حسين (الأيام)
إلى العربية ، كما قام طه حسين بزيارة مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية
عام ١٩٤٤ . وكان في استقباله كبار الشخصيات اليهودية وعلى رأسهم
الحاخام الأكبر فتورا وأعدوا نشيداً خاصاً للترحيب به ، وألقى طه حسين
محاضرة عن علاقة اليهود بالأدب العربى استثمرتها الصحف اليهودية في
الدعاية . بينما تعرض طه حسين للهجوم بسبب هذه المحاضرة في الصحف
العربية . . . إلخ .

• • •

ولقد كانت أمانة الدكتور طه للفكر الماركسى تابعة لولائه للفكر
الشيوعى باعتبار المصدر الجامع بينهما ، وقد كشفت المقالات التى كتبها
الماركسيون من أمثال عبد العظيم أنيس وكامل زهرى وغيرهم من ولاء
خفى للدكتور طه حسين وإعجاب بالرجل الذى اقتحم لهم العقبات وفتح
لهم الطريق إلى نقد الفكر الإسلامى ومحاكمته للمذاهب التفسير المادى للتاريخ
ومذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، فقد اعتبر أن كتاباته على هامش
السيرة والفننة الكبرى هى التى فتحت الطريق أمام عبد الرحمن الشرقاوى
وغيره ممن أوغلوا في تدمير مقومات التاريخ الإسلامى .

إن هذه المقالات التى كتبها عبد العظيم أنيس (العربى - مارس عام ١٩٨١)
وكامل زهرى فى (العدد الخاص من الهلال) تكشف عن حقيقة ظلت خافية
وقتها طويلا وهى أن طه حسين كان يكن عاطفة خفية للماركسية والفكر
الشيوعى ظل يسترها وقتاً طويلا تحت ستار من التظاهر بالديمقراطية وجب
الغرب وهى حجة الشيوعيين ومساعدتهم ومتابعة كتاباتهم وتحنيه أن تمتد
دعوتهم وأن ينتشر فكرهم ، فهو يتابعهم ويقرأ ما يكتبونه ويعلق عنه إذا
قابلهم ويقضى لهم مصالحهم وهم يوسطونه من مركز النفوذ والقوة -
فى أمورهم .

وكثير منهم يرونه رائداً للفكر الماركسي بكتابه (المعذبون في الأرض) وقد كان اتصاله بالوقد وعمله به مدخلاً لنزج الجناح الماركسي المعروف الذي كان يقوده الدكتور محمد مندور وهم حين يتحدثون عنه وعن حبه لمصر وولائه لها - إنما يعجبون بإقليميته الواضحة العميقة ذات الطابع القرعوني الكاره للعروبة والإسلام معاً .

وقد دافع طه حسين عن الماركسيين الذين اعتقلوا ومجنوا عام ١٩٥٠ ومنهم عبد العظيم أنيس وعمل على إعادتهم إلى أعمالهم بعد خروجهم من المعتقلات . وقد أشار عبد العظيم أنيس إلى أن طه حسين قال له :

إنكم تتيأسرون وتظنون أنني على يمينكم ، هل كتب أحدهم شيئاً (كالمعذبون في الأرض) . . . وفي فترة من الفترات هاجم (فتحي غانم) كتاب (المعذبون في الأرض) من وجهة نظر ماركسية ، وقال : إنه لغو ولكن هذا لا يمنع بأن يوضع طه حسين في صف اليسار .

وهكذا جمع طه حسين بين الولاء للغرب وللصهيونية وللماركسية في آن واحد وهو ولاء قد لا يكون مفهوماً ولكن من يعرف أقل شيء عن الماسونية لا يراه غريباً .

ولا ريب أن اتجاه طه حسين إلى كسب ود المثقفين المصريين ، وتبرئة اليهود من مسألة عبد الله بن سبأ في كتابه (الفتن الكبرى) ، والقول بالعلاقة الوثيقة بين أبناء العم (ويقصد اليهود) في مجال الحضارة والتاريخ الطويل ، إنما كانت محاولات واضحة مرسومة بدقة لتخفيف حدة الخصومة التي كانت تثيرها الدوائر الإسلامية إزاء اليهود وعداوتهم التي أشار إليها القرآن الكريم وإلى خطر سيطرتهم على فلسطين وضرورة مقاومتهم بإعلان الجهاد المقدس . وقد وضح هذا الاتجاه تماماً في هذه الفترة إلى الدرجة التي دفعت مجلة الاثنين التي كانت تصدر عن دار الهلال أن توجه للدكتور طه حسين سوالياً صريحاً في (٨ أكتوبر عام ١٩٤٥) :

س - يقولون عنك : إنك تعمل على مساعدة الصهيونية فماذا تقول ؟
ج : إن مجلات دار الهلال آخر من يتحول لها إلقاء هذا السؤال ، فهي تعرفني حق المعرفة ، وقد كتبت فيها منذ نشأتني إلى الآن ، وليت الذين

يذيعون هذا الكلام يستطيعون أن يبلوا في خدمة العروبة كما أبليت ، وليس أدل على أني أساعد الصهيونية من أني أحبي الأدب العربي القديم ، فأنشر ديوان أبي تمام ، وأنشر روائع الأدب العربي للملاحظ ، وأنني هلال العسكري وأنشر أشباه خطيرة تتصل بعلوم القرآن ، فأني مساعدة للصهيونية أقوى من هذه المساعدة .

أما مجلة الكاتب المصري التي أسست فيها يقال لمساعدة الصهيونية فستكون في أيدي الناس حين يظهر هذا العدد من مجلة الاثنين وسيقرءون ما فيها وسيستوثقون أنها مجلة أقل ما توصف أنها لسان صدق للأدب العربي الرفيع .

• • •

وواضح أن إجابات الدكتور طه حسين ليست مقنعة تماماً ، وليس فيها تلك البراعة التي عرفت عن الدكتور ويكفي أن توجه إليه هذه الأسئلة وتسجل في مجلة سيارة ، فهي إنما تعني ذلك الشعور الواضح الذي كان يملأ جحر الصحافة والثقافة في مصر في هذه الفترة .

ولا شك أنها كانت خطيرة واسعة لم يكن يصلح لاقتحامها غير الدكتور طه حسين ، فهو الذي اقتحم الجامعة الأمريكية بعد حوادث التبشير ، وانصراف الناس عنها وعن محاضراتها فلذا به يستفتح موسمها ويقول : إن كل شيء في مصر ينسى بعد حين .

والحقيقة أنه لا شيء ينسى أبداً مهما بدا أنه دخل في دائرة النسيان والصهيونية التي كانت تخطط في هذه المرحلة لامتنعاص نقمة المثقفين ، من ناحية ومن ناحية أخرى كانت : ممل لتقليص الإسلام : دين العزة والجهاد من كل مفاهيمه الحقيقية بتمسيحه وتحطيم أجنحته والقضاء على عمده الحقيقية ، من خلال هذه الكتابات الإسلامية التي تصدى لها الدكتور طه حسين من بشرية القرآن إلى إضافة الأساطير إلى السيرة النبوية إلى السخرية بأبي بكر وعمر وعwald وإلى وصف الصحابة بأنهم جماعة من محترفي السياسة ، وخاتمه ذلك كله إعطاء اليهود دوراً في الأدب العربي على النحو الذي يجعلهم أهلاً لقبولهم في فلسطين . كل هذا يصور أبعاد الدور الخطير الذي قام به طه حسين .

الباب الثالث

الفكر الإسلامى

- الفصل الأول : التربية والتعليم والثقافة .
- الفصل الثانى : الأزهر والخطوة الثانية .
- الفصل الثالث : الفرعونية وحضارة البحر المتوسط .
- الفصل الرابع : مستقبل الثقافة .
- الفصل الخامس : التراث ورسائل إخوان الصفا .
- الفصل السادس : الطعن فى الحكومة الإسلامية .
- الفصل السابع : قضيتان باطلتان : الأثر اليونانى والجبرية الاجتماعية .

• • •

الفصل الأول

التربية والتعليم والثقافة

(من دتلوب إلى طه حسين)

لا ريب أن هذا المجال هو أكبر مجالات التغريب الذي عمل فيها طه حسين خلال خمسين عاماً دون توقف، ليس من خلال كتاباته وحدها، بل من خلال المؤسسات سواء كان في وزارة المعارف (مراقباً للثقافة ومستشاراً ووزيراً) أو (كلية الآداب) أو كان مديراً لجامعة الإسكندرية أو مشرفاً عاماً للثقافة في الجامعة العربية أو رئيساً لجمع اللغة العربية ، فكلها نوافذ لمبني واحد استطاع طه حسين أن يذهب فيه إلى آخر المدى لقرض مناهج الغرب ومولفاته ومترجماته على تلاميذنا المسلمين في المدارس الثانوية والجامعية وفي مجال التأليف والثقافة والصحافة . ولقد كان أعرف الناس به في هذا المجال المستشرق هاملتون جب الذي أشار بعبارة واضحة إلى قدرة طه حسين على (التغيير) وليس فقط الوقوف عند حد التوجيه والكتابة حين قال :

ذلك أن طه حسين كان قد أعد إعداداً خاصاً ليكون قادراً على تغيير الأعراف الإسلامية السائدة وبث أعراف غربية بدلا منها عن طريق مجموعة من الأساتذة الميثوقين في المعارف والجامعات وقدرة فائقة على تغيير المناهج على نحو عرف به خاصة في مجال اللغة العربية والأدب العربي والتاريخ ، وكلها ترمى إلى غاية واحدة : هي سيادة الفكر الغربي وسيطرته واستيلاء مفاهيم المستشرقين ومفاهيمهم على جميع فروع الفكر الإسلامي .

ومندوبات قدم طه حسين الجامعة بدأ ذلك المخطط الذي رسمه في كلية الآداب ثم اتسع نطاقه في التعليم العام كله ، وكان من ثمرة وعصارة تجاربه خطة التغريب التي رسمها كتاب (هو مستقبل الثقافة) . فكانت بمثابة الخطة التي رسمها النفوذ الأجنبي متابعة لمخطط كرومر ودنوب كمرحلة

جديدة لها بعد الاستقلال والتي جاء وقتها بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ وإلغاء الامتيازات التي كانت تحرس معاهد الإرساليات الأجنبية . ولم يلبث طه حسين بعد ذلك أن ولي أمر تنفيذ هذا البرنامج في وزارة المعارف وفي الجامعة معاً وأتيحت له الفرصة الواسعة وأعطى الإمكانيات المتعددة وكانت قاعدته واضحة :

(لا ينبغي أن نفهم أن الكلمة التي قالها إسماعيل وجعل مصر بها جزءاً من أوروبا قد كانت فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المعاصرة وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة الثقافية والعقلية على اختلاف فروعها وألوانها) .

كما أوضح هدفه في قوله :

(أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لتكون لهم أنداداً ولتكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع مخادع) .

وقد كانت خطته في مجال التربية والتعليم والثقافة واضحة محددة لبناء أجيال جديدة مغربة أولياء للغرب وللثقافة وهذه الخطة هي :

أولاً : الدعوة إلى فصل الأدب عن دائرة الفكر الإسلامي .

ثانياً : الدعوة إلى فصل اللغة عن دائرة الفكر الإسلامي .

ثالثاً : الدعوة إلى تطبيق النظام الغربي السياسي (الليبرالي) الديمقراطي بما يستر أهداف الصهيونية والمساوئية والشيوعية .

رابعاً : الدعوة إلى وحدة البحر الأبيض المتوسط .

خامساً : الدعوة إلى فتح أبواب مصر والبلاد الإسلامية أمام الثقافات الغربية وفرض المناهج الوافدة .

سادساً : الدعوة إلى توحيد التعليم تحت لواء العلمانية وإلغاء الأزهر .

سابعاً : الدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية (خيرها وشرها . . . إلخ) ،

ولكننا قبل أن نعرض لهذه الخطوة الواسعة في تغيير نظام التربية والتعليم والثقافة وهي الخطوة التي بدأت عام ١٩٣٨ تقريباً . فإن علينا أن نعرف

على الآثار التي أحدثتها في التعليم الجامعي منذ تولاه عام ١٩١٩ في الجامعة المصرية القديمة ومنذ أنشئت الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ .

(٢)

تغريب الجامعة

بدأت الخطة بدعوة المستشرقين إلى تدريس مادة فقه اللغة العربية في الجامعة (١٤ أغسطس عام ١٩٢٣) حيث كتب الشيخ محمود أبو العيون في جريدة الأهرام : سمعنا أن الجامعة في حاجة إلى أستاذ لتدريس فقه اللغة فيبحث مجلس إدارتها عن ذلك الأستاذ الكفء القدير ، فلم يجده بين علماء المعاهد الدينية ولا بين علماء القضاء الشرعي ودار العلوم ولا بين النابيين ممن أتموا دراسة اللغة العربية في الجامعة وأصبحوا أساتذة فيها ، لم يجد هذا الأستاذ في مصر مهاد اللغة العربية وكعبة قصاها ، بل وجده في معاهد العجم والوطانة في معاهد فرنسا وجد الميسر كاز نوفا مدرس العلوم الشرقية بباريس وجده أكفأ من الدكتور طه حسين والدكتور أحمد ضيف والأستاذ عبد الوهاب النجار وأكفأ من كل علماء مصر ، فعز على مجلس إدارة الجامعة ألا تنزع بعلمه في معاهد الشرق ، فاستدعته هذا العام لتدريس لغة أهلها لأهلها ، فهل سمع الناس بمثل ذلك الحادث الكبار ، وهل حدث مثل هذا في تاريخ مصر؟ أما والله إن صح الخبر لتكون سبة لمصر والشرق وعارآله وعى .

ورد (توفيق) سكرتير الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ، يقول : إن للمستشرقين من أهل أوربا فضلاً كبيراً على اللغة العربية والآداب العربية وعلوم الحضارة الإسلامية ، والذي يلفت النظر إنما هو طريقة أبحاثهم وأساليب تنقيباتهم ، وهي طرق وأحاديث لم تكن معهودة لنا ولا لأسلافنا من أهل العلم ، وفيها لا نجد الجرس الحار الذي نسمعه من أبناء اللغة العربية خصوصاً من أهل بلادنا مصر وفيه أحياناً شيء من الرطانة .

وأشار توفيق إلى أن جلالة الملك فرّاد وقد سعى سعيه حتى أتى بأساتذة من المستشرقين من فرنسا وألمانيا وإيطاليا منهم : (سانتلاتا) العلوم والفلسفة ، (ناليتو) الآداب العربية وتاريخها ، (مليورنى) التاريخ الشرقى ، (ماسنبون) لتدريس الفلسفة وتاريخها . (فنيث) لتدريس الأدب واللغة العربية ، (ليبيان) لتدريس مقارنات اللغات السامية وغيرها .

وقال : (ولا يضر مصر الآن أن تنتفع بالمستشرقين من أهل أوروبا لما هم عليه من علم وفنون وليس في جلب المستشرقين بالجامعة أى عيب لمصر والشرق ولا أى عار لا يحى ، ولندكر ما كرره رئيسنا في الوطن سعد باشا في خطبه ورسائله من أن مصر ترحب بالعلماء والأخصائيين من أهل أوروبا لينتفع بهم) .

وكتب الشيخ محمود أبو العيون يناقض هذه المغالطات في ١٦ / ٩ / ١٩٢٣ فقال : الذى تخالف فيه وتستبشع صنيعة وتعتبره ماساً بكرامتنا هو أن نستعين بغربي في تدريس فقه اللغة العربية وهي مادة اتسعت فيها المصنفات عندنا ومعاجم اللغة والقواميس المختلفة ، وإن كان ينقصها الترتيب والإحكام ولكنها على كل حال أصول وافية ومادة واسعة لا يمكن أن يكون للمستشرقين مهما استشرقوا معاجم اللغة العربية مبسطة جامعة كالتى عندنا ، ماذا أبقيت لعلائنا وأدبائنا إذا كانوا أعجز من استظهار ما بين أيديهم من أصول لغة يلهجون بها منذ كانوا أطفالاً ، ثم هم يتدارسونها في كتاب الله تعالى ومن كلام العرب بأعجب . أليس واحد من هؤلاء يستطيع أن يعلم أبناء الجامعة المصرية فقه اللغة العربية ، وأليس سبأ لمصر وعاراً لا يحى أن تعرف بين الأمم بالفهم وأن يعجز علماءها عن تفهم أصول لغتها لأبنائها ، هاتوا من شتم من المستشرقين ليعلم التاريخ والفلك والفلسفة واللغات وشيدوا بذكرهم ما استطعتم ولكن تناشدكم الله ، ألا تسجلوا علينا العار والفضيحة باستدعاء مستشرقين لتعليم فقه اللغة العربية .

ثم كتب مرة أخرى في ٢٠ / ٩ / ١٩٢٣ : لم يكذبوا الخبر بعد ذبوعه ، إن مجلس إدارة الجامعة يتحدى الأمة في كرامتها وينزلها من علم مجدها بإسناد تدريس فقه اللغة العربية إلى أستاذ أعجمي التشاة غريب اللهجة وإيثاره على كل لغوى في مصر وكل عالم وأديب في الشرق ، نعم تردان الجامعة باسم المسيو كازنوفكا كأستاذ فيها ولكن على شريطة أن لا يدرس لغة نحن أحق بها وأهلها . هل الإنجليز أو الفرنسيين يفخرون بعالم مستغرب أن يدرس لغتين في جامعتين (١) . هـ .

وبعد فإن كازنوفكا هذا هو أستاذ طه حسين الذى علمه تفسير القرآن

على النحو الذى اتخذه فى كتاب (الشعر الجاهلى) وتدرّس كتاب اللغة بوصفه كتاباً بشرياً من الأدب ، يقال فيه ما يقال عن كتب الأدب ويجرى الطلاب على نقده وكان طه حسين قد كتب فى السياسة (١٩٢٢ / ٩ / ١) يشيد بذكر أستاذه الذى استدعاه بأنه ليس رجلاً عادياً وإنما هو أستاذ فى اللغة العربية : فقهها وآدابها .

وإن هذا الرجل يخدم مصر فى تاريخها وآدابها بخدمة لو قام بجزء منها نفر منا لكان أول من يكبرهم ودليله أن كازنوفا يضع كتاباً عن تخطيط مدينة القسطنطينية .

قال الشيخ محمود أبو العيون : هذا الدفاع لفت نظرى إلى أن الدكتور يريد تقرير مبدأ غريب ، مبدأ لا يقره منصف ، يريد بل يكاد يصرح بأننا لا نستطيع أن نستقل فى كل تعاليمنا ولا بد لنا من الأساتذة الأوربيين .

نفهم أننا نفتتح معاهدنا ونقرر أن العلم رحمة بين أهله ، ولكننا لا نفهم ولا نستطيع أن نفهم أن ليست لنا شخصية علمية بإزاء الأساتذة الغربيين فيقرر أننا محتاجون إليهم فى كل ما نتعلم حتى فى تفسير كتاب الله ، كما يقرر الأستاذ ، هذا لعمرى غلو كبير وظلم وجهل بحياة الأمة . إن رأياً مثل هذا قد تمكن من نفس صاحبه بحسن كتابته ، فإن ظهوره على هذا النحو معرة له وجهالة ، إذ كيف يصح الحكم على أمة عربية مثل مصر بأنها مجردة من كل كفاءة ومقدرة على تعليم أبنائها لغتها وعلومها الخاصة بها .

إن هناك فى البلد علماء أكفاء وأقدر على تدريس فقه اللغة من المسيو كازنوفا هناك سيد على المصنقى ، حسين والى ، أحمد باشا تيمور ، المهدي زتلو ، أحمد السكندري ، مصطفى العناني ، علام سلامة ، محمد عبد المطلب ، محمد شريف ، محمد الغمراوي ، العوامري ، جاويش ، عبد العزيز البشري ، أحمد إبراهيم ، أحمد نجاشي ، أفليس عجيباً أن يكون فينا مثل أولئك الأعماد ثم نؤثر عليهم مستشرق يدرس اللغة العربية فى جامعة عربية لغير ضرورة ؟

ما أعجب ما أسمع من كلام طه حسين :
(ولقد أريد أن يعلم الناس أنى سمعت هذا الأستاذ (كازنوفا) يفسر

القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيت لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقاً .

شد ما أحسنت إلينا أيها الأستاذ بهذا الاستكشاف الحديث حقاً ، إننا في حاجة إلى مثل هذا العالم اللغوي (الأعجمي) الجليل ليدرس لنا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي حاجة ماسة إليه لتدريس الشريعة الفراء وأصولها المستنبطة من الكتاب والسنة وفي حاجة أمس إلى مثله يعلمنا البلاغة العربية لأنه يعرف لغة القرآن وأسرار النزول .

أين نحن يا ترى وفي أي عالم نعيش ؟ لا شك أننا في عالم وهم وخيال وأننا سلبنا العقول وحجبنا عن الإدراك وعمينا عن الحقائق وأصبح الأعجمي بدوياً قحاً يعلم كتاب الله كما أنزل ، وأصبح العربي أعجمياً لا يعرف من لغة العرب شيئاً والأمر يومئذ لله .

لقد كنا في ريب مما يذيع الناس حول الجامعة بإزاء الحادث الجديد ، وكنا لا نكاد نصدق أن مثل الدكتور طه حسين في علمه وأدبه هو الذي يغري الجامعة إلى عمل لا يتفق مع شرف الأمة وكرامتها ، وكنا نتحدث أنه صبح الخير فهو مبالغ فيه ، حتى أعلمنا الدكتور الخبير اللعين أن الحادث صحيح لا مبالغة فيه ، وهو الذي اقترح استدعاء المسيو كازنوف ، وأنه ليس رجلاً عادياً ، بل هو فوق مرتبة اللغويين منا وأعلى منزلة من رجال الدين عندنا نحن بلينا بالتقليد الضار حتى أضيعت شخصيتنا ، وانتقلت بوجداننا ، ومشاعرنا وعواطفنا إلى ما نسميه مدنية غريبة .

(٣)

ويتحدث الأستاذ محمود محمد شاكر عن تجربة الجامعة فيقول : أنا لأنني عن نفسي أتى اتهمت الدكتور طه حسين ، بتهمة أشنع وأبشع وأكبر ظاهرة تعرضت لذكرها هي قصة السطو على أفكار الناس وأقوالهم وقلت : إنها سنة سنّها الأساتذة الكبار وأن هذا السطو أتى على أيديهم على صورتين :

الأولى : سنة (تلخيص أفكار عالم آخر) ويقضي الأستاذ عمره كله في هذا التلخيص دون أن يشعر أنه محفوف بالأفكار ودون أن تستكشف أن ينسبه إلى نفسه نسبة تجعله عن الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحب فكر وهذا ضرب من التدليس كريبه .

الثانية : سنة (السطو) المجرى من يعتمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذ به ويمزقه ، ثم يفرقه في ثروة طاغية لتخفى معالم ما سطا عليه وليصبح عند الناس صاحب فكر ومذهب يعرف به وينسب إليه كل فضله .

لقد أبلغت اليوم إلى ما أشققت منه قديماً من فعل الأستاذة الكبير ، لقد ذهبوا بعد أن تركوا من حيث أرادوا أو لم يريدوا حياة أدبية ثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً ، على مدى نصف قرن ، وتجددت الأساليب وتنوعت وصار (السطو) على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يحشى في الناس طليقاً عليه طليسان ، البحث العلمي وعالمية الثقافة ، والثقافة الإنسانية وإن لم يكن محصوره إلا ترديداً لقضايا غريبة صاغها غريباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم إلى كل قضية ، واختلط الخابل بالنايل ، كل ذلك في الأدب والفلسفة والتاريخ والفن ، أو ما شئت فقله صادق صدقاً لا يتخلف ، فالأديب عندنا مصور بغير قلمه ، والفيلسوف عندنا مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ عندنا ناقل للأحداث ينظر غريب عن تاريخه ، والفنان عندنا نابض قلبه بنبض أجنبي عن تراث فنه .

ثم انتهى للدكتور طه بالسطو على عمل من الأعمال (ما كتبه المستشرق مرجليوث عن قصة الشعر الجاهلي) واستنكرت أن يكون ذلك في جامعة وأن الجامعة إذا قبلت هذا السطو وسكنت عنه فلأنها تفقد هيبتها .

ليس شك الدكتور طه أزهرياً ولا ديكاريتياً ولا أسطورياً ، بل الذي في كتاب (الشعر الجاهلي) إنما هو (سطو) لا غير ومن ذلك أن الدكتور طه لم يولف بعد ذلك كتاباً واحداً يحمل ذرة من هذا الشك الذي زعم أنه منهج ، وهذه غريبة من الغرائب ، وعندما أصدر طه حسين كتابه (مع المتنبي) لم أصدر عليه صبرى عليه في قصة سطوه على (مرجليوث) ، بل نشرت مقالات في جريدة البلاغ (٣ فبراير عام ١٩٣٧ - مايو ١٩٣٧)

وأهمته بالدليل والبرهان على أن عاداته في السطو لم تزل قائمة في نفسه لا يستطيع أن يفارقها وزدت الأمر وضوحاً في مقدمة كتابي عام ١٩٧٧ قلت ذلك في حياته ، كما ترى مع وجود تهمة السطو بلفظها وبلا كتابة ، وسكت الدكتور طه حسين لأنه لم يستطع أن ينفي عن نفسه التهمة ولا استطاع ذلك يومئذ تلاميذه المنتشرون على طول الساحة العربية إزاء هذا الهجوم الذي يكال لأستاذهم العميد وقتل في جميع ذلك : إن الدكتور طه وسائر الأساتذة الكبار الذين تعودوا السطو هم الذين نشروا هذه السنة فصارت سنة سيئة متبعة إلى يومنا هذا بلا حياة في جميع حياتنا الثقافية) .

ومما يضاف إلى هذا أن الدكتور محمد نجيب البهيبي : أكبر تلاميذ الدكتور طه حسين التصاقاً به في هذه الفترة في كتابه الضخم (مدخل إلى الأدب والتاريخ العربي) يشير في وضوح إلى ظاهرة السطو وإلى تلاميذ طه حسين الذين مكثهم من السطو على كتابات غيرهم . إذن فهي قضية ضخمة جدية بأن تبحث في إطار التحديات التي تواجه التعليم الجامعي .

(٤)

وقد كشف السيد رشيد رضا (المنار م ٣٢ / ص ٢٩٩) عن مخططات النفوذ الأجنبي من (دنلوب إلى طه حسين) فقال :

كان هم الاحتلال من السيطرة على المدارس تخريج نشء جديد لا هم لهم من الحياة إلا التمتع باللذات الجسدية والزينة في اللباس والأثاث والرياش والتنافس في خدمة الحكومة والتوسل إلى ذلك بالشهادات المدرسية والتلق للروساء المسيطرين من الإنجليز . وأهم ما عني به المسيطر على وزارة المعارف ألا وهو القسيس مسٹر دنلوب أن يطمس كل أثر للدين الإسلامي في المدارس الأميرية وألا يدع للتربية الإسلامية ولا التعليم الديني منفذاً يشرف منه على القلوب بنشر الإلحاد والإباحة أن تنفث سمومهما في إفساد الأخلاق وعبادة الشهوات وعدم الخضوع لأي سيطرة أجنبية أن تتمكن من الأذهان وتتغلغل في أعماق الوجدان وإلهاء للمعلمين والمتعلمين عن ذلك بمظاهر التربية الوطنية الإقليمية التي تفصل بين مسلمي مصر ومسلمي سائر الأقطار ، ولا سيما العربية . وقد نجح دنلوب في سياسته أتم النجاح وشغل المدارس

بالألعاب الرياضية الجسدية عن ترويض الأرواح ، وكان أن طيع وزارة المعارف بطابع سياسته ووجهها شطر مقصده ، حتى جاء الاستقلال المقيد ، وصار أمر التعليم في أيدي الوطنيين . كان بعض وزراء المعارف من بعده شراً على التربية والتعليم مما كان في عهده ، بل نهضة وزير منهم لإصلاح التربية الدينية ومقاومة نزعات التفرنج وصد تيار الإباحة والإلحاد الذي يقذف بالأمة في فوضى الأخلاق والفساد وأعجب من هذا أننا لم نر من حزب من أحزاب البلاد السياسية ومن تقاليد الحكومة طريقة متبعة في اختيار وزير المعارف من رجال الإصلاح المسالي والأدبي الذين يهمهم حفظ دين الأمة والدولة ووقايتها من الفساد والفوضى ، وكان مثار العجب أن جعل الأستاذ أحمد لطفى السيد المحامى وزيراً للمعارف حتى إذا ما تبوأ هذا المنصب مراد سيد أحمد القاضى الأهل زال العجب ، واعتقد كل غيور على الدين أن الحكومة المصرية متعمدة القضاء على هداية الدين في الأمة بتربية بنينا ، وبناتها على الإلحاد والإباحية المطلقة .

لئن كان الدكتور طه من سيئات الأول بتفذية مبادئ الإلحاد في نفسه وتجرئته على بنينا معالجة أولاً وفي دروسه في الجامعة أخيراً ، فإن الثانى قد ابتدع في وزارة المعارف من فنون التربية على الإباحة وإلغاء جلايبب الحياء والصيانة من رفض التبتك والخلاعة وتصوير الشبان والشواب مجردين ومجردات من الثياب ما يتضاءل أمام ذلك الإفساد القولى .

ليس بكثير على مثل مراد سيد أحمد أن يعترض ارتقاءه إلى منصة وزارة المعارف مبتدعاً منها تعليم الناشئة المصرية من البنين والبنات التمثيل الإباحى والرقص التوقيعى وتربيتهم على التجرد من الثياب بحجة الترقى في صناعة التصوير ، وهو هو الذى كان قاضياً فرفعت إليه قصة رجل يطلب فيها عقاب أستاذ في المدارس على التصدى لمغازلة امرأته وإفسادها عليه بمخاطبته إياها في الطريق بعبارات التصبى والاستئالة فحكم القاضى الذى ارتقى من كرسى القضاء إلى كرسى حب الجمال وهو فضيلة من الفضائل ، وأن القانون هو مظهر من مظاهر حب الجمال وهو فضيلة من الفضائل وأن القانون يعاقب

على الرذائل فحكمكم ببراءة الفاسق المتصدي لإفساد نظام الزوجية وكفى به
إفساداً للأمة . الغريب المريب أن يجعل مثل هذا القاضي المجدد الإباحي وزيراً
للمعارف . ولقد ظننت أن الحكومة المصرية قد أجمعت أمرها على إلقاء
هذا الشعب المتدين في فوضى الإباحة المطلقة وقذفه في تيهور الإلحاد والزندقة .
وقد أبطل حلمي عيسى البدعتين الإباحيتين فعلمنا أن ابتداعهما كان بسوء
رأى الوزير ثم إن هذا الرجل جعل طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة
مفتشاً للغة العربية في الوزارة فأخرج من الجامعة التي كان يبيت فيها إلحاده
فكان لإخراجه ضجة شديدة .

(ولقد تبين من مذكرات الدكتور الزيات (ما بعد الأيام) أنه كانت
هناك علاقة وثيقة بين الدكتور طه حسين ومراد سيد أحمد في خططهما .
هذا في وزارة المعارف وهذا في الجامعة) .

قدم الدكتور عبد الحميد سعيد استجواباً في مسألة طه حسين استنكاراً
لبقائه في وزارة المعارف واستقال أستاذه ومربيه أحمد لطفى السيد . إن طه
حسين خدم دعاة النصرانية بالصد عن الإسلام وبعثه عوجاً وقلد فلاسفة
الإفرنج في الشك والتشكيك وهو ضرب من السفسطة قديم . ولعل سبب
تأييد بعض الملاحدة له أنهم رأوه متوغلاً مستهتراً لا يبالي في سبيل الشهرة
بالإلحاد والإباحة ذماً ولا عاراً وهم حريصون على نشر هذه الدعوة في الجامعة
المصرية ليهدموا بمعاول المتخرجين منها كل ما بقي للإسلام في مصر من هداية
دينية وحسية عربية فهم أرادوا جعل الجامعة حرباً على الأزهر والمعاهد
الدينية وعلى دار العلوم ، وصرخوا بأن ثقافة الجامعة المصرية ستحل محل
ثقافة الأزهر الدينية في مصر ، وكان أظهر الأسباب لعناية أولئك الملاحدة
ببيت دعايتهم في الجامعة هو اعتقادهم أن الشعب ما زال يغلب عليه الدين » .

(٥)

هذه صورة وتلك صورة أخرى مكحلة : هي صورة الأسلوب المتبع
في داخل كلية الآداب فيحدث عنه واحد من أوائل طلبة كلية الآداب
(محمود محمد شاكر) . يتحدث عن خطورة العمل الذي قام به الدكتور
طه حسين في الجامعة وهو :

تفريغ العقل العربي من الثقافة الإسلامية

يقول : من بين الاتهامات المبالغ فيها والمسئول عنها طه حسين : التهمة البقيلة التالية : « إذا كان هناك تخريب في الثقافة المصرية فإن المسئول عن هذا التخريب هو الدكتور طه حسين ، لأن تشكيكه في الثقافة العربية (الإسلامية المصدر) قد أحدث نوعاً من التفريغ في العقل العربي » .

الذي أطلق هذه التهمة هو الأستاذ شاكر وهي تهمة تعطى لطله حسين من التأثير السلبي والخطورة السلبية أكثر مما تعطيه للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة .

يقول الأستاذ شاكر : أما التهمة التي ذكرها ووضعها بين الأقواس فهي إشارة إلى ما كتبت في مقدمة كتابي (المتنبي) وتعرضت لما سميت (التفريغ) وهو اللفظ الموجود في التهمة التي بين الأقواس .

إن قضية الشعر الجاهل قد دخلت في دروباً وعرة شائكة وكلماً أوغلت انكشفت عن غشاوة من العمى : وأحسست وأنا والجيل الذي أنا منه وهو جيل المدارس المصرية ، قد تم تفريغنا تفريغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كله . من علومه وآدابه وفنونه ، وتم أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان في الماضي متكاملًا متأسكاً فرقة متفرقة ، متبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى والدلالة ، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغاً أبداً فقد تم ملء الفراغ بتجديد من العلوم والآداب والفنون ، لا تمت إلى الماضي بصلة .

القصة : منذ عهد محمد علي وحفيده إسماعيل حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في سنة ١٨٨٢ ومجيئه سيطر الإنجليزي سيطرة مباشرة على كل شيء . وعلى التعليم خاصة إلى أن جاء دنلوب (في ١٧ مارس عام ١٨٩٧) ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذي لا يزال نسير عليه مع الأسف إلى يومنا هذا ، ثم نبئت وسائل التدمير التي ارتكبتها الاستعمار في حياتنا ، وما أدى إليه من التدهور السريع المتتابع حتى قلت : « وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن جيل المدارس المفرغ أن يتلقى صدمة التدهور الأولى لأنه نشأ في دوامة دائرة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي . وفي ظل هذا كله انتعشت الحياة الأدبية

انتعاشاً غير واضح المعالم ، وأقول غير واضح المعالم ، لأن الأساتذة الكبار الذى انتعشت على أيديهم هذه الحركة (ومنهم بالطبع طه حسين وغيره) كانت علاقتهم بثقافة أمهم غير ممزقة كل التمزق ، أما نحن — جيل المدارس المفرغ — فقد تمزقت علاقتنا بها كل التمزق ، فصار ما يكتبه الأساتذة فيما له علاقة بهذه الثقافة باطلاً أو كالباطل ، فهو لا يقع منا من أنفسنا بالموقع الذى ينبغي له من الفهم ومن الإثارة . أما ما أخذته جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تضمنته كلمة (التجديد) وإلى هذا الرفض الحق ، للثقافة التى كان ينبغي أن تنتمى إليها وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ ، التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكنى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجته فى التفكير كما صوروا لنا ذلك من خلال ما يكتبونه وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزمن الدوار هو الذى سيتولى الفصل بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلمون اليوم على أيديهم .

لقد أردت أن أقيد ما كان مما شهدته بين أعوام (١٩٢٨ — ١٩٣٦) بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا . وهذه شهادتى أنا على جيل الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس الذى فرغ من ثقافة أمته ، وتقطعت علاقته بينه وبين حضارتها على وجه بشع لا تزال آثاره هى الغالبة إلى يومنا هذا .

أما كتاب (الشعر الجاهلى) وأثره فى جيلنا نحن ، جيل المفرغين وما ألقاه علينا وقاله الدكتور طه وزعم أنه « منهج الشك » فقال فيما قال عن هذا المذهب بلغظه من كتاب الشعر الجاهلى :

« إن هذا المذهب سرف يقلب العلم القديم رأساً على عقب وأخشى — إن لم يمسح أكثره — أن يحجر منه شيئاً كثيراً أو يثبت ما قاله بعد ذلك ، مما يدل على الاستخفاف بكل شئ ، وقيدته بنصه فى كتاب (الشعر الجاهلى) . والاستخفاف الذى بنى عليه الدكتور طه حسين كتابه معروف ، أما الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حدة حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المخض بأقوال السلف ، وأما الذى كان يدور بين طلبته المفرغين من ثقافتهم ، فكان شيئاً لا يكاد يوصف لأنه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاو . وكانت العاقبة وخيمة جداً . حين كبر هؤلاء الصغار

وحاولوا أن يزاحموا الأساتذة الكبار في موقع الأستاذية ولكنهم لم يسروا سير الأساتذة في معالجة القديم بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفاف به .

وهناك أحس الدكتور طه حسين بهذا الخطر الذي تولى كبير أحداثه ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ بعد تسع سنوات من صدور كتابه في الشعر الجاهلي ، بدأ ينشر في الجهاد مقالات كان يحصلها رجوعاً صريحاً من ادعائه الأول في سنة ١٩٢٦ الذي أعلنه في كتابه ، وهو قوله « إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً . ليست من الجاهلية في شيء » ، وإنما هي متحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأصداهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء » .

وقد ثبت أن الدكتور طه حسين قد رجع عن أقواله التي قالها في الشعر الجاهلي ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب ، وكانت هذه عادة الأساتذة الكبار يخطئون في العنن ويتبرعون من خطيئهم في السر . .

هذا الجيل المفرغ هو الجيل الذي تلقاه الدكتور طه حسين في الجامعة منذ سنة ١٩٢٥ وأنا واحد منه ، إن الدكتور طه حسين تلقى هذا الجيل المفرغ والأجيال التي تلت من المفرغين أخطأ خطأ شنيعاً حين قال له ما قال في قصة الشعر الجاهلي وبالضرورة التي قالها مثبتة في كتابه (الشعر الجاهلي) وفي كتابه المعدل (الأدب الجاهلي) ثم تهوره حين طالبهم باتباع ما زعمه مذهباً ، وأنه هو الذي سوف يقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمح منه شيئاً كثيراً .

إن الدكتور طه حسين قد تبين هذا الخطر الذي تولى كبره بعد تسع سنوات لأكثر فكتب أو أمل شهادة على هذا الجيل المفرغ بعد أن فارق الجامعة وبدأ يسأى الأساتذة الكبار ويواجهه برفض كل شيء ، فكانت شهادة من أستاذ كبير شهدها من موقع الأستاذية وكانت فحواها مطابقة لشهادة واحد من هذه الأجيال التي تلقت التفريغ في نظام دنلوب ومدارسه شهدها من موقعه في هذا الجيل المفرغ » .

وقد أشار الدكتور على ساسى النشار عن خطة الدكتور طه حسين في التعليم الجامعى فقال : « التجديد » في جعل مناهج الدراسة في الجامعة هي المناهج الأوروبية ، التجديد هو دعوة إلى مسايرة الأوربيين في تفكيرهم وفي نظرتهم إلى الحياة ، وفي فصل الدين عن السياسة ، وفي إبعاد الدين واللغة عن مجال الترابط وذلك في قوله « إن تطوّر الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول » والجامعة عند الدكتور طه حسين إنما تمثل العقل العلمى ومناهج البحث الحديثة ويتصل اتصالاً ممتداً بالحياة العلمية والأدبية وتسمى إلى إقرار مناهج التفكير الحديث شيئاً فشيئاً في هذا البلد على حد تعبير الدكتور محمد الببى . وعمله الخطير في إقرار تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية ، وعمله الخطير الآخر هو تغريب مناهج الثانوى « ليعد الشباب قبل دخول الجامعة . وذلك قوله :

« إن التعليم العالمى الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التي لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها » .

وهو القائل بأن العقلية المصرية أوروبية أو قريبة قريباً شديداً من الأوربيين ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية : وقوله إن العرب والإسلام طارئ كالفرس والرومان ، وقوله : إن التعامل مع الغرب هو أن نسير سيرتهم ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وشرها ، وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، وقوله : (مصر الحديثة تفرم على مصر الخالدة الفرعونية) ، وقوله : (والعقل المصرى اتصل بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتوافق وتبادل يستمد معظم المنافع في الفن والسياسة والاقتصاد . العقل المصرى منذ عصوره الأولى ، عقل إن تأثر بشيء فلأنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها قائم يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط) ، وقوله : (إنه أصل من أصول الحياة الحديثة . إن السياسة شيء والدين شيء آخر) . وقوله :

« إننا ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج فأنا لا أخاف على آخرين أن يفتنوا في الأوروبيين » ، وقوله : (والتجديد هو مسابقة للغربيين في كل شيء ، وهو أخذ كل ما عند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقليد في فصل الدين عن السياسة) . هذا هو المنهج الذي فرض على الجامعة أن تتعنته .

وقد كانت اليقظة الإسلامية هي مصدر المقاومة الحقيقي لهذه الفلسفة العلمانية الخطيرة . فقد كشفت عن زيف دعوى الفصل بين الدين والسياسة ، وزيف الاقتباس الخطير على النحو الذي دعا إليه طه حسين ، وزيف ربط العقل المصري بالبحر المتوسط والغرب مع أنه مرتبط منذ أربعة عشر قرناً بالإسلام ومصادره وقرآنه ولغته العربية وأمنته الإسلامية التي نشأت حول البيت الحرام ، وخالفه مصطفى عبد الرازق في قضية الفلسفة فكشف عن زيف القول : بأن الفلسفة العربية فلسفة يونانية . وأعلن أن الإمام الشافعي هو المعلم الأول للمسلمين وليس أرسطو ، وكيف أن منطق أرسطو يخالف لمنهج الإسلام ولا يصلح له ، وأن للقرآن منهج خاص كشف عنه الإمام ابن تيمية ، ولم يكن منهج طه حسين مرتبطاً بطريق جمال الدين . ومحمد عبده فقد كشف عن نشوذه عن هذا الطريق إلى طريق التغريب الخالص .

ولقد كتب بعض الباحثين كيف حول طه حسين الجامعة من عمل إسلامي أصلي إلى مباءة للإلحاد والإباحة فقال : إن مصطفى كامل والرغبل الأول من الوطنيين الذين دعوا وتبرعوا لإنشاء الجامعة ما كانوا يظنون أن مشروعه لا يلبث أن يتحول إلى عمل تغريبي خطير وأن يعود طه حسين من وراء البحار ليُبشر في أنحاء المعهد بآراءه المصادمة لنصوص القرآن والإسلام والدين في كتبه الأدب الجاهلي وحديث الأربعة الذي يصور المحور والفجور في طائفة من الشعراء ومستقبل الثقافة ، ولم تكن هذه الآراء التي نشرها طه حسين إلا آراء بعض المبشرين الداعين إلى هدم مقومات هذه الأمة وفكرها .

وكشف الدكتور زكي مبارك خطة طه حسين في تغريب التعليم العام والتعليم الجامعي : (الرسالة في ١٢/٢٥ / ١٩٣٩) وذلك عندما عين

طه حسين مراقباً للثقافة . قال : أتكون جئت وفي يمينك كتابك (مستقبل الثقافة في مصر) إذا كان ذلك فاعلم أن هذا الكتاب لا يصلح أساساً لعملك الجديد فقد ناقشه الناقدون من كل جانب ولم يتركوا فيه أديماً صحيحاً .

وكتب عنه عبد السلام الكرداني، ساطع الحصري، وقال زكي مبارك : أنت صرحت مراراً كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية ، وأن تلك العقلية يجب مراعاتها في التعليم والثقيف ، أفنتظن أن هذا الأساس لا يزال صالحاً لأن تقم عليه عملك الجديد ، وأنت دعوت إلى تعليم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل الحضارة الأوروبية . فهل تظن أن هذه الدعوة لا تزال لها في مصر والشرق مكان ؟

لقد سمعت للسيطرة على السنة التوجيهية . أردت أن تفرض على الطلبة دراسة نقد النثر لقدامه ، فهل تظن أن نصوص هذا الكتاب مما تسيغه عقول الطلبة في السنة الخامسة الثانوية . كان يجب أن تشتغل بالتدريس في القسم الثانوي سنة أو سنتين قبل أن ترسخ نفسك لوضع منهج الأدب بالمدارس الثانوية .

لقد سمعت سعيك أن يكون منهج الأدب في السنة الخامسة خلاصة لتاريخ الآداب اليونانية واللاتينية ، وأتعبت نفسك في تأليف مذكرات يستعين بها المدرسون على فهم ذلك المنهج الطريف ، فهل تستطيع أن تدلي على أمة واحدة كان فيها منهج الأدب القوي خلاصة لآداب أمة أجنبية . هل تذكر خرافة (تيسير النحو) التي شغلت بها وزارة المعارف ؟ وهل تذكر أين صارت تلك الخرافة من غيابات التاريخ ؟ وهل تذكر ما قوبلت به من السخرية في الشام والعراق ؟

كيف جاز عندك أن تدرس الخطب القديمة في وطن ديموسين قبل أن تدرس الخطب الحديثة في مصر ؟ وكيف صح في ذهنك أن تدرس مجادلات الأحزاب في أثينا قبل أن تدرس مصاولات الأحزاب في القاهرة وبغداد ؟

(٧)

روايتان في كلية الآداب تطلعتان في الرسول صلى الله عليه وسلم

كتب الأستاذ محمد المهياوي (١٦ مارس عام ١٩٣٩) جريدة المنبر :

قررت كلية الآداب بين كتب الدراسة روايتين إنجليزييتين في موضوعهما-
طعن على الإسلام وعلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتقرير كتب
الدراسة لا يكون إلا عن إحاطة بموضوعاتها ومعرفة لما فيها ، فمن هو
أو من هم في كلية الآداب ؟ هؤلاء الذين وضعوا بالتعمد والقصد بين يدي
أبناء المسلمين في هذه الكلية قذف الإسلام والطعن على رسوله الصادق الأمين
ليكونا موضوع دراسة وتثقيف . في هذا يقول عميد الكلية (الدكتور
طه حسين) :

(نحن نعلم آداب اللغة الإنجليزية ، فهل من أجل عبارات الطعن في
الإسلام تمتنع تدريس هذه الرواية ، وليس الدين الإسلامي من الضعف إلى
حد عدم احتماله مثل هذه العبارات ؟) .

فهذا العميد إذن هو صاحب التعمد والقصد ، وقد يكون في تعمده
وقصده ، تابعاً لمدرس أجنبي يعرف هاتين الروايتين بالذات ويعرف ما فيها
على وجه التخصيص من مواطن الضعف في الإسلام ورسوله ، فهو في اختياره
لها سوء النية مثلاً أنه متعمد سوء نيته . هذا الاستفهام الإنكارى الذى وجهه
الدكتور طه بقوله : فهل من أجل عبارات طعن في الإسلام تمتنع تدريس
الرواية ؟ هذا الاستفهام ما معناه ؟ معناه : أنه يرى أن تدريس هذه الرواية
أعز وأكرم من الإسلام ورسوله ، فلا يصح أن يمنعوا تدريسها ليصوتوا
عرض كليتهم من أن يتناولوا الطعن في شيء ، ويرون أن تدريس الرواية
أعز منه وأكرم ، ولكن المسألة أعمق غوراً من هذا الاستخفاف الحقيقى
وذلك أن لها جرائب تعرض منها ما يأتى :

أولاً : إن أساتذة اللغة الإنجليزية أجنبى مسيحيون ، فمن الذل والهوان
للدولة الإسلامية ولأبنائها جميعاً أن يقوموا من الطلبة المسلمين مقام الأساتذة
يشرحون لهم مرامى الطعن . ويمتحنوهم فيه ويميزوهم على حذقه وحسن فهمه
بالفوز والنجاح .

ثانياً : إن الطعن في الإسلام ورسوله جريمة كبرى عند المسلمين
كافة ، فكيف يصح أن تتكرر صورها في الدراسة في بلد دينه الإسلام ؟

ثالثاً : إن هذا الطعن نفسه معدود في القوانين المصرية جريمة لها عقوبتها ، فكيف تصبح هذه الجريمة أدبياً يتلقاه أبناء المسلمين في كلية الآداب باعتبار أن هذه الجريمة دراسة جامعة عالية ، صحيح أن الإسلام ليس من الضعف بحيث تؤثر فيه هذه العبارات ولكن من العزة بحيث لا يحتمل الطعن فيه وفي رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذا التخريب الذي أراد الدكتور طه أن يفر به من فظاعة الجرم يوقعه في المسؤولية أكثر مما يعينه على الفرار ، على أن شدة الخطر ليست في الطعن ذاته . فهذه الرواية ليست أول كتاب يسط فيه السفهاء ألسنتهم بالطعن في الإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولكن الخطر الشديد فيما دلت عليه الحوادث من الكيد للإسلام والتبذير له بقصد وسوء نية ، فنذ تذرع الدكتور طه بحرية الفكر لتكذيب القرآن في كتابه (الشعر الجاهلي) لم تفر نفسه عن التذرع بهذه الحرية نفسها إلى غاية يشهد الإلحاح في طلبها لأنها مقصودة بالذات ، غير أن حرية الفكر أجل وأصون من أن تصبح جريمة أو تعين على جريمة ، فإذا هي انتهت إلى ذلك انسلخت عن نفسها ، فلم تعد هي الحرية العزيزة على النفوس ولم يبق لها من عدل الجزاء غير العناء ، ولا يتورع عميد كلية الآداب عن أن يدلس حين لا يعرف كيف يستر التدليس فهو يزعم فيما وردت عنه الصحف أن أحد المدرسين اختار من نفسه هذه الرواية ، فلو أن الطلبة غضبوا لدينهم لبقيت الغاية في طريقها الأخرى : طريق الطعن في الإسلام واستدراج أبنائه باسم الثقافة وحرية الفكر إلى سوء الظن به والاطمئنان إلى قبول الطعن فيه وهذه نفسها هي طريق الميثرين ، وما دام الدكتور طه لا يريد أن يريح نفسه من عناء الأمل الذي ملأ جوانب كثيرة من صدره فستبقى حوادث النيل من الإسلام تابعة له أينما كان ، وسيبقى أن تعرف الأمة هل تحرص الحكومة على طه حسين لأنه أغبر عليها من دين الله في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا ريب أن هذا القول يكذب ما ذهب إليه الدكتور محمد حسن الزيات في مذكراته حين قال : أراد أن يبرر وجود الكتاب في أيدي الطلاب كذلك فإن الزيات أنكر واقعة اعتداء الطلاب على العميد ومحاصرتهم له في غرفته وهي واقعة ثابتة في محاضر البوليس (م ١٢) الفتح حيث أشارت

إلى أنه قد غرم ثلاثة هم عبد العزيز الشوربجي ، وعبد الوهاب حسني ،
وحزرة اليسوي كل منهم خمسين قرشاً لاعتدائهم على طه حسين مع وقف
التنفيذ . أما الدكتور الزيات فيصف الحادث على أنه تجمهر خفيف وذلك
حتى يحفظوا شرف الدكتور العميد الذي اعتدى عليه فعلاً واستقال .

(٨)

داعية إلحاد وشيوعية :

ونشر الأستاذ محمد الهياوي في جريدة المنبر في (٢٧ / ٤ / ١٩٣٩)
تحت هذا العنوان فصلاً مطولاً جاء فيه : أماي الآن مراجع تلقى على الدكتور
طه تهمة الإلحاد وتهمة بثه والدعوة إليه ، ولست أريد أن أظلم الرجل من غير
حجة ولا دليل . ولا تستقيم الحجة فيما أرى قبل أن تسبقها مقدماتها من الوقائع
المروية على سبيل التسلسل الزمني . وسأحاول أن أصل مع القارئ إلى الغاية
التي يؤدي إليها البحث النزيه ، أريد أن أرى مع القارئ ما هي حرية الفكر
وإلى أين ينتهي مداها ، وما هي الحدود أو القيود التي يجب أن نقف عندها
ونعمل عليها ؟

اتخذت شرائع الاجتماع والقانون فيما انتهى إليه التفكير الحديث للجماعة
البشرية في حدودها الخاصة اسم (الهيئة الاجتماعية) وجعلت لها على الفرد
حق الخضوع والطاعة والتزقيير ، وفرضت للاعتداء عليها عقوبة لا تزال
السلطة القضائية تمضيها في جناة هذا الاعتداء .

والفكر عارض في الإنسان لا ينتهي إلى حد معين من الخير والشر ،
فالذي يسرق مالا أو يحرق زرعاً أو يقتل إنساناً مظلوماً لا بد له قبل الإقدام
على الجريمة أن يفكر فيها ويفكر في الوسيلة التي يتم بها ويفكر في سبيل القرار
وطريق النجاة .

الدكتور طه وأمثاله يعترضوا طريق الناس في كلية الآداب وفي أندية
البحث والنظر أو في الصحف والمجلات أو في الكتب الموضوعة والرسائل
المؤلفة ليقولوا : إن حديث الكعبة في القرآن حديث خرافة ، وإن الدين
لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى الله على رسله وأنبيائه ، وإن العلم لا يتفق
مع الدين إلا أن ينزل الناس على دعوى أن هناك إلهاً معبوداً هو الذي شرع

الدين لعباده ، وأن لله أنبياء ورسلا هم الذين جاءوا بتبليغ هذا الدين ، فحرية الفكر حين ترمى القلوب والعقول بجرمة هذا الاعتداء ، فلنحسما يفعل ما تفعله حين ترمى حياة الناس المادية ومنافع دنياهم بجرمة الاعتداء نحو السرقة والقتل ، فهي تعتدى على الهيئة الاجتماعية اعتداء يأبى العقل والعدل إلا أن يضرباها به الضربة التي تلزم حدودها .

ما شأن الدكتور طه حسين فيما نسب إليه اليوم ، وما شأنه فيما صدر عنه : أن حديث بناء الكعبة في القرآن خرافة لأن قصة وجود نبي الله إبراهيم موضوعة وهي قصة موضوعة لأن مصاح التاريخ لم يثبتها . القرآن في نفسه كتاب كأي كتاب آخر مؤلفه أي إنسان فهو قابل للنقد والتجريح فانظروا فيه أيها التلاميذ .

لم يكن هذا كل ما يثبت في شأن الدكتور طه أمس ، ولكن بعض ما ثبت في شأنه . أما اليوم فالجديد أدهى وأمر .

ففي كتاب أو تقرير وضعه دعاة الشيوعية والإلحاد أن الدكتور طه ألحق نفسه بجماعة قوية غرضها بث الإلحاد في نفوس الشباب وتحطيم الإيمان في قلوب الناس ، وقيل : إن هذه الجماعة تمهد بهذا الغرض إلى الشيوعية . وقيل : إنها تطلق بالمال ألسنة الدعاة وأقلامهم ، وقيل : إن الدكتور طه كان أحد اثنين أطلقا لسانيهما وراء هذا الغرض وأجريا قلميهما في سبيله .

يقول الدكتور طه في كتاب أرسله إلى الأستاذ هيكمل باشا قبل أن يلى الوزارة : الدين حين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لا يعترف بهما العلم ، وإن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وإلى الفقه وإلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدتها وجود الجماعة وتتبع الجماعة في تطورها وتتأثر كالجماعة بمختلف المؤثرات كالبينة والإقليم والوضع الجغرافي ، وأن النتيجة إذن أن الدين في نظر العلم الحديث ظاهرة اجتماعية فهو لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي ، وهذا كتاب جديد وضعه بالإنجليزية (روم لاندو) وأثبت فيه حديثاً جرى له مع الدكتور طه وفيه يعود الدكتور ليؤكد أن الإسلام لا يتفق مع العلم ، وأن شيوخ الأزهر يكذبون إذا ما قالوا غير ذلك ، وأن المسلمين في مصر بين مراء في عقيدة

الإسلام وآخر يتخذ العقيدة مجرد تقليد ، وإن الإسلام قد يمكن أن يكون في المستقبل ديناً روحياً بشرط أن تتناوله يد التجديد . ومما يقوله في هذا الحديث : إن الدين عند الأزهريين لا يزيد على أنه حرفة يحترفونها لاقتناص المال . وكتاب هذا الانجليزى يلتقى في الغاية مع كتاب (مستقبل الثقافة) في سوء الظن بالثقافة الإسلامية في أسسها ونوعيتها .

فهذا الداعية : (طه حسين) لا يريد أن يكف ولا ينقطع ولكنه يجبن وينتقص ويتلوى ويفقد جرأته الخاطئة ويمكن كدود الدودة في الشرقة ، كما أفزعته صيحة الحق ، وهو بعد هذه النهاية التي صار إليها من الإهمال والمطاول لا يسأل عن ذنوبه قبل أن يسأل عنها الرجال المسئولون في مختلف العهود .

ولقد كان الأستاذ محمد المهياوى من الأقلام المسلمة الجريئة التي لم تترك لطله حسين فرصة دون أن تنازله وتكشف زيفه . ولعل خير ما تقدمه في ختام هذا الفصل سؤال وجه إلى طه حسين وأجاب عليه مرتين .

قال السائل كيف ترى أولادك ؟

في الأول قال : أتركهم لأنفسهم مستقلين بشؤونهم ولا أعتبر نفسي آمراً أو ناهياً لهم . بل أتيح لهم أن يقولوا لي (لا) ، كما أتيح لنفسى أن أقول لغيرى : (لا) ، (وهذا مفهوم فرويد والماسونية) .

في الثانية قال : ما أعمله وما أنصح به لغيرى مع الأسف أنني أرسل أولادى إلى اللبسة فرنسية وأعلمهم العربية في البيت وهذا لأن اللبسة هو فيها أعلم أحسن معهد للتعليم الابتدائى والثانوى في مصر (وهذا مفهوم التبشير) .

وقد أشار زكى مبارك إلى بعض أساليب طه حسين الماكرة في إدخال المفاهيم المنحرفة إلى شباب الجامعة فقال : إنه كانت تعد أسئلة في كلية الآداب وتعد الإجابة عليها وتلقى بين المحاضرات على أنها أسئلة من بعض الطلبة منها قول أحدهم : لو أراد الله أن ينزل قرآنًا في زمننا هذا ، فبأى لغة يمكن

نزوله ؟ ويرد أحدهم : أنه كان ينزل بالفرنسية لأنها هي اللغة العامة لحسن لفظها وقرب مأخذه ودقة تركيبه .

ويقول آخر : إنه كان ينزل بلغة أحسن من التي نزل بها وهي العربية التي تستعمل الآن في الكتابة .

ويقول ثالث : إن القرآن نزل في بيئة جاهلية فنزل بلفظه هذا الذي يروى عليه اليوم ولو أنه نزل في أيامنا فلا شك في نزوله بصورة مغايرة للتي نزل بها ومعنى هذا أن القرآن لا يوافق كل المعصور ، بل يوافق العصر الذي نزل فيه .

ويقول ركني مبارك : سمعت من بعض الطلبة أن هذه الأسئلة توضع قبل الدخول إلى الدرس ، ويلقبها تابع من أتباعهم أثناء الدرس حتى تزيد العقائد ، فالطلبة ليسوا من التمكن في الدين بحيث يدفعون مثل هذه الشبهات لأول نظرة .

(٩)

المدارس الأجنبية

عقد الأستاذ محمد صبرى عابدين فصلا في مجلة الأزهر (نوفمبر عام ١٩٥٣) عن المدارس الأجنبية رد فيها على مقال مجلة روز اليوسف في (٢٦ / ١٠ / ١٩٥٣) بعنوان الدفاع عن الكنيسة القبطية قالت المجلة - فيه ما نصه :

(أثار الدكتور طه حسين عند مناقشة نظم التعليم في لجنة الحريات والحقوق العامة بـلجنة الدستور : مسألة المدارس الأجنبية ونظمها وذكر أن هدفها الأول هو التبشير الديني حتى خلقت من الأقباط المصريين ثلاث طوائف هي : الكاثوليكية ، والبروتستنتية ، والأرثوذكسية ، وقال : إنه في الوقت الذي يتجه في التربية القومية إلى محور كل ما يتصل بالتعصب الديني يرى أن هذه المدارس الأجنبية تثير التفرقة بين أبناء الدين الواحد ، وقال الدكتور طه في كلامه : (إن الهدف المقصود من التبشير الأمريكي والإنجليزي

والفرنسى هو هدم الكنيسة القبطية مع أن هذه الكنيسة جزء هام من تراث الدولة يجب المحافظة عليه . وإنا نشكر للدكتور طه دفاعه عن مواطنينا الأقباط ومطالبته بحمايتهم وحماية كنيسهم من خطر التفرقة التي تثيرها المدارس الأجنبية . حرصاً على الوحدة القومية بين المصريين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم . وكما يسرنا لو أن الدكتور طه حسين وهو وزير سابق للمعارف المصرية عرف حقيقة مقاصد المدارس الأجنبية وأغراضها التبشيرية ، والاستعمارية الخطيرة . وقد عني إلى جانب دفاعه عن الكنيسة القبطية بالدفاع عن قومه المسلمين الذين هم أكثرية شعب مصر . وليت الدكتور طه ذكر لنا كم طائفة المدارس الأجنبية بين مسلمى مصر وغيرها من بلاد الشرق . وكما خلقت فيهم من ملحدين وإنجليز وفرنسيين وأمريكيين وصهيونيين ، طبعهم المعلمون الأجانب بالطابع الغربى وأبعدوهم عن كل ما هو شرقى ، وجردوهم من أخلاقهم وقصائلهم وتقاليدهم الإسلامية ، العربية الحميدة وأوجدوا بينهم فريقاً عاقاً مذنباً كان ما زال حرباً على أمته ووطنه ، عوناً للعدو المحتل ، منفذاً لسياسته وخططه وفات الدكتور طه أن يذكر لجنة الدستور أن الهدف الأول للمدارس الأجنبية في مصر العمل على هدم الإسلام وتقويض دعائمه وجعل أوطانه وأقطاره فريسة للاستعمار الأجنبى وما ذكره من خطر المدارس الأجنبية على نصارى مصر وتفرقهم قد سبق أن شعر بمثله نفر من أحرار نصارى لبنان وأديانهم .

وجدير بالذكر هنا أن الميشرين لم يخفوا مقاصدهم وأغراضهم فهم يعلنون على رؤوس الأشهاد أنهم إنما يريدون في مدارسهم وكنياتهم وجامعاتهم في بلاد المسلمين محاربة الإسلام والسعى لإخراج المسلمين من دينهم ، فهذا المستر بروز الرئيس الحالى للجامعة الأمريكية في بيروت يقول في كلمة له ما نصه : (إن الميشرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات إلا أنهم قد أحدثوا بينهم آثاراً نهضة) ، ولقد برهن التعليم على أنه أضمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجئوا إليها إلى سعيهم لتنصير سوريا ولبنان . ولم يكتفوا ببيروت بل أرادوا أن تكون ثمة كلية في القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر . فأصبح للميشرين الكلية الأمريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول .

وإننا نلرجو أن تقصر أبحاث لجنة الحريات والحقوق العامة بـلجنة الدستور على إعداد قانون بتوحيد نظم التعليم المصرى فى جميع البلاد المصرية ينص على منع فتح مدارس أجنبية جديدة ووجوب تعلم الدين فى جميع مراحل التعليم وإلزام المدارس الأجنبية بذلك وإنشاء مساجد فى كل المدارس المصرية والأجنبية ليرضى فيها الطلبة والطالبات من المسلمين صلواتهم ، وشعائرهم الدينية وأوقاتها .

وإنى على ثقة بأن المسئولين يعلمون الكثير عن ضرر المدارس الأجنبية وخطرها وما تقوم به من التبشير والتضليل وخدمة المظالم الاستعمارية تحت ستار الدين .

(١٠)

الجامعة تقف أمام مؤامرة طه حسين

ولكن عمل طه حسين فى الجامعة لم يمر دون موقف حاسم من الشباب وقد بدا هذا الموقف بعد أن انكشف ذلك القبح الموجه للإسلام فى رواية (سان جوان) التى تدرس لطلبة كلية الآداب وهى محاورة بين شخصين تعرض فيها للنبي صلى الله عليه وسلم بعبارات غير لائقة . وقد طير الجامعيون برقيات إلى الصحف يشكون فيها من وضع هذا الكتاب بين أيديهم ، وقال طه حسين فى الرد على ذلك : نحن تعلم آداب اللغة الإنجليزية فهل من أجل عبارات طعن فى الإسلام تمنع تدريس هذه الرواية ، وليس الإسلام من الضعف إلى حد عدم احتماله مثل هذه العبارات ، وقد طالب طلبة كلية الآداب بعدم الخلط بين (حرية الفكر) و (حرية الفحش) والإجرام فى حق أقدس شخصية فى العالم ، وقالوا : لسنا نريد أن يحيا العلم الزائف على حساب الكرامة ولكننا نريد أن نحيا الكرامة فى ظلال العلم ، (راجع القضية فى كتابنا تاريخ الصحافة الإسلامية : مجلة الفتح) .

وقد اتجه الشباب المسلم فى الجامعة حيث رفع طلبة (كليتى الحقوق والآداب) مذكرة إلى مدير الجامعة يطلبون فيها عدة طلبات أهمها :

أولا : إدخال الدراسة الدينية فى جميع الكليات .

ثانياً : توحيد زى الطلبة في الجامعة مع تمييز طلبة كل كلية عن الأخرى بإشارة خاصة .

ثالثاً : توحيد زى الطالبات .

رابعاً : تحديد دراسة خاصة للطالبات في كلية الآداب .

وقد أفاضت مذكرة الطلبة في هذا المعنى فقالت :

طالما تأقت نفوس النشء إلى التعليم الذى حرم منه في مراحل التعليم الابتدائى والثانوى فقد نص الدستور في المادة ١٤٩ على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة والمشرع أبعد أن يحشوا الدستور بمواد لا يريد معناها ونتائجها . ومن المسلم به أن مصر للشرق كله نبراس يضيء يعلمها ودينها والجامعة المصرية تنتهى بها مراحل التعليم في بلادنا ويتخرج منها أكبر عدد ، وكان من الواجب أن يلم في هذا الميدان الآخر بشيء من دينه القويم ، حتى لا يقضى حياته جاهلاً بأصوله مخالفاً لقواعده وقوانينه ، بعد أن استوعب فلسفة أرسطو وأحاط بنظريات ديكارت ولا تأنى معرفة الدين وأصوله إلا عن طريق إدخال الدراسة الدينية في منهاج الدراسة في جميع الكليات ، ففي الدين نجد الوازع الأكبر للشباب في مرحلته الأخيرة التى تتصادف وساعات الطيش وتتقابل وفترات البرق والرعدة ، ويرجع طبعاً كل ذلك إلى عامل السن في هذه المرحلة ، ومن شديد الأسف أن تنتهى مراحل العلم في بلد إسلامي أشتهر بين بلاد العالم بالدين وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً ، وإننا لا نجد عوضاً لنا عن هذا الإهمال بين جدران منازلنا ، إذ أن من مر الحقائق أن سراد الشعب أعرض عن الدين وانغمس فيما نهى الله .

٢ - تحديد دراسة خاصة للطالبات في كلية الآداب :

وقد يمكننا أن نجدوا للفتاة في كلية الآداب دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر فليس كل المواد التى تدرس في كلية الآداب تتفق وكونهن أمهات المستقبل . إن الاختلاط بصورته الحالية في جميع الكليات يتنافى مع الشرع الإسلامى . إن في الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وغير معين على حياتها المستقبلية التى خلقت من أجلها . وما كاد

الدكتور طه حسين يعرف بشأن هذه المذكرة حتى كبر عليه أن يجرؤ
أولئك على تقديمها إلى مدير الجامعة ، ثم هاله تأييد رجال الأزهر وعلى
رأسهم الأستاذ الأكبر لإخوانهم الجامعيين . قال الدكتور طه :

(أنا لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصاً
يحرم اجتماع الفتيان والفتيات حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب والفن) .
وقد ووجه طه حسين بعشرات من الرسائل التي تدحض مفهومه الخاطيء
وكتب كثيرون يدحضون مناورة الدكتور طه حسين . قال محرر الفتى :
إذا كان الدكتور لا يعرف هذا النص فهل معناه أنه غير موجود ، وهل
يلزم من عدم معرفة الدليل على شيء عدم وجوده :

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ومن قال : إن الدكتور طه عالم من علماء الدين أو فقيه من فقهاء المسلمين
حتى يقام لرأيه وزن في الشئون الدينية ، وبعد فنحن نتولى تعريف الدكتور
ما جهله حتى يعلم أنه تطفل وتدخل فيما لا يحسن الكلام فيه .

إن الأدلة الشرعية ليست محصورة في الكتاب والسنة ولا مقصورة
عليها فحسب ، بل الأدلة الشرعية المتفق عليها هي الكتاب والسنة الصحيحة
والإجماع والقياس الصحيح ، ومن لا يعرف ذلك فهو داخل تحت قول
الله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب
منير . ثانياً عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة
عذاب الحريق » . (سورة الحج الآية ٩) ، وأنه مما امتاز به الإسلام في
قواعده العامة إن جعل درء المفسد أساساً للأمور الأدبية والشرعية ، فاختلاط
الجنسين وهو بذور المفسد ومصدر الشرور محرم بهذه القاعدة الشرعية ،
وإن القرآن أورد آيات كثيرة حول هذا المعنى واضحة المعنى دالة على تحريم
الاختلاط : اختلاط الرجال بالنساء الأجنبية مطلقاً إذ الأمر بالشئ
نهي عن ضده ، ولا ننسى أن العبرة بعموم اللفظ ، أما حكمة التشريع في
تحريم الاختلاط فهي الشريعة الإسلامية تريد للمرأة المسلمة أن تحيا حياة
الطهر والعفاف والصيانة والفضيلة والدكتور طه بهذا يصادم شعور المسلمين
وحرية آرائهم .

وإن كل خطاب موجه إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هو موجه للنساء المؤمنات ما لم يقدّم دليل خاص على التخصيص ، استمع لما جاء في القرآن الكريم متعلقاً بموضوع الاختلاط المحرم :

« وقرن في بيوتكن . . . » (الأحزاب - ٣٣)

« . . . وإذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . . . »

(الأحزاب - ٥٣)

« يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . . » (الأحزاب - ٥٩)

هذه الآيات واضحة المعنى دالة على تحريم الاختلاط : اختلاط الرجال بالنساء والأجنبيات مطلقاً .

كما أمر الله الرجال بغض أبصارهم عن النساء الأجنبية وعملاً لا يحل النظر إليه ، كما أمر النساء بغض أبصارهم عن الرجال الأجانب مع بيان الحكمة في ذلك :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن . . . » (النور - ٢٩ - ٣١)

أما حكمة التشريع في تحريم الاختلاط فهي أن الشريعة الإسلامية تريد للمرأة المسلمة أن تحيا حياة الطهر والعفاف والصيانة والفضيلة ، والدكتور طه بهذا يصادم شعور المسلمين وحرية آرائهم .
(محمد إسماعيل عبد النبي)

(١١)

مع روم لاندو والشباب

وعندما اشتدت حركة اليقظة الإسلامية في الجامعة وكشفت عن وجودها بموقف الشباب المسلم من الاختلاط ومطالبته بمنهج إسلامي في التعليم ، قدم إلى مصر الكاتب روم لاندو يبحث هذا الأمر وقد طاف بعدد من

القادة ليسأل عن مستقبل الإسلام بين الشباب . ولقد سأل الشيخ المراعى شيخ الأزهر ، كما سأل لطفى السيد مدير الجامعة ، ولعلك تدهش أن تسمع إجابة لطفى السيد : وهو كلام رجل مكر نخبث لا يريد أن يكشف وجهته وإنما يجازى الموقف : قانوننا الدينى لا يتناول العقيدة بالبحث المحض ، بل هو يخرج عن هذه الدائرة الضيقة فيتناول كل تفصيلات الحياة فيضع أنظمة لشئون العمل والزواج والميراث ومئات المسائل الأخرى .

— ألا زالت الديانة فعالة .

— إنها أقوى مفعولية وتأثيراً فى الحياة المصرية منها فى الحياة المسيحية لأن جميع قوانيننا أساسها القرآن ، وفى الأقطار الإسلامية من الصعب أن تفصل الديانة عن الحياة الاجتماعية .

— ومع ذلك يقال لى : إن شباب مصر يهجرون ديانة آبائهم تحت تأثير غزوة التجديد الغربى .

— ربما لا يتجهون إلى المساجد ويؤدون الصلاة يوم الجمعة ولكنهم مع هذا لا يمنع أنهم متمسكون بالدين فى مجموعه . . . إلخ .

ولكن الدكتور طه حسين يذهب بعيداً فى مجافاة حقائق البقطة الإسلامية التى أحاطته فى كرسىه بكلية الآداب وفرضت عليه أن يترك الجامعة ، فيقول للكاتب الفرنسى :

فهو يرى أن الدين كقوة روحية لا أثر له فى نفوس أولئك الذين تلقوا علومهم فى مدارس دينوية وهم كثرة المتعلمين ، فهم كافرون بالدين والتقاليد ، يؤمنون بالمسادة ، ذلك بأنهم بعد أن خضعوا قروناً لسيطرة الدين اعتدوا فى الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوروبا منذ قرون .

س — هل تعنى أن الدين لم يعد يداخل حياة الشباب ؟

ج — شبابنا متناقضون فى موقفهم من الدين ، فهم يتخذون عقائد آبائهم التقليدية أساساً لمعتقداتهم فى مقاومة المؤثرات الخارجية وفى اتجاههم الوطنى ، لماذا ؟ لأن القرآن فى الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد لكل محاولة يراد بها تكوين أمة ، وطلابنا فى حياتهم الخاصة أصبحوا قسماً متميزاً من مجموع السكان ولكن لا يلبثون أن يجمعهم القرآن بكل فلاح وكل

بدوى . إنهم يقبلون القرآن لبيئتهم من العامة كتلا تناصرهم في كفاحهم السياسي ، فهم يجعلون من القرآن أداة سياسية لا أداة روحية ، وهم من الناحية الروحية متبحرون في القضاء وتفكيرهم الجديد غير قابل للهضم ، والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يعدو أن يكون حرفة يختارونها وتدر عليهم رزقاً . ولا شيء أكثر من ذلك .

— إذن تريد أن تقول : إن الأزهر صار مجرداً من الروح .
— بل اذهب في اعتقادي إلى أبعد من هذا فأقول : إن الأزهر يدين بالمادة جهراً ، فالشيخ المراهي مع احترامى لشخصه رجل داهية ، تراءى له أن يدور مع الزمن حيث يدور ليستبقى نفوذه في جامعيه ، وهو يحاول أن يثبت أن لا تناقض قط بين القرآن والفكر ، ولا بين القرآن والقوى المادية التي تتزايد في مصر ، ولعلك سمعت بقراره الأخير الذي قبل رسالة موضوعها (عدم فناء المادة) ولو أنك عرفت الإسلام معرفة صحيحة لحكمت بأن عمل المراهي وشيئونه هو افتراق عن سائر النظريات الروحية الموجودة في تعاليم محمد وطبيعى أن الشيوخ المتعلمين لن يجدوا مشقة في أفهامك إلا تعارض بين علمهم الحديث والتعاليم المحمدية .

— وماذا ترجو لمستقبل الإسلام في مصر ؟

— إننا نشهد أول تغيرات ثورية في الحياة المصرية . فن ناحية نحن نعيد المادة وندين للفكر ، ومن ناحية أخرى ليست لنا طباع وتقاليد الغرب الاجتماعية ، وإلى أن يستعيد الإسلام قوته مرة أخرى وعندئذ سيكون الإسلام روحياً تناولته يد التجديد وإن البيانات المبنية على المنطق فقط لا تعد بيانات ، بل يجب ألا يخلو الدين من عنصر روحى وقوة خفية ومن معجزات .

إن هذا الحديث يعطى فكرة حقيقية إن الدكتور طه يتحدث كشيء أكبر من عميد كلية الآداب وأنه مسئول عن عمل أكبر ، وهكذا يلقى طه حسين أمام هذا الأجنبي آماله كزعيم للدعوة الهدامة للإسلام على النحر الذى يتطلع إليه بعمله المتصل منذ عام ١٩٢٦ . وقد جاء هذا الحديث عام ١٩٣٧ ليوحى بأن روم لاندو يسأل طه حسين بوصفه قائد عمادة التفرغ في مصر ، وطه حسين يرد بوصفه المدافع عن فكرته المادية وكيف أنه يطمح في أن يهدم الإسلام بعد سنرات ليصبح ديناً روحياً لا صلة له بمنهج

حياة المجتمع ولا نظامه السياسى والاقتصادى وهو الهدف الكبير الذى كان يسمى إليه .

ولما تعالت الصيحات تنوش طه حسين من كل جانب على هذه الآراء المسمومة تراجع الكاتب الجريء وقال : إن ما نقله المؤلف لم يكن دقيقاً ، وإن الحديث محرف . وأنه حين تحدث إليه لم يصارحه بأنه يزعم أعداد هذا الحديث للنشر على العالم فى كتاب وقد كتبت مجلة الصباح (٥ مايو عام ١٩٣٩) تحت عنوان : (اتهام جديد للدكتور طه حسين) .

وعلقت على قوله هذا بما يأتى :

ومعنى هذا أن الدكتور يجد كلاماً يقال . وكلاماً آخر يكتب . وإن هذا غير ذلك وبينهما جسر من المسئولية الأدبية والخلقية والجنائية والوظيفية ، لا يجد الأستاذ العميد فى نفسه الشجاعة الكافية لعبوره .

وقد صادرت الحكومة كتاب (روم لاندو) لهذا السبب وقال طه حسين : (من المحقق أنى أستطيع التعبير عن آرائى فى كل ما يتصل بالأشخاص والمطالعة العلمية دون أن يكون فى تعبيرى ما يؤذى أحداً) .

وقالت الصباح : أرأيت كيف يلعب العميد باللفظ ، فلا ينكر التهمة ويخاف أن يثبتها . إن حرية الفكر تتطلب إليه أن يقول ما يريد بينما لا بين الأجانب فى الأراضى البعيدة . وإذا كان الأستاذ العميد يخشى الجوع إذا ما تنحى عن وظيفته ، فالجوع وسيلة لأن تقول عبر الأجيال فى كتاب خلوده : إن رجلاً فى القرن العشرين مات جوعاً فى سبيل حرية الفكر .

(١٢)

يقول العلامة محمد فريد وجدى (مجلة الأزهر ٨) : (استأنس المستر روم فى حكمه بما أفضى به إليه الدكتور طه حسين من أنه لم يعد للإسلام نفوذ إنشائى فى شباب اليوم وكان من آثار ذلك أنهم عجزوا عن تكوين معتقدات روحية لأنفسهم . يروى المستر روم لاندو عن الدكتور طه : أنه يرتاب أشد الارتباب فى تأثير الإسلام فى نفوس الشباب تأثيراً علمياً ولستأ نرى محلاً لهذا الارتباب بعد ما تبين للناس والعالم أن الإسلام مجموعة أصول ومبادئ خالدة هى المثل العليا للاتصال بين الجنسيتين مادة ومعنى . لا أنه

فلسفة معينة أو مذهب مقرر ، يفرض على الناس فرضاً ، ولا يجوز لأحد أن يتخطاه إلى غيره ، فإذا كانت هذه الشيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها في رعاية المثل العليا وتحت ظلال هذه الحرية ، ففي رعاية أية فلسفة قابلة للتجحر تستطيع ذلك . وإذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا فتحت أى ضوء ينتظر أن لا تعجز إذن ؟ .

وكتب الأستاذ محمد إسماعيل عبد النبي في الفتح يقول :

إن الدين الإسلامى هو دين العلم والفلسفة الحقة التى تعتمد المشاهدة والتجارب والمنطق السليم . إن ديناً يفرض النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ، كما يفرض النظر في ذات الإنسان والحيوان والنبات والجماد وما يحيط بالإنسان ويقع تحت حواسه ليستخرج منه العبر والعظات . إن ديناً هذا شأنه هو دين الفلسفة الحقة والعلم الصحيح : هو دين الإسلام .

ويقول روم لاندو : ولقد أعرب لى الدكتور طه (وهو على الأرجح يعرف روح مصر الحديثة أكثر من أى رجل آخر) عن ارتياحه الشديد في هل للإسلام نفوذ إنشائي ما في شباب اليوم مما يدل على أنهم يجدون أنفسهم في الهواء تماماً حتى إنه يمكن القول : بأن عجزهم عن تكوين معتقداتهم الروحية أو مطامعهم كانت نتيجة مباشرة لذلك .

أما إن الدكتور طه حسين يعرف أكثر من عزة روح مصر الحديثة على الأرجح فهو في نظرنا أمر مرجوح ، فإن الدكتور له هوى خاص في هذه الأمور وقد عرفه المسلمون في جميع أنحاء الأرض بأنه في جميع الحقائق الإسلامية لا يصدر عن حكمة وإتزان وإنما يفاخر بالتعصب لرأيه ويعاند الناس جميعاً ويعتقد أن تلك الخطوة هي طريق شهرته وسبيل ظهوره ولا يبالي ما يكون بعد ذلك ، فهذا هو يقرر للمستمر لاندو أنه شديد الارتياح في أن للإسلام نفوذاً إنسانياً ما في نفوس شباب اليوم هو ثم يعلن في الوقت نفسه على صفحات الصحف وفي جريدة المصرى بدون تحفظ ولا حيلة ، أنه حسن الظن بأخلاق الشبان المسلمين والرجل العاقل المنصف يعلم أن الدين والخوف من الله هو أساس الأخلاق الفاضلة والدين الإسلامى دين الخلق فكيف يكون للشباب خلق كريم وهو لا يعلم لتعاليم دينه وزناً وليس للإسلام

في نفسه نفوذ ثم يكون مع ذلك رشيداً ، فانظر عقيدة الدكتور في شباب اليوم : يشك ويرتاب في مسلكهم وفي نفوذ الإسلام الإنشائي فيهم . ويحسن الظن جداً بأخلاقهم ولا يشك فيها وفي رشدهم ، فإذا قام الشباب بطلب بالتعاليم الدينية حتى يكون للإسلام نفوذ إنشائي في نفسه غضب عليهم الدكتور ورماهم بالسخف .

إننا حين نرد على الدكتور لا نطمح في إقناعه أو تغير من طبعه ، فهو ما لا يحيط لنا على بال لأن الرجل ولوع بالعناد . يراه طريقاً لشهرته وإنما وددنا عليه من الناحية الدينية التي اعتدى عليها مخافة أن يضل الشباب ويفتنه في أمر دينه . وقد أتبع الرد عليه من ناحية حماية النجباء من طلبة الجامعة ، إما أن نسكت عليه من الناحية الدينية يتحدى ويضلل بحجة أن الرد عليه يكلفه صعباً كما يقول البعض فهو ما لا نوافق عليه .

• • •

وحديث طه حسين مع روم لاندو يكشف عن أهداف خفية للنفوذ الأجنبي في مصر قد فضحها اندفاع طه حسين الذي كشف عن موقف أحدث زويدة شديدة حتى قالت الجهات المسئولة : إذا كان طه حسين يرى هذا الرأي في الأزهر والإسلام ، فإن الجهات العليا لا ترى في الأزهر والإسلام رأيه . ولذا كان بقاء طه حسين في عمادة كلية الآداب غير ممكن (الصباح ١٩ مايو عام ١٩٣٩) . وقالت المكسوف الليتانية : إنه حمل على ترك منصبه ويقال : إنه قرر السفر إلى فرنسا للاعتكاف سنة كاملة . وقد نشر الحديث بكامله ترجمه مصطفى الحفناوى في مجلة منبر الشرق المصرية (١٨ أبريل عام ١٩٣٩) .

(١٣)

الدعوة إلى الفرعونية

حدد طه حسين ألوان الغذاء الروحي والعقلي للشباب (في محاضرة ألقاها عام ١٩٤٠) بعناصر ثلاث :
١ - العنصر المنحدر من تاريخ مصر القديمة الفرعونى وهو الفن .

٢ - العنصر المتفخل في مصر الإسلامية وهو الدين والأدب والفن العربي الإسلامي .

٣ - العنصر المتلبس بجباتنا الحضارية منذ اتصلنا بغيرنا وهو العنصر الأوربي .

وأولى الدكتور طه ضرورة الاهتمام بأمرين : بالفن الفرعوني ، وبالعنصر الأوربي في سبيل تغليبهما على العنصر الإسلامي واحتوائه ، هذا ما يفهم من نصوص محاضراته التي علق عليها الأستاذ محمود شاكر حين قال (م ١٤ مجلة الفتح) :

ليس في القراء من يجهل أن أول ما يتكلم به الدكتور إن هو يجعل مرد كل شيء إلى يونان ومدن يونان ، فلا شك إذن أن أول نظام عرف للغذاء العقل والروحي للشباب إنما كان في المدينة اليونانية وهذا شيء مفروغ منه ، فقد جعله الدكتور طه مذهباً لا يحيد عنه وأسلوباً لا يسلك غيره ونحن إذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعي في العمل والتشريع والسياسة هو النظام ، فمن الخطأ الذهاب في الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بنى اجتماعها على المسيحية في التشريع والسياسة والأخلاق ، فصر والشرق الإسلامي إذا أراد أن ينهض فلا بد له أن يستمد نهضته من أصول الاجتماع الذي يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والورثة ، وإذا سار فلنما يسار في فكرة مطلقة هي النهضة والحضارة والمدنية الإسلامية ، على الطريق الذي يوافق طبيعة هذا الاجتماع ، أما المدنية الحديثة فقد بنيت على غير ذلك ، وقد تطورت على أصوله . ولقد قال جورج الخامس ملك بريطانيا في (ديسمبر عام ١٩٣٩) : إني أؤمن من أعماق قلبي بأن القضية التي تربط شعوبنا معاً وتربطنا بخلفائنا المخلصين الأجداد فهي قضية المدنية المسيحية وليس نعمة قاعدة أخرى يمكن أن تبني عليها مدنية صحيحة وكلام الملك جورج هو أدق النصوص لحقيقة الحضارة الأوروبية في نظر كل باحث نصراني أو يهودي أو مسلم ، فإذا أردنا أن نتابع تطور هذا الغرب من المدنية بتبديل اجتماعنا - الذي دعا إليه الدكتور طه في حديثه ليطابقه ، فكأنما يدعو إلى تنصير الإسلام ، والعجب أن يذكر الدكتور الحضارة الأوروبية الحديثة فلا يدعو إلى الأخذ بشيء مما فيها دعوة صريحة إلا فيما يتصل بالخلق ، إلا أن أخلاق

المدنية الأوروبية قد استعكست جميعها في هذا البنى المتفجر في الحرب . وإذا أردنا أن تأخذ - أى أن نقلد - فلنأخذ من تاريخنا . من ديننا ، من أخلاق رجالنا .

وقد جعل الدكتور طه الفن الفرعوني أحد العناصر في الغذاء الروحي والعقل للشباب في عصرنا هذا ، وذلك قوله : من حق مصر أن تعنى بالفن الفرعوني كالنصوريون والتسابل وغيرها فتحية وتنشره وتلقنه لأبنائها وشبابها يريد الدكتور طه أن تأخذ مصر من حضارة الفراعنة شيئاً وأن تدع أشياء وأن تأخذ من حضارة العرب والإسلام شيئاً وأن تدع أشياء . أما حضارة أوروبا فهي عنده كل لا يتجزأ ويجب أن تبدأ منها بالخلق ، والغذاء الروحي فترى ناشتنا عليه وإذا ذكره أهل الذكر بأن فيها ورثته مصر من تراث الإسلام ما يكفيها من تاحية الخلق وغذاء الروح وأنها إنما تحتاج من أوروبا إلى العلوم التي تتقدم بها الصناعات وتضطلع بأسباب القوة . قال لهم : إنكم مناقرون . الخلاف القديم بين الدكتور طه وبين جميع الذين عارضوه منذ بضعة عشر عاماً إلى الآن يدور حول هذه النقطة هو يريد أن يكون النشء الإسلامى كالنشء الأوربي في كل شيء . ثم يتحل بمظاهر من حضارة الفراعنة وحضارة الإسلام والذين عارضوه يريدون أن يكون نشئنا نشئاً إسلامياً وأن يتحل بعلوم أوروبا التي يتوقف عليها أسباب القوة والتقدم العلمى والاقتصادى والعمرانى .

وهو يرى أن الحضارة الأوروبية كل لا يجوز أن يتجزأ ويجب أن تبدأ منه بالغذاء الروحي ومعارضوه يرون أن المعارف تراث إنسانى ليس خاصاً بالغرب دون الشرق ، ولا بأوروبا دون آسيا وإفريقيا ، وكما أخذت الحضارة الإسلامية من معارف اليونان وغيرها من الأمم القديمة وبقيت إسلامية ، وكما أخذت أوروبا من معارف المسلمين وبقيت غربية مسيحية ، كذلك نحن في هذا العصر ، يجب أن تأخذ هذا العلم العالمى المشاع الذى هو تراث الإنسانية فنستفيد منه ونقوى ونبنى مع ذلك عرباً شرقيين مسلمين . والغذاء الروحي في الإسلام أبهى وأمتع من الغذاء الروحي في الغرب . إن في غذاء أوروبا الروحي ما يمتنى الأستاذ هكسل أن يكتسبه مذهب عظيم يريح الإنسانية من شروره .

أما بالنسبة للفن الفرعونى الذى يدعو طه حسين إلى إحيائه فيقول الأستاذ شاكر : نحن لا نشك أن أعظم الفنون والآثار عامة كانت نتيجة لازمة للعقيدة الدينية (وثنية كانت أو إلهية) وللطبيعة الجغرافية التى تمد عليها من ظلالها . إن الدين والعقيدة هى عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر فى توجيه أغراضه وحياتها وتدبيرها وتوليدها فهى إذن أصل قائم فى الحضارة التى تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما أو أهملتهما .

وإن أعظم الآثار الفنية التى يعتبرها الجيل الأوربى مثلاً فى طليعة العبقريّة الفنية هى تلك الآثار العظيمة الخالدة التى نشأت وربت وترعرعت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والمعابد المسيحية التى عاش فى مدنتيها الفنانون الذين أبدعوا هذه الآثار تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية .

كذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثنى الذى يعيش عليه الفنان الصينى والهندي وبطبيعة البلاد الهندية والصينية . فالفن الفرعونى بغير شك ليس إلا نتاجاً مركباً من الوثنية المصرية والطبيعة المصرية الرائعة القوية . وأثرها بين فى هذه الأبنية الضخمة بنائيلها المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة . وعلى الأصول الاجتماعية للوثنية الفرعونية التى كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم . فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عبدت أوثانها وتقدس بعقائدها الباطلة وخضعت لأساطيرها الرهيبة المخنقة . واستمدت تأويلها من الإيمان بجديّة هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح وكذا وكذا من الأوهام الغالية هى التى أنتجت هذا الفن المصرى القديم بمعايده وتمائيله وكتابتته الخيروغرافية المعبرة أصدق تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية والفرعونية . والفنان الفرعونى لم يستطع أن ينسب هذه الآثار الهائلة التى بقيت القرون يتحدى الزمن المتطاوّل لم يمنحها هذا الجبروت الهائل والاستبداد الطاغى إلا بالقوة التى نشأتها ودبرتها عقائده الوثنية الرهيبة ، وعلى ذلك فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى إن هو إلا فن وثنى جاهلى ، قائم على التماويل والأساطير والخرافات التى تمحق العقل الإنسانى ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية سواء أكان هذا الدين يهودياً أم نصرانياً أم إسلامياً ، وتمثال نهضة مصر لا أرى

فيه إلا تقليداً فاسداً لآثار حضارة قد دُثرت ولا يمكن أن تعود في أرض مصر مرة أخرى بوثنتها وأباطيلها وأساطيرها ونخرافاتها . نعم ، هل يستطيع الفنان الذي تحته وأقامه أن يعيد في مصر تاريخ الوثنية الجاهلية واجتماع الحضارة الفرعونية وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التي كانت وحياً للفنان الفرعوني ، الذي عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له بكل معاني الربوبية وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الهائلة الممتعة التي قلدها في قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة ، لقد ذهب كل هذا لقد اندثر . لقد ياد .

إن روح الفن هي دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائر أسباب حضارته وهي التي تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع . إذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستمداد من الفن الفرعوني كما استمد مختار . ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعاً إسلامياً . ثم استمدادنا أيضاً من الفن الإسلامي تناقض عجيب في أصل الرأي لا يمكن أن يكون ولا أن يعمل به . إلا إذا شئنا أن توجه لمصر حضارة مقلدة ضعيفة ملفقة من أشياء ليست بنتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصري الإسلامي الحديث .

(١٤)

الدفاع عن الإرساليات التبشيرية

في أكثر من نص واضح يكشف الدكتور طه مهمته الأساسية في مصر وهي الدفاع عن التبشير . وقد كان أخطر موقف له هو الدفاع عن المدارس التبشيرية بعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ وإعداد العدة لاتفاقية مونثرو التي تلغى الامتيازات الأجنبية ، فهو الحريص على أن يعلن في كل مناسبة تعهد الحكومة المصرية بأن التشريع المصري لن يكون مخالفاً للعبادئ العامة في التشريع الحديث وأن الاتفاقية أعطت مهلة اثني عشر عاماً لهذا التطبيق من عام (١٩٣٧-١٩٤٩) — أي أنه كان يعلن أن مصر مرتعة على أن تحكم بالقانون الوضعي خلال هذه الفترة وأنها لا تستطيع أن تعود إلى الشريعة الإسلامية . وقد تعالت الصيحات للعودة عليها منذ عام ١٩٣٣ على يد دعاة حركة اليقظة الإسلامية ؛ فهو يقول في بعض كتاباته : إنه يدعو المصريين أن يختصروا الطريق

إلى (الرقى) بأن يأخذوا النظام الغربى ويتخوفهم من أنهم لو لم يفعلوا ذلك فلن تطمئن إنجلترا إلى طلب الاستقلال فترفض الخروج من مصر . وكذلك أصحاب الامتيازات فإن علينا أن نطمئنهم بأننا نعيش في بلادنا كما يعيشون في بلادهم (نحن مضطرون) إلى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة) وهو يغيرنا بين اختيار الحياة الحديثة أو الجمود الذى معناه الموت . (نحن متصلون برضينا أو كرهنا بالأمم الغربية ، ونحن حريصون على أن نظهر باحترامها بأن نساير هذه الأمم ونعيش كما نعيش ، ونحن لا نستطيع أن نعيش في القرن العشرين كما كانت الأمم تعيش في العصور الوسطى . . . إلخ) .
إن طه حسين يدعونا أن نساير الأمم التى تنهب ثروات بلادنا وأن نخالف الله تبارك وتعالى الذى يدعونا إلى منجحه الحق !

(١٥)

أما دعوته إلى حماية الإرساليات التبشيرية في مصر فقد رد عليه السيد محب الدين الخطيب (الفتح) فقال : في الواقع إن معاهد الهيئات الأجنبية في مصر كاثوليكية وبروتستانتية لم تكن في يوم ما في حاجة إلى أن من يحميها من مصر حكومة وشعباً ولكن مصر هي التى كانت ولا تزال محتاجة إلى الحماية من هذه المعاهد ، فالمسيحي واليهودى في المدارس المصرية - حكومية وأهلية - لا يتعرض له أحد بما يخالف دينه ولا يجبره على أداء عبادة أو القيام بطقوس ليست من دينه ولا يجبر على دراسة كتب شريعة أخرى غير شريعته ، وعلى العكس من ذلك مدارس هذه الهيئات الأجنبية التى تتسابق الدول في مؤنثرو إلى طلب حمايتها فلئها هي التى تدرس كتباً فيها وقاحة وقلة أدب ومخالفة للحق ، والواقع فيها يتعلق بالإسلام ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم كما رأينا في كتاب التاريخ المقدس الذى يدرس في مدارس القمير والجزويت ، فضلاً أن هذه المعاهد تجبر من هو على غير دينها من تلاميذها على أداء صلاة وتلاوة أدعيته لا يعتقد بصحتها وعلى درس كتب دينية تفسد عليه دينه وتجعله في نظر نفسه وذويه وبني وطنه كافرأ فضلاً عن أن هذه الهيئات التبشيرية صدرت عنها أساليب كثيرة لإجبار المسلمين على التنصر ، منها التزويم المغناطيسى والإغراء والخطب والتهديب إلى خارج أرض الوطن .

(١٦)

بل إن طه حسين يذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى الدفاع عن المبشرين والملاحدة في نشر آرائهم ، فهو يسخر من نص الدستور بأن الإسلام دين الدولة . لأنه يتحد حريتهم . فهو يخشى أن يكون هذا النص سيمسهم بالطرد والعقوبة لأنه يعتبر نفسه واحداً منهم وهو يهاجم هذا النص لأنه يعلم أن الملاحدة في بلاد الإسلام حر إلا إذا نشر إلحاده وأغرى الآخرين بالخروج عن الإسلام فإنه عندئذ يعاقب ، وهو يعلم أنه يفعل ذلك ، ويحاول أن يتخفى وراء الكلمات والأساليب و وراء التبعية لحزب كبير كالوفد له تفويضهم .

وتقول سوزان في كتابها (معك) : إن أسوأ ما واجه طه حسين هو الخوف من هذا النص حين نشر كتابه (الشعر الجاهلي) ولقد كانت كل كتاباته عن (حرية الفكر) ترمي إلى مقاومة هذا النص الذي كان يمكن أن يطبق عليه في أي لحظة . لولا تلك الحماية الخارجية والداخلية له . إن حرية الفكر عنده تعني حرية نشر الكلمة الملاحدة دون رقيب أو مقاومة ولا تعني غير هذا مهما حورها وأخفاها .

(١٧)

بل لقد كان طه حسين أكثر إلحاحاً على نشر مناهج الإرساليات والتبشير في مصر من المبشرين أنفسهم .

يقول محمد زكي عبد القادر (نحو النور) في ٥ / ٨ / ١٩٧٤ ما يلي :
(في سنة ١٩٥٠ كان الدكتور جون بادو رئيساً للجامعة الأمريكية في القاهرة وكان طه حسين وزيراً للمعارف . وروى الدكتور بادو أنه زار الوزير للتباحث معه في دور برنامج الجامعة الأمريكية في القاهرة .

وكانت مفاجأة لي أن أجد أن انفعال الوزير الرئيسي كان نقداً رقيقاً لهذا المعهد لأنه على حد قوله ليس (أجنبياً) بدرجة كافية . فقد قال يومذاك : على الرغم من أن هذه الجامعة مؤسسة أمريكية فلأنكم لا تدرسون فيها منهجاً واحداً عن الأدب الأمريكي أو التاريخ الأمريكي أو الأنظمة الأمريكية . وعندما أوضحت له أنا لسنا في مصر لنشر قيم الثقافة الأمريكية . بل للعمل على

نطوّر الثقافة المصرية ، كان رده : ولكنكم تستطيعون أن تحقّقوا هذا الغرض على نحو أفضل إذ يسرّتم لنا معرفة قيمكم ، فنحن نستطيع تدريس ثقافتنا ، أما الشيء الذي نريده منكم فهو أن نفهم ثقافتكم فهما أفضل) . وهكذا طه حسين يريد أن ينتقل من الولاء الفرنسي إلى الولاء الأمريكي بعد أن انتهت فرنسا وبرغ نجم أمريكا في الشرق وهو ما قام به فعلا في ذلك الوقت حيث أخذ يقدم كتباً أمريكية ويدعو للثقافة الأمريكية بالرواج والازدهار .

وهذا ما فعله عندما عين وزيراً للمعارف وهو يعلم التبعيّة لبريطانيا وهو من أتباع الثقافة الفرنسية فإنّه ذهب إليهم في بريطانيا وأقنعهم بأنه خادم للثقافة السكسونية وكان عمله في وزارة المعارف محققاً لهذا الغرض . إنه من دعاة فتح جميع الأبواب والنوافذ لكل الثقافات ، يهودية أو شيوعية أو غربية ، لأنه يعرف الهدف وهو تدمير الثقافة الإسلامية العربية . وهذا الهدف هو أحد الأهداف التغريبية الكبرى التي تريد أن تدمر ذاتيتنا وقيمنا الأساسية وشخصيتنا الحقيقية بصورها في بوتقة الثقافات الغربية .

• • •

الفصل الثاني

الخطوة الثانية : القضاء على الأزهر

كانت حملة الدكتور طه حسين على الأزهر من الخطوط العامة الأولى التي ظل يراوحها ويغادها عمره كله . لم يتركها إلا ليعود عليها ، والمعروف أن الحملة على الإسلام عند طه حسين تأخذ قناعتين : القناع الأول هو الأزهر والقناع الثاني : هو كلمه القديم .

والحقيقة أنه كانت هناك موضوعات رئيسية ظلت أساساً لعمله كله طول حياته هي :

- الدعوة إلى بشرية القرآن .
- الدعوة إلى الإغريقية .
- ضرب اللغة العربية .
- السخرية بالتاريخ الإسلامي ومهابة الرسول والقرن الثاني الهجري .
- تحسين القرعونية .
- الأقلية المصرية وارتباطها بأوروبا .
- الأزهر والحملة على الإسلام من خلاله .

وفي عشرات من الموضوعات في مقالاته وكتبه نجد هذه الحملة على الإسلام من خلال الأزهر واضحة ، ونجد السخرية برجال الأزهر ظاهرة .

ولقد شاء الدكتور طه حسين يوماً أن يسخر من نفسه فقال هذه العبارة :

« كنت طالباً للقشور عند الأزهريين ، وأنا متعلق من الثقافات الأجنبية بقشورها عند المتأصلين في هذه البطاقات ، فأنا صاحب القشور شاباً وصاحب القشور شيخاً ، قد كتب على ألا أعرف من كل شيء إلا قشوره . أنا إذن أزهري عند بعض الناس وغير أزهري عن الأزهريين أنفسهم فأنا ساقط بين كرميين ، كما يقول الفرنسيون يرفضون الأزهريون لأنهم لم ينجحوا في

إجازتهم ويرفضون ثقافة أجنبية لأنى أزهرى لا أعرف من ثقافتهم الأجنبية إلا هذه القشور » .

ولقد ظل الدكتور طه حسين يعمل على الأزهر ، وزاد حنقه عندما أنشئت كليات الطب والهندسة والمعاملات فيها بعد فيه فأخذ يهاجمه بقسوة ويهاجم كلية البنات الإسلامية .

ولقد كانت معركته الحقيقية عندما ألغى المختصون المحاكم الشرعية ودمجوها في المحاكم الأهلية ، هنالك أحس طه حسين أن أهدافه تتحقق فطالب في إصرار وفي مقالات متعددة متوالية في جريدة الجمهورية بما أمناه الخطوة الثانية بدأها في ٢١ / ١٠ / ١٩٥٥ واستمرت وقتاً طويلاً واشتبك معه علماء الأزهر على نحو شديد حتى أن مجلة الأزهر أصدرت في شهر نوفمبر عدداً خاصاً عن الدكتور طه حسين هاجمه أكثر من ثلاثين عالماً من علمائه وواصلوا الحملة في العدد التالى من المجلة وكان ذلك بإشراف السيد محب الدين الخطيب .

قال الدكتور طه حسين : كانت خطوة رائعة تلك التي خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء ، وما دام توحيد القضاء قد أصبح حقاً واقعاً فلندع الحكومة إلى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطراً أو عسى أن تكون أبعد منها أثراً وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد . لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها بل في حياتهم العقلية ، لأن هذه الحياة هي أساس التفكير وقيام العمل ، وأنا أعلم أن هذه الدعوة ستثير صفت فریق من المحافظين ، لقد آن لمصر من جهة أن تلتزم بين حياتها الجديدة المتطورة وبين تنشئة هذه الأجيال التي تفرغ لدراسة الدين من أبنائها بحيث لا تقتطع هؤلاء الأبناء من الحياة العامة ومن الظروف التي تحيط بهم ويكونون فريقاً لا هو بالقديم ولا هو بالجديد ، وإنما هو شيء مختلط . لست أدري ما الذي يمنع شبابنا الأزهريين من أن يسلكوا سبيل غيرهم من أترابهم فيتخرجوا من المدارس الابتدائية أولاً ثم يتخصصوا في علوم الدين .

وسبيل ذلك واحدة لا ثمانية لها ، وهو أن يوحد التعليم العام ، بحيث لا يكون هناك فرق بين من يريد أن يفرغ للدين وبين من يريد أن يفرغ للدنيا ، وأن يكون التخصص بعد انقضاء الطور الأول من أطوار الشباب .

لقد خطت الحكومة خطتها الأولى فوحدت القضاء ولعلها أن تخطو خطواتها الثانية فتوحد التعليم .

هذا الذى دعا إليه الدكتور طه حسين بهذا الأسلوب اليسير خطير ونحيب ويرى إلى غايات بعيدة مكنونة في ضمائر رجال التغريب والتثوير والاستشراق والغزو الثقافي منذ أجيال بعيدة ، فهم يعلمون قدرة رجال الأزهر على مواجهة شبهاتهم ، ويعلمون ما قام به الأزهر في مواجهة الغزو الاستعماري والتغريب معاً وكيف وقف من طه حسين وعلى عبد الرازق وغيرهم ، فهذا أمل كبير في نفوس دعاة التغريب أن ينتهى هذا الخطر بتوحيد التعليم العام كله فيدخل الأزهر في نطاق التعليم العلماني وتنهى مهمته مع أن الأمل الحقيقي للمسلمين أن يعود الأزهر وهو منبع التعليم الأول إلى مهمته فيكون التعليم الذى قام عليه الأزهر هو التعليم العام ومنه يتفرع التعليم المدني بعد ذلك ، لقد كان هذا الفصل بين الأزهر وبين التعليم العام الذى أنشأته وزارة المعارف في عهد محمد علي هو أخطر الخطرات التى اتخذت لتجميد الأزهر وعزله عن مهمته الحقيقية ، وكان من أثر ذلك أن أنشأ التغريبون الجامعة الأمريكية ثم الجامعة المصرية التى قادها الدكتور طه حسين إلى ما رأينا في هذا الفصل من خطط تدميرية ، ولكن أمل التغريب لم ينقطع فهو يتطلع إلى هذه الخطوة ويتصلر الدكتور طه حسين لها بهذه القوة فيكتب مرتين أو ثلاثاً ولا يبالى بمواجهة الأزهريين والأمة كلها ، وإن كان الأمل لم يتحقق تماماً كما أراد الدكتور طه حسين ، فإن ما حققه قانون تطوير الأزهر كان خطوة واسعة لهذا الهدف فقد فرغ الأزهر من رسالته عن طريق ملخصات الكتب وعن طريق دخول الشباب دون شرط حفظ القرآن كله وعن طريق تحول كلية الشريعة إلى كلية تدرس القانون الوضعي بأكثر مما تدرس الشريعة وتخرج منها أزهريون يحكمون بالقانون الوضعي إلى غير ذلك من محاذير كان الدكتور طه حسين موقفاً نازها ومثيراً فتنتها .

(٢)

واجه الأزهريون مقالة الدكتور طه حسين بالرد الكاشف لأهداف طه حسين ومواقفه .

١ - كتب الشيخ محمد عوفه تحت عنوان (لا كانت الخطوة الثانية) قال : أبغض الكلام ما يلقى على عواهنه لا يحصيه صاحبه ولا يلقى له بالا ومن هذا ما نشره الدكتور طه حسين في جريدة الجمهورية تحت عنوان (الخطوة الثانية) التي طالب فيها بتوحيد التعليم بعد توحيد القضاء . ففي مصر في المراحل الابتدائية والثانوية تعليم ديني وتعليم مدني ، وهو يريد توحيد التعليم . بإلغاء التعليم الديني وجعله كله مدنياً . إن الدكتور طه حسين يصور الأزهرى بصورة من لا يشارك في شئ من العلوم التي يشارك فيها الناس فلا يعرف الفلسفة القديمة ولا علوم الاجتماع ولا التربية ولعله إذا رجع بذكرته رأى أن من رجال الأزهر من نازله في مسائل الفلسفة فهدها فيها إلى الحق والصواب . ولكنه يمثل هذا القول الذي تنقضه نصاعة الحق وجلال الحجة يريد أن يقضى في أخطر أمر وهو إلغاء التعليم الديني وإلغاء تلك الجامعة الإسلامية التي يعتر بها المسلمون في أقطار الأرض جميعاً .

إن الأزهر ليس من الهوان بحيث يقضى فيه برأى فطير وبجرة قلم كما يظن الدكتور . إن الأزهر بحميه تاريخ طويل في حلق الإسلام والمسلمين وفي حفظ اللغة والدين وفي جهاد الكافرين والمضللين وفي حماية العقيدة من زيغ الزائغين وبحميه ثلاثمائة مليون مسلم يحلون ويحترمون ويرونه ثمانية الكعبتين وثالث المسجدين فتلك كعبة الحجاج ، هذا كعبة الهداية والنور والإرشاد . إن الأزهر له في نفوس المسلمين مكانة يعرفها من نزح إلى أقطار الإسلام كالأندلس والصين وغيرهما ، إن الأزهر شرف لمصر لا يدانيه شرف به صارت مصر للأمة الإسلامية إماماً يحبها ويحلمها وتأخذ لقولها فضعوا هذا الشرف كيف شئتم وأجلوه حيث أردتم ولكن لا تذكروا كالتى نقصت غزلها من بعد قوة أنكاثاً .

٢ - وكتب الشيخ عبد المنعم النمر تحت عنوان « ماذا تريد وإلى أين يا دكتور » ، قال لعل أغرب ، أعجب ما جاء في مقال الدكتور طه حسين أنه وهو يصور الأزهريين بالنقص في معلوماتهم الاجتماعية يظهر وهو أديب كبير ووزير سابق للمعارف بعدما تنقل في مناصب الجامعة وكراسيا بأنه يجهل تماماً كيف يسير الأزهر الحديث برامجه مواد دراسته ومعلوماته

الاجتماعية . إنها أوزار قديمة عاشرها الدكتور وعب منها وهو طالب ، بمد
بوزه في الشوال ليأكل من فئات العيش المستغرقة من قديم . ذاك زمان انقضى
بأساليب حياته وأساليب دراسته وجاء . قت آخر بأساليب أخرى ومناهج
جديدة . كم كنا نحب للدكتور العلامة أن يعرفها حتى لا يظهر بأنه تنقصه
هذه المعلومات . لقد درسنا يا دكتور من المواد في الأزهر : الهندسة والجبر
والحساب والكيمياء والطبيعة ، كما كانت تدرسها المدارس الثانوية تماماً
وكنا أكثر تفوقاً من طلاب هذه المدارس ، حتى لا نجد أزهرياً يقول لك
كما قال أحد متخرجي الجامعة في امتحان المذيعين . إن يافا عاصمة لبنان .
درسنا علم الحيوان والنبات وقمنا بعمليات التشريح والمعامل ، ودرسنا
في الكليات علم النفس بفروعه المتعددة : التربوي والجمالي والجنائي والفلسفة
القديمة والحديثة ولغة من اللغات الحية . هذا فوق التوسع في دراسة العلوم
العربية والشرعية . فتعال معي يا دكتور أنت ومن يظن ظنك وقل لي :
ما الذي تعرفه من مناهج المدارس الابتدائية والثانوية أحسن مما في الأزهر .
وما الذي يجعل الطالب في المدارس متفوقاً في نظرك عن الطالب في الأزهر .
فما الذي يدعو الدكتور طه وأمثاله أن يحملوا على هذا النوع من التعليم
ويطالبوا بإلغائه وإدماجه في وزارة المعارف ؟

من المعلوم للدكتور طه وغيره أن دراسة العلوم العربية والشرعية كلها
إنما قامت حول القرآن الكريم وفي خدمته فلكي نفهم أسرار القرآن ونحتفظ
علماً بما فيه وبما في الحديث من فقه وأخلاق لا بد لنا من دراسة واسعة
في اللغة العربية بكل فروعها ، لا بد لنا بعد ذلك من دراسات المذاهب الفقهية
وكيفية استنباطها ودراسة مذاهب المتكلمين ووجهات نظرهم ، ولا بد من
الإحاطة بدرجات الحديث من القوة والضعف . هذه العلوم تحتاج كل منها
إلى دراسة عميقة وتخصص واسع حتى يمكن الإحاطة بها وليس في الدين
المسيحي مثل ذلك .

فأنتم عندما تتحدثوا عن رجل الدين تتحدثون عن رجل الدين المسيحي
وقد غاب عنكم الفرق الشاسع بين طبيعة الدين المسيحي وطبيعة الدين الإسلامي ،
هل هذه هي الناحية شغلتنك عن مصالح الأمة ومصالح أبنائها ؟ ولماذا لم
يشغلك ما يشغل الصحف والناس من هذا التيار الوجودي الإلحادى المستهتر

في الجامعة ؟ ولماذا لم تشفق على جامعاتك وشبابنا من هذا الانحلال الذي ينتدر بالخطر في بناء هذه الأمة ؟ كان يجب أن تبادر إلى إنكار هذا التحلل لا سبياً وقد طالبك الكتاب بذلك .

٣ - عيد المعلم الفخر : لقد أحس الجميع وأنت تدعو الحكومة إلى اتخاذ الخطوة الثانية أنك تدعو إلى القضاء على الأزهر وعلى أمجاد مصر والعالم الإسلامي وإذا أراد واحد أن يعرف ذلك عن يقين فليبحث عن مصادر العلم في العالم الإسلامي قبل أن تنشأ في دور العلم الحديثة ، لقد كان كل خيط في أي رقعة في العالم الإسلامي يمتد حتى يتصل بمصر وبالأزهر الخالد حتى كسبت به مصر الزعامة الإسلامية من قديم ، فهي إذن أمجاد ألف سنة قضاهم الأزهر في المحافظة على الإسلام ولغة القرآن وتعليمها للناس شرقاً وغرباً تمتد الآن محاولة عابثة للقضاء عليها إذا كنا نريد القضاء على التعليم الابتدائي والثانوي في الأزهر وجعل التعليم كله في الدولة على نسق التعليم في وزارة التربية . فهل نحد حينئذ من يحفظ القرآن ويقبل على دراسة تشريعه الخالد ، وإذا كان العلماء قد أنفقوا حياتهم في تعليم اللغة وفهم أسرار القرآن ولم يصاروا بعد إلى بغيتهم في خدمة القرآن وشريعته الخالدة ، فهل يمكن أن أربع سنوات يقضيها الإنسان في الكلية كافية لأن يصل إلى ذلك ؟ إنها إذن الحملة المدبرة تحت اسم توحيد التعليم للقضاء على الدراسات الإسلامية الأصلية التي امتاز بها الأزهر وأمدت بها مصر العالم الإسلامي . ومن عجب أن الدكتور طه أقيم الدنيا وأقعدتها حين علم بأن هناك في وزارة التربية والتعليم نية لإلغاء قسم اللغة العربية في كلية الآداب وهو قسم حديث لم يصل عمره إلى ربع قرن ودافع عنه دفاع المستميت وأخذ يتلمس الأعذار لعدم إنتاجه فكيف يستباض منه إذن أن يحمل هو نفسه معول الهدم لأقدم جامعة علمية في العالم ، وأكثر من ذلك فإن الآلاف من الأزهريين يقومون بالتعليم الآن في وزارة التربية والتعليم بجدارة لا يقلون في ذلك عن غيرهم إن لم يكونوا متفوقين لمصلحة من إذن يحمل الدكتور طه هذا المعول الهدام ؟

٤ - عيد المعلم الفخر : على أي أساس تريد توحيد التعليم ؟
توحيد التعليم على الأساس الجارى يترتب عليه إضعاف التعليم الدينى العام ، القضاء على حفظ القرآن الذى تمتاز به مصر . هل تحدث الدكتور

عن توحيد التعليم بالمعنى الحقيقي في مصر ؟ هلا تحدث عن القضاء على المدارس الأجنبية التبشيرية المعسكرة في مصر لهدم قوميتنا وديننا ونخرج لنا شباباً غرباء عن أوطانهم .

لعل ولاء الدكتور للغرب هو الذي حمله على هذا فهو حين يتحدث عن غزو الحضارة الغربية للأزهر كان مرادياً ومغتباً بها وهو حين يخطو خطوة أخرى مطالياً بإلغاء الثقافة الإسلامية والعربية في الأزهر مستنداً إلى المغالطات موال للحضارة الغربية تمام المبالاة ، يريد أن يفسح لها الطريق إلى مصر والشرق تأخذ منا (حلوها ومرها ، وخيرها وشرها ، وما يحمد منها وما يعاب ، وما يحب منها وما يكره) ومتابعة الولاء للغرب لا لمصر ولا للعروة ولا للإسلام . ذلك هو ولاء الدكتور .

إن بقاء هذه الثقافة العربية الإسلامية قد يحول بين الدكتور وبين ما يريده من الإسراع إلى القضاء في أوروبا ومحاكاتها في كل شيء ، وقول الدكتور : إنه لا يدعو إلى إغلاق المدارس والمعاهد الأجنبية فهو نافر من ذلك كل التفور ، يدعونا إلى الاحتفاظ بها وكلنا يعلم مقدار خطرها على الدين والقومية ، أما معاهد الأزهر الإسلامية العربية صاحبة الثقافة الأصيلة في الدين فيجب أن تلغى لأن الحاجة الوطنية عند الدكتور تدعو إلى إلغائها .

٥ - عبد الرحيم فوده : إن دول الغرب الاستعمارية وحدها هي التي تريد أن يزول الأزهر فإنها تعرف جيداً أنه هو الذي حل لواء التحرير والحرية في أقدم عهودها ، هل ينكر الدكتور أن عروبة مصر وإسلامها مدينتان يقيانها وارتقاها للأزهر ؟ وهل يمكن أن تقوم لمصر قومية متميزة الملامح والأوضاع إلا إذا هي استمسكت بعروبتها وإسلامها ؟ القرآن كتاب كل مسلم وقاموس كل عربي ؟ فهل يستريح غير المسلم لإلغائه وإلغاء هذه العلوم معه تحت ستار توحيد التعليم ؟ هل يذكر الدكتور أنه صارع تلاميذه وزملاءه أيام كان عييداً بكلية الآداب بأن قسم اللغة العربية في هذه الكلية لن ينهض إلا على عقول أزهريّة ؟ هل ينكر أن أعلام نهضتنا الفكرية إنما قام إنتاجهم الفكري على أساس ما ورثوه من ثقافة أزهريّة : (أحمد أمين ، الزيات ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الوهاب عزام ، البشري ، الرافعي ، عبد الوهاب خلاف ، أحمد إبراهيم . . . إلخ) وهل من الخير أن تعدل

عن هذا الاتجاه الذى أثمر هذه الثمرات الفكرية الضخمة إلى اتجاه آخر لا تؤمن مقبته ولا تحمد عقياه ؟ هذا عمل خطير للعصف بثرات الإسلام وعلوم القرآن ومؤثرات ضخمة اعتبرت فى أعماق التاريخ ثرائاً إنسانياً . إن توحيد التعليم لا يكون إلا يجعل التعليم كله أزهرياً وليذكر الدكتور طه : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . . . » .

٦ - كامل محمد حسين : مطالبتك بإلغاء التعليم الدينى الطريق الذى يقف عقبة فى سبيل حفظ القرآن يحقق رغبة طالما تطلع إليها المستعمرون . أرادوا القضاء على الأزهر وعلى العقيدة الدينية وعلى كل ما يتصل بالتعليم الدينى فلم يلجأوا إلى ذلك عن طريق المبشرين لئلا يقهروا سريعاً بالحجة ولكنهم سلكوا سبيل الخديعة مرة بحمل بعض المسئولين إلى وضع التشريعات التى تقضى على التعاليم الدينية فى مدارس الوزارة ، ومرة بكسب أصحاب الأقلام القوية لتقوم بالدعاية إلى ما يحقق أهدافهم ومن ذلك موضوع توحيد التعليم توسلاً منهم إلى إخضاع التعليم فى الأزهر إلى تشريعات وزارة لا يعنىها حفظ القرآن أو دراسة ما يتعلق بعلوم القرآن وبذلك يقضى عليه ويضعف العقيدة الدينية فى نفس المسلمين .

٧ - عبد الفتاح الحواري : يريد طه حسين القضاء على القومية الشرقية ، وليس هناك طريق إلى ذلك أقرب من توحيد الثقافة وإزالة النفوذ الدينى من طريق التقدم ، توحيد التعليم إنما يريد أن يقلل من نفوذ الدين فى البيئات الشرقية والمصرية بوجه أخص ، ويعرف الدكتور أن الأزهر يمتاز بصيغة إسلامية فى خارج البلاد المصرية وفى نفوس الأبرياء .

إنما يريد الدكتور أن يكشف مدى ما عليه النفوذ الدينى المتمثل فى الأزهر من الهيمنة على نفوس الناس . ثم يضرب ضربته الإيجابية فى اقتلاع الدين من النفوس المصرية ليعود بهم إلى الحياة المصرية القديمة . الأزهر فكرة إسلامية لا يمكن الحياة بدونها ، معقل القومية الشريفة .

٨ - وكتب السيد محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر فى مقدمة العدد الخاص (ديسمبر عام ١٩٥٥) هذه الكلمة :

(إن الضجة التى أثارها مؤلف مستقبل الثقافة فى مصر لم يثرها ليقضى

في مناهج الأزهر من ناحية العلوم . بل هو يريد من مصر ومن الأزهر ومن كل من ينتسب إلى العلم من الناطقين بالفضاء أن يؤمنوا بثقافة الغرب كما آمن هو بها . إن السبيل إلى ذلك واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي (أن نسير سيرة الأوروبيين . ونسلك طريقهم لتكون لكم أندادا أو لتكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وشرها ، حلوها ومرها . ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع) . وأنا أنادي بملء فمي معترفاً بأن أزعج لأمتي غير ذلك وأنصح لها بأن تأخذ العلم كله لأنه ثراث إنساني شاركت في تقدمه وتنميته أكثر أمت الأرض في العصور القديمة ومنها مصر القديمة . وإن كره ذلك المتعصبون الذين يريد مؤلف مستقبل الثقافة أن تضحى بكياننا المعنوي لنذوب في كيانهم .

ولولا أن الإسلام استعجم بقلبة غير العرب لبقى زمام الحضارة الإنسانية في أيدينا .

وبعيد : فإن مصر لو فقدت عقلها وسارت وراء مؤلف مستقبل الثقافة في مصر لحسرت جميع أبنائها المثقفين كما خسرت ويا للأسف المسير كلود طه حسين ناظم ديوان أجراس الكنائس (Ele nalin clair) .

الذي يتغنى فيه لا يثته بموسيقى الكنائس وأظن أن مؤلف كتاب مستقبل الثقافة يتمنى لجميع أبناء مصر أن يكون كل واحد منهم (كلود طه حسين) أما القائمون بالولاية على مصر فإن أبناء مصر أكرم عليهم من ذلك وأعز وهم يعلمون أن حياة مصر بالإسلام وقوتها بالتعاون مع العرب . إن هذه اليدور التي زرعت في تربتنا الجامعية منذ نحو ثلاثين سنة بمشهد من صاحب الخطورة الثانية كما يشهد له بذلك كتابه (في الشعر الجاهلي) وأعمدة الصحف ومحاضر مجلس النواب وبعض قرارات النيابة إلى أن أنبتت تلك اليدور رجالا صار منهم الآن مدرسون وأساتذة كالذي (كان يمزح مع طلابه على حساب إيمانهم فيقول لهم : إنه (سيعطى) درجات إضافية في الامتحان للذين يفطرون في رمضان) . وكالذي يعتبر الآن حجة الفلسفة الوجودية في مصر . ويقول في رسالة له صدرت في القاهرة عام ١٩٥٣ : (إما أن تقول : بالأخلاق فتفقد ذاتك . وإما أن تقول : بالأخلاق فتخاطر بوجودك . إننا معاشر الوجوديين لا نريد أن ننساق وراء أحلام البراءة والبراءة والظاهرة)

هذا هو خطر الوجودية الذى وصفته جريدة الجمهورية بأنه أصبح حرفة لبعض أساتذة الجامعات ، وقد خرج هؤلاء الأساتذة على معاني الأستاذية الجامعية إلى أفعال الدعاة والمبشرين ، فكل شاب تفويه هذه الفئة من الأساتذة وتغري به وتدفعه فى طريق الانحلال هو خسارة محققة لمصر .

إن صاحب الخطوة الثانية يعنى عن رؤية هذا الخطر على مصر لأن هواء بصرفه عن اعتبار أن الخطوة الثانية يجب أن تنتج نحو تطهير الجامعة من هذا التيار العدواني للقانون والأخلاق والواجب والطهارة والبراءة وحماية الجامعيين من هذا الوباء الجارف الذى يدعو إلى الإثم ويهدد مستقبل مصر وكيانها ، فرأيناه يسكت عن ذلك ، لأنه كان من شهود زمره وغرسه ويرفع عقيدته متادياً بالقضاء على ما يختلف به فى مفاهيم تعليمه عن مناهج من يسميهم الناس فى مدارسهم . وليس بين مناهج الأزهر والمناهج الأخرى فرق إلا بتعليم القرآن وتفسيره والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والفقه الإسلامى ، فالقرآن وهذه العلوم المفسرة له والمستظلة بهدايته هى الخطر ككل الخطر على مصر ويجب أن تكون الخطوة الثانية متجهة نحو تحطيمها وإبادتها بتوحيد التعليم فى طور الصبا والشباب .

وكتب الأستاذ محمد محمد أبو شبة فى مجلة الأزهر يقول :

(أريد أن تنخل عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الموحى إليه بهما من ربهما ونشتغل بفلسفة اليونان وسقطاتهم وثقافة الفرنسيين الذين يحبهم ويمجونه حتى تننى عن أنفسنا أننا محافظون ، أم تريد أن تقطع صلتنا بالسلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية وما خلفوا لنا من كنوز وذخائر وتصل جبالنا بأبناء السين والتايمز حتى يرضى عنا ويضعنا فى قائمة المجددين ، ألا فليعلم الدكتور ومن على شاكلته أنه لن يكون شئ من ذلك ، ودون ما يريد خرط القشاد وصعود السماء : « . فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فليتنظر هل يذهبن كيدته ما يقيظ » .

(٣)

وعندما صدر قانون تطوير الأزهر قال طه حسين : إن إنشاء كليات الطب والهندسة والمعاملات هو اتجاه سليم أدى إلى تطور التعليم الأزهرى إلى أسوأ وليس إلى أحسن . وقال فى الرد عليه أحد الباحثين : إن الدكتور

طه يعلم قطعاً أن بعثات التبشير قد نجحت في أنحاء كثيرة في آسيا وإفريقيا بسبب ثقافة المبشرين ، فالمبشر لم يعد لاهوتياً فقط بمعنى أنه لم يعد رجلاً متفرغاً لشئون الدين وحدها وإنما إلى جانب درايته الدينية ، فهو متخصص في الطب أو الهندسة أو الزراعة .

ويسخر طه حسين من إنشاء كلية البنات الإسلامية ويتصور أن هذا عمل رجعى حيث تقام أسوار شاهقة إلى السماء تحمي الطالبات أو أن هؤلاء الفتيات اللاتي تفضلن إلى الجامعة الجديدة . يتحجبن ومعنى هذا في نظره أننا قد تقدمنا إلى الوراء واتبعنا تطوراً خطيراً خفضت له مصر أكثر من نصف قرن ويقول ساخراً : (إنها تريد أن تحمي الفتيات من هذا الوباء الجديد الذي ابتدعته الحضارة الحديثة الذي هو لقاء الفتيات للرجال شباباً وكهولاً وشيباً) . نعم إنه الوباء وقد جرت الرياح تغير ما تشهى سفن التغريبيين التي ساقها طه حسين .

الفصل الثالث

الفرعونية وحضارة البحر المتوسط

دعا الدكتور طه حسين إلى الإقليمية المصرية مع إعلانها الدعوة إلى الفرعونية وإنكار رابطتها العربية والإسلامية ، والادعاء بأن لها رابطة بالغرب ودول البحر المتوسط وأن العقل العربى هو عقل يونانى استمد ثقافته من الفلسفة اليونانية فى التقديم وهو عقل غربى فى التحديث استمد ثقافته من أوروبا .

وقد كان هدف طه حسين من هذه الدعوى عزل مصر عن العرب والعالم الإسلامى وإدخالها فى الحلف اللاتينى الذى أنشأته إيطاليا وفرنسا وأسبانيا بوصفها دول البحر الأبيض المتوسط وكانت فرنسا هى التى تقود هذه الدعوة — والنظرية تقوم على أساس أن مصر قطعة من أوروبا، كما أعلن ذلك الخلدوى لإسماعيل وأنها جزء من حوض البحر المتوسط .

يقول طه حسين فى كتاب مستقبل الثقافة : (إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإتما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على أخلاقها فإتما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط ، فإذا لم يكن يد من أن نلتبس أسرة للعقل المصرى نقره فيها فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم . وإن كلمة لإسماعيل لم تكن فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المقامرة وإتما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة الثقافية العقلية) .

وهذه دعوى عريضة باطلة . وقد ووجه طه حسين بعشرات الردود التى تكشف شمه وتزيف رأيه ولكنه كان يمحى فى هذا الطريق على نحو من الصلف والكبرياء الكاذب الذى لا يبلغه .

ولقد أخطأ خطأ بالغا حين كتب فى جريدة كوكب الشرق عام ١٩٣٣ هذه العبارة : وإن المصريين قد خضعوا لضروب من البغى والألوان من

العدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءهم من العرب والترك والفرنسيين
وجاءتهم الآن من الإنجليز . وهم قد صبروا لهذا كله وانتصروا على هذا
كله فردوا من ردوا من المعتدين وأخذوا في أنفسهم من أخذوا من هؤلاء
المعتدين .

يقول الأستاذ أكرم زعيتر : إن ورود كلمة العرب في عداد الذين
بغوا على المصريين أثارت نقمة البلاد العربية ولا سيما بلاد الشام من الدكتور
طه ومع أن كباراً من كتاب مصر بادروا إلى الرد عليه ، فإن فقد كان
لها تأثيرها في دمشق وقد لست هذا بنفسى حيث كنت أزورها لمهمة
فقد عقد شباب متحمسون لعروبتهم اجتماعات وأصدروا بيانات ساخطة
على الدكتور طه ثم أقبل بعضهم في موكب على ساحة الشهداء يحملون بعض
كتب طه حسين حيث أحرقوها ودعوا إلى مقاطعة مؤلفاته .

وانتهالت الردود على طه حسين أهمها ما كتبه أعلام خمسة :

عبد الرحمن عزام ، محمد علي علوية ، أحمد حسن الزيات ، عبد القادر
حزق ، علي الجندي (العربي - إبريل عام ١٩٨٠) .

كان هدف طه حسين ودعاة التغريب صهر مصر في بوتقة الحضارة
الغربية تحت أسماء كثيرة ومحاولات مأكرة في مقدمتها تلك الدعوى العريضة
بأن مصر غربية العقل والثقافة ولم يترك الدكتور طه فرصة تمر دون أن
يدعو إلى مصر الفرعونية وإلى كراهية مصر للعرب والعروبة ، بل لقد
أعلنت مجلة المكشف المارونية عن كتاب لم يصدر للدكتور طه حسين هو :

(مستقبل حضارة حوض البحر المتوسط في الشرق والغرب) .

وهو كتاب لم يصدر حتى الآن ، فقد كان طه حسين من دعاة هذا
الحلف اللاتيني الذي عقدته دول الغرب بعد الحرب الكبرى الأولى لاحتواء
الإسلام ومحاصرته وإشاعة التبشير الغربي والتغريب والشعوبية في مؤامرة
ضخمة ، والعمل عن طريق الغزو الثقافي على تغريب المسلمين في أقطار
مصر والمغرب والشام في وقت كانت فرنسا لا تزال تدعى في تبجح شديد
بأن الجزائر هي فرنسا الجزائرية .

وكعادة طه حسين في اندفاعه وحمقه فقد أعلن تصريحات خطيرة تحدى

بها مشاعر العرب والمسلمين عن ما أسماه الفرعونية المصرية وعن ما أسماه الاستعمار العربي وهو يصل في الغار إلى حد أن يقول: إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك . بل يجب أن نبقى وتقوى والمصري فرعونى قبل أن يكون عربياً ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيّتها وإلا كان معنى ذلك : اهتدى يا مصر أيا الهرم والأهرام وأنسى نفسك واتبعنا ، ولا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطي . مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد وأؤكد قول أحد الطلبة القائل : (لو وقف الدين الإسلامى حاجزاً بيننا وبين فرعونيّتنا لنبدناه) . . إن المصرى مصرى قبل كل شىء فهو لم يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف) .

(مجلة المكشوف البيروتية عام ١٩٣٨)

وفي تصريح آخر عام ١٩٣٩ قال : (مصر لن تدخل في وحدة عربية ولا اتحاد عربى سواء أكانت مساوية فيه للأمم الأخرى أم مهيمنة عليها) .

أما بالنسبة لتصنيف العرب في صفوف المستعمرين فقد كانت تلك مبالغة شديدة الخطأ فليس ارتباط مصر بالإسلام والعرب كان احتلالاً شبيهاً باحتلال الروم والفرس والإنجليز ، أما الشك في عروبة مصر والقول : بأن الإسلام دخيل طارئ عليها فذلك قول يبلغ مبلغ الحق والإعانة وقد رد عليه كثيرون يختار منهم هذين الترددين :

قال الأستاذ لطفى جمعة : ليس للدكتور طه مكانة ممتازة في السياسة العالمية العربية أو الشرقية اللهم إلا فيما يتعلق بتمجيد فرنسا وتعظيمها والتمكين لها ولثقافتها في بلاد الشرق مراعاة لجميلها معه وهو يذكر الآثار المصرية والأماجد الفرعونية ويريد أن ينزع منها مثلاً أعلى ، ولكننا لم نر العراقيين يذكرون آثار بابل وآشور ولا السوريين يذكرون آثار كنعان وبعبلك . ولا النجديين يتحدثون عن قصر محمدان وأعمال سيف بن ذي يزن لاعتبارهم أن الحضارة العربية (الإسلامية) قد جيت هذه الأشياء وتركها أثر أ بعد عين فكيف يترنم الدكتور بمثل أعلى من الحجارة .

ويقول الدكتور محمد غلاب : (عندما رأى الدكتور طه أن فكرة القومية العربية تزدهر كتب مقالا في جريدة كوكب الشرق طعن فيه على

العرب ورماتهم بالظلم والاستبداد في حكمهم وأدرجهم في سلك واحد مع الرومان الذين دمروا البلاد من أقصاها إلى أقصاها وهبوا بالحياة العلمية والأدبية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية إلى أعماق دركات الخضم ، فخالف الدكتور بذلك المقال حكم التاريخ وعدا على الحقائق الواقعة وأنكر جميل العرب الذين أغاثوا أرض الكنانة من ذئاب الرومان الذين يتلاشى الدكتور طه تحت أقدامهم . كما يتلاشى تحت أقدام اليونان إلى حد أن زعم أن في عروقه دمًا يونانيًا ، والدكتور طه لا يستضيء إلا بالحق بون بعيد ، والذي انحصار بين الكاتب التزيه الذي لا يستضيء إلا بالحق بون بعيد ، والذي حدا بالدكتور طه إلى هذا العدوان على التاريخ أمران :

الأول : هو جد للرومان الذين هم ورثة مجد اليونان .

الثاني : هو حقه على دين العرب وهو الإسلام وقد جازى بعض الشعوب العربية هذا الدكتور المارق على مقاله مجازاة عادلة في رأيهم بمقاطعة كتبه وإحراقها .

إننا نأخذ على المسلمين أنهم لم يسلكوا هذه الخطوة يلزام كتب الدكتور طه التي حوت من الإلحاد واللاتينية والشك والمروق والإباحية الشيء الكثير فأين كانوا يوم قامت قيامة الشعر الجاهلي .

ومع ذلك فإن الدكتور طه حسين رأى محمود عزمي من بعد يروج لهذه الدعوة صغر منه وقال له : ما هذه الثقافة البيضاء المتوسطة ؟ وقال ولكن عزمي يشد عن المألوف دون أن يشد عن هذا الشذوذ فهو يفكر بالفرنسية فإذا كتب في العربية فهو إنما يترجم إليها ، وقال : إنه فقد طبيعته القديمة في التفكير والتغيير واستبدل بها هذه الطبيعة الفرنسية الجديدة . (حديث الأربعاء ج ٣)

ويكاد هذا القول ينطبق على طه حسين نفسه وقد صدق من قال : (إن كل الذين يتحدثون عن رابطة البحر الأبيض وثقافة البحر الأبيض وحضارة البحر الأبيض من طه حسين فنانز لا كانوا يروجون لمشاريع فرنسا التي تعتبر شمال إفريقيا جزءاً لا يتجزأ من سلطانها) .

ولكن طه حسين عندما رأى تيار الوحدة العربية يزداد وتحتضنه القوى

الرسومية سرعان ما غير رأيه فهو يقول : بأن القومية العربية تكونت بظهور الإسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً هو الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه القومية تكونت في الجزيرة العربية ثم تجاوزتها إلى الأقطار العربية .

ولكن رجال القومية لم يثقروا فيما يقول طه حسين ولم يصدقه فهم يعرفون أنه لا يقول شيئاً ثابتاً وإنه إنما قال ذلك عندما أحس بأن الحكومات قد أخذت بهذا الأمر ووجد فيه منفذاً لدعوة تغريبية أخرى يستطيع أن ينفذ إليها من خلاله .

ولعله يستطيع أن ينفذ منها إلى القول : بأن مصر هي رأس العرب وفخرهم وبذلك يفسد الدعوة مرة أخرى بهذا الاستعلاء العنصري الإقليمي . وآية ذلك أنه حين أعلنت مصر مرفقها من العروبة كتب في ٢ ديسمبر عام ١٩٦١ مقبراً رأيه محاولاً الاعتذار عن ماضيه ، فكتب (بين العروبة والفرعونية) من منطلق أفراد مصر بدور خاص والمغالاة في التعصب لها وترديد المصرية كدور قامت به في زعامة العرب ، فنعرة المصرية ما زالت عنده في عصر العروبة كما هي قبلاً ، يقول :

مصر لا تستطيع أن تترك علماء الغرب يستكشفون ما كان في أرضها من الآثار ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصري في عصوره المختلفة قبل الإسلام دون أن تشارك في البحث عن هذه الآثار وفي استخراج التاريخ منها. فهل كان الذين يتهمون المصريين بهذه التهمة السخيفة (تهمة الفرعونية) والإغراق منها والإعراض عن العروبة لا لشيء إلا لأن مصر تجد في حماية ما يستكشف في أرضها من الآثار وفي استخراج ما تدل عليه هذه الآثار من قرون المعرفة كأنهم يريدون أن تعتمد مصر الجاهل بما في أرضها من الكنوز وتحقق من علماء الأمم المختلفة بين هذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها إلى بلادهم ويستنبطون منها العلم ويدرسونه في جامعاتهم ومعاهدهم ويملاؤنها بها متاحفهم وتظل هي غافلة لا تسمع ولا ترى جاهلية الناس من حولها ويملاؤون صدورهم بالعلم وينشرونه من حرلم في بلادهم وغير بلادهم . أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث عن هذه الآثار وتحظر استنباط العلم منها وتفرض على الإنسانية وعلى نفسها الجهل بتاريخ أرضها وبالخصائص

التي قامت منها . ولعل هؤلاء السفهاء كانوا يريدون من مصر أن تدمر كل ما يستكشف في أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية لتثبت عروبتها وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها في إحياء التراث العريق .
أرأيت الدكتور طه حسين وكيف يذهب إلى التوبة البالغ والمكر الشديد في هذه الدعوى العريضة الكاذبة الضالة التي حاول أن يبرر بها انتقاله إلى العروبة مرغماً وقد ظل حياته من بعد ينكرها ويحضرها .

ثم ما هي هذه الثقافة والعلوم والكنوز التي أفاد منها العالم من هذه الأصنام التي خرجت من الأرض أو أخرجها هؤلاء التفرزيون ليخدعوا هذه الأمة عن الانقطاع الحضاري بين عصر الوثنية وعصر الإسلام .

إن طه حسين يكشف بذلك انغماسه حتى الأذنين في وثنية عميقة ينقل بها من الزنزان إلى الزنزان إلى الفراعنة ، وفي نفس ذلك الحقد المنتقد على الإسلام فضلاً عن أن هناك قارفاً واسعاً وعميقاً بين دراسة الآثار وبين الدعوة إلى الفرعونية .

وما استطاعت كتابات طه حسين هذه أن تزيح موجمه الفرعونية التي بناها على طول حياته ، تلك التي شكلت مدرسة الأقليمية المصرية البغيضة . وقوامها حسين مؤنس ، وتوفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، ولويس عوض ، وهم الخلفاء الطبيعيون للثقافة الوثنية التي أنشأها طه حسين وهيكلا ، ومحمود عزى ، وسلامة موسى ، هؤلاء جميعاً كانوا يعتقدون كما يقول الأستاذ عبد الحميد الكاتب بأن انتهاء مصر يجب أن يكون انتهاء غربياً أو عربياً في التعليم والثقافة في الحكم والسياسة وفي الاقتصاد وفي الاجتماع وفي التشريع .

قال : كان الدكتور طه حسين يعتقد أن مصر تنتمي تاريخياً وواقعياً إلى الغرب الثقافي ، وكان يدعو إلى تنمية هذا الانتماء وتعميقه إذا ما أردنا تقدماً وصالحاً . وفي كتاب حسين مؤنس : مصر ورسالتها : أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط على وجه التقريب وأن تاريخ مصر متأثر بالبحر الأبيض بصورة دائمة .

وكذلك كان موقف الدكتور طه حسين من الحضارة : فهو يذهب
مذهب المغالطة والحقد .

يقول : إن الحضارة الإسلامية لم تبعد الذهنية المصرية عن الذهنية
الأوروبية من حيث إن العقل الإسلامى كالعقل الأوربى يرد إلى عناصر ثلاثة :
حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين .

ولولا أن يكون الأمر هكذا لما سلخنا من الأوربيين في هذا الزمان .
ألوان حياتهم المعنوية وما تأثرنا بتعلمهم السياسية وما أخذنا بطرائقهم العلمية هـ

وتنح نقول للدكتور طه حسين : متى تأثرنا وأخذنا من التعليم أو النظم
السياسية ، وقد فرض ذلك علينا فرضاً وأزجحت نظمنا ومناهجتنا بعنف ، وقد
كانت قائمة قبل الاستعمار على أحسن صورة ، إن الدكتور طه حسين يتخذنا
خداعاً شديداً حين يصور لنا هذا الاحتواء التغريبي على أنه كان عن رضا منا
أو قبول واقتناع نحن وآبائنا وليس أدل على ذلك من أنه فرض على شبابنا
في تعلم اللاتينية واليونانية فرضاً وما كان لهم إلى ذلك حاجة .

إن صلتنا بالعرب ، بالشرق ، بالجزيرة ، بالكعبة لم تكن صلة عارضة
ولم تكن صلة مفروضة ولكنها كانت صلة البقاء العطرة بالدعوة الصحيحة
إلى الله وقبولها فلم يكن جانبنا دين العرب والإسلام مصالح ولا مسائل
مفروضة ولا تعارف عارض ولكنه كان أمراً طبيعياً أصيلاً عميقاً لا يمكن
أن يوصف بأنه استعمار أو نفوذ أو غير ذلك من الأسماء الباطلة التي يجيد
الدكتور طه حسين وتلاميذه طرحها وخداع بعض الناس بها ، ومن ذلك
الذي يصدق أن الذهنية المصرية بعد الإسلام هي التي كانت من قبل . أين
دعوة التوحيد وعطاء القرآن والسنة والتحول عن الوثنية وعن التعدد . لقد
كانت الحضارة الإسلامية ممثلة في القرآن والسنة دعوة جديدة لها طابعها
الخاص وذاتيتها المفردة التي جئت ما كان قبلها وأوجدت انقطاعاً حضارياً
بينها وبين الفاشية من وثنية اليونان والرومان ، ولقد حاول دعاة الفرعونية
حين دعوا إليها أن يوجدوا خيطاً واحداً من ثقافة أو عادات أو تراث مكتوب
يتعلقون بهم في إذاعة دعوتهم الوثنية الباطلة فما وجدوا .

أما موقف الدكتور طه حسين من الحضارة الغربية ودعوته المسلمين
إلى أخذ ما يحمد منها وما يعاب وما يحب وما يكره فتلك دعوة باطلة مضللة

كشفت عن حقه وحقه وما صدق أحد زعمه ، حين كان يقول :

« إن هذه البلدان القائمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والممتدة من العراق إلى سوريا ولبنان إلى فلسطين ومصر ، هذه البلدان لا يختلف في حضارتها عن حضارة أوروبا لأن الحضارتين هما خلاصة أو نتيجة للحضارات القديمة التي انتقلت بطريق اليونان إلى أوروبا . فستقبل الحضارة في الشرق والغرب ومستقبلها في أوروبا واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحداً ، وبعد كيف نستطيع في الشرق القريب أن نؤلف شعوباً مستقلة ودولاً ذات سيادة وتجاري أوروبا في مدنيّتها إن لم تأخذ بمبادئ حضارتها المادية » .

وهو في هذا يغالط في حقيقتين :

أولاً : إنه لا يوجد شيء اسمه الحضارة العالمية ، حضارة الغرب هي حضارة مستقلة عن الحضارة الإسلامية لاختلاف العقيدة والمنهج .

ثانياً : إنه لا يمكن لأمة ما ولم يحدث في التاريخ مطلقاً أن أخذت مناهج حضارة أخرى كاملة ، وإنما هو الاقتباس للأصول العامة الصالحة واستبقاء الأصول الأساسية الذاتية لكل أمة وكل حضارة ، ومن هنا فقد كانت دعوة الدكتور طه حسين باطلة وساقطة ، لأنه كان يتحرك ضد مجرى التاريخ وتياره الذي يكشف عن فساد حضارة الغرب وعن فساد تلك الدعوة المتوسطة التي سرعان ما تلاشت وكشفت زيف دعائها .

ومن العجيب أن الدكتور طه حسين يدافع عن الحضارة الغربية بما لم يدافع به أصحاب الحضارة نفسه عنها ، فهم حين يقولون أنها أصيبت بالفتري والانهطاط يقول لنا الدكتور طه حسين : من دعا « لا تصدقوا الأوروبيين إذا أظهروا الضيق بمبادئهم وثقافتهم فهم في ذلك بين سائح لا يرضى بما وصلت إليه أوروبا طامع إلى المثل الأعلى مستزبد من الرق ورجل قد أخذ السأم فهو لا يرضى عن شيء » . ويقول : الخبر أيضاً ألا تظمن إلى ما تقرله بعض الشرقيين ويذكره من أن الثقافة الأوروبية والحضارة الأوروبية والحياة الأوروبية قد فسدت فساداً لاصلاح بعده فهذا كلام مصدره الضعف والعجز . وما زالت في أوروبا قوة خصبة غزيرة تؤهلها للبقاء والبقاء الطويل وتؤهلها للسلطان وللسلطان الواسع » .

هذا كلام له نحيي معناه بث اليأس في قلوب الوطنيين من المطالبة بحرياتهم فهو يقول لهم إن الأوروبيين سيقون طويلاً في بلاد المسلمين .

وهكذا نجد الدكتور طه حسين رجل يكذب على قومه ويضلّهم ويهدبهم

إلى طريق مظلم مليء بالأشراك والرزايا وهو لا يستطيع مهما غير من أسلوبه ومن طرائقه أن يكسب الثقة به أبداً .
والدكتور طه حسين في جملة ما يقول على اختلاف وتناقض كبير يرى أن هناك عناصر ثلاث يتكون منها الروح المصري وهي القرعونية والإسلام والغرب ، وهو من حيث لا يكشف هدفه يدعو إلى التوسع في القرعونية والعنصر الغربي . ويود لو أن العنصر الإسلامي تضاعف إلى أقصى حد هو يريد أن يتصل الفن بالقرعونية فتجد منها الوثنية . ويريد أن يتصل الخلق بالحضارة الغربية ، فتجد منها مذهب المنفعة ، ويبقى العنصر الإسلامي أشبه بشيء تقليدي في الدين واللغة . أما الدين فهو مفهوم لاهوتي وعلاقة بين المرء وربه (وهو بذلك يتنكر تماماً لمفهوم الإسلام الصحيح منهج حياة ونظام مجتمع) واللغة يرى هو أنها ملك للناس يتصرفون فيها كما يشاءون ، فهو يدعوهم إلى تطويرها حتى تنفصل عن لغة القرآن وعن بيانه .
وهذه هي المؤامرة في صيغة مختصرة . إنه يطمح في أن ننضوي تحت لواء الحضارة الغربية وأن ننصير فيها لتكون أنداداً للأوربيين ، وأن نفقد كل ما يربطنا بالعرب أو الإسلام لأنه من عناصر الضعف والتخلف .
ولكن دعوة الدكتور طه حسين جاءت في الوقت الذي علا فيه صوت الدعوة الإسلامية واستحصلت فيه مفاهيم النقطة الإسلامية الحقيقية فأهزم في كل معاركه . الإقليمية ، الذرعونية ، العامية ، التوسعية ، بشرية القرآن ، سيطرة الفلسفة المادية تحت اسم العلم - الخ إلخ .
ولقد ظل الدكتور طه حسين يتلقى الضربات عاماً بعد عام ومامن دعوة دعا إليها إلا كشفت الأبحاث الرصينة عن فسادها ومامن معركة دخلها إلا هزم فيها :
(٣)

ولكن أخطر ما دعا إليه الدكتور طه حسين هو إنكار فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الحديثة . وإذا كان الدكتور طه حسين بعد أن عاد من أوروبا هاجم :

- ١ - أساتذته في الأدب ورماهم بالجهل أمثال المهدي والخضري .
- ٢ - هاجم الشيخ محمد عبده وقال أنه ليس على طريقته .
- ٣ - هاجم أحمد زكي باشا شيخ العروبة في دفاعه عن دور الإسلام في بناء الحضارة المعاصرة .

(٤)

إنكار فضل الإسلام على الحضارة

خطاب من أحمد زكي إلى طه حسين

دهشت حيناً رأيتك تقول عني :

« أحمد زكي هو الذي أذاع في الناس منذ سنين فكرة أن العرب سبقوا إلى كل شيء ولا يكاد يوجد بين الشعوب شعب تبعهم الناس » .

هذا كلامك ومعاذ الله يا ولدي ، أن يكون صدر مني هذا القول ، بل هي حياقة بعض كتاب الجرائد المزييين ، وهي تهدف بما لا نعرف وتخلق القول اختلاقاً لذلك قاتلتهم بصمت الاحتقار .

إنك حضرت أكثر دروس في الحضارة الإسلامية بالجامعة المصرية ، فهل سمعت مني هذا القول أو ما يدانيه ، وما هم تلاميذي الكثيرون الذين كانوا معك بهذا المعهد ، وما هم تلاميذي بالمدرسة الخديوية ، والذين استمعوا إلى محاضراتي الكثيرة في نادي المدارس العليا بالقاهرة . فهل سمع أحد مني مثل هذا القول الهراء أو ما يدانيه .

أنا أعلم أنك تعلم أن العلم أمانة وعهدي بك أنك حريص عليها ، فهل من الأمانة أن تنسب لأستاذك مثل هذا القول الهراء وهو حي يرزق .

إن الذي قلته أنا وكررتهم أيدته بالوقائع النبوية ودعمته بالنصوص الصحيحة والأسانيد التاريخية المعهدة هو :

١ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى اختراع كتابه العميان .

٢ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير في حل مسألة الطيران وإلى محاولة ذلك بالفعل وإلى نقله من حيز العلم إلى حيز العمل .

٣ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير في كشف أمريكا وأنهم حاولوا الوصول إليها مرتين بالفعل : أولاً : من لشبونة عاصمة البرتغال ، وثانيهما : من مدينة غانة بالسودان الغربي على ساحل المحيط الأطلنطي .

٤ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى معرفة مرض النوم وأنهم سموه (النوم) وشرحوا أعراضه قبل أن تستفيق أوروبا من نومها .

٥ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى اكتشاف منابع النيل ووصفوها لنا وصفاً شامداً العيان .

٦ - إن العرب سبقوا الإفرنج (في القاهرة التي نعيش نحن فيها) إلى تحييل أمريكا وافتراض وجودها .

وكان ذلك بطريقة منطقية عقلية ، هي أفضل من التي اتبعها - كريستوف كولمب (فإنه لم يكتشفها إلا بطريق الصدفة والاتفاق إذ أن نظريته التي شرحها للملكة إيزابلا الكاثوليكية بعد طرد العرب من غرناطة إنما كانت الإمعان في السير غرباً حتى يصل إلى بلاد الهند فلما وصل إلى أمريكا أسماها بلاد الهند الغربية وكان معه رجل من المسلمين الأندلسيين هو الرياشي وقد وصفها لنا وسمّاها أيضاً (الهند الغربية) .

هذا هو الذي قلته وقد ارتضاه جهابذة الفرنج وأهل الحصافة من العرب فهل يقدر أحد على إنكاره ؟ أم أن يستنتج منه أنى زرعت في الناس الفكرة التي تريد أنت أيضاً أن تنسبها لي بغير الحق ، بل مجازاة لأطفال الكتاب الذين لا يؤبه بهم وهم لا يسألون عما يقولون .

كل أمة في الوجود لها فضل في الحضارة والعمران فهل يراد بنا أن نسكت عن مفاخر أجدادنا ، ونترك الميدان لغيرنا ، مثل العلامة سيديو الفرنسي الذي أثبت اكتشاف أبو الوفا البوزجاني فيما يتعلق باختلاف القمر . وأثبت أن العلامة نبحو براهي الدنمراكي إنما نقل أرقامه وحساباته بالنص والحرف ، واعترف علماء الإفرنج لذلك الفلكي الإسلامي بالسبق إلى هذا الاكتشاف الديدع ، فضلاعن اكتشافاته الأخرى التي بينها له العلامة دلامير الفلكي الفرنسي وقل مثله عن جابر بن حيان وعن ابن الخيثم وغيرهم من علماء العرب .

أم تريدون أن نترك لغيرنا إظهار مفاخر أجدادنا .

ثم ماذا أعمل بما أرشدني إليه بحبي حديثاً وهو أن الكندي الإسلامي قد اكتشف ورصد نجماً من ذوات الأذنان ، هل نترك تحقيق هذه المسألة للإفرنج ونبتى عالة عليهم في بيان مفاخرنا ؟

أفتنذا فتشنا عن آثار أجدادنا واهتدينا إلى الأقل القليل منها أفكيرن جزاؤنا مثل تلك التهمة الشنعاء ومن رجل مثلك ؟

الحق أبلغ والعلم أمانة وأنت خير من يتولاها ويترى على حكمها .
والدك أحمد زكي

الفصل الرابع

مستقبل الثقافة في مصر

أثار كتاب مستقبل الثقافة في مصر الذي أصدره الدكتور طه حسين عام ١٩٣٨ ضجة كبرى ومعارك متعددة فقد كان بمثابة المناقشة الاستعماري الذي يجب أن يطبق على مصر بعد أن انتهت الامتيازات .

فالدكتور طه يتندر فيه المصريين بأنهم التزموا أمام أوروبا أن يذهبوا مذهبها في الحكم وأن يسيروا سيرتها في الإدارة وأن يسلكوا طريقها في التشريع ويهددهم بأنهم لا يستطيعون التراجع عن ذلك بعد أن وقعوا معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات ومنها مواد صريحة قاطعة تعرض على المصريين هذه التبعة التي يسميها (السير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع) . ويقول :

فلو هممنا الآن أن نعود ادراجنا وأن نحبي النظم العتيقة (ويقصد بالنظم العتيقة الشريعة الإسلامية) لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقبات لا تجتاز ولا تذلل .

معالم الطريق :

وإذا سألنا عن الطريق الذي يرسمه لنا مستقبل الثقافة لوجدناه واضحا في عبارته التي تقول :

(إن سبيل النهضة واضحة بيئة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع) . هذا هو الأسلوب الذي يريد فرضه النفوذ الاستعماري عن طريق (مانفيسو طه حسين) الذي قلمه أول الأمر إلى كبار المسئولين بعد توقيع المعاهدة بعد عودته من رحلة الصيف إلى فرنسا في ذلك العام ، والمعروف أنه كان لفرنسا عدد كبير من مدارس الإرساليات في مصر ، وأنها كانت حريصة على أن تستمر عملية التبشير التي تتم عن طريقها في حماية النفوذ الإنجليزى الذي وافق على ذلك بعد إلغاء الامتيازات) .

وترجع خطورة الكتاب إلى أن صاحبه كتبه بناء على خطة واضحة في الغرب وأنه ما لبث أن مكن من المنصب ، فولى منصب المستشار الفني لوزارة المعارف على أثر ذلك مباشرة ، ثم منصب مدير الثقافة بها ، ثم عيذاً لكلية الآداب من قبل ومن بعد ، ثم مديراً لجامعة الإسكندرية ، ثم وزيراً للمعارف على التوالي .

وقد مكنته هذه المناصب من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٥٢ من تنفيذ برامجه وإرساء أسس هذه الخطة التي وضعها في كتابه خلال أربعة عشر عاماً ، وبذلك تركز منهج التغريب في جميع برامج التعليم في الثانوى والجامعة على أساس الغزو الثقافي الذي أراد النفوذ الأجنبي به تعويض ما فقده من الأرض بإلغاء الامتيازات الأجنبية وسيطرتها على الإرساليات التعليمية ، فقد انقلبت هذه المناهج من المدارس الأجنبية إلى المدارس المصرية بهدف القضاء على معالم الشخصية الإسلامية في :

١ - أنظمة التعليم في الأزهر .

٢ - اعتبارات مصر الإسلامية .

٣ - مقومات الكيان الإسلامى .

٤ - أثر الإسلام في ثقافة مصر وتفكيرها ، فقد وقعت فرنسا ضد توقيع اتفاق مونتر و عام ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات ما لم تتأكد من أن خطتها في التغريب في مصر ستظل محررة .

وفي هذه المحطات الحاسمة أهدى طه حسين وشاحاً كبيراً من جامعة ليون التي تعلم فيها وعاد وهو يحمل معه أصول هذا الكتاب ، وبعد أن كانت المعركة تدار عن طريق آراء المستشرقين أمثال : جيب وماسينيون والمبشرين وغيرهم أمثال : ولكوكس وزويمر أصبح هناك من الكتاب العرب من يحمل لواء هذه الأفكار ويدعو إليها كمدولة لتثبيت دعائم التجزئة وخلق ملامح مصطنعة لما يسمى بالفكر المصرى المعاصر المنعزل عن الفكر الإسلامى .

الخطوط الأساسية للكتاب :

أولاً : الدعوة إلى حل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها ، وقطع كل ما يربطها بتقديمها وإسلامها .

ثانياً : الدعوة إلى إقامة الوطنية وشئون الحكم على أساس مدنى
لا دخل فيه للدين أو بعبارة أصرح : دفع مصر إلى طريق ينهى بها إلى أن
تصبح حكومتها لا دينية .

ثالثاً : الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق
ينهى باللغة الفصحى التى نزل بها القرآن إلى أن تصبح لغة دينية فحسب
كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية .
القصة الأولى : العقل المصرى عقل غرقى :

وتلك أكبر مغالطاته الفاضحة ، حين يريد أن يصور أن العقل المصرى
نشأ فى أحضان الشعوب التى عاشت حول بحر الروم ، وأن علاقات مصر
بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق ، وتصويره للعرب بأنهم غزاة دخلاء
لا يطمئن إليهم المصريين فى الوقت الذى يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح
اليونانى لا ينكرونه ولا يتمردون عليه ويحاول أن يقول : بأن الإسلام لم
يخرج بالمصرى عن مصريته . وأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا فى كل
ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف ألوانها وفروعها ، ويحاول
القول : بأنه ليس بين المصريين والأوروبيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع
ولا فى المزاج وأنه لا يخاف على المصريين أن يقتلوا فى الأوربيين .
دعوى غريبة :

ويدعو الدكتور طه أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً
للوحة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول ، ويدعو إلى أن تكون الحكومة
لا دينية وأن يقام التعليم على أساس مدنى خالص وأن يترك تعليم الدين للأسر ،
ويتحدث عن الأزهر فيصوره أثراً من تملقات العهود المتأخرة المنحطة وجل
ما يضايقه فى الأزهر هو فهمه الإسلامى للوطنية . ويريد الدكتور أن يدخل
فى أدمغة أبنائه فهم الوطنية فهماً إقليجياً بمعناه الغربى الحديث ، وأن هذه
الصورة العلمانية الغربية يجب أن تدخل الأزهر .

وقد ناقش هذه الأفكار كثيرون فى مقدمتهم ساطع الحصرى ، وزكى
مبارك ، والشيخ حسن البنا ، ومحمد محمد حسين وكشفوا عن الأخطاء الآتية :

أولاً : الفروق فى الطبع والمزاج من الأمور المشاهدة بين جميع
الأمم ، حتى بين الأمم الأوربية نفسها ، التى تبدو للعيان وكأنها واحدة بين

الإنجليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى ، فهل يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه ؟ ومن هنا فإن هناك فارقاً واسعاً وعميقاً بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية على أساس اختلاف الدين والعقيدة واللغة والأخلاق والعادات والتقاليد .
ثانياً : إنه لا علاقة مطلقاً بين مصر وبين الثقافات والحضارات التى نشأت حول بحر الروم ، فمصر منذ وقت بعيد مرتبطة بالإسلام والعرب وكل قضاياها عربية إسلامية .

ثالثاً : إن تأثير وحدة الدين ووحدة اللغة فى تكوين الدول قائم ، وقد تحققت فى الماضى وفى العصر الحديث قيام الدول على أساس وحدة اللغة ووحدة الدين وليس معنى هذا أنها من خصائص القرون الوسطى ، بل أن وحدة اللغة هى من القوى الفعالة فى تكوين الدول وتوجيه السياسات وكذلك وحدة الدين .

رابعاً : إن الكاتب لم يثقف إلى أهم الفروق الموجودة بين الشرق والغرب وهى التى تشاهدها من وجهة نظم الأسرة وأوضاع المرأة والأوصاف النفسية - الخلقية والعقلية - التى تدفع تلك النظم والأوضاع .

وقال الدكتور زكى مبارك : قلت : يا دكتور إن عقلية مصر عقلية يونانية وفرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية فى حين أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين . إن الإسلام رج الشرق رجة أقوى وأعنف من الرجة التى أثارها الفلسفة اليونانية .

فى الحق أن المصريين فى حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان ولكنك وقد جلست فى صحن الأزهر كما جلست أنا ، تعرف أن المصريين لم يتدققوا تلك العلوم والأزهر لا يزال باقياً .

أنت تعرف فيما تعرف أن قضايا الفقه الإسلامى نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض . فكان للشافعى مذهب فى مصر ومذهب فى العراق ، ويعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان . والموجة الإسلامية التى طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين . والتى قضت أن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام

بعد سقوط بغداد . هذه الموجة الصائبة لا يمكن أن يقال : إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية ؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال .

وقال الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين : إن الثقافة الراجية الرعاية في كل بلد متحضر هي الثقافة الشعبية العامة والثقافة المدرسية ذات السياسة المحددة والغرض الواضح . ولذلك يجب إعطاء الثقافة المصرية طابعها الإسلامي المميز لها .

وإن مصر منذ دخولها الإسلام طائفة مختارة ، فقد كسبت مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه . وقد ظلت مصر مدة أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والمجتمع والثقافة ، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتميل بمزاجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى ، ولما كانت التربية الإسلامية على ضده المتفق وضوء العلم الحديث تشتمل في جميع أحكامها ومنايعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح إلزاماً أن تتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامي ودعائها هذه الروح الإسلامية .

والمزاج الإسلامي الفريد قابل لكل تطور ، يحتفل بالعلم ويقدسه ، فالصلاة الإسلامية فريضة واجبة وركن من أركان العبادات ، وهي لم تخرج عن النسق الكامل الذي جاء به الإسلام جملة وتفصيلاً في تربية الجسد وتربية العقل وتربية الروح وهذه العناصر الثلاثة في التربية — هي نفسها — ما يصفه العلماء بأنه التربية الكاملة .

والعقلية الإسلامية ذات طابع إسلامي من حيث المزاج والتصور لا فرق في ذلك بين المتدينين من المصريين وغير المتدينين منهم . إن مصر بتاريخها الإسلامي الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التي قامت على دعامة من فكرها الإسلامي وثقافتها الإسلامية خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الذي استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وإشراقها الخالص بين دول الشرق والغرب .

دعوة تعلم اللغات الأجنبية والآداب الأجنبية :

ويدعو طه حسين إلى أن لا تقتصر الدراسات الأدبية في مدارسنا على

الأدب العربي - بل يجب أن تدرس الآداب الأجنبية وأنها يجب أن تقدم في لغتهم الوطنية .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : إن كلام المؤلف يلبس ثوب الوطنية والتعصب للغة القرمية ولكن مقصده الحقيقي الذي يتفق مع مذهبه وهو نشر آداب الغرب وثقافته على أوسع نطاق فإن الدول الاستعمارية في سبيل نشر ثقافتها تترجم وتؤلف باللغة العربية .

وفي حلة الرد على شبهات مستقبل الثقافة نقول :

أما الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور فإنه يهدف إلى إيجاد مسافات واسعة بين بيان القرآن الكريم وبيان اللغة العربية مما يؤدي بعد أجيال إلى أن ينفصل القرآن عن الثقافة العامة ، ويقرأ بواسطة قاموس وتلك هي المؤامرة الخادعة التي يمتصها دعاة الأسلوب العصري في الكتابة وفي مقدمتهم طه حسين .

كذلك فإن الدكتور طه كان يدعو في هذا الوقت الباكر إلى العلمانية وإلى القضاء على الشريعة الإسلامية بالقانون الوضعي وإلى القضاء على الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليمية والقرمية الغربية .

أما تقيل الحضارة الغربية خيرا وشرها ، وحلها ومرها فإن ذلك يعني أن ينصر المسلمون في الحضارة المعاصرة وبذلك يفقدون الذاتية الخاصة بهم ويصبحون شيئا لا طابع له ، وبذلك يفقدون رسالتهم ومسئولياتهم وأمانتهم في حمل رسالة الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي وتبليغ الإسلام للعالمين .

أما دعواه بأن العقل المصري هو عقل يوناني فلأنها من مكر المستشرقين الذين يريدون أن يقولوا : بأن المسلمين أخذوا منطق أرسطو في النهضة الأولى ، ومن هنا فلا مانع أن يأخذ المسلمون المعاصرون منطق الغرب الحديث ، علمانيته وإباحيته وماديته .

والحقيقة أن المسلمين لم يقبلوا الفلسفة اليونانية عندما ترجمت ، ورفضوها تحاماً وزيورها ووقفوا لها بالمرصاد جيلا بعد جيل ، حتى جاء الإمام الغزالي فكشف زيفها ثم كانت طعنة ابن تيمية لها في كتابه عن الرد على منطق أرسطو ، وكانت مواقف الشافعي وابن حنبل كلها مواقف معروفة تؤكد رفض المسلمين للفلسفة اليونانية وكشف زيفها .

وتلك أكلوبة كبيرة من الاستشراق في دعواه العريضة ، بأن المسلمين قبلوا منطق أرسطو ، أو أن المعتزلة كانوا تلاميذ اليرنان ، أو ما كان من زيف الفكر الباطني ، الذي قدمه دعاة الحارل والاتحاد ووحدة الوجود ، أمثال الحلاج فإن ذلك فكر مرفوض حاول طه حسين وأستاذه مانسيون دعوة إحيائه بإعادة طبع رسائل إخوان الصفا أو إحياء كتبهم .

ونحن الآن نقف على نفس الثغرة التي وقف عليها هؤلاء الأبرار ، وقد أعلنت حركة اليقظة الإسلامية رفضها للتبعية للفكر الغربي بشقيه وزيفت مناهجه وكشفت عن سمومه وأخطائه وعن تفرد المنهج الإسلامي بالتوحيد الخالص .

وقد كشفت الأبحاث زيف دعاوى طه حسين ، الذي كان عميلاً للتبشير ومدافعاً عن تبعية مصر للغرب . في التشريع والحكم ، بالإشارة إلى بند من معاهدة مونترو .

ولقد تحطم هذا الاتجاه كله وظه حسين حي وعاد طه حسين من جديد في سنواته الأخيرة يحاول أن يتلاءم مع حركة اليقظة ولكن هيهات :

١ - الامتيازات معاملة خاصة كان الأجانب (الأوروبيون) ومن في حكمهم يلقونها من الحكومة أثناء الاحتلال . فلما أمضيت المعاهدة التي تنص على الاستقلال ألغيت الامتيازات ظاهر الأمر ولكن بقيت بصورة أو أخرى في ظل حكومات العهد الملكي خاصة وأن المعاهدة نظمت قواعد وجود جند الاحتلال في مناطق معينة من أرض مصر يومئذ .

٢ - لم يمض طويل زمن على هذه الدعوة الإقليمية حتى قام الاتحاد الأوروبي - رغم اختلاف الأرومات واللغات - وقطع أشواطاً طويلة وأدرك الدكتور قبل وفاته بعض ذلك .

• • •

الفصل الخامس

التراث ورسائل إخوان الصفا

كان أكبر أهداف طه حسين تزييف التراث وكان موقفه من التراث الإسلامي واضحاً :

أولاً : موقف الاستهانة والامتنان له بإطلاق اسم القديم عليه والدعوة إلى فصله عن الفكر الإسلامي حتى يمكن ضربه على أنه أدب .

ثانياً : محاولة إعادة كتابته بمفهوم التفسير المادى للتاريخ ومنهج الجبرية التاريخية وإزالة طابع الإيمان والبطولة والتضحية الواضح في تضاعيفه وتحليله تحليلًا مادياً بحيث يجعل اندفاعه الإسلام إلى التوسع والفتح إنما كانت في سبيل المطامع المادية وهو نفس مفهوم المستشرقين .

ثالثاً : عدم التفرقة بين الرحى المنزل (القرآن) والحديث النبوى (السنة) ومختلف أنواع التراث الأخرى من منطلق فهمه المادى الاستشراقى بيشريه القرآن وأنه من كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : تركيزه على القول : بأنه لم يجد في الأدب العربى القديم ما يستحق أن يبعث ويبشر إلا أخبار المهجرين الذين ابتلى بهم الأدب العربى ويعنى بهم أبانواس ووالبة والخليع ومن إليهم . وقد عرض تلك الأخبار الآجنة والأشعار المساجنة في ثوب البحث العلمى باسم التجديد ، كأنما التجديد في الأدب شعار تحارب الفضيلة من ورائه ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن أولاً تلك الوسيلة تداخل عليها .

ولقد أخطأ طه حسين خطأً بيناً في وصف التراث الإسلامى بكلمة (القديم) تحقيراً له وامتناناً ودعوة إلى نبذه . ثم أخطأ مرة أخرى في إعادة كتابة بعض صفحات من التاريخ الإسلامى بمفهوم مضلل .

خامساً : إحياء التراث الزائف الذى صنعه الشعوبية والباطنية ، فقد حرص على إعادة إحياء بعض الكتب القديمة واعتبرها مراجع لدراسة المجتمع الإسلامى ، وقد ركز على كتاب (الأغاني) تركيزاً شديداً مع أن هذا

الكتاب بإجماع المؤرخين لا يصلح للغرض الذي قصد إليه لأنه إنما أُلِفَ للتسلية واللهو . ولكتابة فصول عن أهل الأغاني وهم شطيرة قليلة من المجتمع لا تمثل ولا تؤثر فيه تأثيراً صحيحاً ، وإنما كانت القوة الحقيقية المؤثرة في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة هي طائفة العلماء والفقهاء بينما كانت طائفة الشعراء المساجين وأهل الأغاني منبوذة ولا يعتد بها .

سادساً : قصد إلى إحياء بعض الكتب القديمة ذات الأثر الخطير في طرح مفاهيم الباطنية والمجوسية وغيرهم من الفرق الضالة وذلك باهتمامه بكتاب (رسائل إخوان الصفا) .

(٢)

إن مراجعة الأعمال التي تصدى طه حسين لإحيائها من التراث تكشف هويته وغايته ، فهو يطمح في إحياء كتب المعتزلة والفلاسفة والباطنية ، والنصروف الفلسفي، وهو تيار بدأه المستشرقون وسار فيه أستاذه ماسنيون الذي أحيا الفكر الباطني للعلاج ، وهو يتحدث عن التقصير في إحياء التراث ليمهد لما سماه الكشف الخطير على طريقته في المبالغة ، حيث يقول : (إنه استكشف كتاباً عظيم الخطر في تاريخ الفلسفة الإسلامية هو كتاب (المغنى) للقاضي عبد الجبار وهو كتاب يصور مذاهب المعتزلة في علم الكلام ، تعرض فيه هذه المذاهب عرضاً مفصلاً وتناقش مناقشة مفصلة أيضاً) . إذن فهذا هو المهم ، المهم نشر كتاب في فكر المعتزلة يضلل الناس عن مفهومهم في التوحيد الخالص ويردهم مرة أخرى إلى الشبهات التي أثبت منذ عشرة قرون ثم قضى عليها الغيورون من رجال التوحيد شأنه في هذا شأن دعوته إلى طبع رسائل إخوان الصفا وشعر أبي نواس .

وهكذا نجده في المجمع اللغوي ولجنة الثقافة بالجامعة العربية يهدف إلى نشر مثل هذه الكتب ويسمها (الخطيرة القيمة) وهو في لجنة الثقافة يهتم بكتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري وهو كتاب مضطرب طبعه اليهود في إسرائيل لأنه يبرئ عبد الله بن سبأ ، ولكن الدكتور طه لا يكشف وجهته فيجعله بين مجموعة الكتب الأخرى .

وكذلك كان عمله في طبع كتاب (البرهان) في وجهه البيان لأبي الحسن إصحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، فقد طبع جزءاً منه قدر ثلثه

باسم (نقد النثر) حرره وأخرجه مع عبد الحميد العبادي منسوباً إلى أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى عام ٣٣٧ هـ . وقد تبين أنه ليس كتاب قدامة وليس نقد النثر ولكنه كتاب البرهان في وجوه البيان وعند المقابلة بينه وبين كتاب (نقد النثر) وجدا متفقان في القدر المطبوع وتزيد المخطوطة مقدار ثلث الكتاب . كشف ذلك أحد الباحثين في مجلة الرسالة عام ١٩٤٨ ص ١٢٥٧ .

وإذا أردنا أن نعرف لماذا أولى الدكتور طه اهتمامه لهذا الكتاب لوجدنا أن قدامة هو تلميذ البيروني ونشر كتابه من شأنه أن يقدم للقراء صورة ما يريد طه حسين أن يبلغه من كذب وجهتان من أن البيروني كان لهم أثرهم في البيان العربي .

(٣)

كتاب رسائل إخوان الصفا

وقد كشف كثير من الباحثين أخطاء طه حسين في رسائل إخوان الصفا . فقد ألف الأستاذ محمود الملاح رسالة خاصة تحت عنوان (حقيقة إخوان الصفا) وتلخص أخطاء طه حسين منها الأستاذ عبد الأمر غاروش في عدة قضايا على النحو التالي :

١ - القضية الأولى :

قال طه حسين عن إخوان الصفا : إنهم مفكرون مستقلون يحاولون أن يصبغوا ما انتهى إليه المسلمون من آثار الأمم بصيغة إسلامية وكان من زعمائهم جماعة كالفارابي وابن سينا .

وقد أجاب الأستاذ الملاح عن ذلك الافتراء بقوله : إن هذه النحلة الهدامة تحاول صبغ الملة الإسلامية صيغة الأساليب الوثنية المتضمنة للشرك والعبودية والرجوع بالمسلمين إلى الوراء بعد أن ذاقوا نعمة التوحيد الحر الخالص .

٢ - القضية الثانية :

قال طه حسين : إن رسائل إخوان الصفا أشبه شيء بدائرة معارف فلسفية جمعت كل ما لم يكن يد من تحصيله للرجل المثقف في هذا العصر . هذه الرسائل ليست إلا مدخلا إلى رسالة جامعة هي خلاصة العلم وغاية

الغايات . هل يبعد أن يكون رجل كالغزالي قد تأثر إلى حد قريب أو بعيد بفلسفة هذه الجماعة ولا سيما حينما نلاحظ أنه نشأ فيلسوفاً وانتهى صوفياً ؟

ويقول الأستاذ الملاح : إن هذا الرصف صحيح لو خلا الموصوف مما أفسده الوصف بالتخاذه وسيلة رخيصة إلى خدمة جهة مادية مزيفة فيكون ضررها أكثر من نفعها . كما وأن الدكتور لم يقرأ الكتاب (الرسالة الجامعة) بالشروط التي ذكرها (وهي العناية والتحقيق والتحصيل) ، بل قرأها قراءة عابرة وترك الجذوع والجذور وترك القارئ واقفاً على أصابع قدميه حائراً .

أما الإمام أبو حامد الغزالي فقد كان معروفاً بمحاربة الباطنية فيبعد أن يتأثر بفلسفة الجماعة المذكورة . نعم يجوز أن يكون تأثر بفلسفتهم الظاهرية العامة التي كانت مشاعاً بين الفلاسفة أو كانت نقطة التقاء مشتركة وهناك فرق بين الفلسفة الظاهرية العامة وبين الفلسفة الباطنية الخاصة المستترة بالفلسفة الظاهرية العامة .

وبلاحظ أن الدكتور طه حسين قد اغتر بالآفاق ولم يتوغل إلى الانفاق : تلك الانفاق الخلزونية وعدم توغله فيها سبب له صدور حكمه على الرسائل : حكماً سطحياً ، وسرعان ما استأنف الدكتور البصير هذا الحكم بنفسه عن نفسه فنقضه بسهولة حيث قال : (إن هذه الرسائل لم يقصد بها الفلسفة من حيث هي ولا العلم من حيث هو وإنما أريد بها تكوين ثقافة معينة لنحو من السياسة معين فقيها من التأويل والدوران وفيها من الحيل والخبال ما يحسن الالتفات إليه والاحتياط منه .

إن الحكم الأخير الذي أصدره الدكتور لا يحتاج إلى تمييز . ولكن هل كان حكماً مقترناً بالجزم أم كان على سبيل الاحتياط والتحفظ ؟ لنقف قليلاً عند أقوال الدكتور طه وإطنايه ونهره حيث يرى أن هذه الرسائل كنز لم يقدر ثمنها إلا بعد معرفتها .

ولم يعلم صاحب المعاني البصير أنه كنز مملوء بالأفاعى والعقارب ، وإن قيمة الرسائل ، بخسة ، وهي بخسة الغاية والهدف ، ولذلك تبين أن الدكتور طه كان متموجاً في مقدمته وبحته ، ومع تطاول الأعناق المخدوعة إلى أحكامه الحاسمة في ميادين النثر والنظم وهو ممن يحسن ضبط (القذالك) وصقلها فهو صيقل لا فيصل .

(٤)

ويتصل بهذا موقف طه حسين من إحياء كتب الأدب العربى وتنقيتها من العبارات الجارحة والعبارات المكشوفة وذلك حتى لا تخرج حياة الشباب والفنيات ، ولكن طه حسين يعارض هذه الوجهة معارضة شديدة ، فكيف يمكن تنقية هذه الكتب وهو يقصد قصداً إلى تقديم شعر الإباحة والغلمة واستخراجه من بطون الكتب وترجمة القصص الداعر الفرنسى . إن هذا العمل يتعارض مع هدفه وغايته ومدرسته الإباحية وبذلك كان موقفه خطيراً من الشيخ محمد الحضرى حين نقح كتاب (الأغاني) .

يقول الأستاذ الحضرى : أما ما نقضته منه فلم يعد إحدى الثنتين : إما فحش صد عن الأغاني وجوه كثير من أهل الأدب فكانوا يشكون ذلك منه من أكثر كتب الأدب العربى وإنى معهم فى ذلك وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن إسحاق إذا روى شعراً يقول :

تركنا هنا بيتاً أو بيتين أو أكثر أفدع فيها

فليس الامتناع فى الفحش والإقذاع مقصوداً على أهل جيلنا ، بل كان لنا فيه سلف صالح نريد أن نستن بسنتهم .

ولما اشعار قلت فيها : لا تفيد أدباً ولا ترقى فكراً .

أنا رجل خيرت الناس وعرفت ما يفيد وما لا يفيد فاستصأنت بهذه الخبرة فى حذف ما حذفت .

ولكن الدكتور طه الذى هو حارس لكل الإباحيات التى فى الكتب القديمة والكشاف عنها والمجدد لها والمجرى لها على ألسنة تلاميذه فى كلية الآداب وقراءه فى السياسة يغضب لذلك أشد الغضب . إن من الطغيان على أبى الفرج أن يحذف فى كتابه شيئاً وضعه هو فى كتابه . وإن من الطغيان على قراء الأغاني أن تحرمهم شيئاً من الأغاني كان من حقهم أن يقرعوه .

نعم إن طه حسين اعتمد كتاب (الأغاني) مرجعاً لطلبته لاستخراج صورة رديئة منه يدعون أنها صورة المجتمع الإسلامى ، فكيف يفسد عليه الشيخ الحضرى هذه الغاية وهى إحدى الغايات الأساسية فى خطة التفریب الموكل بها ؟

* * *

الفصل السادس الطعن في الحكومة الإسلامية

إن كل المقدمات تؤكد مفهوم طه حسين للدين بأنه [ظاهرة اجتماعية] وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وأن الدين لا يستطيع أن يتقدم بالأدلة القاطعة على وجود الإله وهو أساس التدين . ولا ريب أن هذه النفس التي حاولت أن تصور القرآن بأنه كتاب بشري وتسخر من الرسول صلى الله عليه وسلم بترديد القول : بأنه لا بد أن يكون صفوة قريش وما إلى ذلك من إشارات على مدى طویل في كتاباته ، وكان أشد من ذلك خطراً قوله : بأن الإسلام لم يغير حياة العرب وأنه بقي على هامش حياة المسلمين . وأنه لم يستطع أن يفرض حياة المسلمين بين أصحاب الحضارات المختلفة . ومن ذلك قوله أن الإسلام أراد أن يطمس كل ما تقدم وأن يحوكل أثر للأديان السابقة وقوله أن عقلية مصر عقلية يونانية وأن الإسلام لم يعد تلك العقلية ، وقوله إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا يصلحان أساساً لوحدة السياسية وأنه ظل طوال حياته يلزم القديم بسخرية ويشكك فيه ، وما القديم في نظره إلا الدين ، وقد أقام مفاهيم على التهم والاستهزاء لكل جاد ، والشك والظن لكل صحيح . أما قوله وقت الشدة أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فإن مفهوماً يظل ناقصاً ، ولا يكفي لإثبات رجوعه عما قاله وتعليقه منافياً للإسلام ، فإن أهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته ورسله إجمالاً وهو لم يأخذ طعنه في القرآن إلا منهم وإنما كان يجب أن يقر بأنه يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين وأن كل منه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإن كل ما قاله منافياً أو معارضاً لذلك فهو خطأ وينزع عنه .

فإذا مضينا نستعرض رأى الدكتور طه حسين في الشريعة الإسلامية وجدناه هو رأى متعصبى المستشرقين أمثال جولد زيهر ، وشاخت وغيرهم فهو يقول : ولكننا لا نشك في أن الفقه الإسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى قليلا أو كثيراً سواء علم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا ، ذلك لأن البلاد الإسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقواتهم دهرأ . ولأن هذه القوانين قد درست درساً

مزدهراً في الشام والجزيرة ومصر ، فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هذه القوانين آثاراً قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها وأن يتكون من هذه الآثار والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب لم يهدموا كل شيء وإنما صيغوا أكثر الأشياء التي وجدوها بالصيغة الإسلامية فليس غريباً بل ليس من شك في أن كثيراً من أحكام الفقه الروماني ، وقد اصطبغت بالصيغة الإسلامية دون أن يشعر بذلك الفقهاء .

وهذا الكلام فيه مغالطة واضحة ، وفيه رغبة في تنقيص عظمة الفقه الإسلامي والتكبر عليه وهو من تعتميات الدكتور طه حسين التي يسوقها بغير دليل ، وهي من النظريات الاستشراقية المطروحة والتي ثبت فسادها ودحضها كثير من أعلام الإسلام ، فإذا ذهب نحو رأيه في أن الإسلام دين الدولة وأن الإسلام هو منهج حياة ونظام مجتمع وجدنا جنوحاً واعراضاً . فطه حسين إذا كان مسلماً فهو مسلم بمفهوم اللاهوتيين الذين يرون الدين علاقة بين الله والإنسان ، على نحو مفهوم المسيحية ، وإذا كان مؤمناً فهو مؤمن بمفهوم التراتيل وموسيقى الكنائس ، وهو يرى أن نص الدستور المصري على أن الإسلام دين الدولة هو مصدر فرقة بين المسلمين ، ولا يرى في الإسلام إلا إقامة الصلوات وصيام رمضان وأداء الحج ، فسواء في ذلك أنص الدستور أم لم ينص على أن الإسلام دين الدولة (على حد تعبيره في مجلة الحديث الحليية) شباط سنة ١٩٢٧ . وهو يرى (أن هذا النص لا يزيد عن تقرير الواقع من أن ملك مصر يجب أن يكون مسلماً وأن شعائر الإسلام يجب أن تقام فلا تغلق المساجد ولا يعطل الحج ولا ينقطع إطلاق المدافع في رمضان ولا يلغى الحفل بالمحمل ، ولا بالمولد النبوي) أرايت إلى هذه السخرية البالغة التي تحاول أن يقصر بها الإسلام على هذه المظاهر .

وهو يرى أن في الدين من التسامح ما اضطرت معه حكومة مصر التي تتعامل مع المصارف وتنظم الربا وتبيح ألواناً من المعصية ، ويود طه حسين أن يجعل من النص في الدستور بكفالة حرية الرأي أن يتيح للناس أن يلحدوا « وهو يركز كثيراً على هذه النقطة لأنه يريد أن يحمي دعوته إلى الإلحاد

والإباحة من أن يناله الاتهام ويسخر من أن الإسلام يعنى أن يكون دين الدولة وأن تكون الدولة « إسلامية بالمعنى القديم حقاً » .

ويحاول أن يثبت أن هذا النص يكلف الدولة بأن تضرب على أيدي الملحدين لأنها إن فعلت ذلك فلنبا تحو حرية الرأي عموماً .

ثم يذهب إلى القول بأن رجال الدين في مصر كرجال الدين في أوروبا وأن من الضروري اتخاذ أسلوب الغرب الذي اتخذه مع المسلمين ومع الإسلام أي أن يكون العلماء أشبه بالقساوسة لا يدخل لهم في الحياة المدنية ، وأن لا يكون للإسلام رأى في التشريع أو الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة ، وعلى هذه المعاني المتركة يكون موقف الدكتور طه حسين من الحكومة الإسلامية حين أراد هدمها بكتابه (الفتنة الكبرى) فهو يحاول أن يقرر في هذا الكتاب فساد الخطة الداعية إلى الحكم بكتاب الله التي كانت قد نمت واستحصدت في هذه الفترة من الحياة الاجتماعية المصرية .

يحاول أن يقرر في كتاب (الفتنة الكبرى) :

أولاً : أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر إنما كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً « أ . هـ .

إذن فالخلافة الإسلامية (تجربة توشك أن تكون مغامرة) والصحابة مغامرون أمثال هتلر وموسلينى ، فأبو بكر وعمر من جملة هؤلاء المغامرين . أما أن وحى السماء قد رسم الطريق لأبي بكر وعمر فتنى عن حكمهما صفة التجربة وأن الرسول قد رباهما وأعداهما في مدرسته فأبعد عنهما صمة المغامرة ، فذلك ما لم يفقهه الدكتور طه حسين .

ثانياً : يناقش الدكتور طه حسين طبيعة الحكومة الإسلامية على ضوء التقسيمات الحديثة فيبنى عنها صفة الديمقراطية . ويبقى عنها صفة النظام الفردى العادل ويقارن بينها وبين حكومة قنصل الرومان .

ويشكك في قدرة هذا النظام على البقاء ويتساءل هل تتغير إذا تعثرت الظروف التي أحاطت بنشأته تم بتطوره .

ثالثاً : يدعى أن المجتمع الإسلامي كان ينقصه النظام المكتوب الذي يبين الحدود والحقوق والواجبات ، ويرى من هذا إلى القول بأن القرآن ناقص فهو لم يعرض لسياسة الحكم وكذلك السنة ويحاول أن يتهم الإمام على بأنه حين قال عند مبايعته بالخلافة (اجتهد في رأي ما استطعت) أن ذلك مصدره نقص في القرآن وغياب عن السنة وحاشا لله أن يذهب على إلى ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في تفسيره ، فالقرآن عنده حقيقة كاملة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في شؤون الحياة .

ورأيه فيما أسماه افتقاد النظام المكتوب أو الدستور في الحكومة الإسلامية قريب مما قاله على عبد الرازق في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) .

وأخيراً : يوهن من عزائم المسلمين الساعية إلى إعادة الخلافة وينبههم إلى أن المسلمين الأوائل تنكبوا عن طريقها منذ أمد بعيد واتبعوا طريق الملك الذي يحل مشكلات الدنيا بالدنيا ، فالخلافة تحتاج إلى أولي عزم من الناس وأين أولو العزم الآن وكأن لسان حاله يخاطب مسلمي عصره ويقول لهم : عليكم أيها المسلمون أن تدعوا التفكير في الخلافة وأن تطلبوا السعي إليها وأن ترضوا بحكم الديمقراطية ، هذه هي النتيجة التي يصل إليها في ختام الجزء الأول من (الفتنة الكبرى) .

هذه النصوص الثلاثة (عن غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر) ويظهر عداء الدكتور طه حسين واضحاً للحكومة الإسلامية وللشريعة الإسلامية في قوله :

(لقد اعتزمتنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبياً في الحكم ونسير سيرتها في الإدارة ونسلك طريقها في التشريع ، التزمنا هذا كله أمام أوروبا ، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المنتهضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .)

هذا الكلام معناه العداء والتهديد الخطير الذي يريد أن يلزمنا به الدكتور

طه حسين أن نظل في هذه التبعية العمياء لمنهج أعلن أصحابه فسادَه وعنى عليه الزمن .

(٢)

ويلخص (الأستاذ محمد النايك) موقف الدكتور طه حسين من الحكومة الإسلامية فيما يلي :

أولاً : تشبيه نظام الحكم الإسلامى بالنصرانية التى تعرف الحكم كدين فيزعم أن هناك شبهاً بين نظام الحكم الإسلامى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ونظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

المهدف أن يقول إن النظام الإسلامى لم يكن نظاماً سماوياً وإنما كان نظاماً إنسانياً تأثر بالدين ، ومن ذلك قوله :

إن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية وليست تطبيقاً للإسلام وأن السبئية (حزب عبد الله بن سبأ) كانت أسطورة .

وإن أصحاب رسول الله اقتتلوا على الدنيا فنافسوها وثقاتلوا عليها ، ويعتقد الدكتور طه حسين أن نظام الخلافة قد أخفق وتجربة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل .

يقول : (الفتنة الكبرى ١٥٥/٢) .

ليس من شك أن علياً قد أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ثم هو لم يخفق وحده وإنما أخفق مع نظام الخلافة كله وظهر أن الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها ، فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات الذى تستدل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة . لفلة قليلة من الناس (أى ظلم أن يقول الدكتور طه حسين إن نظام الخلافة كله أخفق ، فما أخفقت الخلافة ، وما كان لها أن تخفق ، وقد استمرت طيلة عهد بنى أمية (حماة الإسلام وقادة الفتح) وعهد بنى العباس ولم يزغزغها غزو التتار ، ولا كيد الباطنية والحروب الصليبية ، وبقيت مصدر عزة للمسلمين وقوتهم ، أكثر من ثلاثة عشر قرناً

حتى الحرب العالمية الأولى حين تأمر عليها بهود الدوثة والغرب ونصارى العرب والملاحدة من أبناء المسلمين . وفي غيبة الخلافة عاد الصليبيون إلى ديارنا فاتحين ومستعمرين واغتصب اليهود فلسطين ، والخلافة اليوم مطلب إسلامي ينشده المسلمون في مختلف بقاع الأرض وهي آتية إن شاء الله ويؤمنه المؤمنون .

ثانياً : يرى طه حسين أن نجاح الحكم الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر تجربة جريئة يوشك أن تكون مغامرة . ولو حكم عمر مكان عثمان لتعرض للمثل ما تعرض له عثمان .

يقول في كتاب (الفتنة الكبرى) :

(لقد كانت الخلافة الإسلامية تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه سبق بها هذا العصر) .

وهو يرد العدل والحرية والمساواة في عهدي أبي بكر وعمر إليهما ، ولم يكن في نظره آتياً من الإسلام نفسه بل من مواهب وشخصية الرجلين ، ويرى أن جهود الشيخين في تحقيق العدل كانت محدودة .

(راجع دراسات محمد النايف عن السيرة — مجلة المجتمع)

• • •

خاتمة البحث قضيتان باطلتان : الأثر اليونانى والجبرية الإجتماعية

أعزم الدكتور طه حسين بقضيتين كبيرتين باطلتين :

القضية الأولى :

القضية الأولى : أن العقل العربى القديم تكون بأثر الفلسفات اليونانية ، ومن أجل ذلك فإن العقل العربى الحديث يجب أن يتكون بأثر الفلسفات الغربية وقد ادعى فى هذا الأمر دعاوى كثيرة باطلة :

الأول : أن العقل العربى الإسلامى إنما أثمر وأنتج حين اتصال بالعقل اليونانى بل امتزج به .

الثانى : أن المسلمين كونوا عقلهم من عنصرين أحدهما التراث القديم والآخر ما أخذوه عن غيرهم من الأمم .

الثالث : دعواه بأن العقل الإنسانى عقل واحد وأن العقل العربى جزء منه .

لم يكن طه حسين مبالغاً فى دعوى من دعاواه ، كبالفته فى دعوى الأثر المترتب على اتصال الفكر الإسلامى بالفكر اليونانى بعد عصر الترجمة ذلك أن الفكر الإسلامى كان قد تكون واكتمل ونضج فى جميع مناحيه من لغة وفقه وعقيدة وأخلاق بنتيجة ذلك الفيض القوى الذى ألقاه إليه القرآن الكريم والسنة النبوية والتى لم تظفر أمة من الأمم بمثلها فى القديم والحديث ولم تكن أى أمة فى هذا العصر من يونان أو هنود أو فرس تمتلك مثقال ذرة منه ، هذا العطاء الربانى الكبير الذى جاء به القرآن والسنة ، والذى صنع الفكر الإسلامى الذى كان قد اكتمل قبل أن يختار النبي صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى ، نجد هذا الجزء على الحق يدعى دعواه تلك العريضة الباطلة حين يقول : إن الفكر الإسلامى ما نما ولم يصبح قادراً على العطاء إلا بعد اتصاله بالفكر الوافد ، ذلك أن هناك حقيقتين لا لبس فيهما :

الأولى : أن الفكر الإسلامى والعقل الإسلامى قد تشكل قبل عصر الترجمة أما الحقيقة الأخرى : فإن الفكر الإسلامى لم يستقبل هذا الفكر الوثنى المترجم إلا بحذر شديد ولم يأخذ منه إلا فى مجال العلوم السائلة حين راجعها

وصحح منها الكثير ونقل البشرية نقلتها الكبرى حين أنشأ الإسلام المنهج التجريبي ، ولم تكن تعرفه اليونان من قبل .

أما بالنسبة للفلسفات فقد وقف منها موقفاً حذراً وردّها جميعاً وكشف عن اختلاف منهج اليونان عن منهج الإسلام في مفهوم المجتمع والدولة والحرية والتعامل بين الناس ، فقد كان هناك خلاف عميق بين مذهب العبودية اليوناني الروماني وبين مذهب المساواة الذي قدمه الإسلام ، إذن فأين هذا العطاء وأين هذا التعليل الذي يدعيه الدكتور طه حسين حين يصر في افتراء وكذب وضلال على أن العقل الإسلامي لم يشكل إلا بعد اتصاله بالعقل اليوناني، بل إن هناك من الآثار المكتوبة فعلاً ما يثبت رفض المسلمين لمنهج اليونان الفلسفي والكشف عن تعارضه مع منهج الإسلام وخاصة وهناك ذلك الفارق العميق، فارق المادية والإباحية والوثنية الواضح في كتابات أرسطو وأفلاطون وغيرهم وهو ما يرفضه الإسلام ويعارضه .

ولكن الدكتور طه حسين يدعو هذه الدعوة بمكر شديد ليحاول القول : بضرورة متابعة المسلمين في العصر الحديث للفكر الغربي الذي هو وليد فكر اليونان الذي تابعوه في الماضي .

والقضية على هذا النحو منقوضة تماماً ، وهو بناء باطل على باطل فسا كان المسلمون قد قبلوا الفكر اليوناني حين ترجم إليهم ولكنهم رفضوه وما قبلوه من معطيات العلوم فقد أصلحوه وكشفوا أخطائه قبل أن يقبلوه . أما الفلسفات وهي عند اليونان علم الأصنام فقد رفضوها كلية ووقف الأئمة : ابن حنبل والشافعي وابن تيمية والغزالي في مواجهتها في كتابات صريحة واضحة ، بل إن الإمام ابن تيمية كتب كتابه منطق القرآن في الرد على منطق أرسطو .

كذلك فقد رفض علماء المسلمين مفاهيم أرسطو وأفلاطون في العبودية وإقرارها على الطبقات العاملة وإقرار الرق واعتباره حجر الزاوية في بناء الحضارة اليونانية ثم الرومانية بعد .

ولذلك فإن دعوى طه حسين بأن ما أخذته المسلمون من غيرهم من الأمم هو أحد عنصريّن من عناصر عقولهم الذي كونه حتى القرن الرابع من الهجرة زيف ودجل .

أما إشارته إلى القرآن والسنة بأنهما التراث القديم فهو تعبير مضلل فلإن

البشرية ما كانت تملك قبل الإسلام هذا التراث الكريم ، أما إذا كان يريد أن يصوره على أنه تراث اليهودية والمسيحية والوثنية على حد تعبيره في مواضع أخرى فهو ادعاء باطل .

كذلك فهو ليس محققاً في الدعوى بأن العقل العربي في تعبيره أو أن الفكر الإسلامي في تعبيرنا هو جزء من الفكر الإنساني بمعنى أنه مختلط به . فنحن نعرف أنه قبل نزول الإسلام كان الفكر الإنساني قد أصبح فكراً بشرياً بمعنى الكلمة ، وأن معطيات الأديان السجوية قد حُرقت واضطربت ودخلتها شكوك وإضافات كثيرة حُرقت عن أصلها الرباني ، ومن هنا فإن القرآن حين نزل والسنة حين جاءت والفكر الإسلامي حين تكوّن ، فقد كان ذلك فكراً متميزاً قائماً على التوحيد الخالص وأنه ظل منذ ذلك الوقت إلى اليوم له ذاتيته الخاصة التي تفصله عن الفكر البشري وأنه على هذا النحو قد أعطى البشرية مفاهيم جديدة في الحرية والعدل والرحمة والإخاء الإنساني لم تكن تعرفها حضارات اليونان والرومان والفرس والفراعنة من قبل وإنه كسر قيد الوثنية وعبادة الأصنام وكسر قيد العبودية البشرية .

ولذلك فإن طه حسين يخطئ كل الخطأ حين يتصور أن العقل العربي هو جزء من الفكر البشري القائم على أساس الوثنية والمادية والإباحية مما عرفه اليونان والرومان والفرس والفراعنة .

لقد نشأ الفكر الإسلامي نشأة مستقلة منفصلة قائمة على القرآن الكريم نفسه وأنه لم يتصل بالفكر البشري أو بالأديان السابقة إلا بعد أن أتم الله تبارك وتعالى له النعمة : « اليوم أكملت لكم دينكم » وهو بعد ذلك لم يزد شيئاً مما عرف من الثقافات أو الفلسفات ، بل لقد كان المسلمون غاية في اليقظة والحرص على تحريره من التبعية وعلى كشف فساد الفكر البشري السابق للإسلام ، والحيلة والتحرر من احتوائهم لمفهومهم الناصع الأصيل .

القضية الثانية : وهي نظرية أن الأدب والآراء على اختلافها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أي أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة وأكبر من أن تكون أثراً من آثار الفرد التي أنشأها ، فالجماعة هي المؤثر الأول في ظهور الآداب والآراء المختلفة ، ومن هنا فإنه يرى أن الفرد ظاهرة اجتماعية ، هذا هو المنهج الاجتماعي الغربي الذي دعا إليه البرودي دوركايم والذي عرفت به المدرسة الاجتماعية الفرنسية والذي تتلمذ منه على ماركس ، والذي حاول

طه حسين أن يطبقه ليس في مجال الأدب فحسب ، بل في مجال التاريخ والاجتماع ، وأخذ به في كتاب الفتنة الكبرى .

لقد جاءت هذه النظرية الاجتماعية في الغرب مواجهة للنظرية الفردية واستمدت مفهومهما من الدارونية والمفاهيم التي تصور الإنسان بأنه حيوان خاضع لشهوتي الطعام والجنس على النحو الذي قالت به الماركسية في الأول والفردية في الأخير .

ولقد كان ذلك ترديداً للصراع الذي دار في الغرب عن هل الإنسان أثر من آثار البيئة (أى إخضاع الفرد لآثار بيئته) أم إن الإنسان هو المؤثر في المجتمع (أى الاعتداد بالفرد المتفوق الممتاز) ؟

ولقد كان موقف الإسلام واضحاً من كلا النظريتين ، فالإسلام لا يقر خضوع الفرد للبيئة ولا خضوع البيئة للفرد ، وإنما يرى أن بينهما تكاملاً وأن ذاتية الإنسان لا يمكن أن تمتحن ، كما أن الإنسان قادر على الخروج من الذاتية الأنانية إلى الغيرية الجماعية ، فالإسلام لا يقر الجبرية ولكنه يرى أن الإنسان يمتلك إرادة حرة هي موضع المسؤولية وهو يوجه فيها إلى العمل الصالح ويقرر الالتزام الأخلاق لهذه الإرادة الحرة .

إن هدف طه حسين هو إلغاء المسؤولية الفردية وإثارة مشاعر الناس للاندفاع وراء الشبهات والموبقات بأن هذه مسؤولية المجتمع وأن الفرد خاضع ذليل وتابع لا رأى له ، وهي وجهة الصبيء نية العالمية التي أذاعها فرويد وسارتر من أجل تدمير الأجيال وهدم معنويات الأمم . أما نحن في الإسلام فلا نقر هذه الواجهة أبداً ونرى المسؤولية هي مسؤولية الفرد على عمله ، وأنه قادر أن يغير إلى الأحسن ، وقادر على أن يتحاشى في أخطاء المجتمع وفساده . وأنه مسئول عن عمله مسئولية كلية : « وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » .

ماذا تعطى هذه الدراسة ؟

إنها يمكن أن تعطى مجموعة من الحقائق الهامة :

أولاً : إن طه حسين لم يتوقف يوماً واحداً عن هدفه وغايته منذ أن عاد من أوروبا عام ١٩١٩ إلى أن توفي عام ١٩٧٢ وكانت القوى التي صنته توالى دفعه إلى شتى الميادين . وقد أشارت السيدة سوزان إلى ذلك حين قالت : إن (ماسينون) كبير المستشرقين الفرنسيين كان لا يمر بالقاهرة مشرقاً أو مغرباً إلا وينزل لديهم ليتابع العمل الموكول إلى هذا الرجل ، سواء أكان في الجامعة . أم في الوزارة . أم في اللجنة الثقافية بالجامعة العربية ، أم في الجميع اللغوى . وأن المستشرق جبّ كان يقول أن طه حسين يعرف كيف يتقدم ما يرمى إليه .

وإن طه حسين كان خلال ذلك لا يكف عن الدعوة إلى أشياء متعددة : هدم الأضرحة ، الترجمة لكل سموم الغرب ، الفكر اليونانى ، إحياء التراث الباطنى والشعوبى العربى ، الغمر للإسلام كنظام حكم ، السخرية بالصحابة واتهامهم بأنهم مجموعة من السياسيين المحترفين ، وأنه كان أشبه بالفأر الخبيث الخائض ، يبرز رأسه فإذا وجد الجور خالياً اندفع . وإذا وجد الرقابة قائمة عاد فاخفى حتى تبدأ الأمور فيعاود نفث سمومه .

وعندما رأى أنه لا يخطو بالقوة اللازمة انضم إلى حزب الأغلبية ليكون أكثر قدرة على العمل ، ولما وصل إلى الوزارة حقق جميع أهدافه ، ولما جاءت حركة الجيش اتصل بها وناقضها ، وقال لهم عن الانقلاب : إنه ثورة حتى يفسحون له في الحديث عما يطمع وقد بلغ في ذلك الغاية فيما يطمع ، وقد بلغ إلى تلك الغاية إذ جعله رئيساً لتحرير الجمهورية ، فضرب ضربه الكبرى التي أسماها الخطوة الثانية وهى العبارة الظاهرة لكلمة إلغاء الأضرحة وحقن لسادته وأوليائه في هذه المرحلة الكثير .

وقد ظلت تلك الإيماءات بين طه حسين وتلاميذه وقتاً طويلاً فالعلم بمعنى الفلسفة المادية عهد بينهم ، والقرآن أدب ينتقد وهو عمل بشرى ، الدين لا يستطيع أن يثبت وجود الله .

ثانياً : إن طه حسين وجد صلاية وقوة وثباتاً في مواجهة سمومه وشبهاته ليس من مؤسسة الأضرحة وحدها ، بل ومن حركة اليقظة الإسلامية أيضاً

التي كانت قد نمت وازدهرت ، ولقد انتاشته أقلام المؤمنين بالإسلام ، والغيورين على دعوة الله من كل مكان بقوة ، فكشفت زيفه وما خذى عندما كشفت له الحقائق التي ربما كان يعرفها أو غافلاً عنها ولكنه كان يسعده أن يولد على هذا النحو الذي رآه القارئ في هذه المحاكمات ، وكان يستحب تلك الصرخات العالية توجه نحوه فلقد كان يستفيد من ذلك عند أصحابه الذين كلفوه ، ولعله كان يحصل من ذلك على أجر ، ولعله كان يكشف لهم مدى قدرة الجبهة الإسلامية على مواجهة سمومه ، ولكنه كان يخرج من المعركة مجلوداً وقد تركت الشياطين في جسمه قروحاً دامية ، ولكنه كان يصمت إزاء ذلك صمتاً طويلاً .

ولم يغفل عنه المثقفون المسلمون يوماً وما كانت الجماهير تثق بشيء مما يقول ، بل كان مرفوضاً كرفض سلامة موسى وعلى عبد الرازق ، وتوفيق الحكيم ، وساطع الحصري ، وحسين فوزي ، ولويس عوض وهو شيخهم جميعاً . ولقد كانت هزيمة طه حسين والكشف عن سمومه هي أخطر طعنة وجهت لهذا التيار .

لئلاً : إن تاريخ مصر الفكرى والسياسى وتاريخ الدعوة الإسلامية في هذه الفترة منذ سقوط الخلافة حتى سقوط القدس بكل تياراتها وآثارها وأخطارها لا يمكن فهمها إلا بدراسة طه حسين ، فهو عمود التغريب الأساسى في مصر والبلاد العربية وهو المحرك الحقيقى لكل التيارات الشعبوية والماركسية في هذه الفترة .

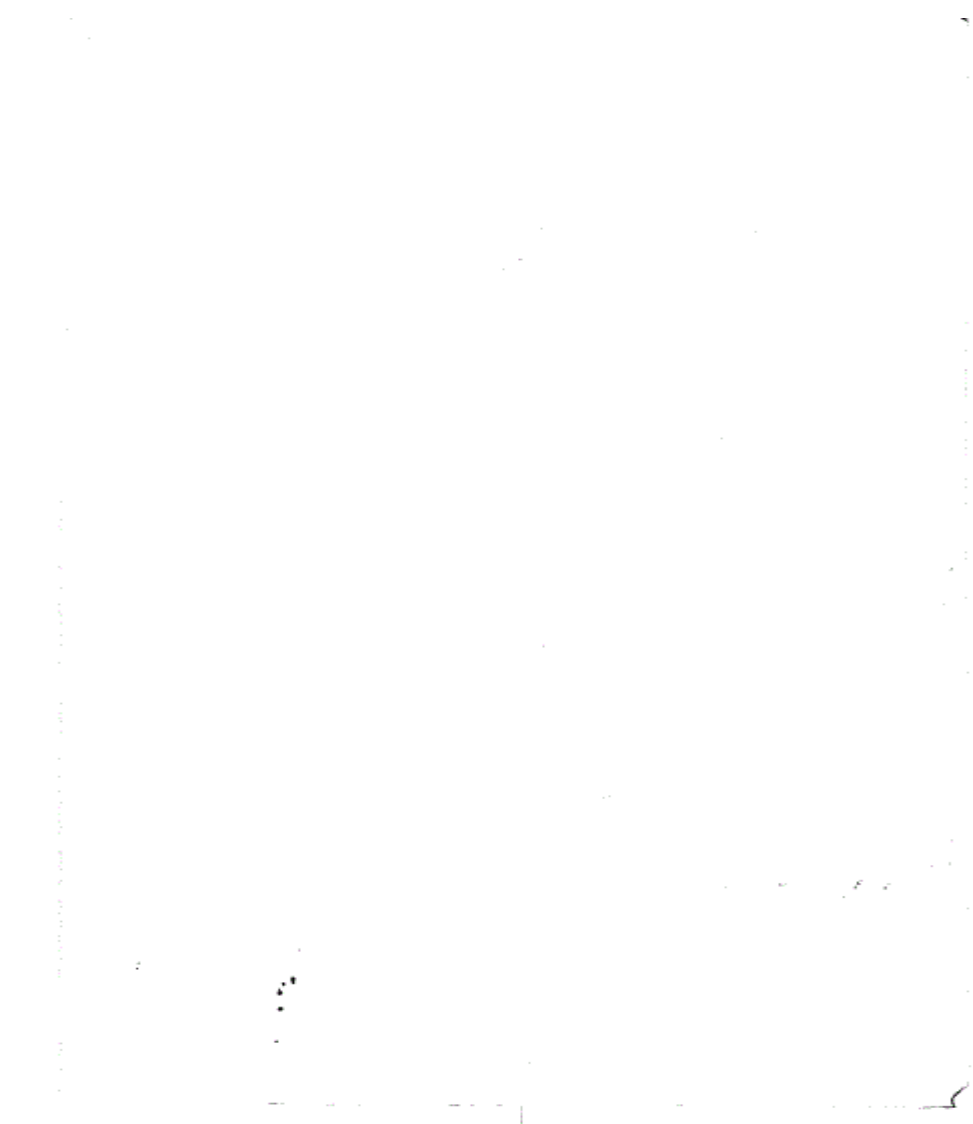
رابعاً : قام مذهب طه حسين على عدة عوامل أساسية :

- ١ - المذهب مستعار . ٢ - التناقض مستمر . ٣ - الهوى أساس البحث . ٤ - الشك والتشكيك في كل شيء . ٥ - المبالغة . ٦ - التغويه .

ومع العجب أن رجوع كل كتاب التغريب عن آرائهم ما عدا طه حسين الذى ظل مندفعاً ، فقد فتح الطريق أمام التفسير المادى للتاريخ الاقليمية ، الفرعونية ، وأمام الشيوعية ؛ ومع الأسف أن كل النظريات التي حمل لواءها سقطت قبل مماته . هذا وبالله التوفيق .

غرة محرم سنة ١٤٠٤ هـ .

أنور الجندي



فهرس الكتاب

المؤلف: سوس

الصفحة

الباب الأول

٧	مداخل إلى البحث
١٧	الأدب العربي واللغة العربية
١٩	الفصل الأول : منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين
٢٩	الفصل الثاني : الأدب العربي - تاريخه ونقده
	الفصل الثالث : أدب أدب المجان والجنس والإباحة - حديث
٤٧	الأربعاء
٦٨	الفصل الرابع : أخلاقية الأدب
٧٥	الفصل الخامس : الترجمة
٧٩	الفصل السادس : نقد الشعر
٨٥	الفصل السابع : القصة
٩٣	الفصل الثامن : اللغة العربية
١٠٧	الفصل التاسع : النحو
١٢١	الفصل العاشر : الأثر الإغريقي واليوناني في الأدب العربي
١٣٣	الفصل الحادي عشر : كتابا (الشعر الجاهلي) و (الأدب الجاهلي)
	الباب الثاني
١٦٣	تاريخ الإسلام والسيرة
١٦٥	الفصل الأول : القرآن الكريم
١٨١	الفصل الثاني : السيرة
١٨٢	١ - على هامش السيرة
١٩١	٢ - الشيخان
٢٠٠	الفصل الثالث : تاريخ الإسلام
٢١٢	١ - الفتنة الكبرى
٢٢٢	٢ - على وبنوه

الصفحة	الموضوع
٢٣١	الفصل الرابع : الإسلام
٢٤١	الفصل الخامس : التراجع
٢٤٤	١- الأيام
٢٤٩	٢- مع المتنبي
٢٥٧	٣- فلسفة ابن خلدون
٢٦٧	الفصل السادس : الدراسات الصهيونية (اليهود والأدب العربي)
الباب الثالث	
٢٧٩	الفكر الإسلامي
٢٨١	الفصل الأول : التربية والتعليم والثقافة
٣٢٠	الفصل الثاني : الخطوة الثانية والقضاء على الأزهر
٣٣١	الفصل الثالث : الفرعونية وحضارة البحر المتوسط
٣٤٣	الفصل الرابع : مستقبل الثقافة
٣٥١	الفصل الخامس : التراث ورسائل إخوان الصفا
٣٥٧	الفصل السادس : الطعن في الحكومة الإسلامية
٣٦٣	الفصل السابع : خاتمة البحث - قضيتان باطلتان : الأثر اليوناني والجبرية الاجتماعية

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٤ / ٧٣٠٨
الترقيم الدولي ٢- ١٠٤ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النشر للطباعة الإسلامية
١٢ شارع - القاهرة